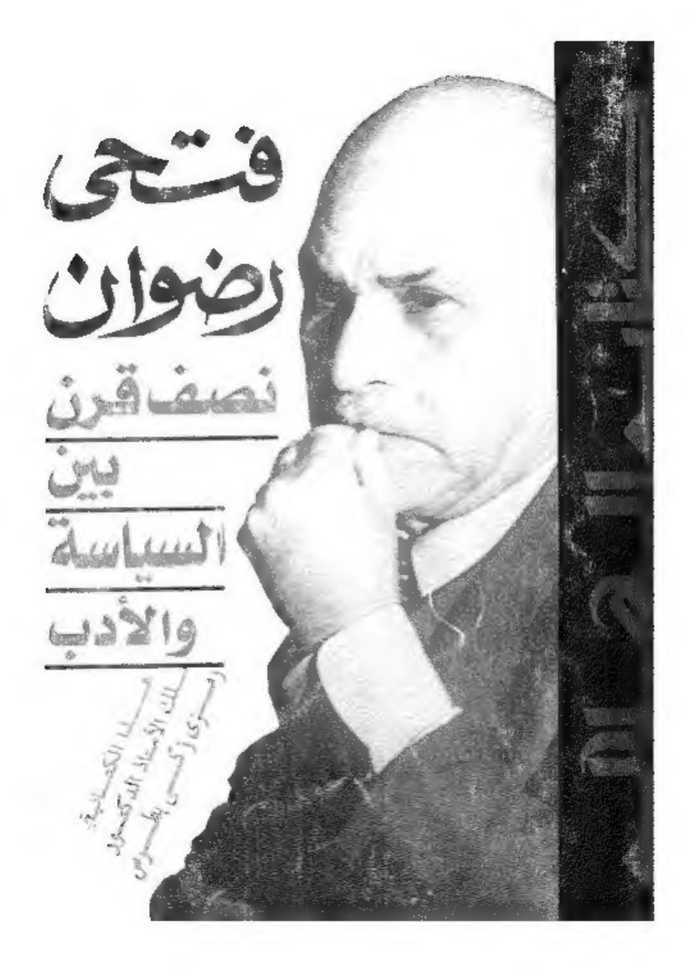

فتحى
رضوان
نصف قرن
بين
السياسة
والأدب
الأستاذ الدكتور
رمزى زكى بطرس

سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٦ - شعبان - ديسمبر ١٩٩٨

NO - 576 - DEC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرش

سوريا ٢٥٠ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينارات - الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي / أبوظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

فتحى رضوان

نصف قرن بين السياسة والأدب

●

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي زكي

القاهرة

يصدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى العاشرة على رحيل فتحي رضوان في ٢ أكتوبر ١٩٨٨

الغلاف للفنان

حلمي التوني

أنا

لندع التواضع جانبا لتعرف كم «أنا» خطير !!.

فأنا «عينة» للمصرى العربى الفرعونى .

وللمسلم المجدد المحافظ ، والشرقى الغربى ، الأسيوى الأفريقى .

وللوطنى المسالم المؤمن «بالغاندية» والمقاومة «السلبية» .

والوطنى الثائر المعجب بالطريقة الأيرلندية والمقاومة «الايجابية» .

وللمحامى «المتهم» ودارس القوانين الذى لا يرضى عن أكثر القوانين.

واليسارى الذى يبلغ انحرافه فى رأى السفارة البريطانية الى حد «اللينية والاستالينية» .

ولليمينى الذى تبلغ معه الرجعية الى حد الجمود ومناصرة .. «الرأسمالية» .

أنا المصرى الذى أعيا «لغزه» الدارسين والباحثين ، و«الطلسم» الذى أعجز أهل اليسار وأهل اليمين .

أنا المسلم الذى يلبس من أوربا وكالوربا ويقرأ الأوربيين وكالأوربيين، والذى أراد الزمان أن يقطع صلته الروحية بأعلام المسلمين وبتراثهم الثمين .

أنا وارث العباقرة والفحول ، وأنا المستقبل «المجهول» .

فهل عرفت من أنا ؟.

فتحى رضوان

المصور : ١٩٥١/٧/٢٠ ص ١٦ .

تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

الباب الأول :

بين الفكر والتاريخ

فلنحارب الاستعمار
بأنواعه الثلاثة

الثقافة القومية هي خط الدفاع الأول !

الاستعمار مرض له كل خصائص المرض وأعراضه ، لا يختلف عن أمراض البدن ، إلا أن هذه الأمراض تصيب فردا ، والاستعمار يصيب أمة . وقد بلغ من فرط التشابه بينهما، أن الأمراض تأخذ في بعض الأحايين ، صورة الأوبئة ، التي تعم بشرها الآلاف من الناس في وقت واحد ، وأن الاستعمار يأخذ نفس الصورة في بضع الحقب من التاريخ، فاذا بموجته في هذه الحقب*تطم وتعلو ، فتقع الأمم فرائس وضحايا له، الواحدة في أثر الأخرى ، وكأن ميكروبا انتقل من إحداها الى الأخرى بسرعة البرق . وقراء التاريخ يذكرون مثلا أن دول شمال أفريقيا فقدت استقلالها في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ومن أخرت أصابته بهذه النكبة ، لم يطل حظه في الاستمتاع بالحرية .

وكما يتعرض جسم الانسان للمرض حينما تضعف مناعته ، تتعرض الأمم للاستعمار حين تضعف مناعتها .

ولقد كشف العلم الحديث ، أن في الطعام عناصر معينة ، هي سر قدرة هذا الطعام على التغذية ، وبناء الجسم ، وهي ما نسميه الآن

---

* الهلال - يناير ١٩٥٦

«الفيتامينات» ، وفي حياة الأمة الروحية والثقافية «فيتامينات» لازمة لها، إن أعوزها الحصول عليها ، أصابها الهزال ، وتعرضت للعلل ، وفقدت مناعتها فما هي تلك الفيتامينات في الحياة القومية؟ .

إن الإنسان مفطور بطبعه على الاحساس بالماديات بأسرع مما يحس بالمعنويات ، ولذلك فان أكثر الناس يتصورون أن الأمم القوية هي الأمم الغنية أو الأمم ذات الجيوش الضخمة ، وهذا وهم كبير ، فقد اطلعنا التاريخ على أمم كثيرة ، هوت عن عرش مجدها ، وهي في ظاهر الأمر في عنفوان قوتها ، ورأينا على النقيض أمما كثيرة ، تبدو صغيرة، وهي في واقع الأمر فقيرة ، ومع ذلك أثبت نزالها لمن هو أقوى منها وأكبر في حساب المادة والثروة أنها هي الأكثر قوة .

***

فلقد نازل اليابانيون الروس سنة ١٩٠٥ فانزلوا بهم هزائم منكرة ، وكانت روسيا بالنسبة لليابان ، كالفيل الضخم بالنسبة الى حصان صغير .

وأنزلت اليونان الهزائم في الحرب العالمية الأخيرة بايطاليا ، وتعداد سكان اليونان لا يزيد على ثلث سكان ايطاليا ، وليس لأولاهما ما للثانية من مستعمرات ، وأساطيل في البر والبحر والجو .. ومحا العرب، في صدر البعثة المحمدية ، امبراطوريتي الرومان والعجم ، وكانتا في ذلك الحين العالم المعمور ، ولم يكن للعرب عهد بحروب الدول، ولا سابقة في إنشاء الجيوش الجرارة وتمويلها . فما هو إذن سر القوة في الأمم ؟.

إن السر الحقيقي لقوة الأمم هو ثقافتها .

ولا أعني هنا بالثقافة ، الجامعات ولا مدى انتشار العلم بين أفراد الأمة ، إنما أعني الثقافة القومية التي هي خليط من العقيدة والتراث

الفكرى الموروث ، فهى حينما تكون نابضة حية ، ويكون الشعب متماسكا قويا ، لا تفعل فيه الاحداث ، ولا تهزه المحن ، بل ان هذه الثقافة ذاتها تدفعه الى العمل وإلى الابتكار والتجديد ، ثم تهيىء له فرص الفيض على غيره من الأمم ، وأبلغ دليل على هذا ، ما نراه من تغير الأمم فى أعقاب الثورات ، فإن الثورات عادة توحد من ثقافة الشعب ، وتحيى تراثه القديم أو تصل الشعب به ، فإذا ضعفه قد استحال الى قوة ، وتفرقته الى وحدة ، وتخاذله وخوفه من المخاطر ، الى تضحية ومجازفة .

***

ولو راجعت تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى ، لوجدت أن مصر فقدت كل صلة لها بماضيها الفكرى . فلقد فصلها حكم محمد على وحكم أسرته فصلا تاما عن ماضيها القريب وماضيها البعيد ، فلم تعد مصرية ولا عربية ولا فرعونية ، وعلى الرغم من إنه أنشأ لها جيشا ضخما ، هدد استانبول ، وبنى لها اسطولا كان أقوى الأساطيل ، لم ينقض على انشاء هذه الجيوش وبناء تلك الأساطيل أكثر من أربعين عاما حتى كانت مصر مستعمرة بريطانية .. لأن المدارس كانت تعطى علما غثا ، تافها ، أكثره بالتركية ، وأقله بالعربية ، ولأن الأزهر كبل ووضعت فى أعناقه الاغلال ، فأصبح مدرسة تعيش على فتات المائدة العربية الإسلامية المجيدة .

ولولا أن تيارا فكريا جديدا قد شمل مصر ، وأعادها من جديد الى ماضيها ، ولولا أن عاد الشعراء الى التغنى بهذا الماضى ، والشدو به ، ولولا أن اللغة العربية استقامت ، والالسن قومت لما شهدت مصر حركة مصطفى كامل ولا ثورة سنة ١٩١٩ .

فإذا أردنا أن نحمي أنفسنا من الاستعمار بأنواعه الثلاثة، السياسي والاقتصادي والعسكري ، وأن نحصنها منه ، فلننم ثقافتنا، ولنجعلها أساساً لحياتنا، تنعكس صورها في أعيادنا، وفي حياتنا اليومية، وفي حياتنا العامة . فالثقافة القومية هي خط الدفاع الأساسي الذي يسبق الخطوط الاقتصادية والعسكرية ، بل هو الخط الذي يحمي تلك الخطوط ، أو إن أردت الدقة هو الذي يخلقها خلقا .

إن الثقافة القومية ، هي ثقة الشعب بنفسه ، هي أمله في مستقبله ، هي فخره بماضيه ، هي الوعاء الذي يضم أفراد الأمة بعضهم الى بعض ، هي اللواء الذي يرفرف فوق رؤوس أفرادهم وجموعهم .

ومن هنا ، كان على المفكرين والفنانين ، على الكتاب والشعراء ، وواضعي الألحان وناظمي الأغاني ، على المصورين والنحاتين ، أن يدركوا عظم المسئولية الملقاة على عواتقهم وأن يبعثوا ثقافتنا القومية ، ويضفوا عليها أثوابها الجديدة الجميلة اللائقة بها ، ليعيدوا بناء شخصيتنا، وبالتالي قوميتنا ، وليحموا من غارات المغيرين ، وطمع الطامعين .

مصر عربية
بإرادة أهلها

متى تصبح مصر عربية؟

قد يقع هذا السؤال من القارئ، نفسه في مصر ، أو في أي قطر عربي موقع الدهشة بل موقع الصدمة ، فإننا قد تواصينا في الحقب الأخيرة على أن مصر ليست عربية فحسب ، بل هي في موضع الزعامة من الأمة العربية ، لا بحكم مكانها الجغرافي ، أو كثرة عدد سكانها ، بل لاسهامها الطويل والعريض معا في بناء الثقافة العربية ، واقامة صرح الامة العربية ، التي تترامى ، افاقها من الخليج الى المحيط ، بالمعاهد الكبري التي أسستها ، وحافظت عليها ، وفتحت أبوابها ، لأبناء العروبة أيا كان موضعهم ، ولأبناء المسلمين مهما نأت أوطانهم ، أو بعدت عن العربية لغتهم أو تقاليدهم ، أو أحداث تاريخهم ، وبالمواقف السياسية ، والمواقع الجريئة ، التي حملت مصر أعبائها على توالي السنين ، والقرون ، دفاعا عن حياض العروبة ، أو تدعيما لوجودها ، أو نشرا لرسالتها ،فكيف تكون سمة مصر بعد ذلك كله ، محلا للتساؤل ، وكيف يرد التساؤل بالصيغة التي توحي بأن عروبة مصر ، ليست واقعا قائما ، معترفا به إنما هي رجاء قد يأتي به المستقبل أو لا يأتي .

الهلال - ديسمبر ١٩٨٢

وعلى الرغم من أن الاعتراض وجيه ، وقائم على أساس لا يمكن أن يجحدها عالم بتاريخ الأمة العربية ، وبتاريخ الدور المصري، في بناء هذه الأمة وتأكيد سماتها وإبراز طابعها ، والاستقلال بثقافتها ، والانتساب الى لغتها ، والتأثر بعقليتها ، علي الرغم من ذلك ، فان التساؤل عن «متي تكون مصر عربية ؟» هو تساؤل له ما يبرره ، وطرحه بصراحة وشجاعة واجب يقتضي أن نبدأ به نحن المصريين من جهة ، ونحن العرب من جهة أخرى .

والتاريخ الحديث لمصر يؤكد أن هذا التساؤل ، يعبر عما جرى ولايزال يجري في أعماق النفس المصرية ، فقد اصطلحت الأحداث منذ الفتح العربي أو الإسلامي لمصر بعبارة أدق ، في سنة ٢١ هجرية ، حتي اليوم .

والذين عاشوا في مصر بعد الحرب العالمية الأولى التي جرت وقائعها في الفترة ما بين سنة ١٩١٤ حتي سنة ١٩١٨ يذكرون كيف عاني المصريون مما يشبه الحيرة في شأن حقيقة هويتهم ، والأصل الذي ينحدرون منه ، والجنس الذي ينتمون اليه .

ولم تكن هذه الحيرة إلا ثمرة الاحداث السياسية الكبرى التي مرت بمصر ، خلال قرن من الزمان سابق علي فترة ما بعد الحرب . ففي هذا القرن وقع حدثان خطيران إلى أقصى حد وهو انسلاخ مصر إلى حد الاستقلال التام من الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتهاوى ، أو تلفظ أنفاسها الأخيرة ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، وطوال القرن التاسع عشر ، فبعد أن كانت هذه الامبراطورية ملكا بانضا استمر يتسع ، ويقوى ، وتترامى أملاكه ، ويدخل في نطاقه البحار

والجزر ، والدول ، ويخضع لسلطانه الملوك والأمراء والشيوخ ، أخذ الضعف يدب في أوصاله ، والشيخوخة تزحف على قلبه ورأسه وأطرافه ، وكان من آثار هذا الضعف أن نشأت في مصر دولة على بك الكبير ، التي حولت البحر الأحمر الى بحيرة مصرية، والتي بسطت سلطانها على مصر والشام واليمن والحجاز ، والتي وقفت ندا لدولة بني عثمان في الجانب الشرقي الجنوبي من البحر الأحمر .

وكان ميلاد مصر المستقلة في عهد دولة «علي بك الكبير» تمهيدا لميلاد مصر المستقلة الكبيرة في عهد محمد علي ، ولما ضاقت تركيا باستقلال مصر ، الذي أدى الى نشوء دولة عسكرية برية وبحرية على شاطىء وادي النيل ، استطاعت أن تناجز الأتراك وأن تهزم دولتهم ، حتى كادت جيوش مصر ، تتدفق على الاستانة عاصمة الدولة العلية ، لولا أن الغرب خشي من نشوء دولة إسلامية على الشاطىء الجنوبي الشرقي للبحر الأبيض تقابل دولة إسلامية عظمى على الشاطىء الشمالي الشرقي لنفس البحر .

وقد نشأ شيء قريب من هذا الاتجاه حينما حاول محمد علي أن يستقل عن حكم الاستانة عاصمة العثمانيين ، وقد قال شفيق غربال ، في تاريخ محمد علي ، عندما بسط محمد علي سلطان مصر على الولايات الشامية فقال :

«الولايات الشامية الأربع ، حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية في الجزيرة العربية على البحر الأحمر والخليج الفارسي ، والعراق ، والمناطق فيما بين الشام والاناضول ، هذا مما يترك الظروف ـ والاقطار ـ كما ترى ـ هي في الجملة مما يكون «على حد

تعبير محمد علي» عربستان أو ما نسميه دار العروبة ، فهل تصور لها كيانا سياسيا «أو ما نسميه وحدة عربية» ؟ سؤال كبير ، إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا إليه قلة إدراك عناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وثقافة واحدة ودين واحد ومصالح مشتركة ، وبالنسبة لحياة العالم الاقتصادية كتلة واحدة . وإن أجبنا عنه ايجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ، ونسبنا لعصر سابق ما هو - على وجه التحقيق - من خلق العصور اللواحق وأخفينا إخفاء لا يبرره الواقع عناصر وعوامل تدفع نحو التفرقة . اختلافات جغرافية واجتماعية ، اختلافات في طرق التفكير وفي مستوى المعيشة ، اختلافات مذهبية طائفية ، صعوبات المواصلات ، ضعف وسائل الاتصال العقلي والحسي . وهكذا .. ولا نعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة في عمومها ، وأنها مما يمكن التشبيه عليه في حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يقرره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحالة ، أن حتمت تلك الظروف تقسيم العالم العثماني أمكنه نقض ما تم في القرن السادس عشر وبناء العالم العربي من جديد ، ولكنه لم يكن قد يئس بعد من مستقبل السلطنة» .

وهذا الكلام الذي نقلناه عن شفيق غربال ، وهو لب البحث الذي نحاول أن نتمه الآن بإذنه تعالى .

ونبدأ بهذه الأمور التي أوردها شفيق غربال ، في مفتتح حديثه - والتي جرى العرف على اعتبارها من المسلمات التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . قال المؤرخ المصري إن محمد على لم يكن يغفل عن ادراك عناصر وروابط بارزة في المنطقة التي سماها محمد

على «عربستان» والتى تعين على بناء «دار العروبة» أو على إقامة «الوحدة العربية» وهذه العناصر هى لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، ودين واحد ومصالح مشتركة   فهل هذه المقولة صحيحة ، أم هى خطأ شائع؟

هل صحيح أن الأمم تتكون من هذه العناصر لغة واحدة وثقافة واحدة، ودين واحد ومصالح مشتركة ؟.

وأنا أزعم أن هذه العناصر التى يخيل إلينا أنها تكون الأمم ، هى عناصر ظاهرية فى حين أن الأمم التى يعرفها التاريخ ، حينما تكونت فى الماضى البعيد، أو الماضى الحديث ، لم تتكون بفضل هذه العناصر، وأن أكثر الدول ولدت ، فى الوقت التى تعوزها فيه هذه العناصر كلها ، أو على الأقل واحد أو اثنان منها : كاللغة مثلا ، ووحدتها ، أو الدين أو الثقافة المشتركة .

ونحن نعرف فى العصر الحديث أمماً تتكلم لغة واحدة ، ويضمها جوار واحد ، وربما مصالح مشتركة ومع ذلك لم تشملها وحدة ، ولم يضمها سلطان دولة ، فبلجيكا ، فيها على الاقل نصفها يتكلم الفرنسية، والى جوارها الملاصق ، فرنسا ، ومع ذلك لم تنضم بلجيكا أو القسم الذى يتكلم الفرنسية مع فرنسا . وسويسرا تتكون من ثلاث مناطق «تتكلم ثلاث لغات هى الفرنسية والألمانية والايطالية» لا تشكو مع ذلك تفككا ومع دقة تقطع هذا الكيان فهو يتماسك ، ويتأصل وينمى .

ولم تكن بريطانيا العظمى قط ، وحدة لغوية ، ولا وحدة جنسية ، ولا سادها شعور بقيام المصلحة المشتركة ، وقد قامت حروب شديدة بين أجزاء منها . اسكتلندا من جانب ، وانجلترا من جانب ، وقد خضعت أجزاؤها لتأثيرات خارجية قوية غاية القوة متباينة فخضعت أجزاء

للقبائل الاسكندنافية الشمالية وحكم الدانمارك ، فخضعت اجزاء للنورمانديين ، وأجزاء للرومان ، ولا تزال اسماء مدنها التي ينتهي بعضها بالمقطع «هام» البرمنجهام ونوت نجهام» والتي ينتهي اسمها بالمقطع «شير» تيورشير وهامبشاير» .

وقد تكون شعب «الولايات المتحدة» الأمريكية من أقوام ينحدرون من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات متباينة وقد مرت بهم تجارب متعددة ، بحيث لا يكاد يجمعهم سوى عيشهم على أرض واحدة ، وهي بدورها أرض مترامية الاطراف ، مختلفة الاجواء ، والطبيعة ولكن نتاج هذا الخليط المتنافر من البشر انتهى الى وحدة سياسية ، خلقت أمة متجانسة ، تعيش في وئام ، وتزداد على الأيام ، اندماجا واتساقا. بل أنها أصبحت قادرة على هضم كل من ينضم إليها من مئات الألوف من المهاجرين الجدد ، وتحويلهم الى أمريكان ، يحملون سمات متقاربة ، ويعيشون في ظل تقاليد موحدة وقد أنشأوا لأنفسهم تراثا محبباً اليهم جميعا يدافعون عنه ويتحمسون له . وما يمكن أن نستخلصه من كل ما تقدم ان العنصر الذي تتكون منه الأمم والذي يؤدي الى توثيق عرى الوحدة بين أبناء الأمة ، هو «ارادة العيش المشترك» ولو اختلفت اللغات وتكاثرت اللهجات ، واختلفت ألوان البشرة ، والسوابق التاريخية ، فالهند مثلا هي قارة بكل معنى هذا اللفظ ، فقد انتمى أهلوها الى مئات اللغات واللهجات ، والاف الأديان والمذاهب والطوائف ، واختلفت جوها من حر خط الاستواء الى مناطق لا يغيب عن قمم جبالها الثلج ، ومن صحاري ، لا تنبت زرعا ، الى أودية هي الغاية من الخصوبة والثراء ،

ولكنها تكونت مع ذلك وحدة سياسية ، خضعت لحكومة مركزية واحدة ، واستقلت بعلم واحد ، وازدادت على الأيام توحدا واندماجا .

فهل أراد المصريون أن تكون أمتهم «عربية» .. وإذا كان المصريون أرادوا أن يكونوا عربا ، ففي أي العهود ، سلورتهم هذا الرغبة وهل استطاعوا أن ينفذوها ؟.

وأرجو ألا يثير هذا السؤال سخرية أو اعتراض القارىء باعتبار أن جنسيات الأمم ، ليست مجرد رغبة هذه الأمم ، كلتها مجرد قرار سياسي شبيه مثلا بإعلان الحرب أو اقرار الصلح ، أو الانضمام الى دولة أخرى في اندماج أو اتحاد فدرالي أو كونفدرالي .

والواقع أن سمة الأمة هي قرار سياسي شبيه بهذه القرارات ، ويكاد يكون من طبيعتها ، وقد يأتي هذا القرار ، من قوى أجنبية كما قرر هتلر ضم النمسا الى ألمانيا وادماجها فيها ، وكان ممكنا أن يتم هذا الادماج ويبقى الى الابد ، لو ارتضى النمساويون أن يذوبوا في جيرانهم الذين يتكلمون نفس اللغة والذين يشبهونهم فيما يشبه التطابق في التاريخ والثقافة ، ولكن النمساويين رفضوا هذا الاندماج ، لاختلافهم في المزاج عن الألمان ، وهو سبب كاف لهذا الرفض ، ولكن القرار الذي يصدر من أمة ما ، باتخاذ سمة أو طبيعة ، لا يصدر بعد مناقشة وجداله في مؤتمر أو مجلس أو من سلطة ذات اختصاص ملزم، إنما يصدر ضمنا وخلال فترة أو فترات طويلة مليئة بالتطورات والأحداث السياسية ، وفي آخر الأمر يجد الشعب نفسه أمام قرار لا يدري من الذي أصدره . أشبه شيء بالأغنية الشعبية والمثل الشعبي ، لايدري أحد من صاغ هذه الأغنية ، أو هذا المثل ، ومن وضع للأغنية

اللحن ، ومثل، وقياسا على هذا كله نقول إنه لم يكن ممكنا قبل الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١ هجرية بقيادة عمرو بن العاص قائد الجيش العربي الذي حقق هذا الفتح ، لم يكن ممكنا قبل هذا الفتح أن تطرح عروبة مصر على بساط البحث . ففي مصر الفرعونية أو مصر في ظل الحكم الفارسي أو اليوناني أو الروماني . لم يكن هذا الأمر واردا ، فالأمة العربية لم يتم وجودها ، إلا بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة في أوائل القرن السابع الميلادي بعد بعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن هذا الأمر كذلك مطروحا للبحث ، بعد الفتح الإسلامي ، لأن العرب الذين تم الفتح على أيديهم ، والقبائل التي جاءت تباعا الى مصر ، واستوطنت أقاليمها في الوجهين البحري والقبلي ، وفي الصحاري الشرقية والغربية ، لم تكن تصف نفسها بأنها عربية ، بل كانت تحس وتؤمن وتضمر وتعلن ، أنها من المسلمين الذين جاءوا لينشروا الإسلام ، الدين الجديد وليبشروا برسالته ويثبتوا ملكه وحكمه.

ولما ضعف الوازع الديني ، وأصبح المهاجرون من العرب ، شاعرين بتميزهم عن شعوب الأمم التي فتحوها ، فقد كانوا لا يستسيغون أن تصبح هذه الشعوب عربية ، كما أنهم عرب ، ولم يكن حكم هؤلاء الوافدين من الخارج كحكم أسلافهم الذين جاءوا يحملون الدين الجديد ، ويتأدبون بأدبه ، ويلتزمون أحكامه ، وأول هذه الأحكام جميعا الإيمان بأن الله خلق الناس ليتعارفوا ، وأن اكرمهم عند الله أتقاهم ، هذا كله الى جانب حقيقة أن الوحدات القومية لم تكن من خصائص هذا العهد ، فالشعور بالقومية لم يظهر ويتأكد إلا في أخريات القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

ولما دالت دولة العرب المسلمين في مصر ، وتتابعت دول يؤسسها قواد أتراك مثل أحمد بن طولون ، ثم بعد ذلك مماليك مجلوبون أصلا من أقاليم القوقاز ، كان من المستحيل ، أن يتنفس في جو تلك الدول قصيرة العمر ، شعور بالقومية ، وعلى الأخص بالقومية التي تنتسب الى العرب ، أو تفخر بالانتماء اليهم ، ثم جاء الحكم التركي الطويل سنة ١٥١٧ .

كان من المستحيل أن تدب الى النزعة العربية في مصر ، الروح ، فقد كان الحكم العثماني يضيق بكل نزعة قومية ، تخالف الطابع الإسلامي العثماني تعصبا صحيحا ، للدين في بداية الأمر ورفضا الشعوبية باخلاص ، ثم تأكيد السلطة وهيمنة السلطان العثماني التركي تغليبا لكل ما هو تركي ، ومطاردة لكل ماعدا ذلك .

ثم حدث ما أشرنا إليه في بداية هذا البحث في آخريات الحكم العثماني في عهدي علي بك الكبير ومحمد علي والذي انتهى الى قيام دولة مصرية .

ولكن طرأت مضاعفة في كل من مصر والبلاد العربية المجاورة في الشرق والمغرب ، وأعني بها الاحتلال البريطاني في مصر ، والاحتلال الفرنسي في المغرب ، وبقاء الحكم العثماني يترنح ، ويتدهور ، ويرفضه العرب في العراق ، وسوريا ولبنان وفلسطين ، ويضيقون به ، ويتهيأون للتمرد عليه .

وفي ظل هذا الوضع الجديد كانت مصر تعاني من الاحتلال البريطاني وتثور ضده ، وكان الانجليز يبدون المودة ، ويعدون بالمساعدة الحركات التحررية ، والاصلاحية في العراق والشام وفلسطين ، فبعدت

الشقة بين عرب المغرب والمشرق . فما كان يتمناه العرب في الشرق ، كان يرفضه المصريون رفضا تاما لأن أهل الشام والعراق كانوا يتمنون انتهاء الحكم العثماني وسقوط دولة الأتراك ولو بمساعدة انجلترا وفرنسا وكانت تركيا في مصر دولة الخلافة الإسلامية وكان سقوطها يؤذي الشعور الديني عند المصريين ، ويحملهم على اتهام عرب الشام والعراق ، ولما قامت ما يسمى بالثورة العربية سنة ١٩١٦ ، بقيادة شريف مكة الشريف حسين بن علي «جد الملك حسين بن طلال» ضد الاتراك العثمانيين وهم يحاربون الانجليز في الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ ـ ١٩١٨» اعتبرت هذه الثورة خيانة صرفة ، واعتبر زعماء هذه الثورة عملاء الاستعمار لا يستحقون الا الاحتقار والكراهية، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وحنثت دول الغرب « بريطانيا ـ وفرنسا» بوعودها للعرب ، واحتلت بلادهم وأساءت معاملتهم ، وضنت عليهم بالحريات العامة، وفد زعماء العرب من الشام والعراق وفلسطين ، الى مصر ملتمسين من الحركة الوطنية المصرية المعونة ، وكانت ثورة ١٩١٩ قد اندلعت نيرانها رفض الوطنيون المصريون أن يضعوا أيديهم في أيدي قادة الشام والعراق ، وأداروا لهم ظهورهم لسوء ظنهم فيهم ، فلما تحدث هؤلاء الزعماء السوريون والعراقيون والفلسطينيون عن الوحدة العربية والحركة العربية أصم المصريون آذانهم ، ولم يطيقوا حتى النظر في وجوه دعاة العروبة .

وانتهز دعاة الاستعمار الغربي ، هذه الفرقة بين المصريين ، واخوانهم في شرق القناة ، فروجوا النزعات الاقليمية وأوهموا المصريين أنهم ورثة الحضارة الفرعونية أعظم الحضارات ، وأنهم أولى بأن

يتشبثوا بنسبتهم الى المصريين القدماء الذين هم أعلى الشعوب القديمة المتحضرة كعبا وأقدمها علوا . ومن هنا نشأت الدعوة الى الفرعونية وتأخرت الدعوة الى العروبة واستمر ضعف الشعور العربي في مصر حقبة طويلة فلم يكن ممكنا آنذاك أن يقال إن مصر عربية .

ولكن بدأ التغيير يطرأ على الشعور المصري ، حينما وقعت ثورة سوريا سنة ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الاطرش ، وبدت أمجاد الثوار السوريين ، وحسن بلائهم في منازلة الفرنسيين وانزال الخسائر بهم ، وتورطت فرنسا في جرائم أثارت الغضب المصري ، ومن الاعجاب بالثوار، والاحتقار للمستعمرين ، تقارب المصريون والسوريون ثم جاءت قضية فلسطين ، وثورة الفلسطينيين سنة ١٩٣٦ واستبسلوا في الدفاع عن أرضهم وعرضهم وأحسوا أن البلاء واحد ، والمصاب مشترك ، والاعداء هم الاعداء ، ففهموا معنى العروبة ، على ضوء هذه المعارك المصيرية ، والنضال العربي ، وتغيرت نظرة المصريين إلى اخوانهم في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، ونجح العراقيون في الدعاية لجيشهم في عهد الملك فيصل ، حتى أصبح يتردد على ألسنة المصريين أنه ضد الانجليز وأبدوا من البطولة وصور العراق هي بروسيا العرب ، واثار العراقيون الاستشهاد ما أنهى الصورة القبيحة العرب المشرق عند المصريين .

وازدهرت فكرة الوحدة العربية وخفتت الدعوة الى الفرعونية أو الى المصرية ، واشتد ساعد الحركة العربية ، فلما تبنت ثورة ١٩٥٢ الفكرة العربية ، بدا أن مصر قد اختارت أن تكون عربية ، وأن هذا الاختيار أبدي ولا رجعة فيه ، حتى تمت الوحدة المصرية والسورية فبدت تتويجا لهذا الاتجاه وتكريسا له .

ولكن توالت النكسات ، فحدث الانفصال بين سوريا ومصر ، ثم طالت الحرب اليمنية ثم كانت حرب سنة ١٩٦٧ وهزمت مصر هزيمة منكرة وكره المصريون الكثير من لفظ العروبة والعرب ، وكل ما يتصل بهذين اللفظين ، ونشط دعاة الاستعمار يزيدون هذا الانقلاب ويؤكدونه ، واعتبروا أن مصر لم تجن من ميولها العربية الا الخسران المادى والأدبى .

واستمرت الدعوة المضادة لعروبة مصر وتزايدت وتصاعدت الا أن مصر ثابت لنفسها شيئا فشيئا فأدركت أن عروبتها هى قبل كل شيء مصلحة أدبية ومادية ، مباشرة وحقيقية . لا لأن مصر تربطها بالعالم العربى وشائج عديدة أولها التاريخ القديم الموغل فى القدم ، الذى كانت فيه منطقة الشرق العربى ، أو الشرق الأوسط بالتعبير الغربى وحدة متصلة ، جغرافيا ، ومتسقة سياسيا ، تتشابه فيها الظروف ، وتخضع فى الأغلب الأعم ، لحكم واحد ، وتسودها سياسة واحدة ، ولم تتحطم هذه الوحدة الا بفعل دخيل غير طبيعى من قوى أجنبية تزول ، وتبقى هذه المنطقة تتبادل التأثير والتأثر ، كما تتبادل سلع التجارة ومنتجات الصناعة . كان كذلك الحال فى عهد الفراعنة ، وفى عهد اليونان والرومان والعرب والمماليك والعثمانيين والاستعمار الغربى ، ولايزال الحال هو هو حتى اليوم .

وعلى مر الأيام أصبحت مصر ، قائدة هذه المنطقة ، وقلبها ، تعلم وتثقف وتهذب وتقود ، وتجد مصر من ذلك مالا ، ومكانة وقوة ، وتأثيرا متجددا فى العالم كله .

ثم أن العالم الآن أصبح عالم تكتلات ، والكتلة العربية ، كتلة

سياسية وثقافية واقتصادية طبيعية ، ولا افتعال فيها ، وهى تمنح كل أعضائها قوة ولاسيما بعد تدفق البترول فى نواح عديدة منها، وتكدس الأرصدة البترولية فى خزائنها كثير من هؤلاء الاعضاء .

وقد جاءت أزمات فلسطين ، ومحاولة الغرب وضع اليد على أرضها نهائيا ، وإبعاد أهلها منها لتكون هذه الأرض فاصلا بين العرب بعضهم البعض واسفينا يفرق بينهم ، وقاعدة عسكرية أبدية ، وحاملة طائرات دائمة ، وهذه المحاولة الآثمة تركت ردى فعل مختلفين أولهما بث الفرقة بين العرب ، وهو رد الفعل الأول ، ثم الاحساس بالحاجة الى الاتحاد ، وخلق الوحدة ، والشعور بالخطر ثم الشعور بالأهمية والمكانة، والرسالة الإنسانية وهذا الشعور الأخير ، لأنه أكثر طبيعية فإنه الشعور الذى سيبقى وسيحس المصريون ، من خلال الأحداث والمصائب والهزائم أن الوحدة العربية هى ميزة لبلادهم وواجب ملقى عليهم وفرصة للعمل العظيم ، والتأثير العالمي وأنهم لايملكون التفريط فى هذا كله ، أو التخلى عنه .

وكما قلت سمات الأمم وهويتها لا تتكون من اللغة أو الدين أو التاريخ فقط ، فهذه عوامل ممهدة ومساعدة أما العامل الرئيسى والحاسم فهو ارادة الشعب .

ومصر عربية بارادة أهلها ، يدعم هذه الإرادة التاريخ الطويل الحافل ، والجغرافيا الظاهرة الناصعة والدين المبين الصالح .

تركيا القديمة
فى تركيا الجديدة

(زار كاتب هذا المقال تركيا ، وهو يروى هنا بعض ملاحظاته ومشاهداته فى تلك البلاد)

من الساعة التى وضعت فيها قدمى على أرض تركيا وأنا أقول إن تركيا الجديدة لا تكاد تختلف فى شيء كثير عن تركيا القديمة التى سمعنا عنها وقرأنا وصف رجالها وأخلاق بنيها وصفات ساستها ، ولست اقول هذا القول فى غير ما ترو أو دراسة ، فأنا مثلا أعلم كما يعلم الناس جميعا أن قائدا موفقا اجتمعت فيه العزيمة والاقدام وحب الاصلاح هو الذى يقود تركيا اليوم ، وإن تركيا أصبحت جمهورية وأن هذه الجمهورية عملت لخير البلاد الشيء الكثير فهى مثلا قد فتحت هذا العام ألف مدرسة ، كما أنها جعلت التعليم الابتدائى اجباريا ومجانيا ، وصبغت هذا التعليم بصبغة وطنية فأصبح الطالب يرى إذ يدرس التاريخ أو الجغرافيا أن تركيا هى المحور الذى تدور عليه الدراسة ، فهو يدرس التاريخ ليعرف مكانتها بين الأمم وعناصر قوتها ، وهو يدرس الجغرافيا ليعرف كيف تستطيع تركيا أن تمد فى تجارتها وتبسط فى نفوذها البرى والبحرى ، وتتحرر من ربقة الاستعباد الاقتصادى لغيرها

الهلال - فبراير ١٩٣٣

من الدول بعد أن تحررت من ربقة الاستعباد السياسي . وأعرف فوق ذلك أن هذه الجمهورية تعنى بالفلاح وتعينه ، فهي قد وهبت أراضيها «الدومين» لهؤلاء الفلاحين على أن يستغلوها ثلاث سنوات متواليات ، فان قام الفلاحون بهذا الاستغلال طوال هذه المدة أصبحت الأرض أرضهم . أعرف لتركيا الجمهورية كل هذا ، ولكن شعوري بأن تركيا القديمة ماتزال تبدو في تركيا اليوم ـ وتبدو واضحة يحسها الإنسان في الناس الذين يسيرون في الطرقات ، وفي الصحف وفي الحكومة وفي كل مكان ـ لم يضعف إذ عرفت الحقائق التي ذكرتها لك .

فالتركي رجل متدين كثير الحرص على دينه، قليل المرح شديد العبوس ، فاذ جاءت الجمهورية أباحت للإنسان أن يعتنق أي دين شاء مادام قد بلغ سن الرشد ، ولكن مايزال التركي متدينا ومتعصبا لدينه ، فأنت إذا دخلت الى المساجد في الأيام العادية وجدتها خالية كما تجد مساجد القاهرة ، فإذا كان يوم الجمعة غصت بالمصلين يأتون مئات مئات وفيهم الشبان وفيهم الرجال الذين لم يتقدم بهم العمر . وقد يأخذ بك العجب اذ ترى تركيا التي ألغت الطربوش واستبدلت به قبعة ، وترجمت القرآن الى التركية وجعلت الآذان تركيا ، لاتزال تبقى على يوم الجمعة كعطلة رسمية تقف فيها الأعمال جميعا ويخرج الناس للهو والمرح فتمتلىء الطرقات بهم وقد تأنقوا في لبس ثيابهم . وتركيا تخسر بحرصها علي يوم الجمعة عطلة رسمية خسارة مادية ، لأن تجارتها وأعمالها تعطل يوما آخر هو ـ الاحد ـ العطلة العالمية ـ الذي تقف فيه أعمال البورصات والمصارف والمتاجر والمصانع، وكان الأجدر بتركيا أن تسرع الى اتخاذ يوم الاحد عطلة وهي التي تقلد أوربا في كل

شيء ولكنها لم تفعل ، وقد حرت في تعليل هذا فسألت الكثيرين عن السر فاذا جواب غامض لا يكاد يزيد على أن الحكومة حاولت هذا بالفعل ، ولكنها لم تستطع أن تمضي فيه، وقد عرفت أن الغاء الطربوش ولبس القبعة يمكن تبريره بأن الدين في القلب وليس المظهر جزءا منه ولا أثرا له ، وأن ترجمة القرآن يمكن تعليلها بأن التركي يجب أن يعرف دينه وكتابه الذي يؤمن به ، والناس لاتكره هذا في نهاية الأمر وبعد المناقشة ، أما أن يعطل الاحتفال بيوم الجمعة فهنا الاجتراء على نص آية كريمة وهنا الاعتداء علي حرمة الدين وبذلك لا يستشعر أولو الأمر في أنفسهم القدرة علي اقتراف هذا العمل فيدعونه !.

ولست تستطيع أن تفهم كيف أن حكومة تركيا ـ وهي حكومة لا دينية ـ تهتم بأمر القرآن والأذان فتترجمهما الى اللغة التركية وكان الأجدر بها بعد أن فصلت الدولة عن الدين أن تترك هذا كله للناس ، فمن أراد أن يعرف أصول دينه في كتابه المقدس تلمس لذلك الوسائل ، ولكن تركيا القديمة التي تعنى بالدين وتحتفل بأمره وتنزله من حياتها منزلة خاصة لم تمت بعد .. ولكن تركيا القديمة كان اهتمامها بالدين يظهر في هذه المساجد التي تملأ الاستانة حتى سميت بحق مدينة المساجد ، وفي هذه الآيات التي تكتب على الأبواب والدور والمعاهد والمتاحف ، وفي لفظ «الله» الذي يتردد في كلام الأتراك وتحياتهم كثيرا . واهتمام تركيا الجديدة يظهر في ترجمة القرآن وفي ترجمة الأذان وفي الاعتناء بالاحتفال بيوم الجمعة احتفالا ما أظن دولة اسلامية أخرى تقوم بمثله .

على أن تركيا القديمة تظهر في الروح الشرقية التي يلمسها الإنسان المدقق في كل ما يبدو من الأتراك، فالفتيات سافرات وهن

يلبسن على الطراز الأوربي الحديث وهن يتلقين العلم في الجامعات مع الشبان جنبا الى جنب . ولكن لست تستطيع أن ترى صورا من اختلاط الجنسين كان من المعقول أن يراها الإنسان في بلد تشجع فيه الحكومة هذا الاختلاط وتدعو له ، حتى لتفتح حانات الرقص الي الصباح وتشجع ضباطها وموظفيها وتستحثهم للإقبال عليه حتى ليدعو الى هذا الرقص الغازي بنفسه عملا وقولا ، ولكنك في النهاية تجد الفتيات التركيات شبه منعزلات . وترى في مشيتهن وحركاتهن المرأة التركية ذات الجد والاحتشام ، وإني لأذكر أني كنت استثير صديقا تركيا بترديدي على مسمعه : «أرني شابا مع فتاة ولك ليرة» وقد خرجت مع هذا الصديق مرات الى الحدائق والملاهي والجزائر حيث يحتشد الاتراك ألوفا ألوفا ، وكان يدور بعينيه في هذه الألوف ليرى الفتاة مع الشاب ، ولست أذكر أنه أخذ مني ليرة ، قد يبدو أن في هذا القول مبالغة أو تهويلا، ولكني أقنع بأن أقدم للقاريء هذه النتيجة ، إن الفتاة المصرية وهي في بلاد شرقية وليست تلقى تشجيعا من الكتاب ولا من الهيئات ، تتفرنج وتسرع في هذه الفرنجة أكثر مما تفعل فتاة تركيا ، وصور الاختلاط بين الجنسين في مصر تتعدد على شواطيء البحر وفي الحدائق وفي الملاهي ، وليس لهذه الصور نظائر كثيرة في تركيا . وقد حدثتك عن الشبان والفتيات في تركيا ، أما اذا ارتقيت ـ أو هبطت ـ الى مرتبة الشيوخ والفلاحين فهنا تركيا القديمة بحالها ، تركيا التي تكره القبعة، وتركيا التي تكره الحروف اللاتينية ، وتركيا التي تكره السفور واختلاط الجنسين ، وتركيا الشرقية التي لا تعرف مصطفى كمال المجدد الاجتماعي ولا تحبه ، وإنما تعرف مصطفى كمال المنقذ الذي

حرر البلاد من الاعداء ورد لها الحرية وهى تحب هذا المنقذ ، وهي على أتم استعداد لأن تعمل معه في ميادين الحرب والعمل السلمي وأن تقدم حياتها ومالها في سبيل تقوية تركيا واعزاز جانبها .

وفي النهاية تبدو تركيا القديمة في نظام الحكم الحالى ، فنظام الفرد الذى كان فيها مايزال هو نظامها الحالى ، فثمة جمهورية وبرلمان ولكن الناقدين لا يستطيعون أن يتكلموا إلا همسا ، وإن ارتفعت أصواتهم أخرسوا ، وإن تحركت أقلامهم قصفت هذه الأقلام ، ولقد همس في أذنى أكثر من هامس وشكا لى أكثر من شاك ! ولكن تركيا الجديدة تظهر رائعة جليلة بحيث تحرك الاعجاب في النفوس وفى الصدور جميعا ، في المظاهر القومية التى لاتنفك تطالع الإنسان أينما ذهب في تركيا ، فالاجانب لا تلمحهم ولا تراهم ، والحكومة لا تسمح لهم بأن يفكروا في الاعتداء على سيادتها ، وإنى لا أنكر أن أول ما شاهدته في أزمير واستوقفنى ، هو جريدة «سن بوستا» - آخر بريد - فقد رأيتها في أيدى الناس جميعا وعلى صدرها بالخط العريض «حادث هام - الشرطة والمعارف يهتمان به» وقد طلبت من أحدهم أن يترجم لى هذا الخبر ، فأخبرنى أن فتاة أجنبية مسيحية كاثوليكية قد أثر عليها بعض المبشرين فاعتنقت البروتستانتية ثم بلغ الخبر أهليها فأبلغوه بدورهم للأمن العام فقامت الشرطة بالتحقيق من ناحية وقامت به وزارة المعارف من ناحية أخرى ، وأغلقت هذه المدرسة الأجنبية التبشيرية ووعدت الصحيفة قراءها بأن تنشر لهم أخبار هذا الحادث المهم أولا فأولا .

وليس هذا الحادث إلا واحدا من حوادث كثيرة كلها تدل على أن تركيا التى ماتزال شرقية في صميمها قد عززت هذه الشرقية الكامنة المستترة بقومية قوية واضحة .

حرب الحضارات
فى الشرق العربى

إن ما يجرى فى منطقتنا التى يجب أن نسميها الشرق العربى، بدلا من «الشرق الأوسط» لان تعبير الشرق الأوسط، هو تعبير استعمارى استعمله الحلفاء، بريطانيا وأمريكا فى الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ - ١٩٤٥»، وقد ادخلوا فى هذا الاسم تركيا وايران وباكستان. إن ما يجرى فى هذه المنطقة، يمكن أن نلخصه بانه محاولة للاستعمار الذى يزيد الصهيونية وتؤيده بوضع اليد على بلادنا.. أولا - لموقعها الجغرافى الثمين، والمؤثر، والفعال. ثانيا - لغناها بالظاهر والخفى من الثروات المعدنية، والزراعية، والسياحية. ثالثا - لمكانتها الروحية باعتبارها موطن الاراضى المقدسة الاسلامية والمسيحية واليهودية.. رابعا - لانها حلقة فى سلسلة ثقافية حضارية، تبدأ عند سور الصين، وتمتد حتى شاطىء الاطلسى عند المغرب. وهذا التلخيص، صحيح، ولكنه ناقص

فالاستعمار والصهيونية يطمعان فى منطقتنا لهذه الاسباب، وما يتبعها، وما يتفرع عليها، ولكن ليس الغرض على غير ما يبدو لنا تجاريا

الهلال - أول يونية ١٩٨٣.

أو اقتصاديا، وإن كان الباعث الاقتصادي والمالي موجودا، الا أن الهدف أبعد من ذلك بكثير، ذلك أن ما يتلهب به قلب الاستعمار الغربي من مطمع هو طمس الحضارة الخاصة ببلادنا والتي نشأت على شاطيء النيل ودجلة والفرات، وانتشرت في الدنيا كلها في عصور موغلة في القدم - منذ سبعة آلاف سنة، وحملت اسماء عديدة: فرعونية، يونانية، رومانية، عربية، عثمانية. كما حملت اسماء أخرى: اسلامية، مسيحية ويهودية.

وانتزاع جذور هذه الحضارة ، يؤدي بطبيعة الحال إلى القضاء على أقوى عناصر المقاومة في منطقة الشرق العربي، لان هذه المنطقة بعد انقطاع صلتها بماضيها الحضاري، يتيسر اندماجها في الغرب، وذوبانها في منطقه ، واصطناع أساليبه ومناهجه، وانعدام الاحساس بالعدوان الحاصل عليها ، باعتبارها امتدادا للغرب..

ولقد كانت المحاولة الاولى، لهذا الهجوم ذاته، وبالغاية ذاتها في أخريات القرن الحادي عشر ، أي سنة ١٠٩٩ وقد عرفت تلك المحاولة بالحرب الصليبية التي نجحت في اقامة مملكة بيت المقدس في نفس الموقع الذي تقوم فيه الآن اسرائيل، وقد استطاع العرب أن يردوا هؤلاء الغزاة على أعقابهم وأن يطهروا أرضهم من رجسهم، بعد مائتي سنة من الحروب والمعارك، وسلم الشرق العربي، من تفكيك أوصاله الحضارية، ومن طمس حضارته، وقد كانت حالة ذلك الشرق اسلم بكثير منها هذه الأيام، فلم يكن الغرب قد استطاع أن يطوق هذه المنطقة ويتدخل فيها عسكريا واقتصاديا ، وقبل كل شيء ثقافيا.

في تلك الفترة، كانت يسود الشرق العربي ثقافة واحدة، هي الثقافة العربية الاسلامية، وكانت مناهج الحياة وقواعد المعيشة وأساليب

التفكير، كلها نابعة من تلك الثقافة، ومن التراث المتراكم من الآباء والاجداد، فلم يكن أهل المنطقة، تتجاذبهم تيارات فكر متعارضة، فكان الغزاة أمام مجتمع متحد، يستند إلى عقيدة واحدة قوية، وشعور قومي، يضم الصفوف ويشد العزائم ، وينتهي بردود فعل واحدة..

ولقد بدأ الاستعمار الغربي، بمنطقة الشرق العربي، لان العالم العربي، هو القطاع الاقرب من حضارات الشرق إلى التحرك الغربي الذي بدأ تحركا أوربيا محضا إلى أن لحقت به أمريكا بعد قرون.

وقد منيت الغزوة الغربية الأولى المتمثلة في الحرب الصليبية، بالهزيمة والارتداد وإن استطاعت أن تثبت أقدامها في أجزاء من العالم العربي، كما حدث في «مملكة القدس» لمدة قرنين، ولكن لم يكن ممكنا لهذه الغزوة أن تحقق انتصارا أعمق من ذلك، ذلك لان الغرب لم يكن بعد قد استيقظ ومر في مراحل الصحة، والنهضة والبعث الحضاري، ولم يكن اتصاله بالعرب والمسلمين قد ترك أثره بعد فيه، وقد مضت قرون حتى وفي القرن الخامس عشر، ورأت أوربا، أن تتفادى العالم العربي، وذلك عن طريق الاكتشافات البحرية التي أعدتها أسبانيا والبرتغال لتلتف حول جنوب أفريقيا، للوصول إلى آسيا، ولم تتحول الموجة الاستعمارية، إلى موجة عالمية، الا في القرن التاسع عشر عندما كانت القوة لاوروبا، بعد استيعاب جميع ما حققته الحضارة العربية والاسلامية، ونقلته الثقافة العربية الاسلامية عن الحضارات السابقة: يونانية ورومانية وفارسية وهندية، وهضمته، وأضافت إليه ، وصاغته صياغة جديدة.

وقد بقى الغرب يتربص للبطش بمصر طليعة العالم العربي، لانه كان يحسن قراءة التاريخ، وكان قد خرج من دراسته لتاريخ المنطقة،

بانه ما من مرة استطاع أن يوجد في مصر رجل قوى ينظم أمورها - ولو إلى حد ما، ويحس بدورها فى المنطقة، ويعرف كيف يتجاوز بنظره حدودها، ويدرك جيدا صلاتها بالعالم الذى يحيط بها، ، والذى يتصل بها، ويتأثر بما يجرى فيها، بطريقة تكاد تكون سحرية لا تبدو مظاهرها، لانها تتداخل فى نسيج قديم، قدم مصر، وقدم المنطقة والحضارات التى تتابعت فيها وتلاحقت..

ما من مرة وجد هذا الرجل حتى تقفز مصر فجأة إلى زعامة تشمل المنطقة، وتتضخم فيها مكانة مصر، وتتحول المنطقة كلها إلى وحدة تتماسك وتتلاحق، وتصبح قوة لا تقاوم.

كانت مصر كذلك فى ظل أحمد بن طولون وكافور الاخشيدى والفاطميين والايوبيين، ثم فى ظل المماليك العظام الذى دان لهم الشرق العربى، وتحولت فى عهدهم الممرات البرية والبحرية فى البحر الابيض والبحر والأحمر، قنوات مصرية خاضعة لارادة سلطتها خضوعا مطلقا، ولذلك راقبت بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا، البحرية المصرية الجديدة التى بدأت فى سنة ١٨٠٥، بقلق شديد، وان كانت تلك القوى، غير قادرة على الجزم بمدى ما يمكن أن ينجم عن هذا التطور فى سنة ١٨٠٥ حينما بويع محمد على واليا على مصر، مبايعة شعبية تجرى أحداثها في المحكمة الشرعية، التى تحلقت حول مبناها عشرات الالوف من المصريين لتشارك مشاركة مباشرة فى خلع الحكم العثمانى، ممثلا فى الوالى التركى، واختيار حاكم آخر بدلا منه ولكن الاستعمار الغربى أدرك بعد ذلك أن السكوت على هذه الدولة الجديدة، معناه السكوت على وحدة ذات استقلال اقتصادى، يمكن أن تكون عقبة فى طريق الهيمنة

الغربية على المنطقة العربية كلها ، ثم ما وراءها، فقررت أن تلاحقها ، حتى قضت عليها القضاء الذى تمثل فى معاهدة سنة ١٨٤٠ التى كانت دستور العلاقة المصرية – الاوربية حتى وقع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢.

لكن الفترة الطويلة السابقة على هذا الاحتلال كانت فترة تغلغل رؤوس الاموال الاجنبية، وفترة فتح قناة السويس التى كانت غزوا غربيا، وقاعدة أوربية، عاصرتها عملية واسعة النطاق تم بها اخضاع كل من تونس والجزائر والمغرب النفوذ الغربى واحتلالها جميعا بقوات عسكرية أوربية.

منذ بدأت عملية تغريب العرب، ونزعهم تدريجيا، وبدأب واستمرار من أصولهم الثقافية، وسماتهم الحضارية . وإذا اتخذنا مصر، وما تم فيها نموذجا لتطبيق قواعد عملية التغريب، وفتح أبواب الثقافة الاوربية لتلتهم كل ما هو عربى وما هو اسلامى وما هو شرقى، وتأكيد وترسيخ كل ما هو أوربى، وكل ما هو غربى، واقامة العقبات والحواجز، فى وجه استيحاء الماضى أو بعثه، فإننا نجد أن الخطوة الأولى فى هذه الخطة هى تسريح الجيش وتأليف قوة عسكرية ضعيفة تكاد تكون بلا سلاح، قوامها جنود مرضى وجهلة وفقراء، يرأسهم ضباط لا يعرفون من العلم العام إلا قشوره، ومن العلم العسكرى الا السير فى المواكب، وحمل بنادق فارغة من الذخيرة، وسيوف لامعة لم تستعمل قط. ثم فك الاسطول المصرى ، وبيعه لشركات أجنبية وتحويله إلى شركة ملاحة تجارية

ولما أمن الانجليز جانب الجيش والقوة العسكرية فى البر والبحر، تقدموا نحو التغريب الفكرى والروحى، فأقاموا النظام القانونى فى

البلاد، على أساس من القوانين الاوربية ، فمنذ سنة ١٨٨٣ أصبح القانون الفرنسي هو مصدر التشريع المدني والجنائي وأصول المحاكمات والمرافعات، وقطعت العلاقة بين التشريع الجاري في البلاد والشريعة الاسلامية. وبعد أن كانت المحاكم الشرعية هي محاكم القانون العام، ذبلت وضؤل اختصاصها، واقتصر على دعاوى الزواج والطلاق والنفقات، وبعبارة موجزة، أقدمت بريطانيا على وضع أسس العلمانية في مصر، وهي المحاولة التي أقدم عليها «كمال اتاتورك» في بلاده سنة ١٩٢٤ فأثارت العالم الاسلامي والعربي، وكان لها دوي كدوي الصاعقة، وأكثر العالم الاسلامي لا يعرف أن ما فعله كمال اتاتورك في تلك السنة سبقت إليه مصر، في ظل الحكم البريطاني منذ أربعين عاما، دون أن يثور أو يعترض أحد.

ولعل أطرف صور التغريب في مصر، هو محاولة تغريب الكنيسة الارثوذكسية القبطية، وفتح أبوابها لتيارات المذاهب المسيحية الاوربية ، أي الكاثوليكية التي تتزعمها وتحميها فرنسا، والبروتستانتية التي تتزعمها وتحميها بريطانيا.

وفي كتاب «المسلمون والاقباط» للاستاذ طارق البشري، بيان عن المعركة التي دارت بين الكنيسة المصرية، وبعثات التبشير الاجنبية الامريكية والبريطانية والفرنسية والايطالية.

ولما كان هذا الجانب من حياتنا الروحية غير ملحوظ، فإنه من الخير أن نورد طرفا من تاريخ هذه المعركة، نقلا عن هذا الكتاب القيم. قال المؤلف:

«على مشارف التاريخ الحديث، تصادفنا قصة البطريرك يوانس الثامن عشر مع كنيسة روما الكاثوليكية، إذ تولى البطريرك رئاسة

الكنيسة في أكتوبر سنة ١٧٦٩ وكنيسة روما تبذل أقصى جهدها لتضم الكنائس الشرقية إليها، وعلى الأخص الكنيسة المصرية. وبعث بابا روما مندوبا عنه إلى مصر يحمل رسالة يدعو فيها البطريرك القبطي للاتحاد معه، ويعرض عليه مشروع خطاب أعدته كنيسة روما ليكون صيغة المصالحة بين الكنيستين على ما بينهما من خلافات عقائدية.

«ويمكن تصور ظروف هذه الفترة التي بزغ فيها نجم الحضارة الاوربية وأصبحت ذات قوة اقتصادية وعسكرية، وذات هيبة وانتشار واطماع وهي ذاتها الفترة التي كانت فيها مصر وما حولها ترسف في أغلال من التخلف بعد سابق ازدهار مجيد في العصر الوسيط وتعاني من حكم العثمانيين قسوة واستغلالا وتخلفا. وكل ذلك يشكل ظرفا مواتيا لتحقيق الاطماع الاوربية» . على أن البطريرك رفض تلك الدعوة وكلف أحد كبار اللاهوتيين من الاقباط باعداد خطاب يرد فيه بالرفض على دعوة الاتحاد. جاء فيه : «واني لاعجب من كثرة ذكاوة عقلكم ودقة فهمكم الرفيع، الذي لم نره من أحد قط من مدة كبيرة، وما ينيف على ألف ومائتي سنة، وما سمعنا بأحد من المرسلين من قبل البابا الروماني كتب من عنده صورة رسالة إلى آبائي البطاركة الذين سلفوا قبلنا، ويعرفه منها أن يكتبها للبابا الروماني ويخضع له، ويصير تحت اعتقاده، كما صنعتم أنتم».

هذه السطور التي تبدو ساذجة، ومكتوبة على الفطرة، غنية بالدلالات التي أولها أن بابا روما، لا يريد تعاونا بين كنيسته والكنيسة القبطية، بل يريد من الكنيسة المصرية خضوعا وانصياعا.. ثانيا أن رأس الكنيسة القبطية أدرك مرامي الرسالة البابوية الآتية من روما،

واستشعر فيها الرغبة في السيطرة والهيمنة فرفضها في غير رفق..
ثالثا.. إن ما سعت اليه الكنيسة الرومانية هو هدف سياسي ، يراد به أن يخرج المصريون (ولو كانوا مسيحيين) من إهابهم ليلبسوا جلدا جديدا ، يكونون فيه أتباعا وذيولا لأوربا من خلال الدين ..

وقد حدث أن أرسل البابا جماعة من الرهبان استوطنوا مدن الصعيد ، وحاولوا جذب الأقباط الى الكنيسة الرومانية ونجح هؤلاء في استمالة بعض الأسر القبطية الى المذهب الكاثوليكي . وقد حدث من جراء ذلك انقسام بين الأقباط أرادت الكنيسة الكاثوليكية استغلاله في موضوع قضاء الأحوال الشخصية .

والطريف الداعي الى الاعجاب أن الحكومة المصرية ضايقها هذا الموقف من جانب الكنيسة الكاثوليكية فلجأت الحكومة الى المحكمة الشرعية الكبرى في مصر سنة ١٧٣٨ فقضى القاضي الشرعي بأن تكون سلطة الفصل في هذه المسائل الى البطريرك القبطي الارثوذكسي. ومعنى ذلك أن اتحادا وقع بين الحكومة المصرية والكنيسة القبطية والمحكمة الشرعية ضد النفوذ الاجنبي وأنهم نجحوا في صده وأن الهيئات أو الجهات الثلاث كان لديها وعي كامل بحقيقة هذا التسلل وأنه بعيد تماما عن الدعوة الدينية، وأنه كان غزوا أجنبيا يمس سيادة البلاد واستقلالها.

وقد أورد الاستاذ طارق البشري نقلا عن كتاب موصف مصر، نقلا عن مبعوث فرنسا إلى مصّر سنة ١٧٠٩ أن هؤلاء الرهبان لم يلقوا نجاحا كبيرا في دعوتهم عن طريق الترغيب «الاقباط الارثوذكس». ولما وقعت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨ ، اصطنع الفرنسيون

قبطيا هو «الجنرال يعقوب» الذي كون فرقة من الاقباط لمناصرة الفرنسيين غير أن الاقباط المصريين لم يكونوا راضين عنه، وقد حدثت مشاحنات بينه وبين البطريرك، ودخل يوما إلى الكنيسة الكبرى راكبا جواده فطرده البطريرك، ولم تتيسر له الاقامة في مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فرحل مع الحملة الفرنسية إلى فرنسا، ولم يعد إلى بلاده .

ومما يجدر تسجيله أن البطريرك مرقص الثامن، وجه رسالة إلى الاقباط أبرز المعنى الذي نحاول اظهاره هنا، إذ قال: «ابتدأنا أن نتعلم عادات الامم الغربية، ولازمنا فاعلى الشر».

وقد نقل الاستاذ طارق البشري عن الدكتور وليم سليمان في كتابه «الامة القبطية» إن أهم رسالتين بروتستانتيتين وفدتا إلى مصر في القرن التاسع عشر، جاءت إحداهما من انجلترا، والثانية من أمريكا، عن طريق الشام وإن كانت خطة الامريكيين هي القضاء على الكنيسة القبطية وضم ابنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة بينما كانت خطة الانجليز الابقاء على الكنيسة القبطية المصرية مع التغلغل فيها والسيطرة عليها.

وقد حاول بابوات روما اخضاع الكنيسة القبطية واجبارها على الاعتراف برئاستهم، وذلك بما ارسلوا من رهبان فرنسيسكان إلى مصر توغلوا في الصعيد حيث يكثر الاقباط، وبلغ بهم الامر – كما يروي الاستاذ جرجس سلامة – أن كان الفرنسيسكان يخطفون الاطفال ويرسلونهم إلى روما لتعليمهم الكاثوليكية إلا أن الاقباط قاوموا هذه الحملة إلى حد أنهم استولوا على كنائس الفرنسيسكان وطردوهم

منها، ثم انضمت الارساليات البروتستانتية الانجليزية والامريكية، وانشأت تلك الارساليات مدارس لها جمعيات بدأت بأغراض دينية بحتة، وعارضت الكنيسة القبطية هذا النشاط وسافر البطريرك المصرى إلى أسيوط على باخرة نيلية وضعها الخديو إسماعيل تحت أمره، في وجه النشاط البروتستانتي، وعلى منع القبط من إرسال ابنائهم إلى مدارس التبشير، وطاف الكهنة على البيوت يحرمون على كل أب أن يرسل أولاده إلى هذه المدارس، وصدر قرار الحرمان ضد من يخالف هذا النصح، أو يزور مكتبات تلك المدارس أو يقرأ كتبها أو يصافح أو يصادق أحدا من المبشرين.. ويروى الدكتور هوج وهو مبشر اسكتلندى، أنه ذهب مع القنصل الامريكي لزيارة البطريرك ، ليطمئن على أن مدارس التبشير لا تفعل أكثر من تعليم الانجيل لاولاد الاقباط، فكان المبشر ألقى قنبلة في وجه البطريرك الذى صاح: الانجيل الطاهر!.. وهل الامريكان وحدهم هم الذين عندهم الانجيل.. إن الانجيل عندنا قبل أن تولد أمريكا.. ولماذا جئتم إلى بلادنا بكلماتكم الناعمة؟!».

وفر المبشر نجاة بنفسه من هذه الحملة الصاعقة

وقد روى الاستاذ جرجس سلامة أنه لما ولى البطريركية الانبا كيرلس الخامس، واصل حملته ضد البروتستانتية، وذهب إلى أسيوط على باخرة نيلية وكان موكبه من الباخرة إلى المدينة على خط دخول المسيح إلى أورشليم، إذ ركب حمارا، وتقدمه القسس وحاملو الصلبان والاعلام وفروع النخيل، وكان محاطا بالجنود أمامه وخلفه، بأمر الحكومة

وهذا الموكب ليس عملا دينيا، وانما هو مظاهرة مصرية، اسلامية قبطية، تتعاون فيها الحكومة مع الكنيسة، لتأليب الشعب كله، مسلمين واقباطا ضد غزو مصر الثقافي، وتراثه وتقاليده، ومنهج حياته، وأساليب تفكيره

أدرك آباؤنا، معنى التحضر الثقافي، للاستعمار الدخيل السياسي، والاقتصادي ، فوقفوا معا ضد هذا «التحضر» وضيقوا عليه الخناق والامر اليوم في نفس الحاجة إلى هذا الوعي، وإلى دفعة مشتركة، بنفس الغرض ، فقد زادت الحملة على ثقافة العرب والمسلمين ضراوة وعنفا.

في ذكرى الثورة العرابية

صفحات مجهولة من تاريخ مصر الحديث

في ٩ من سبتمبر سنة ١٩٨١ أتم الزمن دورة كاملة، فانقضى على قيام الثورة العرابية مائة عام كاملة، فتداعت في الرؤوس، ذكريات كثيرة لهذه الثورة الفذة، التي وقعت على أرض مصر، التي تلتقي فيها وعندها، أطماع الراغبين من ساسة الامم وقادة الدول، في الهيمنة على العالم، كما تلتقي قارات العالم الكبرى الثلاث، افريقيا وآسيا وأوربا، وتذوب حضارات القديم والحديث، ومدنيات الفراعنة والعرب والرومان والاغريق والفرس.

ولقد أريق مداد كثير في رصد وقائع ثورة عرابي وشعب مصر، وفي تحليل هذه الوقائع، واستنطاقها ، وردها لأصولها. وكان من بين ما كتب مجلدات ذاعت شهرتها، وعرفت بأسمائها وأسماء محرريها، كما وضعت رسائل، جيدة عميقة، ولكنها لم تظفر بما تستحق من بعد الصيت، من هذه الكتب «كتاب عزل خديو» الذي كتبه الترجمان الانجليزي «المترجم» ارذن هيولم بيما . وهو كتاب متوسط القطع

الهلال - سبتمبر ١٩٨٢ .

والحجم إذ لم تكمل صفحاته المائتين عدا، إلا أنه حافل بالتعليقات والذكريات، التي كتبها المؤلف بروح تفيض حبا لمصر أو على الأقل عطفا عليها وبتقدير حار لزعيم ثورتها عرابي، حتى لننسى - بعد مضى الوقت - إن الكاتب انجليزى ، ونتوهم بأن كاتبه مصرى.

وقد قدم المؤلف نفسه فقال أنه قبل خمسين سنة من تأليف كتابه الذى تم فى سنة ١٩٢٨، اعتاد أن يركب كل يوم حمارا صغيرا مليئا بالحيوية والمرح، من فندق «النيل» فى حى الموسكى، إلى القنصلية البريطانية العامة، ليقوم بواجبه بوصفه المترجم العربى الأول فيها، ولم تكن هناك فى ذلك الحين سيارات ولا خطوط ترام، فى حين لم يكن عدد موظفى القنصلية سوى مستر فيفيان القنصل العام وسكرتيره مستر «اورمشتين» والمترجم السورى السيد اورانجى. وقال المؤلف أنه اعتاد منذ سنة ١٨٧٩ - أى قبل الاحتلال البريطانى بسنتين فقط «لان الاحتلال البريطانى وقع فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢» أن يقيم فى مصر منذ حين وآخر مددا متفاوتة الطول، محتفظا طوال الوقت باهتمام متجدد بالشعب المصرى، ومجريات الامور، وكل ما يتعلق بمصر . ومن ثم استطاع أن يتابع تطور العلاقات البريطانية المصرية فى كل المجالات

واعترف المؤلف أنه لم يعتمد إلا فى القليل النادر فيما كتبه عن مصر، على الوثائق المكتوبة، وعلى مصادر معلومات من الدرجة الثانية بل اعتمد تقريبا فى جميع الاحوال على معلوماته الشخصية أى المعلومات التى استقاها بنفسه أو من أناس عرفوها مباشرة ولم ترد لهم من آخرين ، وكل هؤلاء الاشخاص - مصريين كانوا أو انجليز -

تمتع إما بصداقتهم أو بمعرفتهم، وقد سمع منهم مباشرة آراءهم وقد تمنى مستر بيمان أن يمكن - بفضل كتابه - القارىء الانجليزى من الوقوف عن حقيقة مشاعر المصريين بالنسبة لما جرى من الامور وما صدر من التصريحات على السلطة البريطانية أى سلطة الاحتلال وعزا المؤلف إلى نفسه فضيلة القدرة على نقد تصرفات وأعمال السلطة البريطانية في مصر التي رآها في بعض الأحيان معيبة مع أنه كان دائما شديد الاعجاب بما أتمته هذه السلطة البريطانية ذاتها من الاعمال العظيمة في مصر.

ويبادر بيمان بمواجهة جوهر مشكلة العلاقة بين مصر وبريطانيا، فيقول إن الاتجاه العام للسياسة البريطانية في مصر قائم على إنكار ما قطعته على نفسها في بداية الاحتلال من وعود وعهود، كانت كلها تؤكد للعالم ولمصر ، أن غاية دخول بريطانيا بجيوشها إلى مصر، هو تهيئتها لان تحكم نفسها بنفسها، وأن تقيم على أرضها حكما سياسيا حرا ، وليست هذه الطريقة بالطبع، الاسلوب الامثل لتحسين علاقتنا مع القوم الذين أعلنا أننا نبغى أن يصبح المصريون بفضل حكمنا لهم سعداء وراضين، ولا السبيل القيم للمحافظة على مكانتنا في مصر وفي الخارج إذ ما لم يرض المصريون عنا الرضاء الكامل، انطفأ أقل بصيص من الامل في أن بيننا وبينهم اتفاقية تبرم على الوجه الذى يرضي الطرفين.

وانتقل بعد ذلك إلى موضوع ذي حساسية وأهمية، سماه «الكرومرية». وهو اصطلاح لم أصادفه في كتاب انجليزى أو عربي عن الحقبة السابقة لثورة عرابى سنة ١٨٨٢، ولا عن الحقبة التالية للثورة التي أعقبها الاحتلال.

و«الكرومرية» التي تكتب باللاتينية «كرومرزم» تعني بطبيعة الحال، مجموعة الاساليب والاجراءات والاهداف التي اتبعها كرومر – مندوب الاحتلال البريطاني في مصر – والتي تمثل عقلية الانجليز حينما يحكمون بلادا غير بلادهم بصفة عامة، وعقلية «كرومر» الذي كان اسمه عند بدء الاحتلال «ايفلنج بارنج» حتى حصل على لقب اللورد كرومر.

و«ايفلنج بارنج» أو «كرومر» حسبما تشاء ليس مجرد معتمد بريطاني، ولا قنصل عام أو مندوب سام في مصر، بل هو مدرسة استعمارية كاملة ترى هذه المدرسة أن عليها أن تقوم بعدد من الاصلاحات الادارية وبعض المنشآت التعميرية في مجال الري والأمن والتنظيم، تضفي على الحكم الانجليزي صفات الاستنارة والرغبة في التجديد، مع لمسات توحي بالتقدم وتوفير الحرية العامة للمواطنين، ولكنها تمس في الواقع بأشياء أخرى أهمها حرمان الشعب من الحكم السياسي الحر القائم على إرادة الشعب لا الخطو نحو هذا الحكم ثم حرمان الشعب من التعليم المجاني الشامل لكل الطبقات، ولا اتاحة الفرصة للشخصيات المصرية التي أتمت تعليمها العالي وأتمت تدريبها في الحكم والادارة على سبيل الاستثناء أن تشارك جدياً في حكم وطنها. ثم أن تحكم البلاد بيد من حديد في قفاز من حرير، حتى تختفي سمات بطش الحكم الاجنبي وعنفه.

ويقول بيمان أن الشرط الأول الذي كان يجب أن تتحلى به الادارة البريطانية أن تقول الحق وكل الحق، فلا تدعي لنفسها مقاصد وأغراضا، غير ما تعنيه وتقصده ولكن «الكرومرية» أوهمت المصريين أنها ستمنحهم الاستقلال، في حين أنها منحتهم بدلا من ذلك «الاحتلال» فلم يعد في مصر، مواطن واحد يعتقد أن بريطانيا ستجلو عن بلاده.

ويعد إعلان الحقيقة هذا، الذي يدل على مدى صدق وصراحة «بيمان» وأنه فعلا يضمر لمصر والمصريين حبا وعطفا حقيقيين خاليين من الزيف والتمويه، ينثني إلى حقيقة أخرى يعلن من خلالها أن الانجليز حتى احتلالهم لمصر في سنة ١٨٨٢ ، لم يعرفوا شيئا جديا عن مصر، في حين أن الفرنسيين كانوا لاكثر من سبب أشد اتصالا بمصر وأهلها، وأكثر شعورا نحوهم ونحوها، بالألفة.

وقد بقى الحال على هذا المنوال حتى تم فتح قناة السويس، ثم عزل الخديو إسماعيل الذي تبع هذا الفتح بقليل، وكان قد وقع بفضل تدخل الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالتعاون مع عدد من الدول الأخرى. وقد أيقظ هذا الحدث الساسة البريطانيين، فأدركوا لتوهم أهمية مصر لبريطانيا.

وقد كان عزل الخديو إسماعيل، سبيلا إلى تخفيف معاناة المصريين لفترة مؤقتة من مظالم الخديو العظيم، وقد حل محل الخديو إسماعيل ابنه توفيق وقد بدا، لفتور شخصيته، وضعف حيويته، أنه خديو من طراز آخر، أكثر عدلا وأقل ظلما، ولكن الايام – في رأى بيمان – اثبتت العكس، لقد كان توفيق هو إسماعيل، بفارق أن الابن كانت تنقصه مزايا الأب: من تدفق الحيوية، والشجاعة، ولكنه لم تنقصه الرغبة في أن يدعي لنفسه الحق في ممارسة أية سلطة يتيسر له الحصول عليها أو الوصول إليها، وقبل أن ينقضي وقت طويل، نجح في إثارة ضيق الجيش المصري، الذي كان يسخر ضباطا وجنودا في أعمال لا تليق بهم، ولكن أكثر ما حرك حنق الضباط المصريين هو ما أريد لهم من تبعية لزملائهم ضباط الجيش المصري الذين كانوا ينحدرون من أصل

تركى أو شركسى، واستغلال الجنود فى كل عمل حتى ولو كان مهينا، أو ممزليا ، وبلا مقابل مادى ولكن الضباط المصريين نجحوا ، تحت قيادة العميد أحمد عرابى الذى كان فلاحا وابن فلاح فى تحقيق أول نصر، وذلك بإزالة عثمان رفقى باشا وزير الحربية الشركسى الاصل، من مكانه ثم تتابعت اصلاحات ثورية، دون تدخل من جانب بريطانيا أو فرنسا، حتى تم اللقاء المثير فى التاسع من سبتمبر ١٨٨١ بين السير أوكلاند كلفن القنصل البريطانى فى صحبة الخديو توفيق من جانب ، وأحمد عرابى ومن خلفه الجيش المصرى من جانب آخر فى ميدان عابدين. وفى هذا اللقاء المثير الذى تم فى الهواء الطلق، وعلى مرأى ومسمع من عدد غير قليل من فرق الجيش، وألوف من عامة المصريين من أهل القاهرة اصطفوا خلف صفوف الجيش، طالب الضباط المصريون بأمرين كلاهما كان مر المذاق فى فم الخديو، الذى لا تبدو على وجهه، ولا فى صوته حقيقة انفعالاته. وكان أول الامرين إقالة الوزارة بأسرها، إذ لم يكتفوا هذه المرة بإقالة وزير واحد من اصل شركسى ، وكان الامر الثانى الدعوة إلى عقد برلمان، أى مجلس تشريعى نيابى. ورأى «بيمان» أن الامر الثانى كان أشد مرارة ، وأقبح مذاقا، فالخديو يفضل أن يواجه اثنى عشر عميدا وعقيدا من الضباط، على أن يواجه برلماناً، يكون من حق أعضائه أن يسائلوا الخديو ووزراءه عن أخطائهم وسوء أعمالهم، ولكنه على كل حال أذعن، وأحسب أن «بيمان» لم يحسن تقدير الموقف فإقالة وزارة بأمر الضباط، مساو تماما لطلب مجلس نيابى تشريعى، لان جوهر الامر أن الضباط المصريين الذين كانوا كما مهملا، لا يؤبه به أصبحوا يملكون أن يأمروا،

بعد أن أحسوا أن ذلك من حقهم. فإن أمروا بشيء وأطاع الخديو، فإنه الطوفان فسيكون الامر كله لهم، وهذا ما حدث بالفعل.

وفي هذه الفترة جاء مندوب من سلطان تركيا، ليحقق في أسباب تمرد الضباط المصريين وسخطهم، وضايق هذا «عرابي» لان مصدر شكواه أن العنصر التركي في الجيش والحكومة، كان لا يطيق أن يتقدم المصريون نحو المناصب الاعلى، أو أن يزيدوا من نصيبهم من السلطة، أما الخديو فقد غازل الجانب التركي لحظة، ثم آثر بعد ذلك أن يكون في الجانب المصري، حتى ضربت أساطيل بريطانيا مدينة الاسكندرية في الحادي عشر من يولية، لحظتها رأى القوة العسكرية الغازية، أقوى من عرابي والمصريين، فاختار الجانب الاجنبي وبقي مواليا له حتى تم الاحتلال البريطاني.

ويقول بيمان أن معركة «التل الكبير» أنهت الثورة العربية، وأن عرابي حوكم وحكم عليه بالنفي مدى الحياة في جزيرة سيلان مع ثلاثة من العمداء، يتقدمهم محمود سامي البارودي الذي يقول عنه «بيمان» خطأ أنه وزير حربية الثورة في حين أنه أنهى حياته العامة رئيسا للوزراء.

ثم أعلنت بريطانيا احتلالها ، إلى أن تستطيع مصر أن تدبر شئونها بنفسها، وتحفظ حقوق الاجانب المقيمين فيها من المساس بها أو الاعتداء عليها. ولم يتم شيء من هذا قط على الرغم من أن بريطانيا بذلت في رأي «بيمان» ثلاثة وستين وعدا، بالجلاء في حين أحصى المؤرخون المصريون من هذه الوعود تسعة وتسعين وعدا. ولكنه يلاحظ ملاحظة ذكية يقول : إن بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ توقفت تماما عن منح

وعود بالجلاء ففي هذه السنة اتفقت بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودى الذى أطلقت فيه فرنسا يد بريطانيا في مصر، في مقابل إطلاق يد فرنسا في مراكش.

إلا أن بيمان يضيف سطورا ذات قيمة فيقول :

«إن عرابى هو الوطنى الاول فى تاريخ مصر الحديثة، ولقد عرفته جيداً كما عرفت زملاء زعماء الثورة ولما نفوا إلى سيلان وقع اختيارهم على"، وكيلا عنهم لأرعى شئون عائلاتهم التى خلفوها وراءهم، ومصالحهم التى كانت لهم فى مصر...

«إن وطنية عرابي، ليس لها جذور عميقة، ومهما ظلت فى طيات الماضي، فقد بقيت قائمة في حاجة إلى روح لتوقظها ولسنا ننكر أن رياض باشا «رئيس وزراء مصر لأول مرة بين ١١ يونية سنة ١٨٨٨ إلى ١٢ مايو سنة ١٨٩١» كان يكافح ليحقق لنفسه وللمصريين نفوذا الحكومة، ولكن ذلك لم يكن عن وطنية ولكن رياض لم يستطع أن يظفر من الخديو في كفاحه في سبيل نصيب أكبر للمصريين من الحكم ، إلا تاييدا فاتراً أو غير مؤثر، دون أي تكوين أو تشكيل مصرى، وكان رياض لا يدخر وسعا في وضع حد لتدخل كرومر الذى يريد أن يستوعب كل نشاط في مصر».

ويقول بيمان وهو يروى تاريخ الخطوات الأولى، للحركة الوطنية التى أنبثقت بفضل حركة عرابى وزملائه، أن جهود كرومر فى تطويق الحركة الوطنية كانت سافرة لا تنقطع ، وبعزم لا ينثنى، وكانت من خلفها القوة التى لا ترد حجتها، وهى قوة البنادق والبوارج.

ويشير «بيمان» إلى فكرة أخرى نثبتها له فى هذه الدراسة المتقطعة لميلاد الحركة الوطنية فى أواخر القرن التاسع فيقول.

«يتردد أحيانا كثيرة القول بأن الخديو «توفيق» كان صديقا طيبا وأمينا لبريطانيا، وحليفا معينا للورد كرومر، في إصلاحاته، وأرى - أيا كان موقف الخديو توفيق فيما بعد - أنه إلى أن بارحت مصر في سنة ١٨٨٩ «أي بعد بدء الاحتلال بسبع سنوات» كان يصارع دائما، ليخلص نفسه - بطبيعة الحال - من براثن البريطانيين وأن ينعزل كحاكم مستقل، ما وسعه الجهد».

وأحسب أن هذه الملاحظة مما ينفرد به «بيمان» ، فإن نظري لم يقع على شيء مثلها أو شيء يؤيدها، في كتب المصريين ولا الاجانب.

ثم يمضي بيمان فيقول:

«في تلك الظروف - ظروف الثورة والحروب والهزيمة والاحتلال - ولدت الوطنية المصرية ووئدت في الحال، وما لبثت ذكرى عرابي أن محيت ولما عاد إلى بلاده بعد نفي طويل، لم يلحظ الكثيرون هذه العودة».

ويضيف «بيمان» بأنه زار عرابي في بيت أقام فيه على حدود الصحراء في حلوان ولما قصد هذا البيت، لم يجد أحدا من جيرانه يعرفه، فاهتدى إليه بعد مشقة مما يدل على أنه حتى جيران عرابي الاقربين لم يحسوا بجواره، ولم يحفلوا بالسؤال عنه فضلا عن زيارته.. وهكذا كانت نهاية الحاكم المطلق لمصر، وبطل الجماهير الذي استولى على حبها . ولما تمت الزيارة، رأى بيمان عرابي رجلا هرما ضعيفا، وقد كانت الزيارة قبل وفاة عرابي في سنة ١٩١١ بسنة أو سنتين، وقد أثبت بيمان في كتابه خطابا أرسله إليه عرابي، كتبه بالحروف العربية بخط متوسط الجودة، ولكنه مقروء وواضح، وقد وقعه بالعربية بإمضاء «أحمد

عرابى المصرى» ثم أردف هذا الامضاء بتخر باللغة الانجليزية بخط واسع واضح وكان الامضاء بالانجليزية ترجمة للامضاء بالعربية فقد حرص فى الحالتين أن يضيف وصف «المصرى» لاسمه وكان الخطاب مرسلا من جزيرة سيلان لذلك كتب إلى جانب الامضاء بالانجليزية اسم مدينة «كولومبو» عاصمة جزيرة سيلان وهى العاصمة التى قضى فيه عرابى مدة نفيه.

ويقول بيمان أن هذا الامضاء يروى قصة عرابى ، فقد كان أول مصرى أحس بوقدة شعلة الوطنية فى صدره. وقد كانت هذه الوطنية دفاعا عن مصر في وجه غزو وتدخل الفرنسيين والاتراك والشراكسة، والانجليز ومن الحق أن يقال أن الوطنية المصرية التى شملت موجتها مصر بعد ذلك ، كانت ثمرة للبذور التى بذرها عرابى العميد البسيط الذى كان أعز ما يفخر به اللقب «المصرى» ومن ثم فإنه يجب على مصر عندما تحصل يوما ما على استقلالها الامر الذى لابد أن يتحقق، فإن أول تمثال يجب عليها أن تقيمه فى أحد ميادين القاهرة هو تمثال عرابى

والغريب أن هذا التمثال الذى رأى هذا الموظف الانجليزى ضرورته منذ سنوات طويلة وقبل أن تحصل مصر على استقلالها ، وتطرد آخر جندى بريطانى، يحمل متاعه ويغادر أرضها، لم يقم حتى الآن فى القاهرة، وإنما أقيمت تماثيل صغيرة فى الزقازيق وفى أماكن أخرى لا يراها الناس، وهو أمر لا نجد له تعليلا، كما لا نجد تعليلا لعدم إقامة تمثال لبطل أبطال الاستقلال المصرى، ورائد الكفاح الوطنى، السيد

عمر مكرم، ولا للبشير الأول بالثقافة المصرية الجديدة، رفاعة رافع الطهطاوي، ولا لاستاذه ومعينه علي مبارك، وهكذا..

وفي ١١ من سبتمبر ١٨٨٣ جاء سير ايفلنج بارنج، الذي عرف بعد تلك باللورد كرومر، ولم يكن مقدمه ليشغل منصب العميد للاحتلال البريطاني كما حدث بعد ذلك ، بل جاء بوصفه عضوا في لجنة صندوق الدين التي أقامها الانجليز والفرنسيون، لبسط نفوذ أصحاب الديون الأجنبية من المرابين اليهود، على مصر، وليجهزوا في الواقع لمصاب أكبر، وهو الاحتلال البريطاني، ويقول بيمان أن كرومر، حينما تولى عمله في مصر، كان قد حصل على معرفة بالاحوال في مصر، ولذلك فقد شرع في الحال في إصلاح حال الميزانية المصرية وذلك عن طريقين. تخفيض المصروفات، واستنباط موارد جديدة. وكان يعلم سلفا أن المنافسة الضارية التي شبت نيرانها بين الاستعماريين. الفرنسي والبريطاني، والغيرة المتبادلة بينهما، والتي كان يثيرها أي ظفر لاحدهما على الآخر في شكل الحصول على مزيد من السلطة المادية أو النفوذ الادبي في وادي النيل ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تقيم فرنسا وأن يقيم رعاياها المقيمون في مصر أو المتصلون بالاعمال أو السياسة فيها، كل عقبة ممكنة في وجه خطة كرومر، ولم يجد كرومر عونا في كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي وأعوانه لا من الخديو، ولا من وزرائه، ولا من الشعب المصري كله. فقد ألف كرومر أن يروي وقائع كفاحه، في تقارير سنوية يرفعها إلى سادته في لندن وتنشر في مصر فتستفز الوطنيين المصريين.

وكان كرومر يزعم في تقاريره الاولى أنه يرى أن مستقبل مصر لا يعدو تطورين . أن تستقل أو أن تندمج في الامبراطورية. وزعم أيضا أنه يؤثر الخيار الاول ويعمل له.

ولكن كل ما قاله كرومر وفعله، كان يؤكد عكس هذا الزعم وينقضه. ويتساءل «بيمان» هل نجحت الكرومرية، ويرد على هذا التساؤل بأن الكرومرية فشلت، لانها واجهت وطنية المصريين التي أثارها وقادها مصطفى كامل، والمعركة بين الكرومرية، والوطنية، كانت محل حديث بيمان. وهو حديث جدير بأن ينقل وبأن يظفر منا بالتعليق،

فلنبقه إذن إلى فصل تال في هذا الحديث بإذن الله .

وثيقة دستورية

من عصر محمد على

وجه جناب الخديو ، محمد على باشا والى مصر، فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أمرا كريما، وضع باللغة التركية، لغة الدواوين الرسمية الأولى، فى تلك الايام إلى «البيك الكتخدا» رئيس المجلس العالى

ويتضمن هذا الامر الكريم، بيانا عن تأسيس المجلس العالى، وطريقة إدارة المناقشة فيه، وحسن معاملة أعضائه.

والمجلس العالى ، هو الهيئة التى أقامها محمد على واعتبرها هيئة المشورة ، تتداول فى الامور التى يحيلها اليها، و«البيك الكتخدا» هو محمد بك لاظ أوغلى، والكتخدا هو نائب الخديو ، أو نائب الوالى.

وأحسب أنه ليس ثمة فى تاريخنا الدستورى، وثيقة أكثر دلالة، على عقلية عصر محمد على، ونظرته إلى أمور الحكم، من هذه الوثيقة ، فيما عدا تلك المجموعة، الفريدة الصادرة فى بداية سنة ١٨٣٧ بعنوان «قانون سياستنامة» والتى تضم مقدمة وثلاثة فصول، فهذه الوثيقة الأخيرة هى شىء بين النظام الدستورى ، والقانون الادارى والمبادىء القانونية العامة للدولة المصرية فى عهد محمد على.

الهلال – سبتمبر ١٩٦٩

والوثيقتان، وما يتصل بهما، جديرتان بالتأمل والدرس والتعليق، والتحليل، ولست أنكر أنهما ظفرتا حتى اليوم بما تستحقانه من العناية والاهتمام، ولذلك فقد رأيت، أن أعرف بهما، مكتفيا بالتلخيص والتعليق السريع، مؤملا أن تتاح الفرصة ، لدراسة أكثر تمهلا وأعظم تعمقا. وفي هذا البحث نتناول الوثيقة الأولى، ونرجىء الكلام عن الوثيقة الثانية إلى مقال تالٍ

أما الامر الكريم الصادر في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أي من نحو قرن ونصف قرن إلا خمس سنوات فقط، فقد بدا بعد أن ترجم من التركية إلى العربية، كأنه مقامة من مقامات الحريري أو بديع الزمان، فقد احتفل كاتبه باللغة، مما أعان مترجمه على إظهاره في ثوب من العربية المثقلة بالزخارف، فكان بهذه الصفة ، صورة من صور الحياة الأدبية، في هذا العهد.

ولابد لنا قبل الاسترسال في الاقتباس من هذه الترجمة العربية، أن ننوه هنا بفضل الاستاذ محمد خليل صبحي الذي أسدى لتاريخنا الحديث عامة، وتاريخنا السياسي والدستوري خاصة يدا لا تنسى، بإخراجه كتابه الضخم «تاريخ الحياة النيابية» مزودا بصور الاشخاص، والصور الزنكوغرافية للاوامر والمراسيم والقوانين والمحاضر والمضابط، من أصولها، ومنقولة عن جريدة الوقائع المصرية حينا آخر، وقد بدأ محمد على أمره الكريم بالحديث عن ميوله الدستورية وحبه للشورى فقال:

«لقد كان دأبنا بإزاء كل أمر مما يتعلق بالمصالح المصرية، وتقتضي حكمة الحكومة بتنظيمه وتسويته أن نجتنب عند البت فيه الانفراد برأينا،

والاكتفاء بحكمنا، بل نحوله إلى المجلس، وفقا لاصولنا المقررة، وأسلوبنا المعلوم» ثم ينتقل من هذا إلى القول بأنه يحترم قرارات المجلس، وينزل على مقتضاها فيقول «كما قد جرت عادتنا إزاء كل شأن من الشئون المرهوبة تسويتها بقرار المجلس، أن نعمل التسوية التي سوى بها، على ما أبداه رجال المجلس من تضامن واتحاد، وما أظهره كل منهم من سعي واجتهاد، وأن نعتبرها ويعتبرها معنا النظار والحكام كافة، جديرة بالقبول، ليتاح لها أن توضع موضع التنفيذ والاجراء».

وقد رتب محمد علي – على هاتين المقدمتين، النتيجة التي رآها طبيعية، لانهما تؤديان إليها فقال موجها الحديث إلى رئيس المجلس.

«إنه لواجب عليك، محتوم الاداء، وفرض مستلزم الوفاء والقضاء، أن تراعي مقتضيات الحال، فتنسج على هذا المنوال».

وبعد ذلك لم يبق لنا إلا أن نعرف من «محمد علي» ما الذي يتعين على رئيس المجلس، أن يقوله، ويفعله، مراعاة لمقتضيات الحال، ونسجا على هذا المنوال، منوال ولى النعم، فقال: «ما نوزعه على فقرات، لتستقل كل فقرة بمعنى مما قصد إليه الوالي، المشرع والمرشد، أو بجزء كامل من معنى، واليك البيان، ولا تنس أن الحديث موجه إلى رئيس المجلس:

أولا – كن في كل خطرة وحقيرة من المسائل التي تقتضي الاصول ببحثها في المجلس، حريصا على أن تحيلها برمتها على أعضاء المجلس، مفوضا اليهم وحدهم، أن يتصرفوا فيها حلا وعقدا، وفتقا ورتقا.

ثانيا توق أن تسوق «في المسائل المحالة إلى المجلس» حرفا واحداً من الكلام، قبل أن يبلغ المجلس من بحثها الختام، متوخيا كمال الدقة في التزام الانصات لهم، إنكاء لشوق المتكلمين منهم.

ثالثا – إذا فرغ المجلس من تمحيصها، ورأيت الحاجة ماسة إلى التكلم فيها، فإياك أن تنسب الكلام إلى نفسك، بل أنظر: فأي الاعضاء كان في ملاحظته مصيبا، فإليه وجه خطابك قائلا: إن رأيي أنا الآخر لموافق لرأيك وإني لأراك قد أحسنت التعبير، وأجدت التقرير، ثم تناول ما كان من قوله مبهما، فاخلع عليه بالنيابة عنه، حلة من البيان، وما كان مجملا فوضحه عن لسانه، حتى تجلوه للعيان، لئلا يطرأ على همته فتور، ولا يتطرق إلى نشاطه وهن أو نفور، ولتوفي كل أمر حقه من تداول الرأي والملاحظة ، وتبلغ به غاية المقدور، من البحث والمناقشة.

رابعا – ليحظ أعضاء المجلس في أثناء المناقشة، ويتمتعوا بمرتبة من الحرية والترخيص تضطرهم إلى ابداء آرائهم في غير مبالاة، وإلى الادلاء بثمرة تعبيراتهم بدون مماراة ولا محاباة، ذلك لأن اضطرارهم هذا يستوجب منهم الاهتمام بالمناقشة المحولة على عهدتهم ، فيعيرون هذه المناقشة صميم عنايتهم ، كما يستتبع تصويتهم لكل أمر من الامور الموكول اليهم تسويتها، فيقدمون هذه التسوية بموجب ما تقضي إليه المناقشة ، حتى إذا قيض لأحدهم أن يجد الحل المنشود، أقبل الآخرون على أحضانه، فيكونون كلهم على اتحاد ، سواء في استنباط الحل ومعرفته، أو في صوغه ووضعه، وليس المراد سوى هذا الاتحاد، الذي متى جعل دستورا للعمل صدر حكم المجلس موافقا للمرام، وتحققت الغاية من نظامنا وأصولنا.

خامسا – ينبغي عليكم كلما آنستم من «رجال المجلس» استهتارا بأمر المناقشة أن تفتحوا السنتكم بباب الكلام، فتخاطبوهم في انصاف بما يناسب المقام، كأن تقولوا لهم : أيها الاخوان؛ أيها الزملاء؛ إن هذا

المجلس منوط بكم، فما عرض فيه من أمر فمناقشته موكولة إليكم، وبحثه محول على عهدتكم، وأنا مأمور بأن اقتصر على الحضور بينكم وأضم قلبي إلى قلبكم، فإن أنا تخلفت عنكم في ميدان القول والتزمت الصمت مراعاة لمقتضى الوظيفة، فإنى فى ذلك لمعذور.

سادسا - فإن لم تنفع هذه الاهابة، والاستحثاث، قل لرجال المجلس. إن قعدتم دون إيفاء لوازم المجلس، ولم تؤدوا النعمة حقها، فما علىّ الا أن أكتب إلى صاحب المجلس، فأبلغه الحقيقة، وأنبئه بالواقع فكونوا على هدى وبينة، لكيلا ترموني يومئذ بالدعاوى الباطلة.

سابعا - حرضوهم واحدا واحدا بهذه الاقوال، وانصحوهم بوجوب الاخذ بهذا المثال، فان تلقوا شرطكم هذا بالقبول، وأعاروا نصحكم أسماع الرضا والانتباه فبها ونعمت، وإلا فاكتبوا إلينا بفحوى الحال، لنجد الوسيلة التى بها يقبلون ويسمعون.

ولكن ماذا يكون الحال لو أن التقصير، وقع من رئيس المجلس ذاته، فلم يوسع لرجال المجلس فى فرص القول، أو لم يشعرهم بأنهم أصحاب الرأى، وأن رأيهم هو الضالة التى ينشدها صاحب المجلس، أو إذا استأثر دونهم بالكلام، أو سبقهم اليه، أو فرض عليهم رأيا، أو استهان برأى أبدوه، أو لم يبذل أقصى الجهد، فى استثارة حب المناقشة فى نفوسهم، أو لم يبتكر الوسائل، لتنشيط الجدل فى المجلس، وفتق الامور، ورتقها، وحلها وعقدها، هنالك يكون الجزاء الذى هدد به صاحب المجلس فى ختام أمره الكريم فقال:

«فإن يكن قولى لم يحظ منك بالاصغاء، ولا لقى ما يستحقه من التنفيذ والاجراء، فإنه قد أصبح لزاما عليك من الآن فصاعدا أن تضمه

نصب عينيك، وتشمر لتحقيقه عن ساقيك وساعديك، وإن شيئا سميناه قاعدة وأصولا، ولجمعنا الرأى على اتباعه لجدير منك أيضا بالاتباع والامتثال، وما دمنا معافرين أن تمنى هذه الاصول بعوارض الاهمال والتعطيل ، فجدير بك كذلك أن تحذر، فلا تمسها أو تعرض نفسك للندامة من أجلها».

وبالنظر فى هذه النصوص نستطيع أن نتبين الآتى:

أولا - إن هذا المجلس ، لم يكن سلطة أو هيئة أعلى من محمد على، ولا حتى مساوية له. فهو صاحب المجلس، أى خالقه، وأعضاء المجلس.. الذين تسميهم الوثيقة «رجال المجلس» كانوا أولى الأمر رؤساء المصالح والدوائر الحكومية، فهم موظفون فعلا تابعون لولى الامر، ومصدر النعم.

ثانيا - يذهب بعض المؤرخين، إلى أن هذا المجلس العالى أو المخصوص، كان بمثابة مصلحة من مصالح الحكومة، وسنرى مصداق هذا فى الوثائق المكملة لوثيقة ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ =٥ ربيع الثانى ١٢٤٠هـ.

ثالثا - ولكن أصح ما يمكن أن نسمى به هذا المجلس ، أنه «مركز تدريب» فظاهر من عبارته ، أن الوالى، كان يعلم بداهة أن أعضاء المجلس، لن يجدوا ما يقولونه نصحا لولى النعم، أو اقتراحا على حكومته، ورجال دولته، فضلا عن تحميل أمر أصدره أو قرار اتخذه ، أو خطأ ارتكبه ، أو ظلم أوقعه. لذلك بذل كاتب الوثيقة ، بأمر الوالى، جهدا ، ليثبت فى ذهن رئيس المجلس أن مهمته الكبرى، فى أن يجعل من رجال المجلس، أعضاء فى هيئة مشورة، وأن يشجعهم على القول، ويدربهم على المناقشة، ويأخذ بيد من واتته الشجاعة فاقترح شيئا ،

وإيهامهم بثقتهم فكروا ودبروا، بأمل أن يفعلوا شيئا من ذلك في المستقبل.

فإذا كانت هذه الألفاظ عبرت عن واقع ، ثم أخذ بها، ولم تنس، فقد استحق محمد على الشهادة التي شهد له بها كلوت بك في كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إذ قال:

من المحقق أن هذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغي ملاحظة ما بذله محمد علي من الجهد في هذا السبيل».

* * *

كان «المجلس العالي» في حاجة إلى ما نسميه اليوم باللائحة الداخلية، أو بالنظام الداخلي، لذلك أسند إلى أحد أعضائه، وهو محمد كاشف أفندي باشكاتب الوقائع المصرية لوضع مشروع لهذه اللائحة، وقد اعتمدها المجلس فعلا ، ثم نشرت في العدد ١٥٨ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في أول يونية ١٨٣٠.

والتأمل في هذا المشروع، أو بعبارة أدق في هذا النظام، الذي أقره المجلس ثم أصبح دستور العمل في مجالس أخرى، كانت تقوم في – عهد محمد علي ، كمجلس شورى الجهادية ، ومجلس الاسكندرية – القائل فيه يعين على تبين طبيعة هذا المجلس، ومدى سلطاته ، وحقيقة علاقته بالوالي، وبالأهالي ، أي بالحاكم وبالمحكومين.

ويبدأ النظام بتعريف المجلس، في فقرة معنونة «مقدمة في ماهية المجلس» ثم يسترسل في القول:

مجلس الشورى هم الذوات المشهود لهم بالفكر الثاقب، والرأي الصائب، المعدودون أهلا لتدبير المصالح بالاعتدال والاستقامة، القائمون

من البغض والعداوة، العارون عن لباس الغرض النفساني، الثابتون في الجلوس بمحل واحد كنفس واحدة، الذين يتذاكرون في المصالح التي ترد إلى المجلس من غير إكراه ولا استثقال، ويصرفون ذهنهم، ويبذلون جهدهم بثبات واستعداد للنظر في الامور وهؤلاء الذوات ، وإن كانوا متعددين، ينبغي لهم أن يحسبوا انفسهم ذاتا واحدة من شدة الاتحاد والاتفاق الحاصل بينهم ومتى كانوا كذلك سموا مجلسا.

ولعل العين لا تستطيع أن تخطىء هنا ، رغبة الوالي ولي النعم، في أن ينفي كل مبررات الانقسام في الرأي ، وبالتالي مبررات نشوء معارضة . فمحمد كاشف، حينما بالغ وأسرف في بيان ما يجب أن يصير إليه أعضاء المجلس من الوحدة التي تقضي لأحدهم أن يجد الحل المنشود أقبل الآخرون على إمضائه فيكونون كلهم على اتحاده.

ثم يقول مواليس المراد سوى هذا الاتحاد، ولائحة المجلس ترى أن المجلس لا يكون جديرا باسمه، الا إذا انتهت مداولاته إلى رأي يقره الجميع وهو تصور طريف، لواجبات المجلس، فهو لا يرى الا أسلوبا واحدا لاصدار القرارات ، هو أسلوب الاجماع.

ويشي نظام المجلس بفصل عنوانه «فيما يجب على الاعضاء من تقديم الشكر لله تعالى، وفي أصول آدابهم».

وقد اقتصرت هذه الواجبات على ثلاثة أمور هي:

أولا – على كل المنتخبين «أي المختارين» الذين هم أهل المجلس أن يوفوا ما يجب عليهم من الشكر لله على نعمه التي حازوها باكتسابهم الجاه والشرف، وبتميزهم عن سائر الناس، حيث أنهم صاروا أهلا لذلك في ظل أيام سعادة أفندينا.

ثانيا - ينبغى أن يسعوا فى تحصيل رضا أوامر ولى النعم الذى هو سبب لترفهم، وينقادوا بكل امتثال لانفاذ ارادته السنية.

ثالثا - يعتنون الاعتناء التام بضبط كل المصالح التى يلزم المذاكرة بها فى المجلس من دون غرض.

وقد فصل هذا الامر الاخير تفصيلا طويلا، واورد فيه أحكاما مشابهة تماما لما يجرى الآن فى المجالس النيابية وغيرها فى أيامنا، وإن اختار للتعبير عن هذه الاحكام اسلوب تلك الايام ونجمل هذه الاحكام فى الفقرات التالية:

١ - ينبغى لكل من أهل المجلس أن يجتمعوا فى الميعاد المخصوص للمجلس، ويجلس كل منهم فى محله بالادب والاحتشام.

٢ - على الأعضاء اجتناب المقالات «الاقوال» التى لا توافق المصلحة والتى لا تليق أن تحرر.

٣ - إن لم يستقر الرأى على القرار فى مسألة أى «ختمها» وإذا توقف ختم المسألة على استفهام فلا ينتقل منها إلى غيرها «من دون أن يروا لها نتيجة لكيلا يصير بها تعطيل أوقات».

٤ - من أراد أن يتقدم باقتراح يسميه «تقريرا بحسب المصلحة» فلا يضايق المجلس ملحا بقضائه قبل ما سواه من المصالح.

٥ - وإن صدر من أحد الأعضاء قول أو سؤال ميشمئز منه أحدهم، وكان هذا القول أو السؤال مما تدعو إليه المصلحة، فليتخذ كأنه من أفواه المجلس ولا يجعل سببا لصدور البغضاء والعداوة.

٦ - وقد بين النظام أحكام الغياب فنهى عن الخروج بغير عذر، وإن طرأت العضو حاجة تدعو لغيابه يطلب أجازة، على أن يعود سريعا فإن

لم يستطع العودة قيد ذلك في مضبطة المجلس، وإن منعه مانع من الحضور يخطر المجلس بتذكرة فإن لم يتبع هذه القواعد ، وأصر على مخالفتها ، فينبه مرة واثنتين وثلاثا، وبعد ذلك إن بدا منه حركة مخالفة لتلك الأصول يمنعه ناظر المجلس عن الدخول يوما واثنين وثلاثة بحسب جنحته ومقامه تربية له، وبعد ذلك يؤتى به إلى المجلس».

ثم تنتقل اللائحة إلى فصل آخر معنون «في مصالح المجلس»، وهو يعني الأمور التي تعرض على المجلس لابداء الرأي فيها، واصدار القرار في شأنها فقسمها إلى أقسام فقال:

«إن الامور التي تقع المذاكرة عليها في المجلس إما أن تكون :

١ - متعلقة بالميرى

٢ - أو بالرعية

فما كان متعلقا بالميرى فإما أن يكون :

١ - فتقا ورتقا بالأصول

٢ - أو ضبطا وربطا بالحسابات».

ولعله يعني بالرتق والفتق بالاصول، هو المسائل القانونية، في حين يقصد بالضبط والربط بالحسابات المسائل المالية.

على أنه أضاف إلى هذه المسائل ، مسئولية الموظفين، فقسمها بدوره إلى قسمين، قسم يكون التعيين فيه صادرا من الوالي، وقسم ثان يكون موكولا إلى المجلس ابتداء «فإن كان تخصيصه من طرف ولى النعم فلا يعارض لان الكبراء وغيرهم تحت حكم سعادته، وهو يعلم النفع والضرر الحاصل ، وصاحب البيت أدرى بما فيه».

أما إذا كان التعيين موكولا المجلس ، فقد وضع النظام قواعد تكفل الحيدة وعدم المحاباة، فقال:

«ولا ينبغي للأعضاء أن يميلوا إلى الوالد والاولاد ، والاخوان والاقارب، والاخلاء والاصهار، والاحباب، إذا أرادوا أن ينتخبوا أحدا لمصلحة بل يتخذوهم كسائر الناس، وينظروا إلى من يريدون انتخابه ليعلموا هل هو بليد أو ذكي العقل، أو هو ذو فكر ثاقب ورأى صائب، أو غير مستقيم أو متكاسل، خائن في خدمته أو ذو اجتهاد وسعي، ويلاحظوا قابليته واستعداده وحركاته وسكناته، فإذا رأوه غير متهم بشائبة الاختلاس، وقادرا على القراءة والكتابة حسب الوقت انتخبوه من بين أمثاله، واستخدموه في مصلحة مناسبة لحاله».

وتحذر اللائحة أعضاء المجلس من حيل وألاعيب موظفي الحسابات، فتقول «ومثل هذه المواد التي تحصل من خدمة أهل الحساب ومكرهم تعلم كيفيتها من الدفاتر» وظاهر من هذه اللائحة، أن اختصاصات المجلس، تجاوز نطاق المراقبة والتشريع وسؤال النظار، ومناقشة واستجواب الرؤساء، إلى مباشرة بعض اختصاصات السلطة التنفيذية، فقد جاء مثلا في هذه اللائحة «والامتعة التي يلزم شراؤها الآن يؤتى بعيناتها بمعرفة نظار الدواوين وتقدم إلى المجلس فيستقصون عن ثمنها، ويعطون صورة حسنة لمشتراها».

ثم تخصص اللائحة، بعد ذلك ستة فصول قصيرة خاصة بإجراءات المجلس، من قبيل ضبط محاضره، ووظائف كاتب المجلس، وخدمة تبييض المضابط من أصل مسوداتها وكاتب لتقييد مذكرات المجلس، وكاتب المقيد خلاصة يومية لأعمال المجلس مع إشارة «بالحبر الاحمر فوق كل خلاصة إلى ما تشتمل عليه من المصالح» ثم بيان خدمة المترجم، الذي يقوم بترجمة الكشوفات والقوائم والتقارير العربية إلى التركية.

ويختم هذه الفصول الادارية بحكمة إدارية فيقول: «من اقتضاء المصلحة أن تقيد وتضبط المادة التي يلزم رؤيتها في كل يوم ، لانه إن لم

تضبط وتربط تضييع . كما قيل «كل حرف ليس في القرطاس ضاع».

ويتوج هذا كله بخاتمة عامة يقول فيها:

«هذا المجلس شريف عال ، وأربابه بحسب نسبتهم إليه، قدرهم عال، فينبغي حفظ شأنه، وحفظ شأن من انتمى إليه من ذوي القدر المنيف فيحفظون هذا المجلس الشريف بمراعاة الآداب، في جلوسهم ، وتكلمهم ، وسكوتهم ، وحركاتهم».

وكان محمد على قد أصدر في الثالث من يناير سنة ١٨٢٥ ما أسماه أيضا لائحة المجلس العالي، وقد بين في هذه اللائحة الموضوعات التي يمكن إحالتها إلى المجلس فقد ورد فيها:

«لما كانت هذه الأمة الناجية قد نشأت على أن تسير شئونها – صورة ومعنى – على مقتضى ما ورد في محكم الذكر من قوله تعالى: «وشاورهم في الامر» وكانت مأمورة بالرجوع إلى أهل النظر تخاطبهم وتداولهم فيما اختصوا بعلمه من الامور، التي لا تفتأ تعرض لها، ونظراً عليها فإن صاحب الدولة مولانا ولي النعمة مطبوع على الخير والرحمة، وقد رأى وقاية للنظام والتدبير الواجب اتخاذهما تبعا للظروف والملابسات فيما يعن لدولته من الامور المهمة، أن ينعقد مجلس خاص يكون واجبه إيضاح جميع التفصيلات وتفهمها، بحيث إذا حررت مضبطة مداولته الشئون والمواد المقدمة إليه مع القرار الذي يتفق رأيه عليه، ثم عرضت هذه المضبطة على انظار دولته، كانت المناقشة كأنها قد دارت على مسمع من ذاته العلية، وبين يدي حضرته السنية: ثم بين الامور الثلاثة التي يمكن أن تعرض على المجلس فقال:

فأما المورد الاول ، فهو أن يسنح خاطر مولانا صاحب الدولة ولي النعم برأي سديد في صلة بمصلحة من المصالح المهمة، فإن صدر

نطقه العالى بشأن هذه المصلحة، فعلى عبده المأمور أن يدون هذا المنطق ويشعر به المجلس فى صورة تقرير.

وأما الثانى، فهو ما يقدمه عبده صاحب العطوفة الباشا الكتخدا أو عبد غيره من عبيده النظار، وسائر المأمورين، من افادات متصلة بتنظيم بعض المصالح وتسويتها مما ينطوى على جلب منفعة أو دفع مضرة.

وأما الثالث فهو أن تقوم فى وجه ولاة الاعمال مشكلة متعلقة بالمصالح الموكول إليهم تصريفها فلا يستطيعون إلى حلها سبيلا، وينبغى بالطبع رجوعهم فيها إلى المجلس».

وهذه اللائحة ، ككل اللوائح المتصلة بهذا المجلس العالى، تشتمل على خليط من النصائح الخلقية، والقواعد التنظيمية، والمبادىء الدستورية، وهل هذا الخليط ، نتيجة لان الحياة النيابية، كانت أنذاك ، كالجنين الذى لم يتخلق بعد، فالتمييز بين أنفه وعينه، ورأسه ورجله، ليس بالأمر الميسور ، فهذه الوثائق التى نقلنا عنها ما نقلنا، يتجاور فيها الحديث عن الشورى فى القرآن، مع الحديث عن عبيد الوالى من النظار وأعضاء المجلس، والحديث عن حق الاعضاء فى مناقشة الامور بحرية، يتداخل فى وجوب طاعة الاعضاء ذاتهم لولى النعم، وأن أول واجباتهم شكر الله إذ خصهم بثقة دولته وعطف جلالته، وفى حين يبدو أنهم ذوو رأى ثاقب، يوجه اليهم الحديث كأنهم أطفال تخفى عنهم البسائط والبديهيات من الأمور.

ولكن هذه التناقضات الغريبة، التى تدعو إلى الابتسام والضحك أحيانا، هى عناصر الصورة التى كانت للحياة النيابية فى ذلك العهد، ولا مناص من أن نحيط بها، وأن نعرف وقائعها، لنعرف جانبا هاما من تاريخنا المعاصر لايزال فى حاجة إلى مزيد من التقصى والبحث.

قضية للمناقشة

الدولة العثمانية
دولة مفترى عليها

نجح الغرب في إلقاء فكرة أو عقيدة في نفس وعقل العرب والمسلمين وعدد ضخم من الشرقيين مؤداها أن دولة بني عثمان التي استمرت تحكم مساحة واسعة في آسيا وأوروبا وافريقيا ، قرونا عديدة وبنجاح سياسي وعسكري متصل الحلقات ، متعدد المراحل ، والتي تركت أينما ذهبت ، عواصم زاهرة متألقة ، تزينها مساجد وتكايا وأسبلة وقصور وجسور وشوارع وميادين ومكتبات وثكنات وآثار حية في لغة الاقوام التي تحكمهم سواء كانت لغة الحياة اليومية أي لغة المأكل والمشرب والملبس ، وركوب الجياد ، أو لغة الفكر والأدب . هذه الدولة بكل جلالها وهيبتها وضخامتها واتساع مداها ، كانت عورة في تاريخ الاسلام والعرب ، والتمدين الانساني والحضارة البشرية ، وأن حكمها كان ظلما وعسفا ، ومحاربة للعلم ، ووأدا للفكر . وقد صعب على المصريين والعرب بعد ذلك أن يراجعوا أنفسهم في هذا الحكم الظالم ، وأن يلتمسوا المعرفة الحقيقية في نطاق التاريخ الحديث الذي سطرت

الهلال – يناير ١٩٨٦ .

صفحاته ، ونسقت بفصوله أقلام مؤرخين أجانب ينتمون إلى الغرب ، ويؤمنون بالمسيحية ، ويطوون صدورهم في الأغلب الأعم ، على كراهية شديدة للإسلام والمسلمين ، إلا عن تعصب لدينهم ، بل ولكثرة ما سمعوا من القدح والذم ، في تركيا وحكامها ، وأساليب دولتها ، ومناهج قادتها .

ولو تنبه هؤلاء المساكين والمضلل بهم ، أن تركيا منذ عبرت جيوشها من الاناضول سنة ١٣٥٦ على عهد السلطان اورخان ثاني السلاطين العثمانيين ، استمرت تحكم وتتوسع في الفتح حتى بلغت في أوربا مشارق النمسا ، كما اتسع ملكها في آسيا وافريقيا ، واستمرت متماسكة ، سلطانها باذخ ، وأمرها نافذ ، وقوتها متصاعدة حتى أفل نجمها في نوفمبر سنة ١٩١٩ ، أي بعد ستة قرون متصلة العمر الذي لم تبلغه دولة أخرى لا في القديم ولا الحديث ، وأنها حين أمال عليها الزمان في الحرب العالمية الأولى التي بدأت في اغسطس سنة ١٩١٤ ، كانت دولة ذات شأن تعتبر قوة عسكرية وسياسية ، يحسب لها في السياسة الدولية كل حساب ، ولو أحسن قادتها التدبير ، واثروا الحياة على اقتحام حلبة الحرب في صف المانيا والنمسا ، ضد انجلترا وفرنسا، لعاشت زمنا آخر وربما لحافظت على وجودها في آسيا وافريقيا .

ولقد تنبه عدد من علماء التاريخ العربي إلى ما في حملة اوربا وامريكا من التجني على الدولة العثمانية ، وما خالط أحكام ساستهم وعلمائهم ، من التحيز والميل مع الهوى ، فانبروا يردون عليهم اغلاطهم بأسلوب علمي قائم على الوثيقة التاريخية ، والواقعة الثابتة ، والحقائق

غير المذكورة ، ومن هؤلاء الاستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى الذى وضع موسوعة تاريخية من ثلاثة أجزاء أهدى إلى اثنين منها

قال الدكتور الشناوى فى مقدمة الجزء الأول من موسوعته العظيمة:

«وعلى مبلغ علمى لم تتعرض دولة فى العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها ، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما الاستعمار الاوربى والصهيونية واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) والتصريحات الرسمية ، ومن مجموعات الوثائق التى نشرتها بعض الحكومات الاوربية مجالا رحيبا لاذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملا عليها. وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة وتجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معهم فى مؤلفاتهم، واستقرت فى أذهان الاجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربى والاسلامى صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقترن ذكرها فى اذهانهم بمظالم ومحن تكدست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تعسفية وجغرافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم واراضيهم ومحاصيلهم . وماشيتهم ، واجراء مذابح عامة ، ومن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية بوجه خاص ، وهى خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها .

وتناسوا أيضا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا دولية جسيمة كانت تهدد العالم العربى بأفدح الاخطار، وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية ، وتسللهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلاؤهم على مواقع عسكرية هامة ، ومحاولاتهم دخول البحر الاحمر

من منفذه الحنوبي للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة ، لهدم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة ، لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالي الشرقي للجزيرة العربية هو أول غزو أوربي عسكري صليبي في التاريخ الحديث لاقاليم

وانتقل المؤرخ الكبير إلى جانب آخر من تاريخ الدولة العثمانية كان يعتبر عند أهل أوربا ، الجريمة الكبرى ، من جرائم الدولة العثمانية ، وأعني ؟ فتوحاتها في تلك القارة ، وهو رد فعل طبيعي لأهل كل دولة أو قارة أو للمؤمنين بأي دين . فإن تقتحم عليهم معبدهم ، وأن يحكمهم أقوام لا يؤمنون بعقيدتهم ، فذلك هو أعظم البلاء .

قال الدكتور الشناوي

«لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الاسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوب شرق أوربا ووسطها ، وهي اقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الاسلام انتصارات خاطفة وباهرة وتساقطت في أيديها دول أوربية عديدة ، وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الاوربية فزعا وهلعا من هذه الدولة الاسلامية الطارئة عليها في عقر دارها» .

وأحب بعد هذه الاقتباسات الطويلة أن أنقل ثلاث فقرات من كتاب دولة مفترى عليها :

الفقرة الأولى تقول :

ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الاسلام عقيدة رسمية لهم ، وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان

ولاؤهم يتجه إلى الدين الاسلامي أولا ثم إلى السلطان ثانيا وإلى الدولة ثالثا .

الفقرة الثانية :

نظر الاوربيون إلى الفتوح العثمانية فى أوربا على أنها فتوح اسلامية وقد اعتزم محمد ابو الفتوح (أو محمد الفاتح) أن يتخذ من أوترانت قاعدة يزحف منها شمالا فى شبه جزيرة ايطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدمن الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية . ولكن عاجلته المنية فى اليوم التالى من شهر مايو عام ١٤٨١ وتنفست أوربا الصعداء حين علمت بوفاته ، وأمر البابا أن تقام صلاة شكر ثلاثة أيام .

والشق الثانى من الفقرة .

«ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولز مؤرخ عصر الملكة اليزابيث فى انجلترا (١٥٥٨ - ١٦٠٣) وصف الشعور الاوربى العام باتجاه الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد أوربا فكتب هذه الجملة المعبرة «إن الامبراطورية العثمانية هى مصدر الرعب فى العالم».

ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزجوا بانفسهم فى الصراع الدموى الذى نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذا تستهوى الفئة المضطهدين والمعذبين فى الأرض الاوربية يلتمسون فى رحابها الامن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر فى كتيب نشره فى عام ١٥٤١ . أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الاراضى يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الاتراك ولا يعيشوا فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء .

بعد هذه الحقائق التاريخية التي تحدد أصول المناقشة في موضوع الدولة العثمانية .

يتضح الآتي

أولا تركيا دولة عظمى بمعايير القرن السادس عشر وما بعده وقد اتسع ملكها وترامت آفاقه بالأساليب التي كانت متبعة في ذلك العهد لم تزد ، وربما لم تنقص وإن كانت قد تحملت بما تقضي به قواعد الاسلام من رعاية أهل الذمة ، وهم غير المسلمين الخاضعين للحكم الاسلامي والذي نهى الاسلام عن الاساءة اليهم ، أو قهرهم على دخول الاسلام أو ترك دينهم وقد أورد مصطفى كامل في كتابه الشهير (المسألة الشرقية) أن بعض مستشاري سلاطين بني عثمان زين لهم إغراء أو حمل الاقليات المسيحية في شرق أوربا ولكن شيوخ الاسلام نهوا السلاطين عن ذلك ، وكان من الممكن أنئذاك إخراج الاقليات من ملتهم ، فالظروف الدولية في تلك الايام كانت تسمح بأشياء من هذا القبيل بسبب النزاع الدولي والحروب الدينية بين المسيحيين بعضهم البعض . وهي الحروب التي استبيحت فيها ارواح الابرياء ، وأعراض النساء ، واستعملت فيها ضروب من العنف عف عنها الفاتحون المسلمون وحتى الجنود الصغار ، لفرط تشديد القادة المسلمين على اتباعهم بوجوب رعاية حرمات غير المسلمين مالا وعرضا وعقيدة .

ثانيا أن الحكم التركي في كل ممتلكات السلطان العثماني لم يكن أسوأ من حكم ملوك وأمراء أوربا في تلك الفترة ، بل أن حكم هؤلاء كان أمعن في الظلم ، وأبعد في الاساءة إلى الشعوب ، وكان حكامهم جهالا ولم تكن تربطهم عقيدة تأمر بالعدل والاحسان كما كان يأمر الاسلام ملوك بني عثمان .

ثالثا   أن الشكاوى التى لا تزال عالقة بأذهاننا وخاصة لاسماعنا عن الحكم العثماني ، هي شكاوى العرب بصفة خاصة ففي فترة أفول الحكم العثماني ، وهي فترة سيئة في ظل كل دولة ولا يمكن أن تحاسب عليها تركيا ، ولا أن تعتبر مقياسا للحكم على كل الحكم العثماني وحسب تركيا شرفا أنها وهي تكاد تلفظ أنفاسها ألزمت سلطانها السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . وحسب السلطان عبد الحميد الذي أسيء إليه بفعل الدعاية الاستعمارية والصهيونية أنه رفض أن يأذن بوطن صهيوني على أرض فلسطين وبقي مصرا على هذا الرفض حتى تم عزله ثم موته .

هذه هي تركيا الحقيقية ، التي لا نزعم أن الله برأها من كل عيب ، ولكنا جهلنا تاريخها ، وأسلمنا أذننا لتقولات خصوم تاريخنا ، فتجنينا عليها

مذبحة القضاء

فى مصر استمرت قرناً !

هذه خواطر أوحى بها مؤتمر القضاء الأول ، الذى عقد فى المدة من ٢ إلى ٢٤ ابريل الماضى ، وهو أول جهد يقوم به القضاة على هذه الصورة الواسعة والعلنية لاصلاح النظام القضائى فى بلادنا ومعالجة ما أصابه من قصور وآفات بفعل الادارة السيئة ، والعجز الحكومى واعراض السياسة لعل هذا المؤتمر فاتحة عهد جديد يقوم فيه القضاء برسالته المجيدة على أحسن وجه ، وخير منهج .

يحسب بعضنا أن القضاء فى مصر قبل الثورة ، كان بمنأى من التدخل الصريح فى أعمال القضاة ، أو فى الضغط والترهيب والترغيب ليحصل أصحاب السلطة أو الجاه أو المال على ما يطمعون فيه من المحاكم التى تعرض عليها قضاياهم ، التى تصور صراعا أو خصومة أو تنافسا بينهم وبين آخرين قد يكونون فى مثل قوتهم ، أو أضعف منهم كثيرا أو قليلا والحقيقة تخالف ذلك الاعتقاد فالقاضى المصرى منذ وضع الاحتلال البريطانى قدمه فى ١٤ من سبتمبر ١٨٨٢ إلى حين قامت ثورة يوليو ، كان يخضع تعيينه وندبه ونقله وترقيته وتخطيه فيها ،

الهلال – مايو ١٩٨٦ .

لارادة ممثل بريطانيا بغض النظر عن الاسم الرسمي لهذا الممثل ، الذي عرف أول الأمر بالقنصل العام لبريطانيا العظمى ، ثم بالمندوب السامي ، وأخيرا بالسفير البريطاني في عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ التي أبرمت في أغسطس من ذلك الشهر .

وبذلك كان القضاة قلقين ، يعرفون أنهم معرضون للفصل أو التخطي ، أو النقل إلى مدن أقل شأنا من مدن يعملون فيها فعلا . ذلك لأن المندوب البريطاني وممثلها ، يعلم أن القضاء بطبيعته ، هو حماية المظلوم ، وبرع المطالبين بالحقوق العامة ، والمدافعين عن الشعب ، فإن كان مستقلا مصونا من الضغط والتأثير ، زاد المناضلون عن حقوق الناس المهدرة ، وحرماتهم المنتهكة ، وتمردهم على الغاصب الدخيل وعندها يعاني الاحتلال البريطاني وممثلوه من الضغوط الوطنية ، ما يفسد خططهم ، أو على الأقل ، يؤخرها ، ولما كان الخديو أو السلطان أو الملك المصري ، هو رجل أختير ليكون عونا لهذا الاحتلال وسندا له ، في مقابل مزايا يمنحها ، وسلطات يستمتع بها ، وحماية من المساءلة والمؤاخذة تقيه أن يحاكم أو ينزل به عقاب أو تسترد منه أشياء سلبها ، أو اعراض هتكها، أو اعتداءات ارتكبها . وبذلك أصبح الحاكم المصري الذي كان يسمى خطأ بالحاكم الشرعي أو الحاكم الأصيل ، لتميزه عن الحاكم الاجنبي الدخيل أو الذي لا شرعية لسلطته ، أصبح هذا الحاكم شريكا في العدوان على القضاء المصري ، فلما قامت الحياة الحزبية ، بعد تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ التي أعلن بها الانجليز من طرف واحد، إلغاء الحماية البريطانية التي فرضت على مصر عقب اندلاع الحرب العالمية ، ذلك في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، والاعتراف

بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتحويل سلطانها إلى ملك ، وتخويل الملك إعداد دستور تقوم في ظله حياة نيابية يمثل فيها الشعب ، نواب يختارون في انتخاب عام لما تم هذا التغيير تنافست احزاب الحكم في مصر ، بعد انتخابات حرة مرة أو انتخابات زائفة ، تعبث فيها السلطة كما تشاء ، ويعبث خلالها بارادة الشعب على ما تهوى احيانا ، فانضم شريك ثالث للسفير البريطاني والملك المصري ، ذلك هو الحزب الذي تمارس بعض السلطة حكومته ، ففي ظل الحكم النيابي كان يتم إفساد القضاء بصور منها

١ - يكون لزعيم الحزب قضية خاصة ، فيرفعها إلى محكمة ، فيقضى له بما يطلب ، فيكافأ المستشار الذي يرأس المحكمة بتعيينه وزيرا ، وقد تم تعيين أكثر من وزير ، لمثل هذا الغرض .

٢ - يبلو محام ما في تأييد حزب ما بلاء حسنا ، فيضم إلى الاعضاء ، ويصنع لرؤساء الحزب عند تجولهم في الاقاليم والولائم الفاخرة ، وتعد السرادقات الواسعة ، فيصل إلى منصب القضاء في أقرب فرصة تالية بأهون سبيل .

٣ - يخرج المحامي الوزير الذي يشغل مكانا مرموقا في حزبه ، من الوزارة فيشتغل بالمحاماة ، ويصبح منتظرا عند الجميع أن يعود في تعديل وزارى قريب وزيرا ، فيقبل على مكتبه أصحاب القضايا ، ويبقدونه أتعابا ضخمة ، تتيح له أن يقتني الضياع ويبني القصور فإذا ذهب إلى المحكمة ترافع أمام قضاة عينهم حينما كان وزيرا أو عينهم حزبه الذي ينتمي إليه ، فيقابل بالاجلال علنا ، وبلا تحشم ، وكثيرا ما شاهد المترددون على جلسات المحاكم المحامي الحزبي ، الوزير الحزبي يدخل الجلسة ، فيقف رئيس الجلسة ، ويحييه علنا ، كما أصبح من

التقاليد المرعية أن الوزير الحزبي السابق ، حينما ينتهي من مرافعته في إحدى مدن الريف في الصعيد أو في الدلتا ، يمضي إلى المحطة ليستقل القطار ، ومن حوله القضاة والمستشارون الذين كان يترافع أمامهم منذ ساعات ، وربما ينضم إليهم السيد مدير الاقليم أو محافظه، ولا يخلو الحال من أن ينضم إلى هؤلاء جميعا أنصار حزب صاحب المعالي الوزير ، فيهتفون بحياته ويلهبون الاكف بالتصفيق .

٤ - وجاءت الاحكام العرفية - بحالة جديدة من حالات فساد القضاء، واتلاف كل أسباب النزاهة وضماناتها للحكم . ففي ظل الاحكام العرفية لا تستانف الاحكام ، وانما تعرض على مكتب ينشئه الحاكم العسكري لمراجعة تلك الاحكام ، ثم يثبت ما يشاء فيها ويلغي ما يشاء ، بلا قيد وإلى غير حد ، وهذه المكاتب ليست محاكم ، فليس لها حصانة القضاء ولا هيبتها ، وقد ترى المكتب مليئا بالمحامين وذوي المتقاضين وأصدقاء القضاة ، فإذا بالعدالة قد أصبحت شبحا ، والحق ضيعا، والقانون يداس بالاقدام علنا .

ومع ذلك يبقى المواطنون في مصر مؤمنين بأن قضاءهم من أنظف القضاء في الشرق والغرب ، وهذا الظن لم يكن كله وهما فالقضاء المصري حيث تنأى الخصومة عن اصحاب السلطة ، ويصبح طرفاها من أفراد الناس ، حتى ولو كانوا على شيء من الثراء أو الجاه ، لا يهتز ميزان العدالة في يد القاضي في حين أن فساد أنظمة التقاضي في بلاد عربية كثيرة كان امرا مقطوعا به ، وقد حدثني أديب الشيشكلي وكان رئيس الدولة الحقيقي في سوريا ، وهو يزور مصر وأنا وزير خارجيتها بالنيابة بأن أكثر القضاة في وطنه ، كانوا من فساد

الزمة ، وكان بذل الاعطية لهم يتم على مسمع من الجميع ، بل يعلم الخصوم. أما القضاء في أمريكا الذي ينتخب فيها القضاء فهو مثل في العبث بحقوق الناس ، وتلقي الرشوة بلا تحفظ ولا خجل ، وقد رأينا صورا من هذا التعفن في قصص رايد تعرضها الشاشة الفضية

لقد بدا لي أن أروى للقارىء قصصا تدخلت فيها السلطة علنا في قضايا شهيرة معروضة على القضاء في واقع الامر قصص طريفة في ذاتها منها

١ - قضية زواج الشيخ علي يوسف «باشا» صاحب جريدة المؤيد .

٢ - قضية مقتل على كامل فهمي الثرى الذي قتلته زوجته الانجليزية مرجريت ، التي حوكمت في لندن فهربت .

٣ - قضية سليم بك حسن وكيل مصلحة الاثار المصرية سنة ١٩٣٨ وما حولها

٤ - قضية مقتل السردار لي ستاك - قائد الجيش المصرى وحاكم السودان في الوقت نفسه .

وأقدم هذه القضايا هي قضية الشيخ علي يوسف الذي كان صحفياً، وفد إلى مصر من قرية في الصعيد ، هي قرية بلصفورة التي هي من أعمال محافظة جرجا ، وقد طلب العلم في قريته ، التي ولد فيها وقد ترك قريته وذهب إلى قرية بني عدى بمركز منفلوط حيث أخواله . ثم مازال يلتمس أسباب المجد ، متذرعا بصلابة خلقه ، وثباته وطموحه غير المقرون بالتهيب ، حتى أصدر جريدة المؤيد في أول ديسمبر ١٨٨٩ ، فما لبثت حتى أصبحت أكثر الجرائد المصرية ذيوعا . ولم يكن لواء مصطفى كامل قد صدر بعد، إذ كان صدوره في يوم الثلاثاء ٢ من

يناير سنة ١٩٠٠ ، وبفضل سطوع نجم اللواء ، وانتشاره، أصبح على يوسف أحد كبار ذوى النفوذ ، إذ اتخذه الخديو عباس حلمى مستشارا يهتدى برأيه ويعمل بنصحه ، وكان يطيب له الجلوس معه ، والتحدث إليه ، ولما كان طموح على يوسف لا يقف عند حد فقد طمع فى أن يخطب لنفسه الانسة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات شيخ الطريقة الوفائية ، وكانت فتاة جميلة وذكية ، وكان أبوها يصحبها إلى كل مكان يقصده فرآها الشيخ على يوسف فوقعت من نفسه موقعا ملك عليه زمام قلبه ، وكان والد صفية صديقا لعلى يوسف ولم يكن لديه مانع من تزويجها لعلى يوسف وإن كان يكبرها كثيرا فى السن إلا أنها كانت مأخوذة بشهرته وعلو مقامه ، وتردد اسمه على الألسن ، فوافقت على الزواج ، ولما كان زوج أختها السيد محمد توفيق البكرى هو نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يخشى أن تقوم عقبة فى طريق هذا الزواج ، فقد أخذ العروس إلى قصره ، وعقد لها على الشيخ على يوسف ، ثم نشرت جريدة المقطم نبأ هذا الزواج فى عدد ١٦ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وفوجىء أبوها بهذا الزواج فهاج هائجه أن تزوج ابنته الحبيبة إلى قلبه والاثيرة عنده بغير علمه ، وفى غير دار ابيها ، وإن كان العقد تم فى بيت أختها الشقيقة ، وانتهى الأمر بأن أعلن الشيخ عبد الخالق السادات بأنه غير راض عن هذا الزواج ولا يقره لا الظروف التى لابسته ، فحسب ، بل لعدم كفاءة الزوج ، لأنها من نسل النبى ، وشمل الخديو صديقه وجليسه ومستشاره على يوسف ، بعطفه فانقسم المصريون إلى فريقين ، فريق يؤيد الزواج ، ويرى على يوسف أهلا للزواج من صفية بنت عبد الخالق السادات ، وإن كانت

حفيدة لرسول الله ، فإن علي يوسف بعلمه ومكانته وثروته ، وعقله وقربه الشديد من الحاكم ، يرتفع إلى مقامها ، ورفع والد صفية الأمر إلى القضاء الشرعي ، ووكل الزوج اكبر المحامين ، وشغلت القضية الناس ، ولما كان الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل قد أغضبه هذا الزواج بما شابه من أخطاء كان علي يوسف وتوفيق البكري جديرين بتجنبها فقد اشتد موقف المواطنين ضد علي يوسف، وعندها لم ير الخديو عباس بدا من أن يتدخل في القضية صراحة في جانب صديقه علي يوسف ، ولما عرضت القضية في صيف سنة ١٩٠٤ وكان الخديو عباس خارج مصر مصطافا في باريس فقد أوفد أخاه الامير محمد علي ليضغط على القضاة ليحكموا لصالح الزواج باقراره ، ولكن الرأي العام كان ضد هذا القرار ، وانتهى الأمر بصدور حكم في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٠٤ بالحيلولة بين الزوجين حتى يفصل في القضية نهائيا إذ اجلت بناء على طلب محامي علي يوسف ، وهو الاستاذ حسن صبري الذي عين رئيسا لوزراء مصر سنة ١٩٤٠ . ولم تتحمس الحكومة لتنفيذ حكم الحيلولة إذ سافر علي يوسف إلى الاسكندرية يقابل وزير الداخلية بطرس غالي باشا ، الذي كان قد وضع الحكم في درجه، فاستحال تنفيذه فما كان من الشيخ أحمد أبو خطوة الذي أصدر الحكم إلا أن لجأ إلى قاضي القضاة وكان تركيا تعينه تركيا حسب الاتفاقات الدولية آنذاك بين مصر وبريطانيا وتركيا ، فأعلن أنه سيقفل أبواب المحاكم الشرعية إن لم يتم تنفيذ حكم الحيلولة ، ولما سمعت الناس بقرار القاضي وقاضي القضاة بالدعوة إلى اضراب المحاكم الشرعية حتى يتم تنفيذ حكم الحيلولة بين الزوجين ، هتفوا في الشوارع للاسلام

ولقضاة الشرع ، والتهب الموقف ، حتى انتقلت الزوجة إلى منزل الشيخ عبد القادر الرافعي وكان من كبار قضاة الشرع ، حتى حكم بالحيلولة فأحس كل من الخديو واللورد كرومر بالهزيمة ، ولكن عاد الوالد ، فرضي عن زواج ابنته من علي يوسف بعقد جديد أبرم في بيته ، بعد أن تدخلت السلطات جميعا في هذه القضية وعلنا .

أما القضية الثانية فقد بدأت بجناية وقعت في باريس ليلة العاشر من يولية سنة ١٩٢٣ بفندق سافوى بلندن .

وكان القاتل هو ابن الثرى المصرى على باشا فهمي الذى كان يملك مساحة كبيرة من الأرض الزراعية في المنيا ، وقد مات وترك أكثرها لابنه على كامل فهمي ، الذى كان قد رأى الشابة الفرنسية مرجريت أن فهام بها ، ودعاها وهو في الثانية والعشرين من عمره في مصر ، فرأت من آثار غناه والترف الذى يتقلب فيه ، مدعاة إلى قبول زواجه في ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، وما لبث أن تنافر الزوجان حتى انتهت حياتهما الزوجية برصاصة اطلقتها على زوجها الشاب ، فأردته قتيلا ، ثم قدمت إلى المحاكمة فترافع عنها المحامي الانجليزى الشهير مارشال هول الذى حصل لها على البراءة من محكمة انجليزية منحازة ضد الشرقيين بعد أن صور لها الزوج القتيل بوحش أدمى أذاق زوجه الويلات ، وجاءت الزوجة إلى مصر ومعها حكم من محكمة جنايات لندن ببراءتها وقد رفعت دعوى ميراث طلبت فيها الحكم لها بربع تركة زوجها ، لأنها برئت من تهمة القتل والشريعة تمنع ميراث القاتل في تركة قتيله .. وهي بمقتضى حكم البراءة ، لم تقتل زوجها إنما دافعت عن نفسها .

وعرضت القضية على المحكمة العليا الشرعية برياسة الشيخ طه حبيب والسيد أنور حبيب الذى عينه السادات مدعيا اشتراكيا ، ثم

رئيسا لديوان المظالم ، فأبى الشيخ طه حبيب أن يقضي لمرجريت أن قاتلة زوجها على فهمي لأن محكمة لندن برأتها، فقد قرأ ترجمة الحكم إلى العربية ، فعرف أن المحكمة برأت القاتلة المضبوطة بآلة قتل في يدها ، لا لأن الدليل ضدها ضعيف بل لأن القاتلة أوربية والقتيل مصري، فلم تمثل بالحكم ، ورفضت طلب الزوجة الاجنبية. وكان الملك فؤاد يريد أن يحكم لها بربع التركة رغبة في إرضاء الاجانب والمندوب السامي البريطاني ، فطلب صراحة من الشيخ طه أن يقبل دعواه فلم يمثل القاضي الشرعي الشجاع لطلب الملك، وأصر على موقفه فكان أن عزله الملك من القضاء وهو بعد صغير السن وكانت امامه سنوات منتظرة في المحكمة الشرعية ، وكان المتوقع أن يزيد معرفته اثناءها ، وأن يعين رئيسا للمحكمة الشرعية .

فكانت هذه هي القضية الثانية التي تدخلت فيها السلطة بلا حياء في قضية معروضة على القضاء الشرعي ، وفي اتجاه الظلم والعسف .

أما القضية الثالثة وهي قضية سياسية بحتة ، أسفرت فيها السلطة البريطانية عن وجهها القبيح كما لم تفعل قط من قبل .

فقد كان الحكم في تلك القضية يهمها أعظم الاهتمام ، فقد كانت قضية زعيمين كبيرين وإن كانا في وقت القضية رجلين أقرب إلى الشباب، وأعني بهما الدكتور أحمد ماهر والاستاذ محمود فهمي النقراشي وكلاهما تتلمذ على يد عبد اللطيف بك الصوفاني أحد زعماء حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، أي الحزب الوطني القديم ، ومدبر حركة العمل السياسي المباشر أي قتل الانجليز وأعوانهم ، وقد تحول هذان الزعيمان من صفوف الحزب الوطني إلى صفوف الوفد ، ولما

تدهور الموقف السياسي والوطني في مصر بعد إجهاض ثورة سنة ١٩١٩ ، راحت السلطة البريطانية تتعقب الوطنيين وتراجع ملفات القضايا السياسية القديمة ، لتسوق الذين تصدوا لها بالبندقية إلى المشانق والسجون وكان من هؤلاء الخصوم القدامى للاحتلال البريطاني ماهر والنقراشي ، وعرضت قضيتهما على محكمة جنايات مصرية يرأسها مستشار انجليزي اسمه «مستر كرشو» .

وكانت حالة العدالة في مصر قد ساءت حتى أصبح من قضاة مصر أجانب، منهم انجليز ومنهم فرنسيون ومنهم أرمن. ولما انتهت المرافعة من الاتهام والدفاع عن قضية ماهر والنقراشي هذه ، ودخلت القضية في دور المداولة من القضاة أصر المستر كرشو على وجوب الحكم على «ماهر» و «النقراشي» بالموت ، وعلى اقل تقدير على «ماهر» لثبوت الاتهام ضده ، وكان مع «المستر كرشو» مستشاران مصريان هما كامل ابراهيم بك ومصطفى عزت .. ويرفض المستشاران المصريان رأى المستشار الانجليزي ، فيبذل جهدا مضنيا لثنيهما أو لثني أحدهما على الاقل عن رأيه فلما لم ينجح ، نطق مضطرا بحكم البراءة ، ولكنه كتب خطاب استقالة ارسله إلى المندوب السامي البريطاني يعلن فيه أن الحكم لا يتفق مع رأيه ولكنه نطق به عملا بتقاليد القضاء ، ولكنه يخرج على تقليد آخر وهو افشاء سر المداولة لأن ضميره غير مستريح وبذلك ثبت للمصريين ولغيرهم كيف كانت تتدخل السلطة التنفيذية في أمور العدالة

والقضية الأخيرة هي قضية سليم حسن بك وكيل مصلحة الآثار في سنة ١٩٢٨ وكانت مصلحة الآثار تتهم دولة فرنسا بشكل دائم . إذ أن

الظروف أتاحت لفرنسا بفضل كشف حجر رشيد اثناء حملة نابليون على مصر ، أن تكون وثيقة الصلة بهذه المصلحة ، فبقى رؤساؤها على وجه التواتر فرنسيين ، وبلغ من اهتمام فرنسا بهذا المنصب والاستئثار به دون غيرها من الأمم أن تنص اتفاقية سنة ١٩٠٤ المعروفة بالاتفاق الودى الذى ابرم بين فرنسا وبريطانيا لتسوية خلافات الاستعماريين الفرنسي والبريطاني في مصر والمغرب على أن منصب رئيس مصلحة الآثار المصرية من حق فرنسا . ولكن الايام جرت طويلا منذ سنة ١٩١٤ ومعها تطورات وتغيرات حتى وصل أثرى مصرى إلى منصب وكيل المصلحة ، وكان سليم حسن هذا الاثرى ، مصريا صميما تنطق قسمات وجهه بمصريته وريفيته، وقد وفق إلى اكتشاف الهرم الرابع من جهة ، وإلى وضع قواعد لتقسيم ما تسفر عنه الحفريات الاثرية فى مصر وهى الحفريات التى كانت تقوم بها بعثات اجنبية بريطانية أمريكية وفرنسية والمانية وايطالية . ولما كانت مصلحة الآثار قد غزاها النفوذ الاجنبى فقد كان نصيب تلك البعثات الاجنبية من غنائم الحفريات نصيب الأسد ، وكان نصيب مصر ضئيلا ، ذلك لأن مندوب مصلحة الآثار فى عملية التقسيم كان دائما بمقتضى عرف غير مكتوب بين جنسية البعثة الاجنبية التى يتم الاقتسام معها ، وبذلك كان يحابيها ويحقق أغراضها . فلما جاء سليم حسن قلب هذا النظام الظالم وأمر بأن يكون ممثل مصلحة الآثار في جميع الحفريات مصريا ، وبذلك استقام الميزان وضاعت على المكتشفين الاجانب فرص النهب والسلب باسم العلم ، فحقد الأثريون الاجانب فى مصلحة الآثار المصرية على

«سليم حسن» وما زالوا يتربصون به الدوائر حتى اتهموه باختلاس مبالغ ضخمة من اعتمادات حفريات الهرم التى كان يديرها ويشرف عليها . وبدأت النيابة المصرية تحقق مع سليم حسن ، واخذ مدير المصلحة العام المسيو «دريتون» يدير الحملة على سليم حسن ، وكان «دريتون» صديقا للملك فاروق ، فانحاز الملك بكل ثقله مع الاتهام الموجه لسليم حسن ، واهتز ميزان العدالة في هذه القضية ، وكان سليم حسن أول أثرى مصرى عرفه العالم أول مستكشف بين مستكشفى آثار مصر يدخل السجن ، فتطيب نفوس الدوائر الاجنبية التى أضاع عليها هذا الاثرى اسلابا ذات قيمة لا تقدر بمال، ولكن شاء الحظ أن يكون هناك صراع حزبى بين عنصرى الوزارة التى كانت تحكم آنذاك وهما الحزب السعدى برياسة أحمد ماهر، والحزب الدستورى برياسة الدكتور محمد محمود . وشاء الحظ أيضا أن يكون وزير المعارف والتربية ، آنذاك الدكتور هيكل وكان وزير العدل أحمد حسين دستوريا كذلك، كما كان النائب العمومى يكن باشا أحمد من الدستوريين ، ولذلك استحال حبس سليم حسن وإرساله إلى المحكمة لحماية هؤلاء الثلاثة له فى حين كان رئيس الحكومة ورئيس الديوان الملكى تقربا إلى الملك ضد سليم حسن ، واستمر الشد والجذب بين الفريقين ، وتبدو مخاطر الجو مهددة لسلامة الاثرى المصرى الكبير ، فتنهار أعصابه ، ثم يبرق نور الأمل ، فيستعيد هدوءه ، حتى سقطت الوزارة وتولى الوزارة الجديدة على ماهر حليف السعديين خصوم سليم حسن فأيقن الرجل أن النهاية وافت ، وأنه ذاهب إلى السجن ولكن شاء الحظ الحسن المرة الأخيرة أن يكون وزير

العدل مصطفى الشوربجى بك وهو من زعماء الحزب الوطنى القديم ، وكنت أعرفه ، فذهبت إليه وحذرته من مغبة الانسياق مع مؤامرات الاجانب ، فأمر فى الحال بحفظ الدعوى ، ووافق على ذلك رئيس الوزارة الجديد على باشا ماهر الذى كان يناصر سليم حسن وهو فى الديوان الملكى إذ غلبت عنده دواعى المصلحة الوطنية حينما تلقى عبء الحكم وأدرك أن التاريخ سيحاسبه .

وحسمت القضية لصلحة مصر ، بعد أن كانت هذه المصلحة تتبدد وتضيع

وكانت إحدى القضايا التى يطيب فيها للسلطة التنفيذية العبث بالعدالة وسفك دمها علنا والقانون يشاهد ويسكت علقة .

طرقة طويلة مظلمة يروح فيها تاريخ مصر الحديث ويغدو

لكم تأملت في هذه الطرقة الغريبة ، ولكم صممت أن أحدث الناس عنها ، وعما تثيره في نفسي من الخواطر .. إنها طرقة في دار قديمة ، بالنسبة لمعاييرنا نحن الآدميين ، وأبيستنا نحن أهل القاهرة ، وقد كانت طرقة في دار ثرى من أثرياء العهد التركي الشركسي ، له صلة قربى أو مصاهرة ، بالأسرة الحاكمة ، ثم استحالت الدار الى مقر للقضاء العالي ، وبعد ان كانت مثوى لاهل النعمة والجاه ، تموج بالحريم ، ثم بالجواري اللاتي يقتنين اصحاب الثراء من كل جنس ولون ، وان كن جميعا من ذوي الحور العين ، رشيقات القد ، نحيلات الخصر ، هيفاوات ، فاتنات ، منحهن الله جمال الوجه ، ومنحن أنفسهن بدروب التزيين والتطرية ، ملاحة مجلوبة ، وحسنا مصنوعا يفعل فعله في القلوب ، ويكسبن منه مزيدا من النعيم ، ويخفقن به السلطان على «الباشا» ومن حوله ، فيحكمن ويصرفن أمور القصر ، وما بعد القصر ، على هواهن ، وأكثر الرجال في محيطهن صاغر مطيع .. كانت الطرقة في قصر منصور يكن باشا ، الذي لا اعرف مكانه من الحكام ، ثم آل

الهلال - فبراير ١٩٨٤ .

الى الدولة ، ربما لان الباشا مات بغير عقب ، فورثه بيت المال ، ثم خصصت الدولة ، داره الفسيحة ، الى محكمة رفيعة ، فانقلب فيها الحال ، وداستها أقدام النساء والرجال ، وشهدت قضايا اكثرها مأسي يشقى بها المتقاضون ، ويثرى من ورائها ، الذين يعملون في مجال الخصومات والمنازعات .

واختارت الدولة الطرقة الغربية في الدور الاول من المبنى العريق ، وخصصت في طرفها حجرة فسيحة ، مكانا للأمين على الدعوى العمومية ، وممثل الاتهام ، أي النائب العام ، ونثرت حول هذه الحجرة ، مكاتب لأعوان هذا الموظف الكبير ، من رؤساء للنيابات ووكلاء لها ، ورؤساء اقلام ، وسعاة وخدام ، ومن أجل ذلك لا تدرى أشهدت هذه الطرقة ، جيلا بعد جيل وعهدا بعد عهد ، أم اصابها النحس ، فقد احتشد فيها ، وتزاحمت على أرضها ، أقدام رؤساء الدولة ، وكبار وزرائها ، ورجال الشرطة ، ورجال الصحافة ، ورجال تجذبهم السلطة ببريقها ، ويستدرجهم الزحام بكل ما يثيره من فضول ورغبة في الوصول الوصول الى بناء ، أو الى شخص ، أو الى مكانة . وسبق مع هؤلاء العظام ، افراد ، وصلوا اليها ، على الرغم منهم ، وعيونهم زائغة، وأيديهم مكبلة ، وخواطرهم منهوبة ، لا يدرون ما المصير ، يحتلون الاهتمام وتتسلط عليهم العيون ويرقبهم اصحاب الاقلام ويحصون عليهم كل خطوة ويسجلون كل حركة ولفتة ثم يصوبون اليهم في اللحظة الأولى، كل ما عندهم من ملكات الرقابة والفحص ، ثم يوجهون اليهم ايمات تضيء وتنطفيء في سرعة لاهثة . هؤلاء هم الذين شاء لهم الحظ، أن يقتلوا الحكام ، ويزيلوهم من الوجود ، أو الذين يحاولون ذلك فلا

ينجحون ، فهؤلاء وهؤلاء ، هم ضيوف هذه الطرقة ، الذين يصبحون أخطر الناس طراً ، وأحقهم بالحفاوة ، يجرى بين يديهم الحكام ، ويسبقهم ويتبعهم ، كل صاحب شأن ، وتتوقف الاذان والعقول ، بحثا عن خبر

إذن لقد وقف فى هذه الطرقة ، كل هؤلاء الذين أرادوا ان يغيروا الأمور فى مصر ، كل منهم بدوره ، وكل منهم يمثل عهدا وظرفا وحالا ، واذا أنت جمعت الاصوات التى أدت الى سوق هؤلاء الشبان - وكلهم شبان - الى هذه الطرقة المظلمة ، وضممتها بعضها الى بعض ، اجتمع لك «تاريخ مصر الحديث» . فأعجب كيف يسطر التاريخ بدماء مسفوكة وبطلقات نار ، لا تكاد تلمس جسد الفريسة المقصودة حتى تنتهى صفحة من تاريخ بلادنا وتبدأ صفحة .

وهكذا تختلط السياسة والمبادىء ، بالجريمة وسفك الدماء ، وتدعى السياسة حينما تتورط فى الجريمة ، انها ليست جريمة ، انما هى انفجار لضيق أبى أن يتزاح أمام رغبة شعب ، يريد مزيدا من السعادة والحرية ، وآخرون يسمعون هذا الكلام ويردون عليه : لم يتغير لرصاصات القتل شيئا ، فسبيل التغيير ، هو بث الأفكار الجديدة ، وتنويعها بين الناس ، وتسللها الى القلوب والنفوس ، فى حين لا تزيد طلقات الرصاص عن أن تكون علامة على الغليان ، واشارة الى أن التغيير واقع لا محالة ، فى تدرج وعلى مهل ، ولكنه واقع إن آجلا وإن عاجلاً . ولم تكن مصر تعرف هذا الاسلوب العنيف من العمل السياسى. كانت سماؤها الصافية ونيلها الهادىء ، وبعدها عن الزلازل والبراكين ، والعواصف والأنواء ، هو ضمان الرفق فى كل شىء فى

مصر . الا ان القاعدة لها استثناء ، وكان الاستثناء ابراهيم ناصف الورداني الذي لم يزد عمره عن ٢٤ عاما ، وكان نحيلا ، قمحي اللون ، تشوب وجهه سمرة مصرية ، وكان فوق ذلك هادئا في الظاهر ، شديد العصبية والحساسية في الباطن . أطلق رصاصه في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ على ضحيته ، فارتجت البلاد ارتجاجا شديدا ، فقد كانت رصاصاته الست أول ما فرق الهدوء المصري التقليدي ، وقادوا ابراهيم الورداني ، الى الطرقة الطويلة المظلمة ، وجرى وراءه الصحفيون الاجانب قبل الصحفيين المصريين ، فلم تطرف له عين ، ولا يختلج فيه عصب ، ومضى مكبل اليدين ، صامتا ، مطبق الشفتين ناظرا الى الامام هادئا ثابتا ، وقال المعلقون ممن يعرفون علم النفس : إن هؤلاء الذين يقدمون على قتل الكبراء ، دون ان يفكروا في الهرب ، يشعرون بأن الفعل الذين أجمعوا أمرهم على ارتكابه ، هو هدف حياتهم ، به يتحقق وجودهم ، ومن ثم فهم لايشعرون بشيء من حولهم ، ولا يفزعهم ان مصيرهم الموت ، ولايخيفهم شيء من مظاهر السلطة التي تحيط بهم، لانهم يحلقون في دنياهم . ولما دخل الورداني الى غرفة النائب ، لم ينكر فعلته، ولم يبد ندما على إتيانها ، وبررها بأسباب عديدة ، وأكد انه كان وحده ، وليس له شريك ، ولا محرض ، ولا معين إلا عقله وقلبه .

وخرج بنفس الهدوء الذي دخل به حجرة النائب العام ، وجرؤ بعض الناس ، ان يهتف بحياته ثم يعدو هربا من القبض عليه ، فابتسم ابتسامة خفيفة ولم يزد .

وبعد أن عاد الى سجنه ، خلت الطرقة الطويلة المظلمة من الاقدام ، التي كانت تدق سطح الطرقة في عدوها ، ولم يبق فيها الا حاجب امام

غرفة موظف كبير يهوم برأسه تحت ثقل النوم الذى هاجمه من فرط السأم ولم تمض أيام حتى امتلأت الطرقة الطويلة المظلمة بممثلى السلطة وأعوانها من ضباط تلمع على أكتافهم نجوم نحاسية صفراء وضباط يلبسون الثياب المدنية حتى لا يعرفهم الناس . لانهم ضباط الامن والمباحث . ولم يكن ضيف هذه الطرقة شاب واحد ، هادىء صابر، ومطمئن ، بل سبعة من الشبان أكثرهم طلبة هم على مراد الطالب بمدرسة المهند سخانة ، والذى اشتغل بأعمال الخبرة الحرة بعد ذلك أمام المحاكم فاشتهر بكفاءته ونزاهته على نقيض ما اشتهر به الخبراء فى تلك الأيام من عدم الكفاءة وخراب الذمة ، ومحمود انيس المهندس ، وشفيق منصور الطالب بكلية الحقوق ، الذى بقى يمارس العمل السياسى السرى العنيف ، حتى نفى الى مالطة خمس سنوات فى الحرب العالمية الاولى ، ولم يهزه النفى والاعتقال فعاد ، يطلق رصاصاته ، ويدرب صغار أعوانه ، حتى صعد الى المشنقة سنة ١٩٢٥، وعيد البرقوقى الذى أصبح فيما بعد محاميا فى طنطا ونائبا ذا ميول وفدية كما كان زميله عبد الخالق عطية الذى كان طالبا بمدرسة الحقوق ثم تخرج فيها وأصبح عضوا بمجلس نقابة المحامين ، شارك فى محاكمة مصطفى النحاس أمام مجلس التأديب ، ومحمد كمال الطالب بمدرسة المهندسخانة الذى لم يعد أحد يسمع عنه ، وحبيب حسن المدرسى

ساقتهم السلطة الى الطرقة المعهودة بتهمة المشاركة فى جريمة الوردانى ، بقتل بطرس غالى ناظر النظار ، وقد كان أكثرهم عصبيا ، محتجا على القبض عليه ، ساخطا على الاغلال التى وضعت فى يديه ،

كما كان أكثرهم يتلفت يمينا ويسارا باحثا بناظريه عن أحد من ذوى قرباه ، ودخلوا الى القفص العام واحدا فى أثر واحد ، وخرجوا والمرارة تفيض من وجوههم ، واحالتهم الحكومة الى قاضى الاحالة ، وكان متولى بك غنيم ، فقال ان المنسوب الى هؤلاء كان شروعا فى الشروع فى الجريمة وهو أمر لايعرفه القانون وبالتالى لايعاقب وفى جلسة ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، افرج القاضى عنهم ، وقرر فى شأن التهمة المنسوبة اليهم انه لا وجه لإقامة الدعوى ضدهم ، فكان الافراج عنهم يوم عيد وطنى ، نظم فيه الشعراء القصائد ، ونشرت الصحف فيها نبأ الافراج فى صدر صفحاتها الاولى ، وهى لا تكاد تخفى سرورها .

ولكن هذا الحكم كان تطورا فى حياة القانون الجنائى فى مصر ، فقد أدركت السلطة ان قرار قاضى الاحالة ينبيء عن أن هناك ثغرة فى القانون سينفذ منها الذين يتفقون على ارتكاب الجريمة دون ارتكابها فعلا ، فيكون اتفاقهم تآمرا على أمن الناس ، وإن لم يصدر عنهم شيء يحرمه القانون ، فيجب عقابهم على اتفاقهم الذى يسمى «بالاتفاق الجنائى» وولدت جريمة بهذا الاسم ، وأصبحت من أشهر جرائم قانون العقوبات ، وقد وصفها كبار الفقهاء والمحامين معاً بأنها من أكبر مشكلات القانون .

ومضت على جريمة القتل السياسى سنوات دون ان تتبعها واحدة مثلها ، وان بقيت هذه الحادثة الاولى مشهورة ، ومذكورة على الالسن ، لم يجرؤ الشعراء الرسميون على أن يقولوا فيها شيئا عدا رثاء القتيل «بطرس غالى» بقصيدة من شوقى ، لان شوقى فى تلك الأيام ، لا يدع عظيما ينتقل الى رحمة الله إلا وشيعه الى قبره بقصيدة ، وقد كان

مطلع قصيدة شوقي :

غالي في مديح ابن بطرس غالي

وقد عوض الشاعر الشعبي بأزجاله وأراجيزه تسجيل هذا الحدث الخطير ، فحفظها الشعب وتناقلتها الألسن ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وأعلنت بريطانيا الحاكمة المستبدة بالسلطان الاحكام العرفية ، فاظلمت الشوارع وقصفت الأقلام ، وأخرست الألسن ، وتفتتت الجماعات والاجتماعات ، وامتلأت المعتقلات بأفراد من الشعب بعضهم علماء ومعروفون ، وأكثرهم من عامة الشعب أخذوا بالشبهة ، وحبسوا بالوقيعة والوشاية ، وشحت الارزاق ، وغلت الأسعار ، فعادت الطرقة الطويلة المظلمة تستقبل ضيوفها وكثرت أقدام السائرين فيها ، والذاهبين والآتين ، من المتهمين ، والمحامين ، والقضاة ، ورجال النيابة، فقد شرع في قتل السلطان حسين كامل مرتين ، مرة في شارع حسن الاكبر بالقاهرة وقد قبض على المتهم ، فعرف ان اسمه محمد خليل وانه من اهل المنصورة ، وقد جاء ليقتل السلطان الذي قبل ان يحكم بلاده في ظل العدو الغاصب ، وحقق معه نائب عام جديد ، ثم سيق الى المشنقة ، فحاول اثنان من شباب «الحزب الوطني القديم» أي حزب مصطفى كامل ومحمد فريد قتل السلطان حسين كامل نفسه بقنبلة ألقياها على موكب السلطان في ناحية رأس التين من شقة الشابان محمد شمس الدين ونجيب الهلباوي ، فقضى عليهما بعد ان مرا بالطرقة الطويلة المظلمة أياما بالسجن مع الاشغال الشاقة ، وأتما مدة العقوبة ، واختفى محمد شمس الدين ، أما نجيب الهلباوي فقد كانت له قصة جديرة ان تعرض على الشاشة لانها تفوق قصص الشاشة

البيضاء طرافة وإثارة ، فقد تحول الشاب الوطني الذي كان يلهب عواطف تلاميذه بكلماته الوطنية الحارة ، وكان من تلاميذه في مدرسة رأس التين أو العباسية باسكندرية ثلاثة لمعت أسماؤهم وعظمت مكانتهم، وارتبطوا بالعمل السياسي ، كان أولهم وأكبرهم شهرة محمود فهمي النقراشي وكان ثانيهما وثالثهما اثنين من تلاميذ النقراشي هما عبدالرازق احمد السنهوري الفقيه العظيم ، وسليمان حافظ وكيل مجلس الدولة الذي حمل تحت إبطه يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ وثيقة نزول الملك عن عرشه ، ومضى الي قصر رأس التين ليقابل الملك ، وهو ينتعل حذاء من المطاط ، ويرتدي بنطلونا من صوف الفانيلا ، وسترة من التيل الابيض الرخيص .

نجيب الهلباوي استاذ كل هؤلاء في الوطنية ، حينما خرج من السجن ، رأى أبواب الرزق موصدة ، ورأى بعض اخوانه في العمل السرى قد أصبحوا وزراء مثل احمد ماهر باشا ووكلاء ووزراء كمحمود فهمي النقراشي ، ونوابا كالدكتور شفيق منصور ، فطلب منهم ان يلحقوه بالعمل ، فتلكأوا ، فباع نفسه للشيطان ، وذهب يسيء بزملاء الكفاح السابق ، وتردد على الطرقة الطويلة المظلمة في دار القضاء العالي بميدان باب الخلق ، لا ليحاكم كما حوكم من قبل ، ولا ليدفع عن نفسه تهمة القتل حينما جرؤ على أن يشرع في قتل سلطان البلاد ومليكها ، دون أن يحفل بمستقبله ولا بمصير رأسه ، بل عرفته الطرقة الطويلة المظلمة هذه المرة ، واشيا ، وموقعا بلشبجع شباب مصر في تلك الأيام ، وكان في هذه المرة ، يسير في الطرقة المهجورة ، متلفتا يمينا ويسارا ، اذ كان خائفا من أن يراه أحد ، وقد غير زيه ، وخرج من

إهابه ، ولعب دور شاهد الملك فى القضية التى كانت من أكبر الجرائم فى وقتها . ولكن قبل ان تقع تلك الحادثة الرهيبة المعروفة بحادثة مقتل السردار التى وقعت فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وقعت حادثة قبلها ، اهتزت لها مصر ، وربما العالم العربى لانها كانت هذه المرة شروعا فى قتل رئيس الوزراء المصرى ، ولكن هذا الرئيس كان فوق منصبه الرسمى ، رئيسا تحبه جماهير الشعب ، وتبالغ فى حبه الى حد رفعه الى مرتبة القداسة، ذلك هو سعد زغلول ، وكان سعد ، زعيم الأمة ، قد ذهب فى يوليو سنة ١٩٢٤ فى الساعة السابعة من صباح يوم فى شهر يوليو الى محطة مصر ليستقل القطار الى الاسكندرية ليقدموا الى الملك التهانى بالعيد ، وسار سعد على عادته على رصيف المحطة فى بطء وتثاقل ، والناس على الجانبين يهتفون باسمه ، ويتدافعون نحوه لولا ان سياج الشرطة يدفعهم دفعا هينا لينا ، لعلم الشرطة إن هؤلاء المتدافقين أحباء وليسوا خصوما ، ولكن برز من بين صفوف هؤلاء المتدافقين شاب ، دنا من الرئيس دنوا شديدا ولم يظن أحد انه ينوى شرا الا ان الشاب أخرج من جيبه مسدسا وأطلق منه عددا من الرصاصات أصاب بعضها ساعده وصدره ، ونقل الرئيس الى مستشفى بالمنيل يديرها طبيب مصرى تعلم فى ألمانيا ، كانت أمه ألمانية ، يدعى على ابراهيم رامز ، فأجرى للرجل الكبير الجريح عملية ، استخرج بها القذائف ونجا الرئيس من الموت ، على الرغم من انه كان يعانى من مرض السكر ، وكان قد دنا من السبعين ، وكان ضعيفا واهنا لعلل أخرى منها الربو .

وقبض على الجانى ، فإذا هو كالعادة شاب ، دون الخامسة والعشرين ، يطلب علم الطب فى إحدى جامعات ألمانيا ، وكان فى لجنة

شباب الحزب الوطني بهذه الدولة ، وكان قد نقم على الزعيم لانه وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء ومعقولون ، فعز عليه أن يكون غاصبو بلده ، شرفاء ، وسيق الشاب الى الطرقة المظلمة ، في دار القضاء العالي ، وعليه حراسة مشددة ، لان السلطة توهمت الجاني ، ليس سوى أداة لعدد من زعماء الحزب الوطني القديم ، إذ كانت صلات زعماء حزب مصطفى كامل ، بألمانيا ورجالاها خلال الحرب العالمية الأولى وثيقة بحكم ان المانيا كانت عدوة بريطانيا ، ومن ثم كانت صديقة للوطنيين المصريين ، وحينما خرج على عبد اللطيف من الطرقة الطويلة المظلمة ، لم ترسله سلطات التحقيق الى المحكمة ، بل أرسلته الى مستشفى الامراض العقلية ، لأحد سببين ، أولهما ان تكون الزعامة قد أثرت ان يكون من اجترأ على الهجوم عليها واطلاق النار ضدها مجنونا ، او لان الشاب كان قد خلط فعلا في كلامه ، وهو يحقق معه ، في المكاتب التي تقع على جانبي الطرقة الطويلة المظلمة .

ولم ينقض على هذا الحادث شهور ، حتى شهدت نفس الطرقة عددا من الشبان منهم محام واحد ، وطالبان في المدارس العالية ، وعمال وموظفون صغار ، وقد أحاطتهم الدولة ، بحراسة غاية في الشدة ، لا بأمر الدولة نفسها ، بل بأمر السلطات البريطانية التي كانت تحكم مصر فعلا والممثلة في المندوب السامي البريطاني ، وكان وقتذاك قائدا بريطانيا من أشد قواد بريطانيا لانه القائد الذي كتب له ان يفتح القدس وينتزعها من الحكم العثماني ، ويضمها لاملاك ومستعمرات التاج ، حينما دخلت فلسطين تحت الهيمنة البريطانية باسم الانتداب ، ذلك هو اللورد اللنبي ، وكان وجه اسمه «السير لي ستاك» وكان يشغل وظيفة

القائد العام للجيش المصرى والحاكم العام للسودان فى وقت واحد ، وكان القائد عائدا الى بيته فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، فاطلق عليه اربعة من الاشخاص المجهولين ، الرصاص فنقل الى المستشفى حيث مات فى صباح اليوم التالى ، فقامت قيامة بريطانيا فوجهت إنذارا عنيفا خاليا من اللياقة الواجبة بين الدول ، وفرضت على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه وعاقبتها بطرد الجيش المصرى من السودان واحتلال الجمارك واطلاق يدها فى زرع ما تشاء من أراضى منطقة الجزيرة بالسودان ، وفرضت الحكومة مكافأة ضخمة لمن يرشد عن مرتكبى الجريمة ولم ينقض سوى بضعة أسابيع حتى كان المهدى السابق نجيب الهلباوى قد قطع صلته بماضيه تماما ، وراح يبلغ السلطات عن أبناء البقية الباقية من عصابة اليد السوداء التى بدأت عملها السرى العنيف خلال ثورة ١٩١٩ ، فأردت عددا من ضباط الجيش البريطانى والموظفين البريطانيين وشرعت فى قتل عدد آخر من الموظفين المصريين الموالين لبريطانيا وفى مقدمتهم رؤساء الوزارات والوزراء .

ولذلك فرحت السلطات البريطانية حينما وضعت يدها على أفراد هذه الجماعة التى استمرت سنوات تقتل فى شوارع القاهرة كبار أعوان بريطانيا من المدنيين والعسكريين وختمت أعمالها بقتل القائد العام لجيش مصر ، السير لى ستاك ، الذى مر ذكره ، وشهدت الطرقة الطويلة المظلمة ، ما لم تشهده من قبل ، من متهمين سياسيين بلغ عددهم الثمانية يتقدمهم المحامى الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته السياسية بأن اتهم بمشاركة ابراهيم الوردانى فى جريمته ، وكان من

الاحتياط والتحرز بحيث لم تستطع السلطات إثبات أية جريمة ضده ، فاعتقلته بعد اعلان المحاكم العرفية ونفته الى مالطة وبقى هناك منفيا ، بعيدا عن الاهل والاقارب ، خمس سنوات ، فلما اطلق سراحه جمع حوله عددا من الشبان منهما الشقيقان عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت ، والعامل ابراهيم موسى ، والموظف محمود اسماعيل ، واستأنف نشاطه السرى حتى يقضى عليه ، وتردد هو وزملاؤه على تلك الطرقة الطويلة المظلمة أسابيع بل شهوراً كثيرة ، حتى حكم عليه بالموت ونفذ فيه وفى اخوانه حكم الموت فى يوم واحد ، وبقيت الطرقة تستقبل روادها ، فأستقبلت محمود عيسوى الشاب الذى قتل احمد ماهر باشا رئيس الوزراء ، وذلك باطلاق الرصاص عليه فى مجلس النواب فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، ومحمود على حسن الذى قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى ٣٠ ديسمبر ١٩٤٩ ، وغيرهم فى قضايا كل منها صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، والطرقة لا تتغير ، تشهد الاحداث ، وترى رأى العين صانعيها من الشبان الذين يدفع بهم التحمس غير المضبوط اليها، لتفتل لهم الحبال ، فيصعدون المشانق ، وعلى شفاههم ابتسامة ربما لانهم ساروا على ارض هذه الطرقة ، فكتب لهم الخلود ، وان كان القانون ينكر أعمالهم ويزدريهم ازدراءً ، فى حين تقول الطرقة ما لم يشهده مكان سواى ، وعرفت عشرات من الشبان ، صنعوا الجانب الدامى من تاريخ مصر ، ودفعوا الثمن حياتهم .

الديمقراطية

حقيقة أم سراب ؟

الديمقراطية نوعان ، نوع يتجسد في الدساتير والقوانين والمراسيم، وهي مايشغل بال دعاة الحرية ، وطالبو حقوق الانسان .

وديمقراطية ، يعيشها الناس ، ثم يحافظون عليها ، بالدم والروح ، مهما ضعف شأنهم ، وقلت وسائل الدفاع في أيديهم .

الديمقراطية ، خداعة جذابة ، لانها تتحول الى وثيقة ، تعد الناس ، بحقوق كاملة ، وضمانات عظيمة ، وتكبل الحاكم ، ملكا كان أو أميرا ، أو رئيسا بقيود ، تجعله لا يتحرك ولا ينطق ، وربما لا يفكر ، الا في ظل رقابة من الشعب ، وهي تعد بعد ذلك بمحاكمة كل من تسول له نفسه بالخروج على هذه القوانين أو خرق هذه الضمانات .

وقد ألفت الشعوب أن تحارب ، حتى تحصل على وثيقة من هذه الوثائق ، فتظن ان الحرية دانت ، وأن حصون الاستبداد تهاوت ، وتقيم ليوم ظفرها به ، الاعياد وترفع الاعلام ، وترتل الأناشيد ، ثم لا يمضي إلا القليل ، حتى ترى يدها فارغة من كل ما ظنته حرية حقيقية ، ويعود الظلم الى سابق عهده ، ويعاني الضعفاء المذلة والمهانة .

أما الديمقراطية الحقيقية ، ذات السلاح المشهر فهي ، لاتكتب في نص ، ولا تسجل في ورقة ، انما تولد وتحيا ، مهما ضؤل نفوذها أول

الهلال – يونيه ١٩٨٢ .

الامر ، فى قلوب أناس لا يطيقون أن تمس ، ولايترددون فى أن يتنادوا، بالدفاع عنها ، وتتوالى من أجلها المعارك ، وتكثر الضحايا ، ولكن تبقى فى جميع الاحوال عزيزة الجانب . وهذا النوع من الحرية ، لايحتاج الى الساسة فقط ، انما يحتاج الى المربين ، وكتاب الصحف ، ومؤرخى التاريخ ، ومؤلفى القصص والمسرحيات ، حتى لا تمضى ساعة ، الا ويسمع المواطن ، أو يقرأ ، أو يرى دعوة ملحة الى تقديس الحرية او الذود عنها ، أما ديمقراطية النصوص والقوانين ، فقد بلغ الامر بهوانها الى انك تقرأ دستور دولة كامبراطورية هيلاسلاسى ، وتقارنه بدستور دولة عريقة فى الدستورية والحرية كفرنسا ، فيروعك ان حقوق الشعب وضماناته فى دستور هيلاسلاسى ، أعظم واكبر ، من حقوق الشعب الفرنسى فما من حق من حقوق الناس ، ولا ضمانة من ضمانات تلك الحقوق الا نص عليها الدستور الاثيوبى ، وفى نفس السنة التى مات فيها فى تلك الدولة ذاتها مائة ألف جوعا وعطشا ، كانت سباع الملك أو الامبراطور ، تأكل من يده أغلى الطعام ، أما حقيقة هذا الدستور فهى ليست الا مجرد وعد من الحاكم بانه سيحكم بما يريده الشعب ، كما فعل «محمد على» والذى أصبح واليا لمصر ، حينما قبل سنة ١٨٠٥ أن يحكم مصر ، بشروط زعمائها وعلى رأسهم ، الزعيم العظيم عمر مكرم الذى وسد لمحمد على منصة الحكم ، لانه توسم فيه الصلاح والكفاءة ، ولم يتردد الوالى الجديد فى أن يلتزم فى حكمه بشروط الزعماء ، أى بالعدل والاصلاح ، ولكنه نسى ذلك بعد حين ، ونفى الزعيم الذى لولاه لما عرف سطوة الحكم ، وعظمة نفوذه ، وقد فعل الاميران ابراهيم ومراد فى سنة ١٧٩٥ بحضور المشايخ البكرى والشرقاوى والسيد عمر مكرم

حينما ثار الشعب في وجه مظالم الحكام ، وفساد أمرهم ، وعدوان اتباعهم على الشعب وحقوقه وكرامته ، فوقعت وثيقة شبيهة تماما بوثيقة الملك جون سنة ١٢١٥ ، وقد دعي القاضي لتحرير هذه الوثيقة ، ثم «فرمن عليها» ، أي جعلها فرمانا ، أي مرسوما أميريا ، ولكن هذه الوثيقة التي أصبحت فرمانا ، مضغها الزمن بين فكيه ، ثم بصقها .

ومعنى ذلك كله أن الوثائق ، مهما كانت جليلة ومهما بدت مقدسة ، ومهما اقسم الحكام باحترامها ، والنزول على مقتضاها ، لا تلبث حتى تفقد معناها ، فلا يلتفت اليها صاحب سلطة ، ولا يتمتع بها صاحب حق.

وديمقراطية الدساتير ، والقوانين ، والمراسم ، والعهود والمواثيق ، هي سراب خادع ، لها بريق يخطف الابصار ، ولها جمال تستريح له النفوس ، ولكنها أكاذيب ، لا تصدق ، وبرق خاطف ، لا يسمن ولا يغني من جوع

ولقد جربت الامم في العصور الحديثة ، هذه الديمقراطية ، وأصيبت بخيبة أمل كبيرة ، فقد قامت أكبر الثورات الحديثة في فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وكانت تنادي بالمساواة وبالحرية وبالاخاء ، وخُيِّل للشعب الفقير ، والطبقات المحرومة من الملبس والمسكن والغذاء ومن المشاركة في الحكم ، بأدنى نصيب ، وخُيِّل لهذه الطبقات التي كانوا يسمونها بالفرنسية بـ «سان كيلوت» ومعناها الذين لايجدون ما يستر العورة ، خيل إليهم انهم غدا سيشاركون حقا في الحكم ، وأن صوتهم سيسمع، ورأيهم سيطاع ، وأن المهانة التي يعيشون فيها ستنتهي ، فلما جلس الثوار ، ليضعوا أول دستور للثورة قننوا هذه المهانة ، فدستور سنة

١٧٩٢، قرر أول ما قرر حرمان من كان خادما أو يمتهن عملا غير محترم من أن يكون له صوت ، كما حرم كل فرد لا يؤدي ضريبة يقدر حدده القانون من أن يكون ناخبا ، فعرف الفقراء والمحرومون أن ما عقدوه من الآمال ، تهاوى وسقط على الارض ، وانه يجب على الشعب أن يثور ثلاث ثورات دامية ، سالت فيها الدماء انهارا ، وتراكمت فيها الرؤس الطائرة أكواما ، حتى يصبح لكل فرد من الرجال وحدهم صوت وفعلا ثارت فرنسا في سنة ١٨٢٠ ، وفي سنة ١٨٤٨ ، وفي سنة ١٨٧٠ ومع ذلك بقى سن الناخب مرتفعا ، وبقيت طبقات عديدة محرومة من التصويت ، وحرمت المرأة طويلا ..

ولما أصبح لكل ناخب صوت ، بقيت الحكومة سلطات ، تملك معها التضييق على المعارضة وصحافتها ، ونواديها ، وأحزابها ، ووسائل تعبيرها عما ترفضه ، وتراه ماسا بالمصالح العامة .

ولا تزال الاحزاب في فرنسا - على سبيل المثال - تطالب بمزيد من الديمقراطية ولعله من الخير ان نعرف ماذا جرى في بلادنا ، وسندع جانبا الديمقراطية التى بدأت في عهد اسماعيل سنة ١٨٦٦ بمجلس شورى النواب ، الذي قضى عليه الاحتلال ، واقام مقامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، حتى جاءت سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العالمية الاولى ، فأقام اللورد كتشنر الجمعية التشريعية التي دهمتها الحرب في تلك السنة ، فأوقفت حياتها . سندع ، هذا التاريخ جانبا ، لا لانه خلا من محاولات جدية ، لمحاربة المعارضة ، والوقوف في وجه الحاكم المطلق ، ولا لان الدور الذي قام به أمثال عبد السلام المويلحي في مجلس شورى النواب ، ولا ما فعلته الجمعية التشريعية في مقاومة

مشروع مد امتياز قناة السويس ، كان قليل القيمة ، بل لأن هذه الومضات السريعة القصيرة العمر ، لا تعتبر حياة دستورية متصلة ، فقد كانت الهيئات المقامة خلالها ، أجهزة عاجزة ، ولدت سهيضة الجناح، ضعيفة الصوت ، مكبلة مقيدة .

ولكن ما حدث سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ بعد ثورة ١٩١٩ ، كان صفحة جديدة حقا ، وكانت هذه الصفحة مبشرة ، بتطور حاسم ، في شأن حقوق الشعب ، وممارسته إياها ، ومحافظته عليها ، وجدية القدر الذي تمتع به الشعب - بمقتضى نصوص الدستور - من الرقابة على الحاكم، ومحاسبته ، والمشاركة الكاملة في وضع القوانين ، وتعديلها ، وفي اقتراح نصوص جديدة في الدستور .

لا يستطيع أحد أن يقول ان دستور سنة ١٩٢٣ ، كان نموذجيا وانه وضع قيودا حقيقية وجدية على سلطات الملك ، والسلطة التنفيذية ، ولكن ما تضمنه الدستور من هذه القيود كان كفيلا ، بأن تولد حياة سياسية حرة ، أو تبشر بذلك

انتخبت اعني عينت الحكومة ، لجنة لوضع مشروع الدستور ، من ثلاثين عينا من أعيان مصر ، كان من بينهم عدد غير قليل من فقهاء القانون في مصر ، يمكن ان تضعهم بلا تردد في مصاف أعظم فقهاء القانون في اوربا ، فكان من بينهم أو في مقدمتهم حسين رشدي باشا «رئيس الوزراء في فترة الحماية والحرب العالمية الاولى» وعبد العزيز فهمي بك «باشا» ، ومحمد على علوبة بك «باشا» ، وتوفيق دوس «بك» ، وعبد اللطيف المكباتي بك ، وكانت تعاونهم أمانة فنية ضمت واحدا من ألمع رجال القانون وأساتذته في مصر وهو أحمد أمين بك «أستاذ في

مدرسة الحقوق فيما بعد» وعبد الحميد بدوي بك «رئيس لجنة قضايا الحكومة فيما بعد» .

ودارت مناقشات من اعضاء هذه اللجنة الثلاثينية حول ما يجب ان يكون الشعب ، وما لا يكون الملك والسلطة التنفيذية ، كانت كأناشيد الحرية ، والدفاع عن الحقوق الشعبية ، وكان وجه الجمال فيها انها لم تكن خطبا منبرية ، تدعو الى الحرية المطلقة ، وسيادة الشعب غير المحدودة ، بل كانت مناقشات فقهية ، مؤيدة بالحجة والبرهان القانونيين ، والاسانيد المستقاة من دساتير الدول الحديثة ، ومن كتب الفقهاء ، ومن أحكام محاكم فرنسا وبلجيكا وايطاليا ، واحيانا بريطانيا وألمانيا ، وكان المصدر الاصلي لهذا الدستور المصري ، الدستور البلجيكي ، وكان مبرر الاستناد الى هذا الدستور والاعتماد عليه ، أن بلجيكا ، دولة ملكية ، وبرلمانية ، ونحن اى مصر كانت دولة ملكية وكان فقهاؤها ، يتوقون الى ان يكون لها نظام دستوري برلماني شبيه بدولة كبلجيكا ، لا يعتدى فيها الملك ، ولا الوزراء على حقوق الشعب ، وكان كل شيء ، يعد بأن الدستور الحقيقي قادم ، والحياة السياسية الحرة مقبلة

وكانت بريطانيا ، التي أذنت لهذا الامل ان يساور النفوس في مصر – تشاهد كل ما يجري وتضحك في كمها ، لانها كانت تنوى ان تطيح بهذا الدستور ، وأن تطفيء بغلظة هذا الامل ، اذا رفضت الاغلبية ان تضفي على الاحتلال البريطاني الشرعية ، فيكون الحاكم الحقيقي هو المندوب السامي ، وتكون البرلمانات «المجالس التشريعية» والانتخابات والاحزاب والازمات لعبا يتلهى بها الشعب حينا ويعاني بسببها حينا آخر ..

ولكن الشعب استقبل هذه الحياة الدستورية ، التى بدأت أيامها فى ١٥ من مارس سنة ١٩٢٤ ، بعد انتخابات كانت مثالا للنزاهة والحيدة - على رأى مؤرخى تلك الحقبة - اكتسح فيها حزب الوفد ، خصومه اكتساحا مروعا ، ولست أنسى يوم ذهب الملك مع رئيس الوزارة وزعيم الاغلبية فى عربة ملكية مذهبة ، تجرها خيول مطهمة ، ويجرى أمامها سياس حفاة ، يلبسون طرابيش من عهد محمد على ، وعصيا مذهبة أيضا ، فقد وقفت يومذاك فى ميدان الاسماعيلية - ميدان التحرير اليوم - فلما أطلت السيارة الملكية ، ورأيت الملك جالسا الى جوار الزعيم ، أحسست بأن قلبى كاد يقفز من الفرح على الرغم من أننى نشأت فى مدرسة الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ، وهى مدرسة كانت لا تطمئن مطلقا لسعد زغلول وجميع زملائه من حزب الامة الذى أسسه اللورد كرومر ، عميد الاحتلال البريطانى وممثله ، كنا - نحن الشعب - نحسب ان الملك قد روض ، وأن أظافره قد نزعت ، وانه دان بالطاعة للشعب ، بدليل انه جلس الى جانب الزعيم الذى كان وجهه يطفح بالبشر والسرور ، أولا لانتصاره القريب فى الانتخابات ، ولانتصاره اليوم ، بجلوسه مع الملك فى عربة واحدة . ولكن هذه الآمال - كالعادة انطفأت سريعا - فالانجليز دبروا مع الملك مقتل البريطانى السردار لى ستاك باشا ، قائد الجيش المصرى ، ثم امروا بوقف البرلمان ثم حلوه ، ثم أوقفوا الحياة النيابية ، وعينوا على رأس الوزارة ، مستشارا سابقا فى محكمة الاستئناف العليا ، انحدر من أصل تركى ، وباع نفسه بلا تردد للانجليز والملك ، واعانه على حكم البلاد بالحديد والنار ، ابن

باشا اخر هو اسماعيل صدقي باشا الذى كان لسخرية القدر ، زميلا لمصطفى كامل فى مدرسة الحقوق .

وأظلمت الدنيا ، وانطفأت مصابيح الحرية ، وساد حكم الارهاب ، وذهب زعيم الاغلبية الى فندق «سميراميس» ، نائيا بنفسه عن الحياة العامة ، فلما ذهب إليه فريق من الطلبة هاتفين به بوصفه «أب الأمة» ، ضحك فى سخرية مرة «أنا اليوم أبو النوم» . واخلد للراحة .

ومعنى هذه المأساة ان الدستور الذى وعد الشعب ، بملك مقيد ، وشعب مطلق ومؤسسات سياسية ، راسخة ، وحقوق للناس واضحة ، داسته الاقدام وتنكر له حتى الذين وضعوه . فعبد العزيز باشا فهمى – الذى تطلق اسمه على شارع من أكبر شوارع القاهرة – بعد ان كان يدافع عن الدستور سنة ١٩٢٣ ، قال انه ثوب فضفاض ، تتعثر فى ذيوله مصر ..

وأوقف الدستور مرة أخرى فى سنة ١٩٢٨ ، على يد محمد باشا محمود ، وكان تعطيل الدستور لسخرية القدر أيضا – على يد حزب اسمى نفسه حزب الاحرار الدستوريين وكانت دعواه انه الحزب الذى وضع رجاله الدستور والذين تواصوا بأن يحموه ..

ثم استبدل بدستور سنة ١٩٢٣ ، دستورا وضع سنة ١٩٣٠ على يد اسماعيل صدقى باشا ، وكان آنذاك دستورا ليس فيه فضول ، ولا اتساع يؤذى مصر التى لم تألف الحرية والحقوق الدستورية .

وألغى الدستور الجديد ثم عاد الدستور القديم سنة ١٩٣٥ ، بعد ثورة قصيرة العمر من شباب الجامعة ، كان لسخرية القدر للمرة الثالثة، هدف شبابها أن يحملوا زعماء مصر على أن يتحدوا ليؤلفوا

وفد مفاوضة وقع في نهايتها وثيقة ارتضوا فيها جميعا بالاحتلال البريطاني، اجراء مشروعا لمدة ٢٥ سنة ..

واستمرت مصر تحكم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم بالاحكام العرفية، مرة للحرب العالمية ، ومرة لحرب فلسطين ، ومرة لحريق القاهرة ، ومرة لقيام ثورة سنة ١٩٥٢ ومرة لحرب السويس ومرة لحرب سنة ١٩٦٧ .. وبقي الدستور يشاهد ويتأمل بعد ان حلت محله دساتير لا تقل عن ثلاثة

وليس لهذا الكلام كله الا معنى واحد .. هو ان الدستور لايوفر حرية، ولا يرد عدوانا ، ولا يحمي حقا ..

النصوص الجميلة التي تتحدث عن حريات الشعب وحقوقه ، والتي تكفل الجميع أن يبدوا آراءهم ، ويعبروا عما يخالج نفوسهم ، وتحميهم من الاذى والتعذيب ، والسجن والاعتقال ، وتضع لأماكن الحبس والحجز والتحفظ قواعد ، تبقي الخصوم السياسيين ، للدولة ، كرامتهم، وانسانيتهم ، هذه النصوص تؤنس الشعب ، وحينما يحصل عليها المناضلون ، بعد كفاح مرير وجهاد شاق ، يهنئون بعضهم بعضا ، ويحسبون انهم حصلوا على شيء ، والواقع أن أيديهم خواء ، وأن المسافة بينهم وبين الهدف المنشود ، طويلة ، ومليئة بالعقبات والصعاب

فالحرية السياسية ، تبدأ من الواقع المادي ، لحياة الناس ما مقدار نصيبهم من التعليم والثقافة ؟ كم يكسبون ؟ في أي نوع من المسكن يعيشون ؟ وكيف يتداوون ويعالجون ؟ وماذا يفعلون حينما يطردون من وظائفهم ؟ وأخيرا ما مدى استعدادهم للدفاع عن حقوقهم، اذا ما وقع اعتداء عليها ؟ .

فحرية النصوص ، هي نصوص لا اكثر ولا أقل ، وحرية المؤسسات، تبدو أكثر مناعة ، ولكن ليس هناك مؤسسات تستعصى على الظالم ، وعلى العسف والطغيان ، الدساتير تلغى ، والمجالس التشريعية تحل ، وكبار القوم ، يمكن ان يتغيروا .

ولست أدعو الى الحرية الاجتماعية ، أى حرية كفالة الرزق ، وحرية مستوى معيشة مقبول ويحفظ على الانسان البسيط كرامته وانسانيته ، ويعينه على تذوق لذائذ الحياة البسيطة المتواضعة ، فهذه أيضا ، اكثر استعصاء على الشعوب .

وانما الذى أؤمن به واعتبره الحرية الحقيقية أن نعلم الناس ، كيف يحرصون عليها ، وكيف يطلبونها ، ونعلم أنفسنا كيف نمارسها فى حياتنا اليومية ، حتى تصبح تلك الحرية ، الهواء الذى نتنفسه ، والطعام الذى نأكله .

فنحن فى الاغلب الاعم ، لا نحترم حرية الآخرين ، وحينما يجور الآخرون على حريتنا نقبل الجور من الكبير صاحب السلطة ، مهما كان الجور صارخا ، ونرفضه على استحياء ، من متوسطى النفوذ، ونرفضه بعنف وغلظة ان وقعت من ضعيف .

وفى حياتنا صور من العدوان على الحرية ، نقبله ونسكت عليه ، ونعتاده على الرغم من انه واقع فى مجالات ، هى أولى المجالات ، رعاية الحرية ، وفهما لها ، فمثلا لايستطيع محام ولا صاحب قضية ولا شاهد أن يعرف متى يصل الى قاعة المحكمة ، فالمكتوب منذ نحو مائة أو يزيد على جميع الاعلانات القضائية ان من تصل اليه دعوة من المحكمة فهو مأمور بأن يكون فى رحابها فى الساعة «الثامنة افرنكى صباحا» ولم

تتغير هذه العبارة ، حتى بعد ان زال العمل بالتوقيت الغربي ، ولكن المهم ان المحاكم تفتح جلساتها حينما تريد ، فقد تبدأ عملها في العاشرة والحادية عشرة ، أو التاسعة ، وعلى المحامين كبارا وصغارا ، وعلى المتقاضين من ذوى الاعمار الكبيرة أو الصغيرة ، ان يتركوا ساعات طويلة ، يقتلهم الملل ويثقل عليهم الشعور بالاهانة والتحقير ، وقد يكون لهذه الظاهرة ألف سبب وسبب ، وقد يكون نصيب القضاة الافاضل في حدوثها ضئيلا جدا فما أحسب قضاتنا إلا حريصين على احترام المواعيد والحضور في الوقت المحدد في صحيفة الدعوى ولكن تحول بينهم ظروف الزحام وفوضى المرور وضخامة جدول الجلسات، ولكننا في نهاية الامر أمام ظاهرة تقع في محكمة ، وعندما تبدأ المحكمة عملها فلم تجر العادة بأن يعتذر رئيس المحكمة عن التأخير ظلن بأن هذا يخدش مقام القاضي أو يحط من قدره ، ولكني أذكر اني سمعت بأذني رأسي قضاة بلغوا أعلى المناصب يعتذرون للمحامين وللجمهور بصوت مسموع عن التأخير ، كما اذكر اني رأيت في محكمة قنا القاضي أحمد نشئت ، صاحب كتاب الاثبات ، يهرول ليصل الى قاعة المحكمة في الميعاد ، ولم يبدأ عمله الا بعد ان اعتذر وهو يلتقط انفاسه ، رحمه الله

وقد يرى بعض الناس ان هذا المثل لا يمت الى رعاية الحرية بسبب، وأراه وثيق الصلة بها ، فاحترام وقت الناس ، وظروفهم ، هو جزء من احترام الناس أنفسهم ، ولا يهمل رواد قاعات المحاكم ويتركون وكأنهم أشياء ، إلا لان الاحساس بكرامة الآخرين ضعيف أو معدوم .

والظاهرة المتصلة بهذه الظاهرة ، هي ازدحام كشف قضايا المحاكم بمائة أو مائتين أحيانا من الدعاوى ، وتحول قاعة المحكمة الى

سوق هائجة مائجة من الرجال والنساء والاطفال ، ومن اصحاب الملابس الافرنجية ، ومن اصحاب الملابس البلدية ، وتدافعهم ، ومعاناة الواحد منهم للضغط ، واحيانا الركل غير المقصود ، وما يشبه الخنق ، إذا اراد أن يصل الى منصة العدالة ، ويعانى المحامون ما هو أنكى وأشد بلاء ، فقد ألغيت منصة المحاماة التى كان المحامون يترافعون منها ، وأصبحت المرافعة همسا فى أذن القاضى ، وسط ضجيج خارج القاعة يصل الى آذان القضاة والمحامين والشهود ، وبذلك زالت أكبر ضمانة حرصت الدساتير على النص عليها وهى علنية المحاكمات ، وعلنية المرافعات ، وعلنية النطق بالاحكام ، واصبح الدخول الى قاعة المحكمة والخروج منها - والمحكمة اكثر الدور التى اعدت لحماية الحقوق وتنفيذ القوانين - أصبح الدخول الى هذه القاعة والخروج منها، جرعة مرة من احتقار القانون ، والاحساس بصوريته وعجزه وسوء ادارته .

ولا تحسب ان شعبا تجرى فيه شئون العدالة على هذه الصورة ، يمكن ان يغضب اذا ما اعتدى على القانون ، أو تعطل الدستور ، ففى قاعات المحكمة تلقى الدروس التى تعلم افراد الشعب العاديين معنى سيادة القانون ، وجلال هذا القانون ، وهيبته .

وانى لأوثر ان يصدر قانون بتأجيل نظر القضايا خمس سنوات لكيلا يزيد عدد القضايا فى أية محكمة عن ثلاثين قضية ولو تفه أمرها ، وقل شأنها . وانصح بألا يحال الى المعاش قاض ، وان يتحول القضاة المحالون الى المعاش ، الى قضاة يتقاضون الفرق بين معاشهم ومرتبهم، لتكون منهم دوائر ، تعرض عليها القضايا بأقل الاجر ، ولو

فرض رسم اضافي على القضايا لتوفير مرتبات القضاة ، لما شعر أحد بهذه الزيادة

مثل ذلك يجري في عيادات كبار الاطباء ، الاساتذة الذين ينشئون الجيل الجديد ، ويطعمون الشباب ، معنى احترام الانسان للانسان ، فيغرسون في نفسه ، التعصب للحرية ، ورفض كل مساس بها .

وقبل أن أتكلم عن ظاهرة عيادات الاطباء أسجل هنا مدى ديني للاطباء الكبار والصغار ، فقد كنت منذ اليوم الاول لولادتي طفلا مريضا وعرفت رواد طب الاطفال المتخصصين :

عبد العزيز نظمي وحافظ عفيفي ثم عرفت عبد العزيز اسماعيل وسليمان عزمي وأجرى لي علي باشا ابراهيم عمليتين بلا مقابل ، فأنا لا أشكو من حال العيادات عن عدم تقدير لعطاء الطبيب أو لجحود فضله

فعيادات كبار الاطباء يتكدس فيها المرضى وأهلوهم ، وينتظرون بغير نظام ولا ترتيب ، ولا منطق مفهوم ساعات ، ومنهم صاحب العلة ، ومنهم صاحب الحاجة ومنهم من تقدم به السن ، ومنهم من يصحب طفلا – على وجه الاضطرار – في حين ان هذه الآفة المزمنة ، يمكن للسادة كبار أطبائنا ، وأصحاب الصدارة بين اساتذتنا كما يمكن للنقابة ، ولوزارة الصحة ، ان يلجأوا الى نظام بطاقات الدخول فلكل مريض بطاقة يحدد فيها موعد حضوره ، فاذا تأخر عن هذا الموعد ، حل محله صاحب الموعد التالي ، وخلت العيادات من هذا الزحام الكريه، واختفت ظاهرة ترك الناس كأنهم اشياء لا تحس ولا تعي ، ليس لديها

ما يشغلها ، والوقت عندها لا قيمة له ولا ثمن . هذا الاعتداء على كرامة المريض والسليم ووقته وراحته هو عدوان صارخ على الحرية ، ولكننا نقبله ، ونحسب انه من قضاء الله ، نذعن له ونستسلم ، مع ان قليلا جدا من التنظيم والتدبير ، يحفظ على المواطنين احساسهم بكرامتهم ، حينما يصان وقتهم ، ونعفيهم من الملل والضيق ، الذي قد يورث المرض، وهناك آفات أخرى مماثلة .

هذه الافات والعلل ، هي في مجموعها ، سند الحاكم الظالم ، عندما تسول له نفسه ، ان يفتك بالحرية ، أو يعطل قوانينها ، أو يخلق لها قوانين تخنقها ، فقد قال أجدادنا «إن ما أغرى فرعون على عدوانه ، قلة من يرده »

فنحن أحوج ما نكون الى برنامج طويل ، تتواصى به الاحزاب ، ودعاة الحرية ، وطلاب الديمقراطية ، يلقنون به الشعب ، كيف يرفض كل ظلم مهما صغر ، وكل اعتداء على الكرامة مهما تفه ، فان في حياتنا من رواسب الماضي ، تقاليد ، تؤله أو تحترم على الاقل الموظف الذي يخافه الناس ، ولا يعرفون كيف يراجعونه في قرار ، أو يعرضون عليه مظلمة هذا الطراز من الموظفين ، ينظر اليهم المجتمع بانهم «أقوياء» ، ويراهم أحق بالوظيفة الكبيرة ، والمهمة الضخمة ، اما الذين يألفهم الناس ، ويستطيعون الاقتراب منهم والتحدث اليهم ، فهم «ضعفاء» لا يصلحون للرياسة – وقد حدثنا عبد الرحمن الرافعي عن الكشافين والسناجق في عهد الامراء والمماليك ، وفي أوائل حكم محمد علي فقد جرى الفلاحون على احترام الكشاف أو السنجق أو الملتزم ،

الذى يبتز من الفلاح المسكين ، آخر درهم فى جيبه لحساب الضرائب والرسوم والعوائد ، مستعملا الكرباج ، مستغلا «الفلقة» . فاذا جاء واحد من هؤلاء ، أقل قسوة وغلظة ، سخر منه الفلاحون ، وحقروا أمره، واطلقوا عليه اسماء النساء .

وفى هذا الجو ، ماضت الروح الاستبدادية ، وأفرخت ، ولاتزال هذه التقاليد سائدة ، وما نستتبعه ، واقتصر همنا على طلب الغاء القوانين المقيدة للحرية – وهو طلب لا يجب ان نتهاون فيه – فنحن لانهيىء للحرية جوها ، الحرية لا تقوم بدستور ولا تلغى بدستور ، وهى لا تولد بقانون ، وتزول بقانون ، انما تولد وتحيا وتورق وتثمر ، بشعب يحارب من أجلها، ويرفض ما يمسها ولو من بعيد .

هذا العالم المجنون

لا أدرى كيف يستطيع واحد من أربعة آلاف مليون من بنى آدم يعيشون فى هذه الكرة الارضية، أن ينام ملء جفونه أو بنصف جفونه بعد ان يعلم انه يوجد الآن ٥٠ ألف قنبلة أو سلاح نووى، نصفها مملوكة لامريكا والاتحاد السوفيتي وان القدرة التفجيرية لهذا العدد الهائل من القنابل والاسلحة الذرية تساوى مليون قنبلة من حجم قنبلة هيروشيما التى فتكت فى اقل من دقيقة بمائتى ألف من أهل هذه المدينة التعسة وأن ١٦ ألفا من هذه القنابل، من القنابل الاستراتيجية أى القادرة على اجتياز القارات فى اقل من ٣٠ دقيقة، تصل بعدها إلى اهدافها بالضبط، أو بالقرب من تلك الاهداف ، مع خطأ لا يزيد على بعض ياردات قليلة.

ولكن السعى الدءوب فى تحسين تلك القنابل المهلكة، وزيادة عددها كما جاء فى مقال الدكتور ميشيل فرح أستاذ العلوم المصرى، لا ينقطع باضافة قنبلة النيترون موصواريخ ام اكس، وقاذفة القنابل (ب١) وغواصات ترينت حاملة الرؤوس النووية

وقد كان الناس يتحدثون منذ بضع سنوات مضت عن امتياز من يسبق الطرف الثانى فى اطلاق السلاح الذرى ، اذ كان ممكنا فى تلك

الهلال - مارس ١٩٨٣ .

الايام تصور ان السابق في الشر، يبطش بعدوه، ويمنعه من الرد، ولكن يقول فرانك برنابي الرئيس السابق للمركز الدولي لبحوث السلام ان تكنولوجيا الهلاك الحديثة من غواصات حاملة الرؤوس النووية ، والحاسبات وأشعة الليزر، قضت تماما على فكرة تفوق الضارب الاول على من يرد عليه . فالهلاك المحقق هو مصير من يضرب أولا، ومن يرد عليه ثانيا، وبعبارة أخرى، انه اذا قامت الحرب النووية فالكوكب الارضي كله مصيره الفناء.

واذا كان خطر الفناء بالسلاح الذري، الذي يهدد العالم، حقيقة لا مجازا، جدير بأن يطير النوم من أعيننا، فان هناك خطر فناء آخر، يهدد نفس العالم، ولكنه لا يبدو لنا واضحا، لانه لا يظهر في كل بلاد الدنيا بدرجة واحدة، اذ انه يختفي تماما من دنيا الاغنياء، ليبدو مجسدا، يسير وكأنه هيكل عظمي، تكاد عظامه تتفكك بعضها من بعض في معظم بلاد العالم، هي بلاد حزام الفقر.

وحزام الفقر هو تعبير حديث يحيط من كل عشر دول، ست دول، هي الدول التي لا يجد أبناؤها ما يملأون به بطونهم، فيصابون بأمراض المجاعة، ويتحولون الى سيقان وأذرع كالعصي الرفيعة، ووجوه شاحبة، وعيون انطفأ فيها البريق، وغابت في محاجرها، وجماجم ضخمة ، لا تتحرك فوق أعناقها الا بصعوبة أو مشقة.

هذه هي بالضبط حال ستة أعشار العالم، الذي ينتج ما ذكرته لك من الاسلحة والقنابل.

إن سكان الدول الغنية – أي التي يحيطها حزام الغنى – عددهم ١٤٠٠ مليون يعيشون في الدول المتقدمة التي تقع في ثلث الكرة الارضية وفي شمال هذه الكرة بالذات أي في أوربا الغربية، والولايات

المتحدة، والاتحاد السوفييتي واليابان . وكلما تركنا نطاق هذا الحزام، وانحدرنا نحو الجنوب، فاننا سنقترب شيئا فشيئا من حزام الفقر، الذي يطحن حلقه ٢٤٠٠ مليون انسان يهددهم الموت جوعا، وينجون من هذا المصير البشع حتى اليوم ، بمعجزة ولا أحد ينزعج لمأساتهم، ويفكر جديا في ردها صحيح تكتب المقالات وتعد البحوث، وتجأر بالشكوى مؤسسة الاغذية والزراعة المعروفة (بالفاو) ولكن الحال لا تتغير الجوع يتقدم بخطى ثابتة ومعه منجل الموت، يحصد به الأرواح، والأغنياء يأكلون أحيانا أكثر مما يلزمهم ويستهلكون كل شئ من الطعام الى الشراب الى الوقود والطاقة، بلا تدبر، ولا شعور بالاثم

ولكن قد يستيقظ الجميع ذات صباح فلا يجدون طعاما.

فقد كانت مشكلة العالم منذ سنوات مضت، هي كيفية التخلص من فائض الطعام المتراكم في مخازنه، ومنذ أكثر قليلا من عشر سنوات، كانت الولايات المتحدة تمنح المزارعين لديها معونات ضخمة لكيلا يزرعوا مئات الالوف من الافدنة. وكانت البرازيل تلقي بالفائض من البن في البحر، أو تستعمله وقودا، أما اليوم فلم يعد لدى العالم الا مخزونا لا يزيد عما يستهلكه العالم، في ٢٧ يوما. أي احتياطي ٢٧ يوما من الغذاء وهو ما نعيش عليه فعلا. وقد ينفد هذا المخزون لسبب أو لآخر، وعندها يحدث أسوأ ما يمكن أن نتصوره . سينطلق الجياع في كل مكان، ليبحثوا عما يسد رمقهم، ولو بأكل الادميين من الاطفال والنساء، والجيف والقمامات التي تملأ الشوارع.

والذي نقوله على أنه المستقبل هو الواقع الآن في بعض بلاد ساحل افريقيا الغربي التي ظل أهلها لسنوات متعاقبة ينتظرون سقوط الامطار

على أرضهم فلا تسقط، ومن ثم فقد بقى خمسة وعشرون مليونا من الفلاحين يتطلعون إلى السماء فى انتظار أن تمطرهم الرياح الموسمية، ومرت سنة وراء سنة والجفاف يلتهم مواشيهم، ويجفف ابارهم، وبالتالى دماءهم فى عروقهم. لقد أكلوا البذور التى يعتمدون عليها فى الزرع، والحيوانات التى تعينهم على تهيئة أرضهم.. ولم يبق أمامهم الا ان يموتوا فى بطء، ثم بسرعة فهلكت منهم الملايين.

ولجوعهم وضعفهم، وضعف مقاومة اجسادهم، تفشت بينهم الامراض الفتاكة، فارسلت اليهم هيئة الصحة العالمية، شحنات ضخمة من الادوية، وعددا كبيرا من الاطباء وخيام المستشفيات، الا ان أكثر من حكومة افريقية، رفضت قبول هذه المعونة الطبية، اذ قالت ان الموت بالمرض، أخف على بنيها الجائعين من الموت بالجوع.

ولكن الخطر ليس مقصورا على الفقراء، فهو يشمل الاغنياء أيضا، خذ مثلا مشكلة تغذية العالم بالقمح، فالدول الست الكبرى المصدرة للقمح اجتمعت فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ فى روما، وأوضحت أن الموقف دقيق للغاية، وأن العجز فى المنتج من القمح حقق عجزا عن المطلوب العالمى بلغ ٦٠ مليون طن، ولذلك طلبت منظمة الدول المصدرة للقمح من الدول الغنية أن تكف عن تقديم القمح كغذاء للماشية حتى لا تتجاوز الزيادة فى سعر القمح (آنذاك) ٢٥٪.. وحدث مثل هذا العجز فى الارز فالمطلوب منه للعالم أقل من الكميات التى يمكن تصديرها من الدول المصدرة لهذه الغلة، والولايات المتحدة أعلنت برنامجا منذ سنوات بهدف تقليل صادرات علف الحيوان لان أهم مكوناته دقيق الذرة، وذلك بقصد استبقاء كميات الذرة فى البلاد لتعين على زيادة انتاج اللحوم.

لكن لم يكن لأنباء أزمات انتاج الاغذية على اختلاف انواعها، ولتفشى المجاعات أى أثر على العالم الآخر المشغول بل المنهك فى انتاج الاسلحة والمبيدات الانسانية. وتفضل بقراءة هذه الحقائق:

يقول روبرت مكنمارا الرئيس السابق للبنك الدولي، يوجد اليوم مليار يعني ألف مليون من البشر تنتمي كلها إلى العالم الثالث ، أى عالم الفقراء والمحرومين تجمدت دخولها بازدياد سنوى دولارين فقط ، أى كان دخل الواحد من هذه المجموعة التعسة فى السنة – سنة ١٩٦٥ ١٣٠ دولارا سنويا فلم يتجاوز سنة ١٩٧٥ مبلغ ١٧٥. كما ان ما يدفعه العالم الثالث فى شراء النفط وغيره من المواد والسلع التى يحتاجها، ولابد له من شرائها من الخارج، زاد على كل المعونات التى تؤديها له الدول الصغيرة.

وقد كان العالم الغنى مطمئنا إلى المستقبل ظانا إن ثراءه، وتحكمه فى التكنولوجيا هذا الساحر العجيب، وكثرة موارده، وضغطه الذى لا يقاوم على الدول المنتجة للمواد الخام، سيبعد المخاطر كلها، الا أن السنوات الاخيرة، فاجئت عالم الاغنياء بمخاطر دقت ابوابهم بعنف، حتى استولى عليهم الهلع وان كانوا لايزالون يبدون من التجمل بالصبر وضبط النفس، ما لا يستطيعه الفقراء .. فقد جاء التضخم بأهواله، ولا أحد يستطيع أن يكبح جماح هذا الغول وجاءت مع التضخم البطالة، وجاء معها الكساد الذى لم تشهد أوربا الغنية والولايات المتحدة مثله فى أشد سنى الكساد التى عرفها من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣.

والفقر والجوع فى عالم الفقراء نترهما فى الدول الغنية، ولا تقل اثارهما عند الجانب المادى من حياة البشر، بل تتجاوزه إلى الجانب

الاجتماعي والسياسي، فالإحصاء الذي قامت به هيئات الدراسة والتحاليل السياسية اثبتت انه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قامت في أنحاء العالم ١٤٠ حربا اقليمية، كما وقع منذ ذلك التاريخ ٧٦ انقلابا عسكريا، وتقول نفس المصادر أن ضحايا تلك الحروب المحدودة والانقلابات، بلغت ٣٠ ألف مليون قتيل، وهو رقم أنا شخصيا أشك فيه، وتقدر نفس المصادر أن ما ينفقه العالم الآن سنويا على التسليح هو ٥٠٠ الف مليون أي ٥٠٠ مليار، أي أكثر من مليون دولار في الدقيقة ولكن السيد حسني مبارك قدر هذا الانفاق في الكلمة التي ألقاها أخيرا في اجتماع هيئة الاغذية والزراعة في روما بمبلغ ٦٥٠ مليارا في السنة فقد قال

لا يعقل أن ينفق العالم ٦٥٠ مليارا في العالم للتسليح بينما الاحتياجات الضرورية لملايين الاشخاص مازالت غير مستوفاة، ثم قال ان ما ينفق على الصاروخ الواحد، يكفي لغرس مليون شجرة، أو ري مليون هكتار أرض، أو تغذية ٥ ملايين طفل أو بناء ٦٥ ألف مستوصف أو ٣٤٠ ألف مدرسة.

وليس ثمة شك في أن هذا الاختلال الرهيب بين ما ينفق على التسليح، وما ينفق على الطعام، هو دليل يدين الحضارة الحديثة، ويثبت أن بها خللا لابد ان يعالج، ولكن لا يوجد أحد يفكر في كيفية علاجه، فلا توجد هيئة واحدة في هذا العالم الذي وصل إلي القمر، وتطوف الآن أقماره في اجواز الفضاء، والذي يزرع القلوب والاعضاء ويمد في حياة الذين أشرفوا على الموت، تستطيع ان تشرف على الانفاق الانساني وتوجهه إلى وجهته الصحيحة وتحول بين ضروب التبذير، والقاء بلايين

الدولارات والجنيهات، في أتون الشر الذي يدمر سعادة الناس، في شكل حروب وانقلابات لا تصل إلى غاية، ولا تحقق لأحد غرضا.

ولا أدل على تغلغل هذا الخلل في أسس حضارتنا، من أن القوى المسلحة تحكم الآن ٥٤ دولة، ولكي تستطيع هذه القوات ان تحقق وثوبها على السلطة، بقمع الخصوم ، لابد من سلاح، وتدريب ومعسكرات، ولذلك فقد باعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في المدة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٨٠ اسلحة بنحو ثلاثين بليون دولار في حين باعت كل من الصين وفرنسا في المدة ذاتها بثلاثة مليارات

وعلماء الاجتماع والسياسة يؤكدون ان هذا النزيف لن يقف عند حد، وان العالم - على النقيض- سيواصل توجيه أكثر ماله وجهده على شراء البندقية والمدفع والصاروخ، لانه يعتبر ان هذه الادوات المهلكة هي سبيل الامان والحماية، وان الرغيف والطعام الموفور، والمسكن الأمن، والمدرسة التي تعلم الاطفال، والمستشفى الذي يعالج المرضى، خطوط دفاع واهية لا تقف أمام سطو وغزو الخطوط الأخرى، والمظنون ان العالم سينفق في عام ٢٠٠٠ على التسليح كل سنة الف الف مليون أي مليار بدلا من ٦٥٠ الف مليون هذا اذا امكن ان يبقى هذا العالم المجنون، حتى يتم القرن العشرين، فكثير من المفكرين والمشتغلين بشئون الاقتصاد والتغذية والتسليح، يبدون تخوفا بل وفزعا من حوادث جائرة الحدوث أثناء نقل الاسلحة سواء عن طريق الخطأ أو العمد، ويخيل إلى بعض هؤلاء ان نهاية العالم ستكون بشئ من هذا القبيل، ان استطاع توازن الرعب بين الدول أن يقي العالم من حرب ذرية، فان

الخطأ أو ضعف أعصاب الجالسين وراء منصات الاسلحة الذرية، وعند مفاتيحها، التي تملك ان تفتح ابواب جهنم، لتضع حدا لحياة هذا الانسان الذي طال فقره، وسوء تدبيره لغناه.

هل تتحقق المخاوف. أم هل ينجح الانسان، في ان يخرج نفسه من هذا الجنون الذي أصيب به، واستولى عليه.

يحسب بعض الناس أن عالم الاقوياء عالم ميئوس منه، فلا نفع فيه ولا رجاء وانه سيواصل تسابق الهلاك مدفوعا بالقصور الذاتي، وبالخضوع لما ألفه من التنافس والتسابق من أجل السيادة فمفتاح النجاة في يد الفقراء الذين يتجردون من المصلحة، وهم الاكثر عددا والاكثر غنى في واقع الأمر.

فهل يتحقق الحلم، حلم الضعفاء الاقوياء، الفقراء الاغنياء..؟.

قضية البيضة والفرخة
أو
الفرد والمجتمع

من مشكلات الحياة، معرفة أى الشيئين سبق الأخر فى الوجود البيضة أم الفرخة، فاذا كانت البيضة هى الأصل، فمن باضها؟ واذا كانت الفرخة هى التى بدأت فى دورة الحياة، فمن أية بيضة فقست؟.

ولم أكن أتصور أن هناك مشكلة مشابهة، ولما ووجهت بها خيل إلىّ أن وجه الشبه قائم، وأن المشكلة هناك هى المشكلة هنا

فاذا كان المجتمع قد سبق الفرد، فمم تكون هذا المجتمع؟ الم يكن قوامه أفرادا واذا كان الفرد هو الذى سبق المجتمع، فكيف تكون الفرد، ولغته التى يتكلم بها، ويعبر عن نفسه بمفرداتها وجملها ، هى نتاج اجتماعى، لا يتم الا بالتقاء أفراد عديدين، يعلم السابقون منهم اللاحقين، كيف ينطقون وماذا ينطقون، لو ولد الفرد فى فراغ تام، وليس معه أحد سواه على شاكلته، فلن ينطق، ولن يلبس، ولن يجد قدوة يحاكيها ومثل يتأسى به. فيبقى الفرد فردا ، حتى ولو انضم اليه بعد ثان وثالث، فإنهم جميعا يبقون بكما، لايعبرون ، بما لا يفقهون.

الهلال – يوليو ١٩٨٢ .

ولكن ليست المشكلة مجرد لغز التسلي وازجاء الفراغ، بل هي من ابتكار عقل مؤرخ كبير. أراد ان يسأل عن العلاقة بين المؤرخ والمجتمع ، عن طبيعتها، وعن المؤثر في طرفي المعادلة والمتأثر. فهل المؤرخ هو بعقله ومزاجه، وأسلوب تفكيره وطريقة تحليله، ونظره إلى مشكلات المجتمع ومنشئها وتطورها، ودوافع الرجال والنساء، الذين يلعبون أدوارهم الكبرى على مسرح السياسة والقيادة، وهل هم فاعلون يشكلون التاريخ، أم هم دمى في تيار متدافع، من انفعالات الجموع الهائلة، التي تكتسح أمامها كل شيء.

والحق انك واجد متعة وسعادة، وأنت تقرأ المؤرخ إدوارد دكار الذي ترجمه الاستاذ أحمد حمدي محمود منذ سنوات هذه التساؤلات العديدة، وما يتفرع عنها، وتعليقاته عليها، وتعليقات كبار المؤرخين ممن نعرفهم، وممن لا نعرفهم مثل جيبون جردت، وماسون الالماني، وناميه، ثم اشمنجلر، وكارلايل، ومايتكه ، وماركس وأخيراً توينبي.

ويبدأ كار ، بأولى صفحاته، فيقول لك ان الانسان الفطري الذي لم يتقدم بعد في الحضارة ، ولم تتعقد حياته في ظل مواصفات المدينة، أكثر اجتماعية، أي أكثر ميلا للجماعة، واندماجا فيها، وتأثرا بدفعها من الانسان المتحضر، فالفردية واحساس الانسان بذاته، وميله إلى العزلة، وحرصه على الوحدة، هي ميول حضارية حديثة، وقد بلغت هذه الروح حدها الاقصى، عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، فمبادئ هذه الثورة، التي أكدت روح الانسان المحب للتفرد والانعزال وخوفه من ذوبان شخصيته في محيط المجموع. فالانسان البدائي، لا يجد لذة كبيرة في أن يترك وحده، بعيدا عن قرينته أو أولاده، أو أعضاء القبيلة،

ولكن الانسان الحديث يشكو مر الشكوى من ضغط المجتمع عليه ومن كونه لا يجد الا بأعظم الصعوبة، وقتا للانفراد والتأمل الهادئ . وكل وسائل المتع الفردية، وجدت عندما ارتقي الانسان فوجد الكتاب الذي يؤنس وحشة الانسان، وينقل اليه أقوال وأفكار، وربما ما يقترب من أصوات الآخرين ويرى المجتمع الانساني، يلتقي ويبتعد ، ويتشاجر ويتآلف . وهو محمي تماما من ضغطهم ويفهم وكأنما يشاهد الناس من وراء حاجز ضيق، من زجاج شفاف جدا.

ولكن هذه الحقيقة تظهر لنا لو تأملنا تطور علاقة الطفل بأسرته، وعلاقة أفراد الاسرة من الصغار بالكبار، والتحولات التي تصيبها . فالطفل عقب ولادته سواء كان انسانا أو حيوانا يلتصق بأمه، ولا يدعها قط، وتسير الام والاولاد حول رقبتها ويديها، وكلما تقدم الزمن، وكبر الطفل وازداد قوة ، وقدرة على الحياة ازداد استقلالا عن والديه ومن أمه بصفة خاصة، فاذا بلغ الطفل أشده، بعد عن والديه تماما، عند الحيوانات، يجهل الطفل أبويه، وقد يشاجرهما، ويعتدى عليهما، وتتفكك أواصر الاسرة، ويذهب كل لحال سبيله، فالمجتمع والتصاق الفرد بجماعته الصغيرة اي عائلته يظهر بوضوح كلما كان الجيل أكثر حداثة وأقل خبرة، وأقل اعتمادا علي نفسه.

وقد كان من الطريف ان اشار (ادوارد كار) إلى قصة «روبنسون كروزو» الشهيرة التي ألفها الكاتب الانجليزي (دانيال ديفو)، والتي حاول فيها أن يصور الانسان المنفرد الذي يعيش وحده بعيدا عن الجماعة، لا يؤنسه في عزلته انسان مثله. ويعلق علي حالة روبنسون بقوله أن محاولة (ديفو) أنْ يحدثنا عن انسان منفرد، قد فشلت قبل ان

تبدا لان (روبنسون) لم يكن انسانا (مقطوعا من شجرة) كما نقول نحن في حديثنا اليومي، بل كان انجليزيا ومن مدينة (يورك) وكان معه الكتاب المقدس في جزيرته المعزولة التي لجأ اليها لما غرق القارب الذي كان يحمله، وبذلك فقد كان له وطن ينتمي اليه، ورب يصلي له، ودين يتعبد به. ثم ساق له المؤلف زميلا مؤنسا، هو الافريقي جمعة - فرايداي)

ويذكر (كار) - على سبيل التداعي- شخصية أخرى هي اسطورة (كريلوف) في كتاب دستوفيسكي الكاتب الروسي العظيم (الشياطين)، ويورد هنا تعليقا عميقا، لان كريلوف انتحر، ليثبت انه حر في فعل أي شئ يريده فالانتحار هو الفعل الوحيد المتاح للانسان الذي يعيش وحده معزولا عن الناس

وقد أدى كشف هذه الحقيقة إلي تقرير أن الاختلاف بين المجتمعات البشرية ليس راجعا إلى اختلافات حيوية بين الفرد في كل من هذه التجمعات ، بل راجع إلى اختلاف السلوك الجماعي القائم علي اختلاف الاسس القوية للمجتمع والتعليم والثقافة والمعتقدات الموروثة، بمعنى أن الخلاف بين الروسي والمصري والتركي، ليس مرده اختلافا في تكوين أفراد كل مجتمع من هذه المجتمعات من حيث أجسامهم وتكوينهم الموروث بدنيا بل راجع إلي اختلاف الظروف التي كونها كل مجتمع من هذه المجتمعات بحيث أصبح يحب أشياء ويكره أشياء ويمارس عادات، وينفر من عادات أخرى وهكذا.

ولذلك أصبحت الوسيلة المثلى لدراسة الفروق بين الانجليزي والفرنسي مثلا ليست دراسة الانجليزي على حدة، والفرنسي على حدة،

بل دراسة المجتمع ككل. ودراسة المجتمع الفرنسي ككل وتبين الفوارق في العادات والمعتقدات والسلوك.

ولقد أكدت الروح الفردية خصائص الحضارة الحديثة، ولا سيما مرحلة الرأسمالية، فقد كانت وحدات الانتاج والتوزيع في المراحل الاولى للرأسمالية غالبا في أيدى أفراد متفردين وقد أكدت العقيدة التى قام عليها النظام الاجتماعى، عقيدة تزكى المبادرة الفردية، ولكن عملية الانتاج والتوزيع، كانت آخر الأمر عملية اجتماعية.

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن المذهب الفردى بقى زمنا طويلا ولا يزال باقيا وقد تستمر آثاره زمنا طويلا، فمن بين الناس من يؤمن بأن الفرد هو الوسيلة والغاية معا فالفرد الحر، المتفوق، الماهر، الغنى هو الطريق إلى مجتمع ثورة الحرية والرخاء والاستقرار، ولكن هذا المذهب يعانى أزمة فكل شئ الآن، يدعو إلى النقيض، الجماعة هى الغاية، والفرد هو الوسيلة، ولكن ليس بها صراع يؤدي إلى تحطيم الواحد منهما للآخر.

وينتقل (كار) بعد ذلك إلى ما يدخل في اختصاصه تماما فيمتع القارئ بالامثلة والاستنتاجات والاستشهادات ويبدأ هذا الجانب من بحثه فيتساءل. هل التاريخ هو قصة كتبها أفراد عن أفراد يعني هل التاريخ الذى نقرؤه ونحاول أن نعرف من خلاله ماضينا وما فعل أجدادنا وآباؤنا وما حققه الانسانية وما فشلت فيه، هي حكاية يكتبها مؤرخ فرد عن أفراد عظماء مثل مينا، وسقراط، وموسى ، والاسكندر، ورمسيس وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ومصطفى كامل، وعمر مكرم.

ويمكن الرد، علي هذا التساؤل أن المؤرخ الذى يكتب التاريخ هو بلا شك (فرد) عن أفراد. ولكن هذا الفرد ليس نتاجا شيطانيا ينبت فى أرض معزولة، لم يمر بها أحد ، ولم يروها آخرون، ولم يطبق عليها أصول الزراعة، زارعون تجمعت لديهم أصول الزراعة، خلال أجيال ، وهم يكتبون عن أفراد، نشأ كل منهم فى (حضانة أطفال)، لا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم أحد، فهؤلاء الذين يكتب عنهم المؤرخون ثمرة تفاعلات في مجتمع، يمور بالحركة، والدفع والجذب والقلق والأسى، والخوف. وقال عن نفسه انه قرر في إحدى محاضراته أن التاريخ هو عملية تفاعل أو حوار بين المؤرخ في الحاضر والوقائع فى الماضى.

فإلى أى حد يكون المؤرخ، هو فرد، ولكنه لانه انسان، فهو ككل انسان أمر ظاهرة اجتماعية، وأحب أن أنقل عن (كار) عبارته حرفيا:

فالمؤرخ هو حصيلة المجتمع الذى ينتمي اليه، والناطق الشعورى واللاشعورى باسمه.

وتستهوينى من هذه العبارة قول (كار) أن المؤرخ هو المعبر الشعورى واللاشعورى عن المجتمع الذى هو ثمرته. فلأن المؤرخ هو ثمرة المجتمع، فإنه يتكون ويتخلق فى رحم هذا المجتمع، ويتغذى بدمه، ويأخذ كثيرا من أفكاره وميوله منه، وهو لايدرى وقد كنت أعرف صديقا ولد فى إحدى الدول العربية وكان ينطق جملا تجرى على ألسن أهل هذا البلد فلفت نظره إلى هذا فنفاه بشدة وقال أنا لا أقول ما تنسبه إلى فسكت حتي ضبطته ينطق بالتعبير الخاص بذلك الوطن، فارتبك واحمر وجهه وقال. والله ما كنت أشعر بهذا وقد يكون المثل عن تشابه مادى فى نطق الالفاظ، واستعمال المصطلحات القولية، ولكن فى الواقع أن التشابه أعمق بكثير

فالمؤرخ يتأثر بما يجرى حوله، وإن كان يتصور أنه باق على معتقداته وانه اذا كان حرا فقد بقي كذلك حتى بعد أن فشلت مبادئ الحرية، وفازت أفكار المحافظين وإن كان محافظا تشبثت منه بالمحافظة، ولو أن الجماهير قد سحقت المحافظين واقتحمت حصونهم

ويضرب كار مثلا بالمؤرخ الألماني (ماينكه) فقد الف ثلاثة كتب، كان أولها بعنوان «العالمية والدولة القومية» نشر سنة ١٩٠٧ وقد رأى فيه أن الدولة الالمانية بقيادة بسمارك قد حققت المثل الالمانية القومية، ثم كتابا ثانيا موضوعه «فكرة منطق الدولة ونشر سنة ١٩٢٥، وكتبه بعقلية جمهورية فيمار الالمانية التي نشأت في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨ والتي حاول فيها الالمان ان ينبذوا النظام الشمولي وأن يصطنعوا الديمقراطية البرلمانية ثم ألف كتابا ثالثا موضوعه (بزوغ النزعة التاريخية) الذي نشر سنة ١٩٣٦، وكان التيار النازي قد جرفه، فاعتبر كل ما هو كائن حق، فالنازية جديرة بأن يسلم الالمان بها، ويتعنون لها، لانها قائمة وتسود المانيا، وتمتلئ قوة فلما هزمت المانيا النازية بعد انتصاراتها الساحقة من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥، اصابته صدمة مدمرة، وأصبح يعتقد في ان التاريخ يخضع لرحمة المصالح العمياء (فماينكه) المؤرخ العظيم، رغم دراساته وابحاثه وتفحصه، وشعوره بالاستقلال، كان صوت المجتمع الذي يعيش فيه. ولكن بقى في البحث الذي خطه قلم المؤرخ العظيم (ادورد كار) أمران جديران بالعرض. الأول - اذا كان المؤرخ هو ثمرة عصره، وبيئته ولسان مجتمعه الشعوري، فما هو الموضوع الذي يتناوله المؤرخ، أيكون هو سلوك أفراد، أو فعل قوى اجتماعية؟

وهناك مؤرخون يعتقدون أن التاريخ من صنع رجال عظماء و وقد سبقت الاشارة إلى هذا المعنى.

ومؤرخون يعتقدون أن التاريخ هو دراسة تصرفات قوى اجتماعية وهناك من يعتقد باصرار أن في التاريخ عنصرا يمكن تسميته (بالقوة اللاشخصية الهائلة) ويقصدون بهذه القوة، عنصرا في التاريخ عدا تصرفات الافراد العظماء الذين نسمع أسماءهم ونقرأ أعمالهم ومواقفهم وألفاظهم هذا العنصر يعلو على الأشخاص، ويبدو تيارا مستقلا عنهم، وخارجا عن ارادتهم، وبعيدا عن صفاتهم وخصائصهم ، ويبقى حتى بعد زوال هؤلاء الاشخاص، واختفائهم عن مسرح العمل العام، أو عن مسرح الحياة نفسها، هذا العنصر أو التيار، هو روح الجماعة ، وهو في الواقع العامل المؤثر في توجيه التاريخ، ومسار الأحداث والجماعات البدائية هي التي تؤمن بان العنصر الرئيسي في التاريخ هو الفرد، وكلما تقدم الانسان ، ولكن تعقد المجتمع، وتعقدت بالتالي تصرفات الانسان الفرد لما يتفعل به ويخضع له من ضغوط في المجتمع لايمكن تبينها من دراسته ومراقبته وحده، لان هذه الضغوط، لا تنصب على الانسان مباشرة بل إنها تتكون بعيدا عنه، وتكون حوله جوا هو الذى يصوغ شخصيته آخر الامر ، ويحدد قراراته ويلهمه بالدوافع والحوافز، كما يزوده بالكوابح والقيود.

وقد دافع أمريكي حديث عن النظرية التي تؤمن بالافراد وانهم أصحاب النظرية بقوله: أنتم تقتلون الشخصيات التاريخية قتلا جماعيا عندما تنظرون إلى هذه الشخصيات باعتبارها دمى القوى الاجتماعية، والاقتصادية.

ويقول مؤرخ أن علماء علم الحياة كانوا فى القديم يقنعون بتعذيب الحيوانات بوضعهم فى أقفاص أو أحواض سمك أو معارض زجاجية دون محاولة دراسة الكائن الحى في بيئته، ومن ثم فقد كانت هذه الدراسة ناقصة تماما، لا تقع على كائن حى كامل، بل تقتصر على كائن لا هو ميت ولا هو حى، ولكن بقى مؤرخون، تستهويهم دراسة شخصيات التاريخ العظيمة ويرونها السبيل الجيد لوضع تاريخ جيد في حين أن المؤرخ الانجليزى (اكتون) يقول ليس هناك خطأ أكبر من نظرة الانسان إلي التاريخ القائم على الشغف بالشخصيات الفردية العظيمة.

ولكن ثمة خطأ من نوع آخر ولكنه مع ذلك يلحق ضررا مساويا فان استبعاد سير العظماء، إطلاقا وإهدارها، يؤذى التاريخ، فان دراسة الشخصيات العظيمة أفادت التاريخ كثيرا ولكنها وحدها لاتقيم تاريخا كاملا

وثمة نقطة أخرى ذات أهمية وخطر وهى عدم جواز إصدار أحكام منا فى أيامنا على أفعال وسلوك أقوام تصرفوا حسب ظروفهم وبواعث أنفسهم في بيئات تخالف بيئاتنا وفى عهود لا تشبه عهودنا ويجدر بنا أن نفهم الحقيقة التالية. أن ما يقع من الجماعات في بعض الظروف لا يمثل تماما، ما قصدوه وفكروا فيه، فان الناس يقصدون شيئا لغرض محدد ولكن لاتزال الظروف تجرفهم إلى اتجاه آخر، حتى ينتهوا إلى قرارات لم تخطر لهم على بال، وكالسفينة التى تجرى في بحر تسوده تيارات تحتيه، فما لم تكن قبطان السفينة منتبها جيدا وما لم تكن أدوات الضبط والتوجيه في السفينة سليمة تماما ما استطاع القبطان أن يصل إلى هدفه

إن الجماعات تحقق أهداف المجتمع التى تعيش فيه وتتأثر بالزمان الذي تحياه وإن كانت شعاراتها تعلن شيئا آخر.

ويقرر كار قول كارل ماركس. أن التاريخ لايصنع شيئا، فليس لديه ثروة طائلة ، وهو لا يحارب أي معارك فالواقع أن الذي يفعل كل شئ هو الانسان الذي يحيا حقا، والذي يملك والذي يحارب.

وقد قال (كار لايل) ما يؤيد هذه النظرة.

«إن الدافع الاول للثورة الفرنسية، هو الجوع والعرى، والاضطهاد باسم العدل الجاثم على أفئدة خمسة وعشرين مليونا، هذا وحده هو الدافع، وليس التفاهات المجروحة أو الفلسفات المتناقضة للمحامين الفلاسفة، وأصحاب الحوانيت الاغنياء هذا الذي يحدث في كل الثورات المماثلة في جميع البلدان.

إن المقصود هنا هو أن الشئ المؤثر فعلا في توجيه التاريخ ليس فردا ولا أفرادا بعينهم، بل ليس الالوف، بل الملايين المجهولي الاسم، منهم أمراء يعملون بغير وعي إلى حد كبير ويكونون قوة اجتماعية والمؤرخ ليس بحاجة في الظروف العادية لأن يحاط علما بعلاج فرد متذمر أو مقرية منتشرة ولكن ملايين الفلاحين المتذمرين

والرجل العظيم لاتكون عظمته بقدر ما يمثل هذه الغايات الخفية لملايين الناس، الذين قد يجهلونها بعقولهم، وإن كانوا يحسونها بلا وعي، يقول «كار» إن الفرد في عمله يعمل واعيا من أجل غاياته الذاتية، ولكنه غافل غير واع لغايات الله ومن الكلمات المبكرة المعبرة عن هذا المعنى قول آدم سميث اليد الخفية، وقول هيجل «مكر العقل» .

وفي القرآن يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم «ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى» ارادة الله هنا، هي إراد الشعب.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيطان مع الفذ (أى الفرد) والله مع الجماعة».

حينما تكره الشعوب ذاتها

ماذا يعني ابن خلدون بقوله «العرب اذا تغلبوا على منطقة اسرع إليها الخراب»؟ «العرب يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الصعب»

وماذا يعني سعد زغلول بقوله «إن مصر لايمكن أن تعيش مستقلة فإن حصلت على استقلالها، فإنها لن تلبث حتى تضيّعه»

هل العرب حقا متقاعسون ومقصرون. وهل المصريون شعب متواكل يعتمد على الغير، وخاصة بعد حصولهم على الاستقلال؟

إن ابن خلدون يتهم العرب بذلك حيث يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الشاق والصعب، وعلى نفس الوتيرة يشير سعد زغلول إلى تقاعس المصريين وتواكلهم بعد حصولهم على الاستقلال.

يتناول الكاتب الكبير فتحي رضوان هذه القضية المهمة بالمناقشة والتحليل

من مشكلات الأدب العربي، ما كتبه الفقيه والمؤرخ واللغوي ورجل السياسة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المولود في تونس سنة ٧٣٢ هجرية (١٣٣٢) ميلادية والمتوفى في مصر والمدفون بها سنة ٨٠٨ من هجرة الرسول (١٤٠٦م)

الهلال - نوفمبر ١٩٨٦ .

وابن خالدون الذى يعد أكثر أهل الفكر نبوغا من العرب مثله فى ذلك مثل المتنبي بين الشعراء ، هو عربي قح، يتكلم العربية كأفصح كتابها، وينطق بها كنابغ المتكلمين بها. وقد ترك فى مكتبتها كتبا لا يبلي لها ذكر ، ولا ينقطع لها أثر، مادام في الدنيا علماء يبحثون عن الحقائق، ويدفعونها. ومادام هناك طلاب معرفة، ويبحثون عن الكتاب الجيد، والفكر المثير.

إلا ان هذا العالم المؤرخ الفقيه والإمام، ترك لقرائه من قومه وللآخرين فى مختلف اللغات، مشكلة اختلفوا فى تفسيرها أول الأمر، ثم فى ردها إلي أسباب تحيل كل منهم شيئا منها، ونحن اليوم ندلى بدلونا في هذه المعضلة التي تستأهل الدراسة والتأمل وجملة الأمر أن مؤرخ العرب العظيم، وواضع أسس علم الاجتماع كما يروى العلماء المستشرقين فى العرب رأى في كتابه الذائع الصيت والمعنون «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ومقدمة هذا الكتاب البديع الرائع، التى اخملت ذكر الكتاب، وتفوقت عليه فلم يعد أحد يذكر الكتاب بقدر ذكره للمقدمة وقد أفرد صاحب المقدمة والكتاب فى المقدمة عدة فصول لا توحى فقط بأن ابن خلدون هاجم العرب وانتقصهم، وحط من مروءاتهم، وأنكر شمائلهم وحسبك أن تعلم أن من بين هذه العناوين «العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» و«العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»..

وقد حير الناس وأذهلهم أن ابن خلدون العربي لغة ونشأة وتعليما والذى وصل بحذقه، ومواهبه التي لا تنكر ، وعلمه الذى لا يحد، إلى أكبر مناصب السياسة والحكم التى تساوى الآن رئيس الديوان، وكبير الأمناء والوزير ومستشار الأمير، ورئيس كتابه، ولم يبد عليه طوال اضطلاعه بهذه الوظائف المهمة، وتلك المراكز العظيمة، أنه ضيق بأهل البلد الذي يسمي الحكم فيه، أو يدير دفة السياسة له.

تحقير العرب

وقد أثار هذا الموضوع الدكتور مصطفى الشكعة عميد كليات الأداب في الدول العربية، وصاحب المؤلفات الرضية الكثيرة، التي تبلغ مبلغ الموسوعات احيانا في كتاب له حديث اسمه «الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته» والكتاب جدير بان يختص به، اساتذة التاريخ والاجتماع في كلياتنا، وصحفنا ومجلاتنا فضلا عن أساتذة الأدب فقد بسط حياة هذا العالم العظيم، في عبارة يترقرق على سطح ألفاظها معانيها فتكون سهلة التناول قريبة الأهداف، وقد وقف وقفة غير قصيرة في الباب السابع من كتابه الذي عنونه (ابن خلدون والعرب) فجدد الاهتمام بهذا الجانب من حياة هذا الانسان النابه والرائد .

وقد قال الدكتور مصطفى الشكعة أولا فيما قاله ابن خلدون في هذا الباب المحير والمربك ما ألخصه لك فيما يلي

لقد ذهب الدارسون في قضية ابن خلدون والعرب مذهبين متباينين

وشكلوا فريقين متناقضين فريقا يرى ابن خلدون يقصد العرب جملة، وفريقا يرى ابن خلدون يقصد الأعراب البدو دون غيرهم.

ويري طه حسين أن ابن خلدون يقصد تحقير العرب وأن حافز ابن خلدون على ذلك الموقف من أهله العرب ما وصلوا اليه من ضعف وتدهور وتفسخ في العصر الذي عاش فيه ابن خلدون وربط بين حالهم آنذاك ورأى ابن خلدون فيهم وينقل عن طه حسين قوله في هذا الصدد. ليس غريبا أن يزدريهم ابن خلدون ولاسيما انه عاش في ظل الاسرة

البربرية المجاهرة بعدائها العرب الذين خربوا إفريقية الشمالية في القرن الخامس وخلص الدكتور طه حسين أن حملة ابن خلدون الظالمة كانت موجهة ضد العرب.

ويشاطر هذا الرأي الاستاذ محمد عبد الله عنان الذي يعتبر مؤرخ المغرب في كتبه العظيمة والعديدة ويقول الدكتور عن الاستاذ عنان ورأيه بأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن ابن خلدون يقصد إهانة العرب أنفسهم ويعني بذلك سكان الجزيرة العربية وليس الاعراب أو البدو ويبرر اعتقاده هذا بأن ابن خلدون وهو يشرح نظريته.. في ان العرب إذا تغلبوا علي أوطان أسرع اليها الخراب، يذكر ابن خلدون ان العرب حينما تغلبوا علي العراق والشام تقوض عمرانها كذلك خربت إفريقية لما جاء اليها بنو هلال وبنو سليم، ويرد عنان على هذا الاتهام الظالم بقوله: إن العرب هم الذين افتتحوا مناقد الاناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس وافتتحوا شمال افريقيا حتى المغرب الاقصي ثم اسبانيا وعبروا جبال البرينيس إلى فرنسا، وهذه كلها أقطار وعرة النيل من البسائط التي يسهل غزوها وقد افتتحها العرب جميعا في أقل من قرن وكان ابن خلدون قد ذكر من بين مثالب العرب هو إقبالهم علي السهل من الأمور وهربهم من الشاق والصعب منها

ثم أورد الدكتور مصطفى الشكعة في القسم الذي يرى نقيض رأي طه وعنان والقائل بأن ابن خلدون لم يقصد العرب في حملتهم بل قصد الاعراب كل من الدكتور علي عبد الواحد وافي، والاستاذ ساطع الحصري ومن المؤرخين الاجانب المؤيدين هذا الرأي البارون دوسلان الذي ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية. أما الدكتور الشكعة نفسه

فمع الرأي الذى يقول أن ابن خلدون لم يقصد سوى الأعراب والدليل عنده على ذلك ما قاله ابن خلدون في الباب المعنون «العرب لا يتغلبون إلا على البسائط» انهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعبث وينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم ويري الدكتور ان هذا الكلام لا يمكن ان ينطبق إلا على الاعراب لأن العرب قبل الاسلام وقبل قيام دولة الزاهرة وحضارتهم الباهرة في دمشق وبغداد والقاهرة مثل مكة والمدينة والطائف وصنعاء ومأرب، أى كانهم أهل حضر وليسوا أهل فقر. كما أن ابن خلدون حينما قال إن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب والسبب في ذلك أن العرب أمة توحش باستحكام عوايد التوحش فيهم فصار لهم خلقا وجبلة، وهذه الطبيعة منافية العمران ومناقضة فيه، وهو كلام بدوره لا ينطبق إلا على الاعراب ، ولا على العرب ذلك من شأن الاعراب ولاسيما أن هذه العبارة جاء فيها من الالفاظ الخيام والأوتاد والحجر والاثان،

فما هي حقيقة الأمر في هذه المشكلة؟

الرأى عندي أن ابن خلدون كان يعني العرب، العرب أصحاب الحضارة الرفيعة التي امتدت من المحيط الأطلسي حتى أقصى حدود المحيط الهادى حينما التقى بأرض أسيا عند الصين. وهي حضارة صنعها العرب بطرق عديدة تدل على أن العرب أمة حضارة وعلم وبناء وعمران

فقد استمدت أصولها الأولي من القران وأحكامه التى قالت فيما قالت. إن الانسانية أمة واحدة، «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» ثم حينما اتسع مكان هذه الحضارة أفسحت صدرها، لكل صاحب موهبة أو قدرة أو طاقة أو تاريخ، ليساهم في بنائها فترجم لها المسيحيون واليهود واحتلوا مكانة رفيعة بين رجالات الدول الاسلامية، واحتفى بهم زملاؤهم من العلماء المسلمين، وناظروهم وحاجوهم، وقرأوا لهم وترجموا عنهم ، وحسبك ان تذكر أن الذى ترجم الفلسفة اليونانية هم العرب، وان العرب أخذوا هذه الحضارة عن كتب العرب وأن العرب اسموا أرسطو المعلم الأول وأسموا فيلسوفهم (ابن رشد) المعلم الثانى وان نبيهم يقول اطلبوا العلم ولو فى الصين والذى قال «ساعة علم خير من عبادة سبعين سنة» كما قال.

فهذه الحضارة العربية التى شادها العرب هي في الواقع حضارة انسانية وكان عند ابن خلدون وقائع تدل على أن العرب أو الاعراب أو كليهما معا ميل إلى التخريب والنهب والسلب فان تاريخ هذه الحضارة التى استمرت أكثر من عشرة قرون فيها من آلاف الدلائل والشواهد ولست استطيع أن أتصور أن مؤرخا عظيما كابن خلدون الذى تعمق التاريخ ووقف على فلسفته وجوهر حكمه أن يخلط بين العرب والاعراب، وأن تعوزه العبارة فيقول عن شيئين جد مختلفين ومعنيين جد متباينين لفظا واحدا وعبارة واحدة، فالعرب والأعراب ، لا يخلط بينهما إلا أمى لا يقرأ ولا يكتب . وحينما يجلس عالم كابن خلدون ليؤلف كتابا فى مثل خطر كتابه وعمقه ودقته وكثرة ما فيه من الحقائق والافكار والخواطر فيقع فى هذه الهفوة الكبيرة فيسب أهله وآباءه وأجداده ويرميهم بأقبح النعوت وينسب إليهم أشد المثالب، فماذا إذن التعليل لهذه الظاهرة

الغربية يفسرها أمر من عنصرين.

العنصر الأول اختلاط فكرتين أو إجتماع شعورين عند العرب منذ دالة دولة الاسلام الكبرى التى قامت فى المدينة فدمشق فبغداد فالقاهرة ثم فى مدن الاندلس وجنوب أوربا، وصقلية.

الشعور الأول : شعور الفخر والاعتزاز والمباهاة. والشعور الثانى شعور بالنقص. يبلغ بهم إلى درجة المرارة.

أما العنصر الثاني فهو ثمرة الشعورين معا، وهو رغبة مرضية تدفعهم إلى النيل من أنفسهم، والحط من أقدارهم، والسخرية بماضيهم والإعجاب الذى لا حد له بأوربا وأهل حضارتها ونظامها وفنها. والعربى وربما الشرقى كله. بقدر ما يعجب بالحضارة الغربية ينسى مكاسبها وعيوبها وما يصاحبها من فساد وظلم وعدوان وفسق ودعارة بل قد يعجب بهذه كله ولايراه عيبا، ولسنا ننسى ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى قال فيه إن مستقبل النهوض ببلادنا هو الأخذ بالحضارة الأوربية حلوها ومرها وخيرها وشرها، وقد سبقه إلى هذا القول قاسم أمين بالنص.

نحن الآن نرفض أن نهزم ونرفض أن نتأخر ونرفض أن يحل بنا الفقر والضعف. فنحاول أحيانا أن نصلح من أمرنا ونحن نتمسلح بماضينا الفاخر والباهر وأحيانا أخرى نصاب باليأس ونعتقد أن ما نحاول هو عبث ومنذ أيام قال لى طبيب كبير (لا أمل لنا) وهو طبيب ناجح ماديا ومعنويا تعلم فى مصر وتعلم فى أوربا ولكن نوبات اليأس هى نوبات نفسية يصاب بها كل من يمر فى محنة .

لقد ذكرت وأنا أكتب هذه السطور ما سجله سعد زغلول زعيم ثورة

١٩١٩ والذى عرف بانه رمز المصرية لكونه (باشا) ابن فلاح بين باشوات ينحدر أكثرهم من أصول تركية وشركسية فقد قال سعد فى مذكراته الخاصة ما يلى عن كل طوائف المصريين.

قال عن الفلاحين والمزارعون أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ولا تثور لهم ثائرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم وهى الجهة الاقتصادية فهم متصرفون عن كل عمل عام إلا وسوس لهم وسواس فى صدورهم بالدين وأحكامه. وذوو الوجاهة والنفوذ فهم يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الأشتغال بها من السلطة والنفوذ من الغاية فاذا اسوا من الاشتغال ومباشرة ما يبتغون من سلطة وجاه انصرفوا عنها وتبرأوا منها والموظفون لم يبحثوا عن الوظائف ولا الترقى لكى يفيدوا الأمة بأعمالهم فيها ويستفيدوا هم منها ببسطة فى المال وفى الحياة بل لكى يستفيدوا الفوائد المادية فقط وهم الواحد منهم فى وظيفته بأن يرضى ذمة رئيسه صاحب الكلمة النافذة ولو أغضب رئيسه لنقله من مكانه.

وقليل منهم من يعرض مصلحته الخاصة فى حق ينصره أو باطل يخذله وترى الواحد منهم وهو خال من الوظيفة يشخص العلة ويصف الدواء، وينتقد على العاملين أعمالهم، ويقبح كل عمل مخالف للعدل أو الذمة حتى يخيل لسامعه أنه اذا تولى الاحكام انصلحت الاحوال وصارت على أحسن نظام فإذا دخل فيها انعكست الاية وصار ذلك الحر فى القول رقيقا فى العمل وذلك المستقل فى الفكر آلة صماء يحركها الرئيس كيف شاء وذلك الغيور على الحق فى مقدمة العاملين

على إخفائه يسير على هذا حتى إذا تغير رئيسه عليه ورأى المستقبل مظلما في عينيه عدل إلى حالته الأولى وأخذ يسخط على الزمان والمكان وانتظم في سلك الاحرار

وعن التجار قال سعد "والتجار لا يشتغلون بالأمور العمومية الا على مقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة لا يهمهم بعد ذلك شكل الحكومة إن كانت مقيدة أو مطلقة

وقال عن العمال والصناع والفعلة لا يهتمون الا بأعمالهم وقبض أجورهم ولا يتحركون لعمل عام الا اذا حركته عوامل الدين أو رأوا في الثورة ما يسهل عليهم عمل السلب والنهب (مذكرات سعد زغلول كراسة ٩ ص ٤٠٠ - كما يراجع كتاب دور سعد زغلول في السياسة تأليف دكتور عبد الخالق لاشين).

ثم يجمل سعد حكمه على الأمة كلها فيقول بالجملة فليس في جميع هذه الطبقات قوة الاعتماد على النفس التي هي منبع الحياة فيه ثم فهي دائما تسعى بالحاجة إلى الغير للاستعانة به ولا تحس من نفسها القدرة على الوصول إلى الغاية بعملها الذاتي ولأنها مكثت في الذل والاستعباد أجيالا عديدة فانها تبحث دائما عن سندها لدى الحاكم فاذا لم تجد منه ندا لها ضعفت وان وجدته تقوت وسلمت لهم الايام.

فان قرأت هذا الكلام لوجدته كرجع الصدى من كلام ابن خلدون وحكمه على العرب، فالمصريون والعرب كلاهما شئ لا يعتمد على نفسه ولا يهتم بالشئون العامة، الا اذا كانت مصلحة خاصة في هذا الاهتمام.

وقال سعد «إن مصر لا يمكن أن تعيش مستقلة، فان حصلت على الاستقلال فإنها لن تلبث حتى تضيعه»

ولا يمكن أن يكون هذا حكم سعد على أمته وشعبه الذي أيد ثورة سنة ١٩١٩ واضطلع بأعبائها واصطلى نارها، إنما هو حكم لحظة أكتئاب وضيق، وعدم رضا عما يجري، الشعور بأن الطريق مسدود نحو الجهاد والمقاومة، الخلاصة أن الأمم التي تمر بالمحن والمصاعب والشدائد والمصائب يحس مفكروها ودعاتها أحيانا باليأس يفجر نفوسهم والقنوط يسود حياتهم فاذا هم في لحظة أو وقت يحملون على أوطانهم، ويلعنون أهليهم وذويهم وينسبون إليهم كل نقيض ويسندون اليهم كل رذيلة ولكنه قول إلى حين.

عقل العربى

هذا عنوان كتاب وضعه كاتب أوروبى لا أظن إنه معروف لدى دوائرنا الفكرية والمشتغلين من علمائنا وكتابنا بشئون الاستشراق هو «روفائيل بتاى» وهو كتاب جدير لا أن نقرأه ونتأمل فيه، بل لعله كان جديرا بأن يكون من عمل مؤلف أو جماعة من المؤلفين العرب .. فما يعنيه «روفائيل باتاى» من عبارة عقل العرب « The arab mind »، هو «كيف يفكر العرب» وأحرى بالعرب فى هذه المرحلة من حياتهم العامة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تتكاثر خلالها وتتضافر دواعى التغيير والتطوير وضغوط الداخل والخارج على كل ما يجرى فى بلادنا وما يتصل بها، أن نفكر فى «كيف نفكر» وما هى وسائلنا عندما نتناول المشكلات، ونواجه الأزمات وتلم بنا المصاعب وتحتشد فى حياتنا المتاعب وما هى الحوافز الدفينة التى توجه عقولنا ونفوسنا وهل ثمة قوالب موروثة نصب فيها أفكارنا وتصوراتنا وتحد من قدراتنا فى الإحاطة بالأمور التى تؤثر فى حاضرنا ومستقبلنا وما هو الجيد الصالح من تلك القوالب وما هو الردئ والقبيح منها وكيف نستزيد من الحسن وكيف نتخلص من السيئ ؟!

ولابد من أن أصارح القارئ الكريم بأمرين حاولت – من حيث لا أشعر – إخفاءهما، ثم وجدت انه لا داعى لهذا الاخفاء، أولهما اننى لم

● الهلال – أغسطس ١٩٨٣ .

استطع أن أقطع بشئ في الدين الذي يؤمن به الكاتب وإن كنت قد رجحت منذ اللحظة الأولى انه يهودى ولكنه لم يقل حرفا واحدا في هذا الصدد وقد قدم نفسه في فصل تمهيدى من فصول هذا الكتاب قص فيه وقائع حياته الفكرية وبدء صلته بالاستشراق والدراسات العربية، ودراسات الشرق الأوسط، ولغاته وتراثه الفولكلورى في العادات والملابس، والمصنوعات المختلفة والجامعات التي لحق بها، وتتلمذ فيها وهى جامعات تعددت فكان منها جامعات ومعاهد في موطنه الاصلى «المجر» وفى المانيا ثم في القدس وأخيرا في جامعات الولايات المتحدة وقد توثقت علاقاته بهذه الجامعات وارتفعت درجته العلمية شيئا فشيئا حتى أصبح أستاذا من أساتذتها ومرجعا من مراجع علمائها

قال هذا كله دون أن تصدر عنه عبارة واحدة تشير الى دينه وهو أمر غير طبيعى خصوصا عند حديثه عن ذكرياته في الشرق العربى بعامة وفى القدس بخاصة وهى منطقة تتعقد فيها أمور الدين والعقائد والخلافات والانتماءات في هذا الشأن

الامر الثانى هو أننى لم أفرغ بعد من قراءة الكتاب وهو في حاجة الى قراءة تأمل ومراجعة وتفكير لا لأن الموضوعات التى عرض لها معقدة بل على النقيض لانها من الموضوعات التى تشغل بال الكاتب الكبير والمفكر في مصر، وفى العالم العربى، والتى نلوكها ونطيل الاشارة اليها وتحليلها وقد يبدو غريبا أن تكون المسائل التى نتناولها كثيرا تزداد صعوبة وغموضا بهذا التناول الذى كان جديرا أن يؤدى في ذاته الى الألفة بينها وبين الكاتب .. ولكن هذه الألفة هى موطن العلة فالألفة قد تكون منزلقا الى النظ رات السريعة والسطحية لانها تغرى

بعدم بذل الجهد، باعتبار أن الموضوع المطروق بين ومعروف وأن كل ما يحيط به، واضح.

ولكني آثرت أن أتحدث عن هذا الكتاب، لمجرد لفت النظر اليه وبيان محتواه والتنوية باسلوبه وطريقته في تناول موضوعاته لأنه استقر في يقيني أننا في أشد الحاجة الى الكثير من مؤلفات على منواله يكتبها كتابنا الذين تشغلهم شئون السياسة والذين وقفوا حياتهم على الدراسات التاريخية والجغرافية والاجتماعية.. على أن أعود اليه بعد الفراغ من قراءته والتعرف على الفكرة التي تقف وراء جميع النتائج التي أعلنها فيه والتي قد تكون ثمرة والتي لا تزال تتمخض عن تطورات بعيدة المدى لا يبدو منها حتى اليوم وعلى الرغم من ضخامة الأحداث في هذا الشرق الا مقدماتها والفصل الذي كتبه المؤلف عن حياته حقيق بأن يلخص بين يدي الحديث عن الكتاب كله لانه يكشف لنا عن منهج هؤلاء الذين يتصدون لدراسة أمورنا والكشف عن مخبآت نفوسنا وعما تنطوي عليه مخائل عقولنا مما قد يخفي علينا على الرغم من انه يبدو واضحا لمن يقف منا موقف الفاحص «المحلل».

يقول «باتاي» في أولى عبارات الفصل الذي كرسه للحديث عن نفسه ، انه لابد أن يعترف انه يعاني من ميول «رومانسية» بل من ارتباط استمر عمرا كاملا بينه وبين «العربي» أما كيف بدا هذا الارتباط فلم يعد الان قادرا على التذكر ولكنه يذكر ان والده اصطحبه وهو بعد في العاشرة من عمره الى زيارة «اجناز جولد تسيهر» وعندما كانا في طريق العودة الى البيت قال له والده: «تذكر انك صافحت أعظم مستشرق على قيد الحياة».. فلما بلغ الحادية عشرة أخذ يقرأ مغامرات

«كارل ماي» وانه تأثر بصفة خاصة من استكشافاته الخيالية في الصحراء العربية، وفي يوم تال قرأ بالصدفة في إحدى الجرائد المجرية أشعارا جميلة للشاعر «والتر دى مايره عن البلاد العربية وهو لا يزال يحتفظ بصورة رسمها لنفسه وهو في الرابعة عشرة من عمره وهو يرتدى الكوفية ويضع فوقها العقال العربي.

ويقول انه لابد أن يكون قد زار في هذا الوقت نفسه ضريح الصوفي التركي «جول بابا» في بودابست، وهو الضريح المتخلف عن عهد الحكم التركي للمجر والذي يحوي داخله المدفن ذا الشاهد الذي تتوجه صورة عمامة

ويقول روفائيل باتاي إنه في ذلك الحين لم يستطع ان يميز بين العربي والتركي وان كان يعلم انهما ليسا واحدا وانهما معا من المسلمين مما جعله يضيف الى العربي تحفة الضريح التركي الصوفي الشهير «جول بابا».

ويقول انه في بداية دراسته في جامعة بودابست، حضر فصولا في العبرية والسريانية والفارسية وقراءاته في القرآن وتاريخ الادب العربي والتاريخ القديم للشرق الاوسط وقد انتقل الى جامعة «برسلاو» في المانيا حيث قيد له الحظ ان يتتلمذ على المستشرق الالماني الشهير «بروكلمان» الذي قال عنه انه بروتستانتي كما قال عن الجامعة التي كان بروكلمان يلقي فيها دروسه انها جامعة كاثوليكية مما يدل على أن الظلال الدينية تشغله في بيان الوقائع وتحديد الشخصيات وبعد فصلين دراسيين في جامعة بروسلا وحضر ندوة عن اللاهوت اليهودي ولما عاد الى بودابست واصل دراسة اللغة العربية وروائع أدبها مثل معلقات الجاهلية والقرآن..

وفى بوابيست أيضا درس الفسلفة اليهودية فى القرون الوسطى وفى سنة ١٩٣٢ سافر الى فلسطين بعد حصوله على اجازة الدكتوراه فى الفلسفة وطاف بشوارع فلسطين وسمع أهلها يتكلمون فتبين أن كل دراساته فى اللغة العربية القديمة والمعاصرة لم تمكنه من أن يفهم ماذا يقول العرب فى أحاديثهم اليومية، ثم لحق بالجامعة العبرية التى كانت قد تم تأسيسها منذ ثمانى سنوات مضت قبل سنة ١٩٣٢ وهناك ركز على طائفتين اثنتين فقط «فلسطينولجى» أى الدراسات المنصبة على فسلطين والتى تشمل التاريخ والجغرافيا التاريخية وطبوغرافية البلاد .. ثم اللغة العربية.

وهذا كله يرينا كيف يحضر علماء اليهود أو علماء الغرب، انفسهم ليقوموا بالادوار التى تقتضيها تطورات الاحداث السياسية فى المنطقة التى تهمهم وتشغل بالهم فى الليل والنهار

وما ان وضع روفائيل قدمه فى القدس حتى نجح فى أن يظفر بصداقة شيخ عربى تعلم فى الأزهر ويعتبر من مشاهير مدرسى العربية فى فلسطين وهو الشيخ أحمد فخر الدين الكتانى الخطيب أحد أعضاء أسرة من أكبر الاسرات العربية فى القدس.

وقد توطدت العلاقة بين العربى والعبرى، فخلال خمسة عشرة عاما قضاها الاخير فى مدينة القدس كان يرى صديقه الفسطينى الازهرى المسلم مرة فى الاسبوع على الأقل ، وكانا قد عقدا ميثاقا بينهما مؤداه أن يعلم «باتاى» صديقه الكتانى الخطيب «اليهودية» فى مقابل أن يعلمه الخطيب «العربية» ويقر باتاى انه بفضل الشيخ الخطيب استطاع ان يلقى نظرة باطنية على عرب القدس وان ينشئ بينه وبينهم حالة من

المعرفة الحميمة ويضيف انه قدمه الى أصدقائه العرب وعلمه الاساليب المحلية للممارسة أو المساومة فى أسواق المدينة ويقول باتاى انهما اضافا الى هذا الميثاق بندا يقضى بانه عند وقوع أحدهما فى خطر يهدد حياته يأتى الاخر لانقاذه وانقاذ اسرته وفى ١٩٣٤ حصل باتاى على درجة الدكتوراه للمرة الثانية ولكن هذه المرة من الجامعة العبرية فى القدس وكانت هذه الاجازة أول اجازة دكتوراه تمنحها هذه الجامعة لطالب يتخرج فيها

وحدد العالم اليهودى منهجه وهدفه فأصبحت الدراسات الثقافية والانثربولوجية «علم الاجناس البشرية» لليهود الشرقيين فى فلسطين.

ويزعم أن عطفه على العرب، واهتمامه بهم لم يضعف فقط بدليل إنه كسب أصدقاء عربا جددا ، وانه قام بصحبتهم الى مختلف انحاء فلسطين كما زار جميع الدول العربية المجاورة وان بقيت اورشليم القديمة «القدس» هى مركز اهتمامه الأول وقد واظب على التردد على مكتبة «الخالدى» فى القدس وقد انشأ علاقة مع أمين هذه المكتبة الشيخ أمين الانصارى الذى يطرى «باتاى» صفاته فيقول انه لم ير قط رجلا آخر فى مثل جماله وجلاله ولكنه مع صديقه الأول الشيخ أحمد الخطيب زار مرارا قبة الصخرة ثم ألف أن يقضى سهرات رمضانية فى المقاهى التى تتناثر حول الحرم ثم تلقى «باتاى» منحة دراسية من مؤسسة «مايكنج» الأمريكية، ثم حان له أن يدخل فى الدور الأخير دور الاتصال المباشر بالمؤسسات الأمريكية ، وتلقى الدرجات فيها والارتقاء فى المكانة العلمية فيها وسنسرد هذه الخطوات سريعا وفى ندوات هذه المؤسسة تعرف على عدد كبير من علماء «الانثروبولوجيا» الذين طالعوا من قبل

آثاره العلمية وكتابه الذي ضمنه النصوص العبرية المتعلقة بهذا العلم وقد كان ولا يزال هو الكتاب الوحيد .. ودعا ليلقي على طلاب جامعة «كولومبيا» محاضرات عن الناس والثقافات في الشرق الاوسط كما دعي الى جامعة بنسلفانيا ليلقي نفس المحاضرات ثم عين استاذا في جامعة «فيلادلفيا» وكانت هذه المحاضرات هي أهم ما يحدث به علماء الجامعات الامريكية ثم اضاف اليها محاضرات عن «المجتمع والثقافة في اسرائيل» وتجاذبته الجامعات فكان يحاضر في جامعة نيويورك وجامعة أوهايو الى جانب «كولومبيا» ثم طلبت منه امانة الامم المتحدة أن يكتب لها تقريرا عن الظروف الاجتماعية في الشرق الاوسط وبناء على دعوة الاستاذ «فيليب حتي» اللبناني الاصل أخذ يحاضر في موضوع الثقافات والناس في الشرق الاوسط هذه المرة في معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة برنستون.

ويقول المؤلف انه بعد استقراره في الولايات المتحدة أصبح زائرا مواظبا لفلسطين ولكنه حرم من زيارة القدس القديمة ومن زيارة أصدقائه العرب فاسرائيل نشأت وأصبحت دولة مستقلة وأصدقاؤه العرب أصبحوا في الضفة الأخرى من نهر الاردن الا انه انتهز فرصة وجوده في الشرق العربي بعد حرب سنة ١٩٦٧ ببضعة أسابيع فمضى الى القدس القديمة وهناك فقط دليل تليفون المدينة وبحث عن رقم تليفون صديقه القديم أحمد الكتاني الخطيب وادار القرص فردت عليه زوجة صديقه فأنبأها بأنه قادم لزيارة زوجها في الغد وفي الغد ذهب الى بيت الشيخ أحمد وفي الموعد طرق الباب وفتحت له زوجته وأحسنت استقباله وتركته لحظات في حجرة الاستقبال وجلس هو يستعيد ذكرياته وكان قد

تجاوز السبعين دخل الشيخ احمد صاحب الدار فتعانق الرجلان وأخذا يبكيان من فرط السرور بلقاء تم بينهما بعد ٢٠ عاما من الفراق والوحشة

وأحسب أن القارئ الكريم ثقلت عليه هذه التفصيلات الكثيرة التى تبدو أنها بلا معنى والحقيقة اننى حرصت على إيرادها، لأثبت أن أمثال المؤلف يعدون لمهام ذات شأن فى دنيا السياسة ولكن الاعداد يتم أولا فى مجالات العلم والبحث لان السياسة اليوم - وقد كانت دائما -علما، لم توضع له فى الماضى أصول ثابتة فى كتب لكن فى العصور الحديثة وضعت هذه الكتب وكثرت: وضعها مؤرخون وأساتذة علوم اجتماعية واقتصاد واحصاء وعلوم جديدة كعلم النفس بفروعه وعلم الاجتماع بأقسامه وعلم الانسان من حيث أجناسه وتطوراته ومستقبله.

فإن «روفائيل باتاى» حينما ذهب وهو صبى لزيارة المستشرق «جولد تسهر» فى بودابست بصحبة ابيه يوم أن قال له أبوه. لقد صافحت اكبر مستشرق على قيد الحياة كان يعنى اثارة شوق الصبى الصغير الوصول الى مرتبة شبيهة بمرتبة الرجل الذى صافحه والذى قدمه اليه أبوه اذا لابد أن يكون الوالد قد توسم فى ابنه الاستعداد للعمل فى مجال الاستشراق والتفوق فيه وهو مجال يهم دوائر السياسة ودوائر المخابرات ودوائر التخطيط الحربى والاقتصادى والاجتماعى.

والخطوات التى خطاها مؤلف هذا الكتاب لم تقع اعتباطا انما جاء ت بناء على خطة تستهدف كسب عالم كبير عنده الاستعداد المطلوب للمهمة التى أعد لها والعلم الذى أريد أن ينقطع له ويعمل فى ميدانه.

وقد قدم روفائيل باتاي لكتابه بعد ذلك بمدخلين أولهما:

من هو العربي الذي سنسير عليه الحديث ؟! .. هل هو البدوي الذي يتجول في الصحراء مع بعيره أم هو كل فرد يسكن المنطقة ؟!.. أم هو كل انسان يتكلم اللغة العربية ؟ أم هو من يجمع بين الكلام بالعربية كلغة قومية له، مع الاسلام ؟ أم هو رجل تثقف - الى جانب اللغة - بثقافة الغرب واصطنع وسائلهم في الحياة، ومناهجهم في العيش؟

والمدخل الثاني ماذا يكون عقل العربي ؟ هناك عقل جماعي حتى يمكن أن نتحدث عن عقل العربي ؟! أم أن العقل هو جهاز فردي، تماما كالنفس والجسد بحيث لا يمكن ان يوجد عقل عام لكل العرب أو لكل الترك أو لكل الانجليز تجتمع فيه خصائصهم العقلية العامة بحيث يمثل هذا العقل الرجل المتوسط في قومه فيتصور الأمور كما يتصورها أغلب بني جلدته ويتأثر بها تأثرا واحدا مع تفاوت بسيط ويسلم بأشياء ويرفض أشياء وهكذا ..

والمدخلان طريقان نتناولهما في الحلقة التالية من هذا البحث.

رحلة كاتب صهيونى

فى العقل العربى

فى الحلقة السابقة، قدمت للقارئ الكريم كتاب «عقل العربي» كما قدمت مؤلفه المجري «روفائيل باتاي» واكتفيت بتلخيص فكرتين جعلهما المؤلف مفتتح دراسته. الاولى : هل يمكن أن يكون هناك عقل «عقل عربي» و «عقل عجمي» ، «عقل انجليزي» أم أن العقل جهاز شخصي، يستعمله فرد بذاته، ولا يمكن أن يكون لجماعة ما عقل تتشابه خصائصه ومزاياه عند كل فرد في الجماعة من العلم والجهل والفقر والغنى والقوة والضعف والانتساب الى الطبقة الحاكمة أو الطبقات المحكومة والاقامة فى المدينة والاقامة فى الريف.

والفكرة الثانية: من هو العربي الذي نتحدث عنه عندما نتحدث عن عقل العربي

أما الفكرة الأولى - وهي «العقل الجماعي»، وهل هو حقيقة فعلية، أم هو مجرد إفتراض نظرى، فتناولها المؤلف على النحو التالي

يجب أن نسلم بداءة ذى بدء، أن كل ما نقوله عن عقل جماعة من الناس هو «تجريد» والحق أنه يوجد عقل فردي، أو خصائص أو شخصيات، بنفس القدر من الصحة عندما نتحدث عن أجساد بشرية، ومع ذلك فقد درجنا على استعمال لفظ «الجسد البشرى» ونحن نخبر

● الهلال - سبتمبر ١٩٨٣ .

عن اكتشافات جديدة عن خصائص لم تكن معلومة من قبل عن «الجسد البشري» وأن عمليات التجريد التي تقدم على القيام بها سواء عن الجسد البشري أو العقل البشري، ليست سوى عمليات تعميم فنحن حين نقول عن دلالة محيط الرأس للانسان والذي نعني بها حيث طول الرؤس وقصرها وهذه العملية عملية قسمة طول رأس الانسان على عرضه ثم ضرب حاصل القسمة في «١٠٠٠» ثم نقول بعد ذلك بالنسبة للعربي البدوي بأن طول رأسه يتراوح بين ٧٢ و ٧٥ سنتيمترا ونقسم الاجناس الاخرى من حيث طول الرأس وقصرها وهذه العملية تتم باختيار الف فرد من الجنس المراد وضعه في درجة بين الاجناس وأخذ مقاس رءوسهم بالطريقة السالفة الذكر واعتبار هذا الالف من الجنس عينة ممثلة للجنس كله، فهي عملية تعميم أي أن ما نراه غالبا في جزء أو عدد من أفراد جنس أو جماعة بصفة عامة نعتبره خصائص الجماعة كلها، مع ما يقترن مع هذا التعميم من خطأ أو تجاوز.

وقل أن نصادف في كتابات السيكولوجيين الاجتماعيين أي علماء النفس الذين يقيمون اعتبارا خاصا لظروف الناس الاجتماعية ولا في كتاب الانتروبولوجيين ذوي الاتجاه النفسي أي علماء الجنس البشري أصحاب هذا الاتجاه «يعتبر عقل الجماعة» أو «العقل القومي» أو «عقل الجنس» وما إلى ذلك من الاصطلاحات لانهم يؤثرون بدلا من هذه الاصطلاحات استعمال لفظ «الشخصية» و «الخاصية» وفي دراستهم يناقشون العناصر المشتركة في «الشخصيات الفردية» أو «الخصائص الفردية» بين أفراد جماعة معينة من بيئة اجتماعية ثقافية بالذات.

وقد كان من أوائل العلماء الذين تصدوا لمشكلة الفرد وخلفيته الثقافية الاجتماعية «رالف لنتون» والعالم النفسي «ابرام كاردنر» وفكرة

«الشخصية الاساسية» قد نماها واستوفى جوانبها، هذين العالمان وقد قامت دراساتهما على الاسس التالية -

أولا أن تجارب الانسان المبكرة تترك أثرا باقيا فى شخصيته ولا سيما أجهزته المعبرة عنه والكاشفة عن خصائصه.

ثانيا وهذه التجارب ذاتها تترك أثرا مماثلا لمن يتعرض لها من أفراد نفس الجماعة

ثالثا أن وسائل تربية الاطفال وتنشئتهم المستعملة فى جماعة معينة تترك أثرا مشابها فى أطفال الجماعة، وإن لم يتطابق الأثر فى جميع الأحوال .

رابعا تتباين وسائل تنشئة الأطفال النموذجية أي المعتبرة نموذجا فى الجماعة من هذه الجماعة الى تلك.

فاذا كانت هذه المعطيات الأولية صحيحة ومؤيدة بثروة ضخمة من التجارب والملاحظات فانه يترتب عليها ما يلى :

١- أن أعضاء أية جماعة يتمتعون أو يمرون بتجارب مبكرة مشتركة

٢- وبناء على هذه التجارب المتشابهة تتكون لهم خصائص شخصية كثيرة مشتركة.

٣- وبما أن تجارب الطفولة فى مجتمع تختلف عنها فى مجتمع آخر، فإن شخصيات الأفراد لابد أن تتباين فى مجتمع عنها فى مجتمع آخر . ومن ثم يمكننا أن نعرف الشخصية الاساسية لمجتمع «شعب، طبقة، طائفة».

إنها تلك الشخصية التى يشارك فى خصائصها الجزء الاكبر من أفراد ذلك المجتمع، وهى كما قلنا تختلف فى مجتمع عن مجتمع آخر،

لاختلاف التجارب المبكرة في الجماعات الانسانية المتعددة وهذه الشخصية الجماعية لا تتطابق مع شخصية الفرد في الجماعة على حدة ولكنها «إن جاز لنا أن نستعمل تعبيرا آخر تتطابق مع اسلوب تقدير القيم الذي يستعمله أفراد هذه الجماعة التي توضع تحت الدراسة.

وليس ثمه شك أن الجماعة الانسانية في أي موقع في الارض لا تصاغ فقط بالتجارب المبكرة في حياة أفرادها بل بمثلات من العناصر المادية والروحية ابتداء من البيئة الطبيعية: الجبل أو السهل، النهر أو البحر، والفيط أو الصحراء، وبالصناعات الزراعة أو الصيد أو الرعي أو صيد البر أو صيد البحر وصيد الطير وصيد الحيوان وجدب البيئة وقلة الرزق بها، أو خصوبتها وغناها وكثرة الرزق فيها وقد لاحظ ابن خلدون الفارق الكبير بين الغزالة في الجبل وبين العنزة في السهل - الاولى عنيفة قوية العضلات رشيقة كثيرة الحركة حساسة. عصبية تترقب الخطر وتخشاه وتتنبه بالجري الشديد الذي تعينها عليه رشاقتها وقلة لحمها في حين أن العنزة مترهلة بطيئة الحركة هادئة مستقرة لا تنتظر خطرا ولا تتوقاه.

ولا يمنعنا من تقرير هذه الحقيقة قول العلماء في «انثروبولوجيا الجماعة كلاكوهان ومري الذين يحذران من الوقوع في خطأ الاعتقاد بأن الجماعة يمكن أن تكون لها «عقل مشترك» اذ لا يكون لاية جماعة عقل مشترك الا بقدر ما يكون لهذه الجماعة ذاتها ساقان مشتركان.

ويقول المؤلف أن أية بيئة ثقافية اجتماعية تؤثر على الافراد الذين يعيشون داخل بطاقتها وتطبيعهم بطابعها بقيمها وبالمسلك المتعارف عليه في مختلف المواقف بالمقبول والمرضي عنه» من الافعال وردود

الانفعال فضلا عن الحاجات والغايات الموجهة بثقافة الجماعة . ويضيف الكاتب أنه أثناء الطفولة أن العضو الصغير فى الجماعة يستبطن بالتدريج أوامر جماعته التى تغرس فيه عن طريق والديه والمربيات «الدادات» والمدرسين والقساوسة «أى رجال الدين».. وكل الأشخاص الأخرين الذين يمارسون السلطة فى المجتمع وفى السن المبكرة تشق هذه الأوامر طريقها فى نفس الطفل مستقلة إغراء المكافأة عن الفعل الجيد أو الفعل المتفق مع توجيهات الجماعه أو خطر التهديد بالعقاب على الطفل السيئ أو الطفل المخالف لتعليمات الجماعة أيضا وعلى مر الزمن ينجح اسلوب المكافاة والعقاب فى أن يستقر فى باطن الفرد ويخلق ما يعرف فى النظرية الفرويدية بالذات الأعلى الذى يتسلط على الشخصية ويهيمن عليها أى يحل محل العوامل الخارجية وبهذه الطريقة يصبح الفرد المثقف والمتأقلم مع جماعته ممثلا صادقا لبيئته الجماعية الثقافية ويصبح عضوا فى الفئة المتفوقة عدديا فى المجتمع والتى تكون بخصائصها الشخصية «النموذج» لهذا المجتمع.

وختم الكاتب كلامه بقوله لذلك أنا أجرؤ على تعريف الشخصية لوطن ما أنها المجموع الكلى للحوافز والمعتقدات . والقيم التى يؤمن بها العدد الأكبر فى مجتمع قومى.

ويريد المؤلف أن يفرق بين الشخصية القومية وبين الشخصة «النموذج» فالشخصية القومية تنطبق بالنسبة للمجتمعات الكبيرة كوطن مثلا .

أما الشخصية النموذج لجماعة ما فتنطبق على المجتمات الصغيرة كطائفة فى وطن ففى الشعوب التى تتكون من أجناس مختلفة يمكن

البحث فيها عن الشخصية «النموذج» لا الشخصية القومية وبتطبيق هذه النظرية على العالم العربي فإن الانسان يجد على سبيل التأكيد الشخصية «النموذج» الواحدة لاهل الشمال فى السودان وثانية لأهل السودان فى الجنوب ويجد الباحث أن الفرق بين الشخصيتين كبير الى درجة انه لن يستطيع أن يضع الشخصيتين في اطار شخصية قومية واحدة

فاذا كانت الاجناس في جماعة متقاربة . فان الباحث يستطيع أن يضعها جميعها في اطار الشخصية القومية مع وجود هذه الاجناس التي تحمل كل منها اسما فالأغلبية المسلمة في العالم العربي قريبة غاية القرب من الأقليات غير المسلمة بحيث يمكن أن تدخل الاغلبية والأقلية فى اطار الشخصية القومية بعكس الحال فى المثل السابق عن شمال السودان وجنوبه.

ويقول أن نظرية الشخصية القومية تفيد فى الدراسات عند المقارنة بين مجتمعات انسانية مختلفة وان كان أعضاء هذه المجتمعات لا تشعر بوجود هذه العقبة الاخيرة فان أعضاء كل مجتمع انسانى يشعرون بأنهم أعضاء فى وطن وأنهم يفكرون تفكيرا مشتركا وأنهم يحملون نفس القسمات.

وكل أقلية تعيش مع أكثرية تشعر بأنها جماعة قومية والعرب ابتداء بأعظم مفكر الى أبسط عضو فى مجتمعهم يدركون الشخصية العامة التي ينتمون اليها، واذا قرأ الانسان مقدمة ابن خلدون «١٣٣٢ – ١٤٠٦ ميلادية» الذى هو بلا جدال أكبر عبقرية عربية بين مؤرخيهم فضلا عن أنه أكبر عبقرية انتجها العرب فانه يثير انتباهه المرة بعد المرة

بتعليقات «ابن خلدون» على الشخصية العربية التي تضيف الى صورة الشخصية العربية كما يراها مؤرخ يمكنه أن يراجع تاريخ سبعة قرون مضت من تاريخ العرب.

وان كان من الملاحظ أن ابن خلدون حينما يتحدث عن العرب، انما يعني «البدو» الذين يعيشون أصلا في الصحراء ويفدون الى المجتمعات الحضارية ومن ثم جاء ما يشير اليه ابن خلدون من التخريب الذي تحدثه القبائل العربية في المجتمعات المتحضرة التي تفد إليها.

وينتقل المؤلف – بسوء نية واضح من ابن خلدون الى المقريزى فينقل عنه شهادة سيئة غاية السوء في المصريين فيقول انهم «ينقصهم الثبات، ولا يعرفون حسم الامور، كسالى يعيبهم القنوط، شرهون، عديمو الصبر، يحتقرون الدرس، يلازمهم الخوف، والغيرة ويميلون الى السباب والى التزييف ومستعدون أن يسلموا مواطنيهم الى السلطان ويتهمونهم لديه وإن كانوا ليسوا جميعا على هذا الخلق وإن كانت هذه صفات أكثرهم» ويعود المقريزى المرة بعد المرة الى تأكيد هذه الصورة البشعة للمصريين وابراز خطوطها على ما فيها من مجافاة صارخة للحقيقة.

واذا كنت قد أوردت ما أقتبسه المؤلف من ابن خلدون والمقريزى فليتضح القارئ منهج المؤلف المعادى للمصريين والعرب.

وليس ثمه شبهة في أن شهادة المقريزى السيئة في حق المصريين لا تصدر من نقص في وطنيته ولا خطأ في حكمه ولا هوى في تقديره انما فاته على الرغم من سعة علمه وكونه مؤرخا عظيما أن يدرك أن المصريين ينعتهم بتلك النعوت انما هم ثمرة قرون من الحكم السيئ والحكومة المختلة والسلاطين الاغبياء الذين يتسمون بالقسوة والغلظة

والشره وسوء السيرة والذين يستعينون بأسوا الوزراء وأشد الرجال جهلا وأعظمهم طمعا.

ويورد المؤلف عددا من الامثلة العربية الشائعة يعدها نوافذ يطل منها على النفس أو الشخصية العربية مثل «أنا وأخويا على ابن عمي» «وانا وابن عمي على الغريب» يعتبرها دليلا على قوة الرابطة الاسرية في حين هي في الواقع دعوة الى الترابط ضد الاخرين فهي دعوة سياسية ووطنية أكثر منها دعوة عائلية.

وينقل عن المقريزي ما ذكره من أقوال أحد صحابة رسول الله كتمعب الأحبار الذى قال انه عندما خلق الله الدنيا، جعل لكل شئ فيها قرينا وقد قال «العقل» إني ذاهب الى مصر «قال الاستسلام. إني ذاهب الى البادية» فقالت الصحة . إني ذاهبة معاك اليها.

ثم عاد فنقل عن المقريزي ثانية شيئا قريب الشبة مما سبق فقال حينما خلق الله الدنيا قال معها عشرة أنواع من الخلق والطبع فخلق الايمان والشرف والشجاعة والتمرد والكبرياء والنفاق والثراء والفقر والهناء والشقاء قال الايمان اني ذاهب الى اليمن فقال الايمان اني ذاهب معك اليه» وقالت الشجاعة اني ذاهبة الى سوريا فقالت الثورة: أني ذاهبة معك اليها» فقالت الكبرياء اني ذاهبة الى العراق فقالت الصفة اني ذاهبة معك» وقال الفقر إني ذاهب الى الصحراء» فقال الشفاء إني ذاهب».

ويقول روفائيل باتاي» ان هذه المقتبسات من المقريزي تدل على أن إحساس العناصر العربية داخل نطاق الامة العربية وبالفوارق بعضها البعض احساس قديم وهو يدل على أن أعضاء تلك الامة يتأملون في شخصيتهم القومية ويدركون انها موجودة وهو شئ ينكره البعض اذ

يذهبون الى القول بأن العرب لم يكونوا يحسون بوجود عام لهم وبقيام قومية تظلهم وتشبه أواخرهم.

وقفز المؤلف بضعة قرون لينقل عن كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى وضعه طه حسين سنة ١٩٣٨، أن العقل الشرقى من حيث صياغة الفكرة والتلقى والفهم والحكم ويرر هذا بحجة أن العقل المصرى كان جزءا من عقل أهل البحر الابيض المتوسط وهؤلاء من الغرب وحضارتهم أوربية وكل الدلائل تشير حتى فى العصر الحديث أن مصر قد اتحدت نموذجها فى كل جوانب الحياة المادية والروحية من الغريب وهى تتطور نحو التطابق مع اوروبا ويضيف المؤلف نقلا عن طه حسين أيضا أن مصر قادرة على أن تحتفظ بشخصيتها سليمة ومتماسكة حتى فى وجه الموجة التى باشرتها قوى خارجية كثيرة ذات سلطان عظيم ، بحيث لا يكون ثمة تخوف من تحلل مصر أمام غزو الغرب.

ونقف عند هذا القدر ، لنكمل الحديث فى حلقة قادمة بإذن الله.

معالم شخصية الإنسان العربى عند كاتب صهيونى

في حلقتين سابقتين قدمت كتاب «عقل العربي» أو كيف يفكر العربي، وهو الكتاب الذى وضعه المؤلف المجرى الاصل «روفائيل باتاى»، وقد تساءل فى أقسامه التمهيدية عن أمرين، أولهما : هل هناك شىء اسمه «عقل العربى» أو عقل «التركى» أى هناك حقا عقل مجرد، لا ينتسب الى فرد بذاته إنما ينتمى الى شعب ككل، وهو فى هذه الحال، لا يمثل عقلا موجودا بالفعل بل عقلا متخيلا، يضم الخصائص الاساسية والكبرى لعقل شعب من شعوب الأرض، يتفق عند صفات معينة بفضل المعيشة المشتركة بين أفراد هذا الشعب لسنوات عديدة، والبيئة الجغرافية الواحدة، والتاريخ الذى يروى لجميع أفراد هذا الشعب قصة وجودهم، وما تعرضوا له من مآس، أو ما صادفوه من محن وما حققوه من انتصارات، وما تركوه الناس من بعدهم من آثار باقية، مادية ومعنوية

ثم انتقل المؤلف الى أمور تقع فى حياة الانسان، فى الايام الاولى من طفولته، تطبعه بطابع ظاهر، فان تعرض أطفال شعب لاسلوب

● الهلال - أكتوبر ١٩٨٣ .

واحد من التنشئة والتربية ، تقاربت خصائصهم وتلاقت صفاتهم وإن اختلفت أعمارهم وحظوظهم من الثقافة ونصيبهم من الثروة والمكانة والنفوذ

وبعد أن فرغ المؤلف من ذكر هذه المقدمات ، بدأ بعدد الأمور التي يتعرض لها الطفل العربي، والتي تخرجه في قالب مشترك مع بقية أنداده وزملائه في العروبة من الاطفال .. وهذه الامور هي في رأى المؤلف

١ ـ طابع القسوة ..

٢ ـ طابع التمييز بين الأطفال الذكور والاطفال الإناث .

٣ ـ فترة الرضاعة .

٤ ـ الجذور الاولى للعلاقة بين النساء والرجال في المجتمع العربي .

ثم تحدث عن مرحلتين في حياة العربي «الذكر والانثى» ، فجعل لمرحلة تحول الطفل الذكر الى عالم الرجل فصلا قصيرا ولبناء الطفلة الانثى فصلا مشابها .

وما يرويه المؤلف في هذا القسم من كتابه في لغة العالم ومنهجه القائم على الملاحظة والمقارنة ، والوثائق المكتوبة أحيانا ، ليس سوى مجرد ملاحظات شخصية للمؤلف ليس فيها من العلم شيء وهي في حقيقة الأمر ملاحظات عن ظواهر شائعة في العالم كله ، لا تقتصر على «العرب» ، ولا على أطفالهم ذكورا كانوا أو إناثا .

وهذه ملاحظات مرد أكثرها رغبة المؤلف في انتقاص «العربي» والحاق العيب اليه، والى تربيته لأطفاله ، مع الزعم بأن هذا العيب عيب «العربي» ، لا يشاركه فيه غيره من الشعوب .

وأنا لا أقر هذه الملاحظات ، ولا أتناولها كحقائق انتهى اليها المؤلف بعد البحث والتحقيق ولكني أنكرها وأتأمل فيها ، وأعرضها على القارئ، ليرى فيها منهجا من مناهج الاوربيين الذين يتوفرون على دراستنا ككل أدبنا ، وديننا ، وتراثنا العلمي، وتاريخنا الاجتماعي والسياسي ، وحياتنا اليومية ، وعلاقتنا مع غيرنا من الأجانب ، وصلات دولنا بسواها من الدول وهم يبذلون في هذا جهدا فهم يتركون بلادهم ليعيشوا بين ظهرانينا ويختلطون بأفراد الشعب في حياته اليومية ، في أحيائه الشعبية ويحاولون تفهم لغته العامية ، وحفظ أمثاله الموروثة وعاداته وأعياده ، وأفراحه ، وأحزانه ، ويتظاهرون في كل هذا ، بأنهم يغوصون في أعماقنا ، ويدققون في صغائر وكبائر مايتردد في صدورنا وما يضطرب في عقولنا ، ويردونه الى أصوله الخفية ، وبواعثه الدفينة ، ليقفوا على حقائق تصوراتنا ، والبعيد من جذور معتقداتنا .

والحق أنهم يتجشمون عناء، ويبذلون جهدا لا ليعرفوا عن أنفسنا مالا نعرفه، حبا في الحقيقة بل على النقيض هم يتكلفون هذا الجهد ، ويصبرون على هذا العناء ليقولوا لنا .. اننا نضرب لكم المثل في دراسة حياتكم أنتم والوقوف على مداخلها ومخارجها ، وتبين ظواهرها وخوافيها ، لنثبت لكم أننا جادون ومجتهدون ، وأنتم كسالى فارغون

ثم لكي يقولوا لنا : «نحن نفعل مانفعل لنقف على عيوبكم أيها العرب لنصلحها لكم ، ونرسم لكم طريق الخروج مما ترديتم فيه » .

وعندها سنصدقهم نحن العرب لاننا نجد بالفعل جهدا خارقا وجمعا لوقائع عديدة ، ووثائق مطمورة ، وارتيادا لاماكن مجهولة ، وأبنية

مغمورة ، وأسماء مجهولة ، وكتب ضائعة . وعندها يسهل عليهم أن يزعزعوا ثقتنا بأنفسنا ، فنتجرع سموم ما انتهوا اليه من دواعي تخلفنا

ومرد تصورنا وأكثره ـ عندهم ـ يجتمع في كلمتين - ديننا وما اصطلح عليه من علل ، وثقافتنا وما امتلأت به من نقائص !

والحل في رأيهم أن نأخذ عن الغرب اسلوب حياته ، ومنهج تفكيره وأساليب بحثه ودرسه ، وبالجملة أن نجري في فلكه ، ونتعلق بذيله ، ونكون معه كالتابع للسيد. وبهذا يسهل على الغرب ، ان ينزعنا من جذورنا ويعلقنا في الهواء ، فلا نحن كأنفسنا ولا نحن كالغير ، وانما نحن مسخ مشوه ! .

أما الظواهر التي أحصاها المؤلف «روفائيل باتاي» فنبدؤها بظاهرة «القسوة» ! .

ويتساءل هل هناك نموذج عام لتربية الطفل وتنشئته ، في العالم العربي ؟ .. يعني هل يحرص العربي الغني والفقير ، المثقف والامي ، صاحب النفوذ والعادي ، على أن يخرج طفله على صورة ما ، هي الصورة المفضلة عند العربي أينما كان ؟! كأن يكون الطفل ، فصيحا لان العربي محبا للفصاحة ، شجاعا لان الشجاعة حاجة من حاجيات الحياة العربية البدوية أصلا التي تستلزم اجادة ركوب الخيل ، واستعمال السيف، وتحمل شظف العيش. وككل الاسئلة ذات الاهمية ، يكون الجواب صعبا . ويزيد من صعوبة الاجابة عن هذا السؤال بالنسبة للعربي وتنشئته للاطفال ، لعدم وجود مادة كافية للبحث . ولكن

يمكن الوصول الى نتيجة تقريبية .. فهناك مثلان هما العراق والمغرب، نجدهما فى موضوع تنشئة الاطفال وتربيتهم أقرب إحدهما الى الاخر ، من أقاليم أخرى كاليونان، أو الطليان أو جنوب اقليم الصحراء الزنجية. فالتشابه الثقافى بين العراق والمغرب على تباعدهما الجغرافى يرشح للفكر أن هناك عاملا اساسيا فى تنشئة الاطفال فى العالم العربى كله.

والامر الثانى انه ثبت فى الدراسات التى تناولت نواحى مختلفة فى العالم العربى ، أن هناك على الأقل بعض السمات المتشابهة فى طريقة تنشئة الأطفال .

من ذلك ظاهرة العقاب البدنى ، فالدراسة لاحوال الحياة العربية ، يتم اللجوء الى تأديب الاطفال بالعقاب البدنى ، أى بالضرب أو الصفع أو الركل أو ربما الجلد على الأقدام العارية ، أما فى الغرب فالاباء لا يميلون الى توقيع جزاء بدنى على الاطفال اذا اخطأوا ويكتفون مثلا بالتأنيب والتوبيخ الشديد، وحرمان الطفل من غذاء شهى أو لعبة يحبها أو رحلة يتمناها .

ويمكن الخلاص الى نتيجة وهى انه فيما يتعلق بالاذى الجسمانى فان العالم العربى كله متفق على اصطناع هذه الوسيلة .

والظاهرة الثانية السائدة فى العالم العربى كله أن صورة الاب ، هى دائما صورة الاب الشديد ، الجاف ، القاسى، الحريص على التمتع بالسيادة فى العائلة ، وأما الام على النقيض ، وهى الطرف المحب العطوف . وتدور على الالسن أقوال تؤكد هذا التناقض ، وتظهره

ومن هنا ينشأ الطفل العربى ، وهو يحترم أباه بل ويخافه ، وينطوى

على تعلق ملزه المودة لامه . ويبقى حب الاطفال لأمهم حتى بعد زواجهم .

وبسبب هذا التناقض في تربية الاطفال ، نجد الامهات العطوفات ، أما رافضات صراحة استعمال القسوة مع أطفالهم ، وأما يحاولن في الخفاء منع وقوع آثاره عليهم أو تخفيف هذه الاثار .

وانتقل المؤلف الى ظاهرة تفضيل الأطفال الذكور على الاطفال الإناث .

ويقول انه منذ أن تحمل الأم ، والعائلة كلها ترجو أن يكون الجنين ذكرا ، فاذا جاء المولود ذكرا ، فرحت الأم ، وفرح أكثر منها الاب ، وفرحت الاسرة كلها ، أما اذا كان المولود بنتا ، شعرت الوالدة بالحزن، وشعر الوالد بالعار ، وشملت الاسرة كلها خيبة الامل . ويرتكب المؤلف خطأ فيشير الى الآية القرآنية .

«واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، لا يدري أيمسكه على هون أو يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون» .

وعلى الرغم من انه يذكر الاية ويذكر رقم السورة ، ورقم الاية الا أنه يصر على أن هذا القول صادر عن الرسول ، وليس كلام الله تعالى.

ويمضي الصهيوني يقول: انه على الرغم من ذلك النصح «النبوي» فان عادة وأد البنات اي قتلهن وهن صغيرات استمرت في بعض نواحي الجزيرة بعد انتشار الاسلام لاجيال .

ثم يقول انه وإن كانت عادة الوأد لحسن الحظ قد اختفت الا ان

تقاليد الخجل من البنت والشعور بالعار عند مولدها قد انتقل الى الاجيال الحديثة . وأن الرجل الذى لا يرزق بالبنين لقبه «أبو البنات» وان هذا اللقب يكشف عن الشعور بالمهانة . والحق انه لا يدل على شيء من ذلك ، فأبو البنات قد يعبر عن شعور بالعطف على تلك الرجل ، دون أن يخالط هذا الشعور احساس بمهانته أو قلة شأنه .

ومن المضحك أن المؤلف يقول انه فى أحوال كثيرة قتل الاباء بناتهن عند إرتكابهن ما يخل بالخلق . وأن ذلك بقية من عادة وأد البنات .

وقد نقل المؤلف عن الكاتب الفلسطيني موسى العلمي ، فقرة يصف بها مولد طفل ذكر في عائلة فلسطينية ، وكيف شملت البهجة الام والاب والجدة والجد، وجميع أفراد الاسرة ، حينما اعلنت الداية أن المولود «ذكر» ، وكيف ارتفعت الزغاريد، وعلت الضحكات ، في حين أنه لو كان المولود انثى لتفرق الجمع فى صمت ، واترك الوالد يعاني من شعوره بالعار وحيدا . ويدلل على التفرقة بين الاولاد والبنات . ان الاولاد يرتدون أثواب البنات حتى يصلوا الى سن الخامسة فلا تصيبهم عين الحسود ! .

ومما يترتب على هذه النظرة أن المرأة تتأثر بمولودها فان رزقت بنتا اعتبرت خادمة فى منزل زوجها بلا أجر ، وان رزقت ولدا اعتنى بها وعوملت معاملة حسنة ! ..

والطفل الذكر يعامل معاملة غير الطفلة ، وهنا يظهر فى المظهر الثالث الذى استوقف نظر المؤلف ، فالطفل الذكر يبقى على ثدى أمه ترضعه حتى يصل الى الثالثة من عمره ، واذا بكى من الجوع ، أو من

شيء تسرع الام فتلقمه ثديها ، ليسكت ويستريح ، في حين أن البنت تسلم لغير الأم لتتولى إطعامها ، وتحرم من الالتصاق الطويل بجسد الام ، ويرتب المؤلف على هذا النظام في الرضاعة أمورا ضخمة ، فالطفل الذكر، من طول التصاقه بأمه ، يرضع مع لبن أمه ، شعوره بالسيادة وانه يكفي ان ينطق بطلب حتى يلبى طلبه في الحال - مع أن البنت تترك تصرخ ولا أحد يلتفت اليها .

والتصاق الولد بأمه وبصدرها بصفة خاصة يجعله يؤمن بأن المرأة، هي مخلوق وظيفته جنسية وعملها هو ارضاء رغباته بل نزواته ، وأنه يكفي أن يرى نفسه مع امرأة حتى يفكر في أن يحاول معها ارضاء نزواته الجسدية ، ولو لم يكن قد رآها من قبل ، ولا تحدث اليها وهو يفترض انها لابد ان تطيعه وتلبي أوامره .

ومن ثم فقد قام المجتمع العربي على قسمين ، قسم الرجال مستقل بهم ، وخاص لهم ، وقسم النساء . وذلك حتى لا يقع الاختلاط المؤدي الى اتصال الرجل الفوري بالمرأة لانه اعتاد كلما رأى امرأة ، أن يشبع ميله لها ، الذي رضعه مع لبن أمه ، والانثى بدورها لا تقاوم رغبة الرجل ولا ترده عنها ، لأنها ألفت طاعته ، في شخص الوالدة التي أباحت له صدرها ، أكثر مما يحتاج، أي حتى بعد سن الفطام .

ويذكر المؤلف شيئا لم اسمع به وهو ان الامهات العربيات اعتدن أن يدللن أولادهن ، ويحاولن ارضاءهم اذا بكوا فاذا كانوا قد تجاوزوا سن الرضاعة ، دغدغن أجسامهم في المناطق الحساسة منها ، ليبعثن ضحكهم . ومع الزمن يألف الولد هذا التدليل الجسدي ، ويهيئه لحياة

ملؤها المتعة الجسدية ، مما يحيل المجتمع العربي الى مجتمع تسوده تلك الرغبات، مما يجعل الرجل في خوف من سرعة استجابة «نسائه» الى المثيرات البدنية ، مما يؤكد انفصال الجنسين .

والطريف أن المؤلف يرتكب خطأ فادحا هنا ويزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا لفظا واحدا يطلق على الاطفال سواء كانوا ذكورا أو إناثا، فالاب يقول عن أولاده جميعا «الاولاد» ، ولا يوجد لفظ يطلق على الدرجة سواء كانت من الاناث أو الذكور، في حين أن كلمة «طفل» التى يقابلها لفظ «عيل» هي لفظ ينطلق الى المولود الذكر والانثى وهى التى تقابل في الانجليزية لفظ child ، ولفظ infant بالفرنسية ويسترسل المؤلف في خطأه فيزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا «الاولاد» و «البنات» فليس في عقل الانسان العربي وجود «للطفل» ولا «للاطفال» ، وهو ادعاء ممتلىء جهلا كما ترى !

وهكذا يمضي هذا الكاتب الصيهوني في اخلاط أفكاره !

أيام فى الجزائر

أكتب هذه السطور عقب عودتى من الجزائر بعد زيارة لها لم تدم سوى خمسة أيام، ولذلك فلنا لا أزعم أنى عرفت الجزائر معرفة تسمح لى بالتحدث عنها حديث العارف بها، الواقف على خصائص أهلها، ومداخل ومخارج عاصمتها، فالأيام الخمسة التى قضيتها فى عاصمة هذه الدولة العظيمة، صرفت أكثرها فى داخل فندق الأوراس العظيم، دائرا مع أكثر من ألف زائر، جاءوا من أقصى المعمورة وأدناها، وشملوا الأبيض والأسود والأصفر والمسلم والمسيحى والبوذى، والشبان الذين تطفر من جوانبهم الحيوية والشيوخ الذين يسيرون متئدين، وقد قيدت الأيام أقدامهم، ونظمت الأعوام حركتهم، والمتطرفين الذين حاولوا فى بلادهم أن يقلبوا كل شىء، ويغيروا كل نظام والمحافظون الذين يؤمنون بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن التغيير الحقيقى الذى يريح الناس ويسعدهم، هو التغيير الذى يأتى مع الأيام، لاتحس بخطاه، ولا تدرك حقيقة مسعاه، وهو فى الواقع دائب لايكلف.

وقد كان بوسعى أن أقول لك أنى فتنت بالدنيا التى احتواها الفندق العظيم، بأدواره التسعة، وبما سمعته على ألسنة رواده، ونزلائه وما أكثر مادته، وأعظم تنوعه، وما أغنى تجارب الذين قالوه جادين ومازحين، راضين وغاضبين.

● الهلال - أبريل ١٩٨٣ .

ولو فعلت لكان حديثي عن فندق بالجزائر، لا الجزائر نفسها، أو عن أمة من البشر، لاذت بفندق، وراحت تدير حياتها، وكأنها استقلت عن الدنيا، واكتفت بذاتها عن كل ما عداها، ولكني أريد أن أحدثك عن الجزائر ذاتها.

والجزائر ذاتها عزيزة عليَّ، أثيرة عندي أحبها غاية الحب بعد بلدي مصر، كما لم أحب قطرا ولا بلدا سواها، وأني في هذا الحب قد تأسيت بالبدوي الذي سئل عن أحب بنيه إليه فقال: الغائب، حتى يعود، والمريض حتى يشفي، والصغير حتى يكبر.. إلخ، وقد كانت الجزائر من بلدان المغرب، الغائب، والصغير والمريض والفقير، على جمال أرضها، ونفاسة موقعها، وجلال تاريخها، وعظم مواردها، وضخامة الدور الذي أدته في الماضي وفي الحاضر الجاري وفي المستقبل المأمول.

افترس الإستعمار الفرنسي الجزائر سنة ١٨٣٠ قبل أن تسقط جميع الدول العربية تباعا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فتونس سقطت في براثن الاستعمار قبل سقوط مصر بعام واحد إذا ابتليت بالغزو البريطاني سنة ١٨٨٢، في حين هجم الطليان على ليبيا، قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١١، وسقطت دولة المغرب سنة ١٩١٢، وقد كان لاحتلال فرنسا للجزائر قصة لاندري أهي ملهاة تضحك، أم مأساة تبكي، ولكن الاحتلال الفرنسي وقع على أي حال.

ففي سنة ١٧٩٤ احتاجت فرنسا إلى القمح الجزائري، فقبلت الجزائر أن تبيعها قدرا غير قليل من هذا القمح، ولم تقنع الجزائر بتقديم صفقة البيع، بل عززتها بمنح فرنسا تسهيلات مالية لتستطيع أن

تتم الشراء. فبلغ ما شغل ذمة فرنسا من ثمن القمح، ومن التسهيلات الممنوحة ما قدره ثمانية عشر مليونا، استمرت حكومة فرنسا تماطل وتسوف في سدادها، وكانت تتذرع كل مرة بسبب، فمرة تزعم أن القمح الذي اشترته لم يكن كله سليما، وتارة تشكك في صحة حساب الثمن، وحساب القرض، حتى انتهى الأمر إلى الهبوط بكل ذلك إلى أحد عشر مليونا من الفرنكات، فقبلت الجزائر أن تقبض مقابل حقوقها سبعة ملايين فرنك، ومع ذلك لم تدفع فرنسا شيئا مطلقا.

فلما كان اليوم التاسع عشر من إبريل سنة ١٨٢٧ استدعى «الداي حسين» وهو اللقب الذي كان يحمله رئيس الدولة الجزائرية قنصل فرنسا ثم سأله أن تدفع دولته الدين الذي يشغل ذمتها، فأجاب القنصل في غطرسة وغلظة بأن دولته لن تكتب شيئا في هذا الموضوع، فغضب الحاكم الجزائري الأعلى وأمر القنصل بأن يبارح مجلسه، فأبى القنصل أن يطيع الأمر متحديا، فما كان من الداي إلا أن انهال ضربا على هذا القنصل الجلف غير المهذب «بمنشة» كانت في يده.. وفرحت فرنسا بهذه المناسبة، فقد كانت تتلمس أدنى ملابسة لغزو الجزائر، ولا يبعد أن يكن مسلك القنصل متعمدا، ومقصودا.

واستمر مؤرخو الغرب، يدعون أن «الداي» أضاع استقلال بلاده، لأنه استسلم لنوبة غضب في لحظة، فخرج عنه ضربه منشة، وهو تصور أبعد ما يكون عن الحقيقة.

ولكن «مترنيخ» وزير خارجية فرنسا، وبطل السياسة الخارجية الأوربية كلها في ذلك الحين، قال أنه ليس معقولا أن تنفق فرنسا مائة مليون فرنك، وأن تعرض حياة أربعين ألفا من الجنود والضباط

الفرنسيين ثأرا لكرامتها القومية من أجل الإهانة التي لحقت بقنصلها يوم ضرب بمنشة، وقد قاوم الجزائريون الغزوة الفرنسية التي تمت في عهد الملك الفرنسي شارل العاشر، الذي تولى العرش بعد سقوط الجمهورية، وعودة الملكية إلى فرنسا، ولم يعد هناك بعد ذلك سياسي واحد في أوربا، لا يعلم بأن فرنسا قامت بهذه الغزوة، لأن شارل العاشر كان في حاجة إلى عمل ضخم، يكسب عطف الفرنسيين، بعد أن بلغت الحالة السياسية والمالية في فرنسا، في عهد عودة الملكية أخطر دركات السوء، وأن العمل كله ليس سوى عمل استعماري.

وقد كان مما زعمه القادة الفرنسيون أنهم بغزوهم الجزائر، أنقذوها من غزاة آخرين، وأن الغزو استوحى الروح المسيحية وأن المسيحية باركته، وختموا أكاذيبهم بأن الحضارة الحقة لن تدخل إلى الجزائر إلا على أيدي الغزاة الفرنسيين.

ولكن الشعب الجزائري أبى هؤلاء الغزاة فقد انبرى لمقاومتهم وصدهم بقيادة القائد المغوار المظفر الموهوب، الأمير عبدالقادر الجزائري فقد استمر يدافع عن أرض بلاده شبرا شبرا ضد هؤلاء البرابرة الذين ينسبون أنفسهم إلى المسيحية كذبا وبهتانا والحق بهم هزائم مدوية، كان دويها في فرنسا، وفي أوربا كلها، عنيفا، فقد ثبت للعالم كله الفارق العظيم، بين الاستعماريين المسلحين بأحسن أسلحة ذلك الزمان، مع عدد لا ينفد من الميرة والذخيرة، في حين كان المجاهدون الجزائريون قادمين من الصحراء على صهوات جيادهم، ولا سلاح عندهم إلا بنادقهم، وما يغنمونه من أسلحة الفرنسيين الغزاة.

ولما استطاع الفرنسيون أن يأسروا «عبدالقادر الجزائري» بعد سنوات طويلة من القتال، أحسوا أنهم مدينون له بالتكريم والإعزاز، فقد

ترفع عن كل دنايا القتال ومكائده، فلم يقتل شيخا، ولا طفلا، ولا امرأة، ولا لجأ إلى حرق القرى ولا تعذيب الأسرى، ولا نقض العهود، مع براعة في المناورة، وشجاعة في الهجوم، فنقلوه إلى فرنسا، ثم سمحوا له أن يختار منفاه، فاختار سوريا منفى له، وقد جاء المصورون الفرنسيون فرسموا لوحات رائعة للقائد الجزائري الفذ، وأودعت إحدى هذه اللوحات في متحف «اللوفر» بباريس، وقد بدا في تلك اللوحة، وهو يمتطي صهوة جواده، كأنما هو نسر محلق في السماء.

وليس هذا المدخل التاريخي، مجرد رواية لمقدمة الحياة السياسية الجزائرية في القرنين الأخيرين من حياتها، بل إنها الخلفية «للحياة الجزائرية اليوم» فقد طبعت هذه المآسي، الشعب الجزائري، خلال المقاومة الباسلة عند وقوع الغزوة ثم عند اندلاع الثورة الجزائرية في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤، التي بهرت الدنيا، بمواقعها التي كانت ضروبا متصلة في البطولات النادرة، التي تحدت الموت والبربرية الأوربية التي زعمت أنها أوربية، وحضارية ومسيحية.

فأنت في كل مكان في الجزائر لاتجد إلا شعبا جادا متجهما، يكاد لا يعرف الابتسام، دع عنك الضحك وهو يتحدث إليك في اقتضاب، يجيب بأقل الألفاظ، بنعم أو لا، وهما مادة الحديث، أما الثرثرة، فلا يعرفها ولا يطيقها، والناس في شوارع الجزائر، يسير أكثرهم فرادى، كل ماض في سبيله، وإذا سار اثنان معا، فقد لا يدور بينهما حديث، وأن تبادلا الحديث ففي وقار وحرص.

لقد عرف الشعب الجزائري من نكبات الاحتلال وويلاته، ما لم تتعهده أمة عربية أخرى، ذلك لأن الجزائر كانت ضحية الاستعمار

الفرنسي الأول في الشرق العربي، وكان وقوعها في الشاطيء المقابل لشاطيء فرنسا، مغريا لهذه الأخيرة بأن تتشبث بها، وتنشب فيها أظفارها، وكان جمال طبيعة الجزائر المدنية، والجزائر الدولة، أمرا يخلب لب الفرنسي، فيعدها امتدادا لبلاده. فإن مناطق الجبال في الجزائر، هي امتداد لجبال الألب الخضراء الفاتنة، وقد تزرى بجمال المناطق المشابهة في إيطاليا وفرنسا وسويسرا، وقد كان الغزو الفرنسي سياسيا ودينيا، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية، تؤيد هذا الفتح البربري، وكان الجزائريون لا يوصفون بأنهم جزائريون في البلاغات العسكرية، بل يسمون بالمسلمين، فكان ذلك باعثا للجزائريين إلى التمسك بإسلامهم، في الظاهر والباطن، والإحساس بأنهم مقصودون بالذات، لأنهم مسلمون شديدو الإيمان لدينهم، مع وطنيتهم المتقدة، وعروبتهم الصلبة.

وقد تكهن عدد غير قليل من الساسة والقادة الفرنسيين أن الحرب ستبقى بينهم وبين الجزائريين وأنها ستكون حربا عوانا تكلفهم الأموال والأرواح، وتورطهم في الجرائم والمغازي، وتلطخ سمعتهم، وقد تحقق هذا كله وبحذافيره، وفي مقدمة هؤلاء الساسة البارون لاكويه.

وقد كانت تمر فترات تبدو فيها الحرب قد بلغت نهايتها مثلا في سنة ١٨٤٧ بعد انتهاء مقاومة الأمير عبدالقادر، ولكن ما لبث أن قامت ثورات في السنوات ١٨٥٩ و١٨٦٤ و١٨٧١ بقيادة قبائل بني سناشي وأولاد سيدي الشيخ.

والجزائريون عاشوا قرنين متصلين من الزمان، يقتلون بلا حساب وتحرق قراهم، وتهدم بيوتهم، ويعذب رجالهم وشبابهم، وتنهب

محاصيلهم، فلما كانت الثورة سنة ١٩٥٤، جن الاستعماريون جنونا، فلم يتركوا موبقة حتى قارفوها، ولا دنية إلا اقترفوها، فأصبح من حق الجزائريين أن يتركوا الابتسام والخفة لسواهم

ومع ذلك فليس ثمة مدينة في العالم العربي كمدينة الجزائر، تبهج النفس، باتساع شوارعها، وجمال ميادينها، ونظافتها وأناقتها، وخلوها من الضجيج والغبار والفوضى.

ولعل الأثر الباقي من الاستعمار الباغي، في حياة الجزائري، هو عجز الأجيال الكبيرة عن التخاطب باللغة العربية، فقد دبرت فرنسا، حملة ضارية، بلغت أقصى الشدة، لتنزع الجزائريين من أصولهم العربية، فحرمت عليهم التعلم بالعربية، وبالتالي التكلم بها، حتى أصبحت العربية غريبة في مدن الجزائر وأن بقيت تعلم وتلقن مع القرآن الكريم في القبائل والريف.

ولعل هذا الحاجز الصفيق الذي أقامه الاستعماريون بين الجزائريين والعرب، قد ضاعف من خجلهم وترفعهم عن الاختلاط بالآخرين ولكن عودة الجزائر إلي العربية كانت عودة الحبيب إلي حبيبه، فقد أخذ هواري بومدين على عاتقه تعريب الجزائر، فأصبحت العربية لغة التعليم في جميع المدارس الإبتدائية والثانوية وبعض أجزاء الجامعة، وأصبح الجيل الجديد كله، يتكلم بطلاقة، ويحرص على القواعد، حتى بات يشعرك أن تسمع عربية أطفال الجزائر، من بنين وبنات، كما حدث لي، في حي القصبة المجيد، فقد انتهزت فرصة خروج التلاميذ والتلميذات من مدارسهم، ووقفت بينهم وسألتهم بالعربية فأجابوني بها، وسألت واحدة منهم: هل تحبين الممثلين المصريين، فقالت: «زي السكر» فلم

أستطيع أن أمنع نفسي من تحيتها بقولي: «بل أنت مثل السكر» فاحمرت وجنتاها.

وترى آثار التعريب في بعض الأحوال، فلا تسمع مثلا لفظ «أوتوبيس» وإنما لفظ «الحافلة» هو اللفظ المستعمل، وجميع لافتات المحال العامة بالعربية البسيطة الواضحة، التي تكاد تكتب عربية مصرية

وقد خصصت وقتا الجلوس أمام شاشة التليفزيون الجزائري ووقتا آخر للإذاعة الجزائرية، فأرضياني معا، فالمذيعات الجزائريات شابات جميلات وقورات، ينطقن العربية الصحيحة، بمخارج ألفاظ مصرية، خالية من عجمة العامية الجزائرية، ويبدو من إلقائهن أنهن يثقفن أنفسهن، وكذلك كان وقع كلام المذيعات الجزائريات، ينطقن العربية باستقامة، وينطقن بلا تردد ولا تعثر، يفسد على السامع فهم ما يقولون، وبلا ميوعة تنفر النفس، وتؤذي الذوق، وقد راعني تعليق إحدى المذيعات على رسالة مستمعة قالت إنها تقيم بناحية «سيدي فروج» فقالت المذيعة: «يا أختي أنت تقيمين في حي سيدي فرج، لا سيدي فروج، وسيدي فروج هذا، «نطق غربي» فتحاشيه إذا كتبت لي مرة أخرى.. وهذا حرص لانجده عندنا فنحن نميل إلي تقديم الأفرنجي على العربي، حتى باتت أكثر شركاتنا وحتى مؤسساتنا العامة تعرف بعدد من الحروف الأجنبية، وأصبحنا ندخل علي كلامنا أجزاء من كلمات أجنبية ككلمة «تريد» بمعنى التجارة «كومباني» بمعنى الشركة، وغلب «البوتيك» و«الكافتيريا» و«البار» و«الريستوران» على «المحل» و«المطعم» و«الملهى» وهذا مالا تراه في الجزائر، التي يسمى الشارع فيها «نهجا» والشارع

الصغير «جادة» والأصغر «حارة» والتى تطلق أسماء شهدائها على شوارعها وميادينها فى حين أننا فى القاهرة فوضى فى إطلاق الأسماء بحيث، حرم أكثر أبطالنا مثل «عمر مكرم» بطل الوطنية المصرية الأول، و«محمد عبده» بطل الثورة العرابية، و«عبدالرحمن فهمي» بطل ثورة ١٩١٩ و«لطيف باشا سليم» قائد أول ثورة عسكرية فى مصر من التكريم.

ومما يلاحظ فى شوارع الجزائر أنك تجد المرأة الجزائرية المتحجبة، التى تلبس «البرقع» وتغطى رأسها بغطاء أصفر فاتح مخروطى، تملأ الشارع، وتسير بنشاط، وهمة، وبلا تعثر، فقناع المرأة الجزائرية الشابة، لم يمنعها أولا من الخروج وممارسة أعمالها خارج المنزل ولم يقيد خطوتها، ولم يزد فى وزنها، فالنساء المتحجبات جميعا خفيفات الحركة ليس فيهن واحدة ثقيلة الوزن، أو مترهلة.

وفى الجزائر نحو ثلاثة آلاف مصرى، يعملون فى مختلف نواحى العمل، وعلاقتهم بالحكومة الجزائرية حسنة، وبالشعب الجزائرى وثيقة إلى أقصى الغاية.

حكاية
تطوير الأزهر

في سنة ١٩٦١ ميلادية، طرأ على الازهر تغيير، لم يطرأ شيء من قبيله على هذا المسجد العتيق والعريق، منذ انشيء قبل اكثر من ألف سنة، وذلك بالقانون رقم ١٠٦، وقد كان لصدور هذا القانون صدى بعيد، فقد خيل الكثيرين من علماء المسلمين في مصر، وخارجها في العالم الإسلامي، ان الازهر بهذا القانون، خرج من اهابه، وفقد طابعه الذي عرف به، وولد معه، بل تخلى عن رسالته التي انشيء من أجلها، وغايته التي أسس ليسعى اليها، ويعمل لها.

وقد تواصى علماء الإسلام الذين سمعوا بنبأ هذا القانون وعرفوا مداه، وأدركوا مرماه، دون ان يضمهم مكان أو يدعوهم داع، على ان يبذلوا أقصى الجهد لينسخوه، ويحرروا الأزهر الشريف من ربقته.

فماذا يكون هذا القانون، وما هي الظروف التي لابست مولده، والبواعث التي أوحت بتنفيذه ونشره على الناس، والعمل به سنوات استمرت حتى اليوم، وإن كانت قد عدلت أحكامه قليلا.

ولكن يبدو لي انه ينبغي علينا قبل أن نتحدث عن هذا القانون، أن نسلم بشيء من المشكلة الكبرى التي يمثلها الازهر الشريف في حياة المصريين الذين يعتزون بوجوده على أرضهم، في عاصمة وطنهم،

● الهلال - فبراير ١٩٨٣.

وبالعلم الذى أذاعه قرنا بعد قرن، وبالعلماء الذين طرحهم جيلا بعد جيل، وبالدور الذى أداه عهدا فى اثر عهد، وبالجهاد الذى خاض معا معه، فى محنة وراء محنة.

فلم يكن الازهر عند المصريين، وعند المسلمين بعامة، جامعة، يؤمه المصلون وتؤدى فيه شعائر الدين، ولا هو جامعة علم، تلقن الطلاب، وملتمسى المعرفة، حقائق العقيدة، وأصول الشريعة الحنيفة، وفروعها، ولا هو ندوة يتداعى إليها أهل القاهرة، فيناقشون أمور دينهم ودنياهم للتشاور الهادىء، فى حالات الدعة والرخاء، والبحث عن مخرج من الازمة، فى أيام الضائقات والأحداث المدلهمات.

بل انه كل هذا مجتمعا، وفوق هذا هو تراث، آل إلى الجيل الحاضر، يفخر به، ويعتز ويباهى، ويخشى عليه الزوال، ويألم أشد الألم حينما يسمع ان الازهر، لم يعد قادراً على ان يؤدى شيئا مما نجح فى أدائه فى السنين الخوالى، وانه صورة بلا روح، وانه ذكرى لماض، يتلكأ فى طريق الحاضر، والمستقبل.

وليس فى وسع أحد أن ينكر أمرين جد متناقضين: أولهما ان السنوات المائة الاخيرة، كانت سنوات تجديد، بما آل اليه رجال التعليم والتعلم فى الازهر وعجزه عن أن يستبقى ضمن تلاميذه وطلابه، الافذاذ من أبناء الامة، الذين يتوقون الى أن يفرغوا من مرحلة التلقى والتحصيل، ليخرجوا الى خضم الحياة، يعملون وينتجون إلى حياة الناس الجديد من الافكار، والمستحدث من الوسائل، وينقضون السيىء والفاسد من الانظمة، والتقاليد، ويجدون فى سبيل العيش والحكم، والبحث والدرس،

ضاق به، بل فر منه، على مبارك ومحمد عبده، وسخر منه طه حسين فنطال السخرية، وألم به آخرون إلمامة قصيرة، فلبسوا زيه، وحملوا لقبه، ولحقتهم فترة من الزمن سمات شيوخه وطلابه، في المشية والقعدة، واسلوب التفكير، والمسلك وان لم يحصلوا من علمه إلا أقل القليل، ومن أولئك أحمد حسن الزيات الكاتب، وابراهيم الهلباوى المحامي، بل وأحمد عرابي الثائر وسعد زغلول الزعيم، ومئات بل ألوف من المحامين وكبار الموظفين المدنيين غير الازهريين ، ورجال القضاء والادارة .

أما الأمر الثاني، الذى هو على نقيض الاول، أن المصريين لم يكفوا عن الاعتراف بفضل الازهر على مصر الحديثة - التي تعارف المؤرخون على القول ببدء حياتها منذ حلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على أرض مصر في يولية سنة ١٧٩٨، بعد أن غادرت ميناء طولون في مايو من السنة نفسها.. فقد كان الازهر «المشتل» الذى تنقل منه الأشجار الواعدة بالنمو والازدهار والتفتح الى أرض أكثر خصوبة، وأغزر ماء، وأوفر هواء، وأعظم حظا من الرعاية فأكبر الاسماء في تاريخ مصر الحديثة، هي لسماء رجال بدأوا حياتهم في الازهر، واتموا تعليمهم فيه، ثم بعث بهم إلى اوروبا، أو لحقوا بالمعاهد العليا الحديثة التي تعلم القانون أو الادارة أو التربية، فنجحوا وتفوقوا ووصلوا إلى مكانة القادة والمصلحين وفى مقدمة هؤلاء رواد الثقافة والفكر في مصر: رفاعة الطهطاوي، وعلى مبارك، وعبدالله فكري، وابراهيم اللقاني وصالح مجدي، وحفني ناصف.

فقد كان مبعث الألم الشديد عند رجال التعليم والثقافة وأهل الحكم والسياسة، أنهم كانوا يعلمون أن الازهر، منذ ولد سنة ٣٥٩ من

الهجرة أى سنة ٩٧٠ من الميلاد في الفضاء الواقع شمال اول عاصمة اسلامية وهى عاصمة الفسطاط التى بناها المسلمون بعد ان فتح الله عليهم مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢١ هجرية الموافقة لسنة ٦٤١ ميلادية، وهو يؤدى خدمات جليلة للعلم والثقافة العامة، الدينية، والثقافية ثم بعد ذلك أصبح مركز اللقاءات علمية وأدبية، حتى اصبح لدى عصور ندوة فكرية أدبية جامعة، وفيها كانت توجه حركة التفكير والاداب في مصر الاسلامية، علي غرار مسجد مدينة الفسطاط، الذى كان يعرف باسم جامع عمرو حينا، والمسجد الجامع حينا أخر، والجامع العتيق حينا ثالثا، وأخيراً مسجد أهل الراية.

وكانوا ينظرون الى المسجد الازهر، فإذا هو فى مكانه حيث أقيم - او حيث اقامه القائد جوهر الصقلى، قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وسط مدينة القاهرة، التى كان نواتها قصر الخليفة الكبير، وقصره الصغير، والساحة الفسيحة التى كانت تقع بينهما وتسمى بميدان بين القصرين.

وأن الجامع الذى آل اليناء بدأ فى مساحة صغيرة نسبيا، ولكن الخلفاء الفاطميين وسعوا فيه، وجملوه من الداخل، واضافوا الى أبنيته الاصلية، وكان أول من جدد فيه الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ - ٩٨٨م، ثم جرى على سنة التجديد هذه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ - ١٠١٠م، ثم حبس عليه اوقافا، ثم تبعه الخليفة المنتصر بالله ثم الخليفة الحافظ لدين الله، وبعد سقوط دولة الفاطميين التى استمرت قرنين، وجاء الملك الظاهر بيبرس فقام نائبه عز الدين ايدمر الحلبي بعمارة جديدة فى الازهر، زادته رواء وكان القدر أراد ان يمتحن حب

المصريين للازهر فازاله من الوجود بزلزال عظيم سنة ٧٠٢ هـ ١٣٠٢م، فقام الامراء المماليك باعادة بنائه ثم بنى السلطان الاشرف «سنة ٨٨١ هـ - ١٤٧٦ ميلادية» المنارة الجميلة الواقعة بالناحية الغربية.. المنارة التى لا تزال فى مكانها والى جوارها المنارة ذات الرأسين التى أقامها السلطان الغورى سنة «٩١٥ هـ ١٥٠٩م» ولم ينقطع الولاة والامراء فى العهد التركى عن التجديد فى مبانى الازهر، وأروقته، وفى زيادة الاوقاف المحبوسة عليه، على أن أعظم ما تم فى الازهر فى هذا العهد من عمارة كان على يد الامير عبدالرحمن كتخدا فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق الثامن عشر الميلادى، وقد اضاف هذا الامير الى منائر الازهر منارتين لا تزالان تزينانه واحدة فى الناحية الشرقية القبلية والثانية فى الناحية الشرقية.

ومؤدى هذا كله أن الازهر انفرد من بين جوامع القاهرة التى بنيت على مر العصور والحقب، كمساجد كانت آية فى بهاء العمارة وجمالها ورواء الهندسة واتقانها ، بعناية الامراء والسلاطين، بعضها يتناول بناءه، ومقاصره، وابهاءه ورواكيه ، وبعضها ينصب على الاوقاف المكتوبة له ولتلاميذه وأرزاق اساتذته وعلمائه، والبعض الثالث، يتجه الى العناية بجانبه العلمى، فينشىء فيه الزوايا، لتدريس مذاهب الشريعة المختلفة، ويعين لكل مذاهب علماء يشرحونه، ويعلمونه الناس، ويتعهدون التلاميذ حتى يخلفوهم فى حلقات الدرس. ومن ثم فقد اصبحت العناية بهذا الجامع العظيم، تقليدا يتوارثه الاجيال، ويحس كل جيل اتيح له أن يزيد فى مساحة الازهر، أو يرمم ما تداعى من بنائه، أو يعمل فى الابنية باضافة نقوش الى النقوش، يلتهم أجرا -

بهذه الزيادة أو العناية ـ واجبا وطنيا، فالازهر عنوان مصر، ووثيقة مجد جدير بأن يصان، ولا تعبو عليه الازمان .

ثم أقفرت الحياة فى مصر، فى ظل ألوان من الحاكم الطاغى الجاهل المستبد الغاشم، فأغلقت فيها دور العلم، وكسدت سوق العلماء والشيوخ، وسادت الامية، ولم يبق الا الازهر ، هو المعهد الكبير الذى يتعلم فيه الابناء، ويعلم فيه الاباء ، حتى جاء عهد محمد على وبعث حياة جديدة فى مصر، ونشأت دولة تحسنت فى ظلها الاحوال، واصبح لمصر جيش يحسب حسابه، واسطول يجوب البحرين الابيض والاحمر، فيلقى الرعب فى قلوب امراء أوروبا، واقيالها، واحتاج الجيش والاسطول والمصانع التى اسسها الوالى الجديد، الى المهندسين والاطباء، والمترجمين والمدرسين والعلماء ، فلم يجد الوالى امامه معينا يأخذ منه هؤلاء، ويمدهم للمهن الجديدة ، ويحضرهم للعلم الحديث، الا الازهر . فاصبح الازهر حصن الحضارة الجديدة فى مصر، ومنبع الحياة التى تدفقت دماؤها فى عروق أبناء البلاد، ثم ارتبط الازهر باسماء عدد من أكبر رجالات مصر، فتجدد فيه الامل، ووقف المصريون ساسة وحكاما، ومصلحين ودعاة، حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، أيدعونه فى مكانه حيث هو يرمم ويعالج بناؤه لكيلا يسقط وينهار ويذهب، ويحاولون اصلاح التعليم فيه، لكى لا يتحول إلى مسجد للعبادة فقط، فتنقطع صلة مصر بهذا المسجد العظيم، فيقبلون باصلاح التعليم الذى بقى فى الازهر، لا هو يتصل بالحياة الجديدة، فيؤثر فيها، ويتأثر بها، ويتجدد معها، ويجدد لها، ولا هو متصل بالعلم العظيم الذى أخرجته للناس مساجد المسلمين فى عواصم الاسلام المنبثة فى دنيا

المسلمين من أقصى الشرق عند سور الصين الى أقصى الغرب عند أمواج بحر الظلمات، المحيط الاطلسي، انما هو ثمالة في قاع كأس التاريخ الاسلامي، لا تسمن ولا تغني من جوع، أصبحت زادا لمجموعة من أصغر الموظفين شأنا، وأقلهم عند الناس احتراما، وأعجزهم عن الكفاح في الحياة، مدرسو اللغة العربية التي تضاءل شأنها، لان كتبها خلت من شيء من العلم الذي ينتفع به الناس في كل مكان في حياتهم، وانشاء مصانعهم، وبناء حصونهم، ومكافحة أمراضهم، وتحصين أجسادهم، ومأذوني شرع يعقدون عقود الزواج والطلاق، ومعاونين لموظفي الحكومة، في دواوين مهجورة احتلت أبنية متهارة تكاد تتقاض انقضاضا كتبة لايقوون على كتابة خطاب، أو تحرير مقال أو نظم قصيدة.

وصارت الحكومة الجديدة في هذا الازهر العزيز الغالي، الذي أصبح يشبه ثوبا قديما امتلأ بالرقع حتى أصبح لا يستر جسدا، ولا يخفي عورة، ولا سبيل الى التخلص منه، لانه موروث من الأجداد، ولأن القماش الذي صنع منه غال بحيث لا يقدر بمال.

ثم حدثت مضاعفة، فقد تحررت الدول الافريقية والاسيوية، والكثير من تلك الدول اسلامية تعض على دينها بالنواجذ وقد كان الاستعمار يحول بين أبنائها وبين مصر زعيمة الاسلام، وبين اللحاق بالازهر وطلب العلم فيه، لان الاستعمار أخذ على عاتقه، تمزيق أوصال الامة الاسلامية، وإغراء اجيالها الجديدة على طلب العلم الحديث بلغات الدول الاستعمارية • انجليزية وفرنسية وهولندية واسبانية، والتهوين من شأن لغة المسلمين العربية، ومن علم المسلمين الموروث، فلما باد الاستعمار،

وهلك سلطانه ، وتهاوت السدود التي أقامها بين مستعمراته ومصر، جاء عدد غير قليل من أبناء تلك المستعمرات ، وطرقوا أبواب الازهر طلبا للعلم واطمئنانا إلى انه يعلم العلم السليم، الخالي من آفات الشرك، وسموم الكفر، فلما جلسوا في مقاعد الفصول الازهرية، وقرأوا كتبه، هالهم انه علم منقطع تماما عن الحياة التي تموج وتفور، بآراء جديدة، وتطلعات الى دنيا تقوم على صناعة ضخمة، وبحث في جوانب الكون بعلوم اسمها الطبيعة والكيمياء والرياضيات والفلك وعلم الحيوان وعلم النبات، وهذه الدنيا لا يسمع عنها الازهر، ولا يحاول ان يقترب منها، فأصابهم يأس شديد، وودوا لو عادوا الى بلادهم أو دخلوا الى إحدى جامعات مصر، التي لا تستطيع أن تستقبلهم، لانهم لم يعدوا للتعليم الجامعي.

هنا، اشتد ألم القائمين بالأمر في مصر، وخيل إليهم أن الواجب يقضي عليهم بألا يقفو مكتوفي الأيدي أمام هذه المشكلة، ولما كانوا ثوارا فقد قالوا، إننا لحسن الحظ، نعيش ثورة، والمشكلة الازهرية لا تحلها إلا ثورة والثورة التي يحتاج اليها هذا المعهد العتيق، ان نفتح أبوابه أمام العلم الحديث، ولكن بحيث لا ينقطع علماؤه وشيوخه ، ولا طلابه وتلاميذه عن الازهر القديم، فيبقون تحت قبته، وفي ظلال منارته ، فكيف يتم الجمع بين النقيضين بحيث نجمع، في الصلاة بين رأسين تباعدا رأس الدين وكعبته التي لم تجدد وبين العالم المتطور، بل التي انقطعت صلتها بإنشاء العالم الاسلامي القديم التي خلقت الحضارة الحديثة والعلوم الكونية لتطبيقه.

وبضربة واحدة أصدرت حكومة الثورة في سنة ١٩٦١ القانون رقم ١٠٦، وهو يقضي بإنشاء كليات حديثة للطب والعلوم، والتجارة

والهندسة، الى جانب كلياته القديمة، اللغة العربية، وأصول الدين والشريعة فمن كان من ابناء العالم الإسلامي راغبا في طلب العلم الإسلامي القديم من فقه وأصول وتفسير وحديث فعليه باحدى الكليات القديمة فسيجد هناك ضالته اما من كان راغبا في ان يكون مهندسا وعالما بطبقات الارض، وأجواء السماء وعالم البحار، وخصائص المادة وفنون المال والتجارة، وقوانين الدول والافراد ، فانه سيجد ما يسعى اليه في الكليات الحديثة، ولكيلا يفقد بركة الازهر ولا يخيب امال اهله الذين يريدون لإبنهم ان يطلب علم الازهر فسيلقن شيئا عن الدين في سنة واحدة يلم خلالها بمصطلحات العلوم الاسلامية، وملخصات لموادها الاصلية، وكان أنذاك في مصر مجلس تشريعي بمجلس الامة، وكان مجلسا فريدا لانه مجلس اتحادي ، يضم ممثلين عن مصر، وأخرين عن سوريا ، حينما تمت بين الدولتين وحدة، ذابت فيها الدولتان، وخلقت منهما دولة واحدة هي «الجمهورية العربية المتحدة».

وكان من النواب السوريين عدد غير قليل ممن طلبوا العلم في أزهر مصر أو في معاهد تشبهه في سوريا، فلما عرض مشروع القانون عليهم، خيل إليهم ان الازهر سيمحى من الوجود، وان الأمر ، لا يعدو أن يكون مؤامرة على الاسلام نفسه، وانهم مطالبون بأن يدفعوا شر هذا القانون بأرواحهم ويبذلوا في سبيل ذلك دماءهم.

وكانت الجلسة التي خصصت لمناقشة مشروع ذلك القانون هي أخر جلسات دورة المجلس السنوية يقوم بعدها أعضاؤه باجازة طويلة لا تنتهي الا بانتهاء الصيف ومعنى ذلك أن المناقشة في المشروع يجب أن تنتهي في الليلة التي عرض عليهم فيها، فانفجر

غضبهم، وأخرجهم الغضب من الاتئاد والصبر فعلا صوتهم، واشتد هرجهم ومرجهم، وارتقى بعضهم المناضد التي كانت في قاعة الاجتماع ولوحوا بأيديهم، وانضم اليهم بعض نواب مصر ، ممن لم يقل غضبهم عن غضب إخوانهم السوريين ، وكلما تصوروا أن الازهر سيكون كالغراب الذي أراد أن يقلد الطاووس، فلم يبق غرابا، ولم يصبح طاووسا، وان عليهم أن يستودعوا الازهر في رحمة الله، وان ينفضوا يدهم منه، اشتد الغضب، وزاد الهرج، وخيل الى الحكومة أنها على أبواب فتنة لا يعلم الا الله مداها، فتنادى رئيس المجلس، فاقبل زعماء الدولة سراعا، تبدو على وجوههم سمات الجد وانشغال البال، والتوجس واحتلوا منصة القاعة، ثم صاح صائح منهم: لا تنسوا انكم تعيشون في ظل ثورة واعلموا ان من كان خصما لهذا القانون ـ قانون تطوير الازهر، فهو خصم الثورة، ومن خاصم الثورة داسته بالأقدام.

وكان الخطاب موجها لنواب الشعبين المصري والسوري الذين شكلوا مجلس الامة الاتحادي، ولكنهم لم يعوا التهديد الذي وجه اليهم، فقد تملكتهم ثورة السمع والرؤية، فكان لابد من اعادة الصيحة، للمرة بعد المرة، وكان النواب قد استنفدوا طاقة الغضب، ثم فهموا ما كان يريده الصوت العالي، واستقر معناه في الاذهان فثابوا الى رشدهم، ثم عادوا الى صوتهم، وكفوا عن ضجيجهم، ومر القانون بلا مناقشة: الى المواد التي زادت على المائة وقاربت المائتين، مجرد تلاوة بلا تعليق ولا مناقشة فلما تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل وزادت على الواحدة، شعر النواب بالتعب والملل، فاقتصرت قراءة المواد على تلاوة أرقامها.

ثم دخل القانون فى دور التنفيذ والتطبيق، فبدت عوراته، وكانت بادية من اللحظة الاولى، اذ أصبح الازهر، فى ذيل الجامعات، لا يطرق باب كلياته الجديدة الا من سدت فى وجهه أبواب الكليات جميعا حتى ما كان منها فى صعيد مصر، وخارجها ، ولا ينقل الى هذه الكليات من الاساتذة ومساعديهم، والمدرسين ومعاونيهم الا من ضاقت بهم، الجامعات الاخرى جميعا، والسنة التحضيرية التى فرضت على طلاب السنة الاولى ، كانت عبئا على هؤلاء الطلاب لا يطاق لأنهم عدوها زمنا ضائعا عليهم لأنها لا تعلم الدين، ولا تحببهم فيه، ولا تهيئهم للدراسة التطبيقية والعلمية التى أعدوا أنفسهم لها. والطلاب الافريقيون والاسيويون الذين لحقوا بالكليات الحديثة كان عددهم ضئيلا لا يستأهل كل هذا العناء.

وأسفرت التجربة عن الأمور الآتية:

أولا ـ يجب أن يكون الطبيب الازهرى، والمهندس الازهرى، والمحاسب والمحامى الازهريان، أزهريين بحق، أى أن يبدأوا حياتهم التعليمية منذ البداية فى الازهر.

أى أن يطلبوا العلم الابتدائى والثانوى فى معاهد الازهر، فتقوم السنتهم بلغة القرآن، وتتكيف عقولهم بثقافة الدين، فإذا خرجوا الى الحياة العملية، كانوا طرازا جديدا منسوبا الى الازهر بحق، وممثلا للدين تمثيلا صحيحا لا زائفا..

ثانيا ـ لكى يستطيع الطالب الازهرى أن يجمع بين الثقافة العربية والعلم التطبيقى الحديث، يجب أن يتلقى فى الدراسة الابتدائية والثانوية نفس ما يتلقاه الطالب العادى فى المرحلتين.

ولما كان الجمع بين تعلم المواد الدينية والحديثة مستحيلا فى سنى الدراسة الابتدائية والثانوية الاربع أو الخمس وجب اطالة سنى هاتين المرحلتين الى ست.

ثالثا - يجب أن تنقسم الدراسة فى المعاهد الازهرية الثانوية الى قسمين علمى وأدبى، كما هو الحال فى المدارس الثانوية العادية، وأن يعتنى بتعليم اللغات فى المعاهد الثانوية الازهرية.

ورابعا - يسمح لحاملى شهادة الثانوية العامة الازهرية أن يلحقوا بالكليات الحديثة فى الجامعات الأخرى.. ويعين من خريجى هذه الكليات معيدون ومدرسون ممن حصلوا على الثانوية الازهرية على الوجه المبين

خامسا - تلحق الكليات الحديثة التابعة للازهر الى إحدى الجامعات ويقف العمل فى الكليات الازهرية الحديثة حتى يتم تخريج عدد كاف من الحاصلين على المؤهلات الحديثة من الكليات الحديثة، فتقوم على أكتافهم كليات الازهر فى العلوم الكونية، ويكونون أزهريين حقا، وينتخب منهم الدعاة للاسلام فى العالم كله، فيستضيئون فى الدعوة بعلم الدين والدنيا.

ولما كان العبء الذى سيلقى على أكتاف هؤلاء الطلاب ثقيلا، فالواجب يقتضينا أن نختار من البداية هؤلاء الطلاب، ونلاحظ فى اختيارهم النجباء والافذاذ، ولا بأس من أن تمنح لهم إعانات تهيىء لهم سبل العيش لانهم يعدون لرسالة، ولا يعدون للحصول على شهادة.

ثقافة للبيع

جاء في الانباء أن مناقشة طويلة دارت في المجلس التشريعي الفرنسي حول بيع إحدى القنوات في التليفزيون الفرنسي لاحدى كبريات الشركات

وكان فريقا المتناظرين في المجالس يترافعان عن وجهتي نظر متباينتين

الاولى ترى أن القناة المراد بيعها يجب أن تبقى حكومية لأن هذا ضمان لها بالوقار والاستقرار والازدهار.

في حين يقول الآخرون بل تباع فان القطاع الخاص أكثر حيوية وأشد حيدة وأحرص على إمتاع المشاهد ونفعه وانتهت المناظرة بغلبة القطاع الخاص فقد قرر مجلس الأمة الفرنسي بيع القناة الى شركة بويك وهي ليست شركة بويك السيارات. بل شركة فرنسية بحتة تقوم بتشييد العمائر وتتخصص في أعمال البناء في حين أن الشركة المنافسة كانت شركة نشر وطباعة وعلى الرغم من أن هذه الشركة أقرب الى موضوع الاذاعة المسموعة والمرئية، فان العطاء رسا على شركة بناء لا تمت الى الثقافة والاذاعة لا من قريب ولا من بعيد.

وهذا كله يكون واقعة حال شديدة الارادة تتصل اتصالا صحيحا بالثقافة وهي تدعونا الى طرح السؤال التالي وهو سؤال قديم خلاصته

● الهلال - مايو ١٩٨٧ .

أى الجهتين أكثر احتفالا بالثقافة وأقدر على توفير أسباب النجاح والتقدم لها أهو القطاع العام أم القطاع الخاص ولقد ثار نقاش من هذا الطراز فى مصر فبعض كبار الكتاب ذهبوا الى أن سوق الثقافة بارت وعالمها كسد حينما انشئت فى مصر وزارة للثقافة وحينما خصصت الثقافة والهيئة الحكومية:

فقد أفل نجم الأدباء والشعراء ، وقل ظهور المواهب الجديدة، وانصرفت الجماهير عن الكتب واقفلت المجلات الادبية أبوابها، وقل عدد رواد الجمعيات الادبية والندوات الثقافية.

لقد راجعت تراجم بعض العباقرة فأين الحقيقة فى كل هذا؟

الموسيقى فى أوائل القرن الثامن عشر ، فرأيت كيف أن هذه الشخصيات الفذة الموهوبة قد لقيت فى البيت الذى نشأت فيه ومن الأهل الذين ينسبون إليهم القهر وسوء المعاملة.

وكيف عوضهم الله عن هذا الحظ السيء برعاية بعض الامراء والملوك هيئوا لهم سبل الدرس واتقان الفن والتقدم الذى أينعت معه مواهبهم وصقلت صفاتهم وقدراتهم. فكأن الثقافة كانت مدينة لذوى السلطة الرسمية التى تقوم مقام القطاع العام الآن.

كان هايدن اسثاذ (بتهوفن) ابنا لنجار، وكان النجار محبا للموسيقى وكانت زوجته حسنة الصوت، فورث الطفل عن أبويه حبه لهذا الفن الرفيع ولكن والده أصيب بعسر مالى اضطر الأسرة كلها الى التجوال فى البلاد بحثا عن الرزق، حتى زاره ابن عمه وكان ناظرا لمدرسة ابتدائية فلما شاهد الطفل (جوزيف) ترسم فيه النبوغ، فطلب من أبيه أن يسمح له باصطحابه ولما كان الوالد قد رزق بعشرين طفلا فقد رحب بهذا الطلب ليتخفف من نفقات أحد أبنائه.

ولكن هذا العم كان قاسيا، حتى كان نصيبه من العصا أكثر من نصيبه من الطعام، ولكن مواهبه الموسيقية رغم تعاسة عيشه وما يعانيه من قسوة عمه، واصل تقدمه في الموسيقى عزفا وتلحينا حتى دفعه وهو في الثالثة عشرة من عمره الى تلحين أولى أوبريتاته المسماة الشيطان الأجدب التي ما كانت تمثل حتى أقبل مديرو المسرح يظهرون له أعظم الاعجاب وترامى صيته حتى سمع به الأمير باول استرهازي وكان أحد أبرز أمراء النمسا وكان شديد الاعزاز لهذا الفن فضلا عن اتقانه العزف على الكمان فاستدعى اليه هايدن عام ١٧٥١ وجعله رئيسا للفرقة الموسيقى في قصره وقد أجرى على هايدن رزقا استمر يتقاضاه من اولاد هذا الأمير ومن أحفاده.

وتجاوزت شهرة هايدن بلاده ووصلت إلى أوروبا فدعي الى بريطانيا حيث أقام نحو عشرين حفلة، والف اثنتي عشـــرة ســـيمفونية، وهي التي تسمى بالسيمفونيات الانجليزية ، وكان الاشراف يحيطونه أينما ذهب بالرعاية والاجلال وارسلوا اليه أبناءهم ليتدربوا على يديه، مما اتاح فراغا يجود فيه فنه حتى نظم النشيد الوطني الالماني في ١٢ من فبراير سنة ١٧٩٧ المعروف بـ (المانيا فوق الجميع) وقد وقع في عيد ميلاد القيصر في تلك السنة في جميع مسارح النمسا وفي ربيع سنة ١٨٠٨ اقيمت حفلة في مبنى جامعة فيينا دعي إليها الأمراء والوزراء وأعيان المدينة وقد وضع مقعده.. بين هؤلاء القوم، وكانوا طوال الوقت يحتفون به، وقد توج هذا المجد كله باطلاق لقب «أبو الموسيقى الحديثة» ولم يلفظ أنفاسه الا في ١٦ من مايو سنة ١٨٠٩ حتى كان قد وصل الى غاية الشهرة وذيوع الصيت واحترام الشعب والخاصة وقد عبر عن ذلك كله باقامة أول تمثال له بفيينا.

● موتسارت.. المعجزة

أما موتسارت الذي يعرف بالطفل المعجزة فقد ظهرت مخائل نبوغه وهو بعد صبي صغير وقبل أن يصل الى الخامسة عشرة من عمره حتى أطلق عليه لقب (أما دوس) يعني المحبوب ويقول مؤرخوه مع ذلك، موتسارت هذا ظل طوال حياته في ضيق من العيش لا ينفعه رائع فنه ولا عظمة انتاجه، وكان لا يجد قوت يومه الا بشق النفس فكان يقول الموسيقى من لا خير فيه.

وقالوا أيضا موتسارت هذا مات فقيرا محروما.. حتى من تشييع جنازته فلم يصحب جثمانه إلى مقره الاخير غير خمسة من خاصة أصدقائه وحتى هؤلاء حال بينهم وبين ملاحقة جثمانه بعد الطريق فاضطروا العودة تاركين الجثة لسائق العربة.

وقد ولد في ٢٧ يناير سنة ١٧٥٦ ولم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى حاول أن يوقع ألحانا على آلة البيانو محاكيا شقيقه فلما بلغ الخامسة وقع على تلك الآلة بضعة ألحان من تأليفه وفي السادسة وقع ألحانا أخرى على الكمان وقد أراد أبوه - والطفل في هذه السن المبكرة - أن يشهد العالم بنبوغ ولده فسافر معه الى ميونيخ ومنها الى فيينا وما كادا يصلان اليها حتى استدعته الاسرة المالكة فاستحوذ الطفل على حب القيصرة وأغدقت عليه الهدايا وقد شجع هذا النجاح الوالد على أن يجوب بابنه كثيرا من المدن الالمانية ثم رحل الى باريس ولندن فلحن موتسارت وهو في الثامنة لملكة انجلترا عدة مقطوعات للبيانو المنفرد وللكمان المنفرد كما الف في لندن أول سيمفونية للفرقة الكاملة وهو اعجاز بشرى لم يظفر به سوى

موتسارت وبعد أن طاف بهولندا وسويسرا عاد الى وطنه سالسبورج عام ١٧٦٦ وفي سنة ١٧٦٧ لحن موتسارت الصغير بأمر قيصر النمسا جوزيف الثاني أول أوبرا له غير أنها لم تظهر على المسرح لصعوبة ألحانها.

وفي سنة ١٧٨٥ طلب منه قيصر النمسا تلحين اوبرا زواج فيجارو وفي سنة ١٧٨٦ زار النمسا شاب صغير من بلاد الراين كان يشتغل بدراسة الموسيقى فقصد الى موتسارت لشهرته، فطلب من موتسارت ان يؤلف لحنا موضوعا اختاره له موتسارت فلما فرغ من تلحينه وأدائه قال موتسارت عليكم أن تهتموا بهذا الشاب فسيكون حديث العالم، ولم يكن هذا الشاب سوى (بيتهوفن) أعظم الموسيقيين طرا.. فماذا كان يعرف بيتهوفن؟.

ولد بيتوفهن في ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ بمنزل متواضع في مدينة بون وكانت عائلته كالعادة رقيقة الحال كان ربها موسيقيا حسن الاستعداد وإنما كان الفقره مدمنا الخمر كي ينسى متاعب حياته ولكنه استطاع مع هذا الادمان أن يلحظ بواكير عظمة بيتهوفن الفنية، فبدأ يلقنه أول درس في آلة البيانو، ولما ضاقت به سبل العيش لم ير متنفسا لضيقه إلا أن يصبح ابنه موسيقيا يدر على أسرته اخلاف الرزق قبل الأوان فأخذه بالشدة وقسا عليه قسوة بثت في نفس الطفل المحزن فاكتئب ومال الى الصمت وأثر العزلة. وألزم ابنه بموالاة التدريب على آلة البيانو بالسوط والعصا، وعلى الرغم من أن هذا العنف كان جديرا بانه يقهر الموهبة في نفس الطفل إلا أنها كانت أكبر من أن تقتل فنضجت حتى تفوق الطفل على ابيه

فلم يبلغ التاسعة حتى كان نابغة عهده في العزف والتأليف الموسيقي.

● عبقرية مبكرة

ولما كان أهل بون يعرفون الطفل ونبوغه فقد كان سهلا يلحقه أمير (بون) بفرقة بلاط الأمير، ولما بهرت الأمير موهبة الطفل بعث به الى فيينا عاصمة الموسيقى والموسيقيين.. وكان يقيم فيها أنذاك (هايدن) وموتسارت وكان أول من قصده بيتهوفن في فيينا هو (موتسارت) الذي لم يجد أدنى صعوبة في تبين هذه العبقرية المبكرة.

وكانت والدة بيتهوفن قد مرضت ، فترك الدرس والعزف ولازم فراشها حتى ماتت ولحق بها زوجها ، وفيما كان بيتهوفن حزينا معزولا في بون مر بالمدينة (هايدن) الذي ذكر أمير بون بيتهوفن فبادر الأمير بإرسال بيتهوفن الى فيينا.. ولما كان أمير بون الذي بعث بيتهوفن الى فيينا هو شقيق القيصر.. فتفتحت له القصور الملكية وقصور الامراء وهم رعاة الموسيقى في ذلك الحين، فنالت موهبة بيتهوفن وأخذت تلهب الأمراء والأميرات وأعيان القصر الملكي واساتذة الموسيقى.

إلا أنه أصيب بالصمم فكانت الكارثة التي صوبت عيشته وأفسدت حياته، ولكن لم يكف قط عن التأليف، اوبراه المعروفة (بفيديلو) لقيت فشلا عظيما اذ اجتمع عليها النقاد.. واتخذوها جراحا إلا ان بيتهوفن بقي يصلح عيبها.. ويعالج نقصها الشائن، وكان إصراره هذا رمزا على الصمود وعنف المقاومة.

● الثقافة والتحرر:

لم أرد من ذلك أن أضع الثقافة في كنف الامراء والملوك وأهل السلطة وإنما أردت أن أقدم صورة من واقع تاريخ الثقافة الحديث

يكشف عن حقيقة لا يجوز لنا ان نتجاهلها والا أسأنا الى الثقافة فالثقافة يجب أن تتحرر ما استطاعت من هيمنة التجارة عليها، وتسلط اعتبارات السوق والتفاهة مع شدة حاجتها الى الحرية، فى أشد الحاجة الى الانفاق الذى لا يبغى ربحا ومن هنا كانت الثقافة فى حاجة الى وزارة يمولها، الشعب، ويغذيها بموارده.

ولقد كان القول بأن الثقافة قبل الثورة ازدهرت فلما جاءت الثورة أجدبت إذ أن الثابت أن الفترة ما بين ثورتى سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٥٢ شهدت انحسارا ثقافيا تؤيده الوقائع فلقد توالى سقوط المؤسسات الثقافية الواحدة فى إثر الأخرى.

فقد أغلقت السياسة الاسبوعية أبوابها، وطوت جريدة البلاغ صحافتها وعجز سلامة موسى عن مواصلة إصدار مجلاته الشهرية - وهى المجلة الجديدة والاسبوعية التى هى (المصرى) واختفت مجلة الشباب لمحمود عزمى، والجديد، وهى مجلة كان يصدرها المرصفى ومن حوله طه حسين وهيكل ومصطفى عبد الرازق كما سقطت مجلة (الضمير) التى كان يصدرها عبدالحميد حمدى، ومعه عدد غير قليل من الكتاب المجددين..

وإذا كانت (الرسالة) و(الثقافة)، قد عاشتا فترة غير قصيرة ولكن قبل أن تتفجر ثورة سنة ١٩٥٢ كانت هاتان المجلتان مريحتين للأقوال وقارىء الأعداد الأخيرة منها يجدها خلوا من الفكرة والنبض ولونا من الكتابة المدرسية.. فقد هجرتها الأقلام التى نهضت بأعبائها، ومضت سنوات بلا صحافة فكر أو فن أو ثقافة وكانت جمعيات وروابط الادب والشعر، قاعات لا يرتادها إلا عدد قليل

ينقصون ولا يزيدون، وشجبت محاولات مثل الرابطة الشرقية، وعجزت الجامعة أن تفتح للشباب ناديا يؤمه المحاضرون ومستمعوا المحاضرات ومحبو المناظرات إذ انقرضت بعض محاضرات الجامعة الامريكية بشيء من الاقبال أما عواصم الاقاليم بما فيها الاسكندرية فقد كان إفقارها وجدبها باعثين على الألم والحزن . ولم يبذل جهد يستحق الاحترام لانشاء صحافة يومية أو اسبوعية أو شهرية جديرة بالاحترام مع ان أكثر بلاد العالم تعرف صحافة الأقاليم التى تنافس صحافة العاصمة (ولم تستطع الأقاليم إن تغرى الكتاب الكبار بالسفر الى الريف والمحاضرة فيه.

وقد انقلب الحال بعد ثورة سنة ١٩٥٢ ونشأت المؤسسات الثقافية التى لم يكن لها وجود ووضعت ثقافية لا أزعم إنها نجحت ولكنها كانت تعويضا عن الجدب الذى منينا به فى الفترة ما بين الثورتين وللحديث بقية.

المثقفون يتهمون المثقفين

الثابت الذى لا شك فيه، أن لفظ ثقافة ـ وإن استعمله الجاحظ ـ إلا أنه لم يظهر بالرواج والذيوع ـ كما راج وذاع فى نهاية الربع الأول من قرننا الذى نعيش فيه.

ويتجاذب شرف تصدير هذا اللفظ فى مصر، الكاتبان الكبيران سلامة موسى ومحمود عزمى، ولم أستطع أن أحقق أيهما كان اسبق فى اصطناعه، وتكراره

وقد جاهدت (الثقافة) أيا كان مدلولها ـ ومدلولها مختلف عليه كثيرا ـ جاهدت فى أن تحسن مرتبتها، وأن تعلى من قدرها ، وأن تنافس التعليم، حتى أصبحت أكثر منه على الالسن شيوعا، وأعظم منه فى المحافل والاندية ـ والصحف والكتب ذيوعا

وبعد ان كانت (الثقافة) ادارة بوزارة المعارف، اصبحت (جامعة شعبية ، حتى قدر لكاتب هذه السطور، أن ينجح فى أن يجعلها وزارة فى العقد الخامس من القرن العشرين، لعلها كانت أسبق وزارات الثقافة فى العالم، فوزارة الثقافة فى الاتحاد السوفييتى مثلا، كما كتب الدكتور محمد مندور فى إحدى مقالاته (بالمجلة) التى كانت تصدرها وزارة الارشاد القومى بعد زيارة له لموسكو

ولم يكن ممكنا فى الماضى أن يكون المثقفون طبقة، أولا لشيوع الأمية

● الهلال – يناير ١٩٨٣ .

وقلة القارئين، ثم قلة الكاتبين، ثم لكساد سوق ما ينتجه الفكر، ويخرجه القلم، فما لم يحظ الكاتب أو الشاعر أو الموسيقى أو المصور بصاحب سلطان، وذى مال، ليضفى على رعايته، ويقدم للمجتمع المترف، يعنى (المثقف) بفتح القاف، والمثقف (بكسرها) مضورا، يجاهد ليتبلغ بكسيرة خبز، وشربة ماء، وخرقة تستر العورة، ولكن المدارس انتشرت فى أوروبا ، بفضل اتصال الاوروبيين بالعلم الاسلامى فى مساجد المسلمين فى الاندلس، هذا الاتصال الذى أدى الى بداية العلم القائم على التجربة والتطبيق والمشاهدة والمقابلة بعد أن كان العلم الارسطى (نسبة الى ارسطو) كان قائما على فروض تعتبر بدهيات تقام عليها القواعد العلمية، دون أن يتطرق اليها الشك.

ولكن مهما قيل من انتشار التعليم فى أوروبا لهذه الملاصقة بين المسلمين والمسيحيين، وتعلم الاواخر من الاوائل، ثم اتساع نطاق المدارس، نحو الميل الى التعلم والتعليم، عقب اتصال الاوروبيين المسيحيين مرة أخرى بالمسلمين فى الحرب الصليبية، فان نسبة الأميين كانت أعلى بكثير من نسبة الذين يقرأون ويكتبون كما اقتصر التعليم فى الجامعات التى انشئت على طراز حلقات الدرس والتقليد والبحث حول أعمدة المساجد الاسلامية وعلى يدى الشيوخ أصحاب الكراسى، على أبناء الصفوة والاغنياء ، فى الاديرة أولا ثم فى مؤسسات ترعاها الكنيسة ويشرف عليها الاساقفة والمطارنة.. وبقى الحال على هذا المنوال، حتى ما بعد عهد صلاح الدين . التنوير والبعث (الرينسانس) فلما وقعت ثورة سنة ١٧٨٩ فى فرنسا، وسقطت جميع مؤسسات العهد القديم من ملكية وملوك، أمراء وأشراف ونبلاء،

وأصحاب الاقطاعيات وتدفقت جماهير الشوارع الذين وصفوا بأنهم الذين لا يجدون ما يستر العورة (ساق كيلوت) على سجن الباستيل فى الرابع عشر من يولية فى تلك السنة، كان هذا التدفق رمزاً على حدوث تحول ضخم وخطير، هو تدفق الطبقات التى كانت محرومة تقريبا من كل شىء ، ومن التعليم بصفة خاصة، والتعليم العالى بصفة أخص، منذ ذلك التاريخ فتحت الجامعات والمدارس العليا والمعاهد المتخصصة أبوابها لأبناء الفلاحين والعمال من حدادين ونجارين وسباكين وغزالين ونساجين ، وخرج من صفوف هؤلاء العمال الكادحين حقا، عدد من أهل العلم اساتذة وأطباء ومحامون ومهندسون ، وظهر من هؤلاء عدد من أهل القلم يكتبون الكتب، ويقومون بالدراسات والبحوث ، ويفلسفون الامور لا كما يفعل أبناء الاغنياء لكن بروح تمتاز بثلاث خصائص: (الاولى) الجرأة فى التجديد، لأن التجديد والتغيير فى مصلحة هؤلاء المفكرين الجدد، فقد كان كل شىء قائما، من قبل الثورة، ضد هؤلاء المفكرين، وضد أبائهم وأجدادهم، وكان العهد القديم، مقدسات لا تمس، ولكنها باتت بلا كرامة بعد الثورة (الثانية) ان الثورة لا تحمي، ومبادئها المطنة لا تنتشر، الا بمزيد من نشر التعليم، وفتح أبوابه أمام أبناء الطبقات التى تعمل بأيديها (الثالثة) أن أدب الواقع، والاتصال الحي بأمور الحياة اليومية، ومشكلات الناس الحقيقية هو الأدب الصحيح.

وبهذا نشأت جماعة من المثقفين لم يكن لها وجود من قبل، فقد كثر عدد الكتاب، والقراء والمصورين، وأصبح حديثهم مع الناس ، وعن الناس، وأصبح فى متناول العامة الكتاب والصورة، والاجتماع والندوة،

فأصبحت الثقافة شعبية في دور الانتاج.. وشعبية في دور الاستهلاك.

شعبية في الانتاج لان الكتاب والشعراء والمصورين والفنانين على اختلاف مجالات نشاطهم، أصبحوا من أبناء الطبقات الوسطى، والصغيرة، وقل عدد أبناء الاسر العريقة، والبيوت الفنية من المنتجين للثقافة، وشعبية في الاستهلاك، لان الكتب أصبحت تطبع طبعات شعبية وأقبل أبناء الفقراء وأبناء أوساط الناس على اقتنائها، وازداد حرص هذه الطبقات التي بدأت تستهلك الثقافة، وتنتفع بها وبتذوقها لايمانهم بانهم كلما زاد حظهم من الثقافة، زادت مكانتهم وارتفع قدرهم، هذا من جهة، من جهة أخرى، كان يساورهم شعورهم بان عليهم أن يعوضوا ما فاتهم من الزمان الذي كانوا محرومين فيه من هذه المتعة النفسية الغالية، وأخيرا كان احساس الطبقات العاملة ان الثقافة اصبحت خطا من خطوط دفاعهم لان أبناء الطبقات القديمة الذين يريدون استعادة امتيازاتهم الضائعة، لا يكفون عن مهاجمة أصحاب النفوذ المحدثين، متهمين إياهم بكل عيب ناسبين اليهم كل نقيصة، فما لم يتسلحوا بالثقافة، ويتزاينوا بها، كانوا فرائس لا حول لها في هذه المعركة، وأعانوا خصومهم على أنفسهم.

إذن راجت الثقافة رواجا عظيما، وأصبح اسمها على كل لسان، وتحكك بها، من لا يمت اليها بصلة، وأصبح المثقفون طبقة صدقا لا مجازا، ومن ثم فقد أصبح طبيعيا أن نسمع ان المجتمع الاشتراكي، هو مجتمع الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين، وقد جاءت الصحافة لتزيد من نفوذ الثقافة، ومن جاه المثقفين من جهة، ولتزيد في الوقت

نفسه مسئولياتهم ، وأعباءهم والثقافة حينما أصبحت زاد العامة، وغداءها اليومي بفضل الصحيفة اليومية والشهرية والكتب رخيصة الثمن، قليلة الصفحات أصبح المثقف اكثر الناس قربا من ابناء الشعب سواء كان كاتبا أو شاعرا أو زجالا او مصورا، او مطربا، فهؤلاء هم الذين يصنعون مزاج الناس، وهم الذين يصوغون عقولهم، ويغذون قلوبهم.

يلقنون عنهم الافكار، ويزجي بكلامهم وفنهم ودأبهم الفراغ، ويتشبه بهم، واخيرا يحتمي بهم

وهنا مربط الفرس.

فالمثقف بفضل المكانة التي وصل اليها، أصبح عليه أن يؤدي رسالة ذات ثلاث شعب:

أولا- يقدم الأفكار للناس.

ثانيا- يمنع وقوع العدوان على هذه الافكار.

ثالثا- يشد من أزر المجتمع حينما يستفحل هذا العدوان.

فالمثقف تحول من شاعر يرضي صاحب السلطان في بلاطه، بالطرائف واللطائف، والغرائب والنوادر، ويدهشه بالبديهة الحاضرة، والقريحة المتقدة، واللسان المدرب، والحافظة القنية، والذاكرة الحديدية، الى ديدبان ساهر على حقوق الشعب يتصدى بقلمه وريشته ولسانه، للظالم والظلم، والتخلف والاستغلال والرجعية والجهل.

وبالتالي أصبح هدف مهام السلطة ، تضيق به إن لم يكن في صفها وتحاول مهما بلغت الحرية في المجتمع أن تخرس لسانه، وتخنق صوته، وتغيب شخصه، ففي المجتمع البدائي الفقير، ما ايسر أن تبطش القوة بالكاتب الناقد، بالاعتقال ، والحبس وبالتنكيل

والتعذيب ، هذا إن نجا من القتل او النفى، وفى المجتمع الغنى ما اشق بقاء الكاتب المعادى لاصحاب النفوذ، فالصحافة والطباعة ودور النشر ومؤسسات الاذاعة المسموعة والمرئية فى أيديهم ورهن إشارتهم، وفى وسع هؤلاء الاقوياء ان يجعلوا حياة المثقف كاتبا أو فنانا، أو صحفيا جحيما لا يطاق، يعانى الركود والغياب عن المجتمع

ولما حمى وطيس الصراع بين الطبقات فى فترات التحول وضخمت أنياب وأظفار المتعالين على النفوذ والهيمنة أصبح دور المثقف فى هذا الصراع حرجا غاية الحرج قاسيا غاية القسوة، فاحتمال الضغط، ومحاولة الثبات فى وجه الشدة العاتية الجارفة، جهد قد يعجز عن بذله الفرد، والمثقفون كطبقة.

فالمثقف ـ وإن طبع على القتال ـ رجل فكر وتأمل، يميل الى العزلة، والزعامة التى فرضتها الأيام عليه، تقتضيه الخروج من عزلته ، ومزاحمة الجماهير، فى مواكبها الهادرة، ومظاهراتها الثائرة ، متلقيا الضربات، والوقوع تحت سنابك الخيل، أو تجرع آلام الرصاص الطائش والمتعمد، فان لم يفعل وآثر السلامة، ونأى بنفسه، فهو ساقط من عرشه الادبى ، أو فار من جيشه الابى، أو على الاقل متهم بأنه قوال غير فعال ينقصه الايمان، يخون رسالته، ويقع تحت عبء أمانته، فار فرار الجندى من المعركة، عندما يشتد أوارها، وتتلهب نارها.

وقد صعب فى الأغلب الأعم على حملة الأقلام أن يؤدوا هذا الدور كما تطلبه منهم الجماهير، ومالوا الى اتقاء السلطة لان رزقهم بيدها، وعيشهم معلق بكلمة منهم.

ومن ثم فقد طال تحليل الكتاب المحدثين لدور المثقفين فى الصراع

القائم على مئات الجبهات في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، من أجل الحرية السياسية حينا، وفي سبيل الحرية الاجتماعية حينا اخر، وضد أهوال التفرقة العنصرية طورا، وضد التفرقة الطائفية أو المذهبية طورا ثانيا وكاد ينتهي تحليل هؤلاء المحليين الى القول بأن من سمات طبقة المثقفين التردد الشديد عند الازمات، انشغالا بالنجاة الشخصية واتقاء للتهلكة، وأن المثقف في معظم الأحوال، وصولي وربما أيضا - لوصوليته - انتهازي.

والمفارقة الكبيرة في هذا الاتهام، هو ان الذين يوجهونه ويصرون عليه، هم مثقفون أيضا، هذا كله، اذا سلمنا بأن المثقفين يمكن تصنيفهم جميعا كطبقة، وان ما يمكن أن يؤخذ عليهم من عيوب وآفات ليس مرجعها أنهم بشر، وأن الثبات في وجه الشدائد، من الصفات التي يندر توافرها في الناس أيا كانت انتماءاتهم الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية.

واذا كان مترجمو حياة (برنارد شو) يسجلون عليه انه في بداية حياته العامة، عندما بدأ اتصاله بالكفاح الاشتراكي، فر عندما بدأ في آخر الشارع رجال الشرطة يحملون هراواتهم، ثم عرف بعدها عن نفسه انه تعوزه الشجاعة المادية، وان كان يتمتع بالشجاعة الادبية التي تعينه على مواصلة نقد الانظمة السيئة والمؤسسات الظالمة التي يعيش في ظلها البشر.

وبالمثل فان ما يأخذه الناس خصوم الشيخ محمد عبده من انه تحمس أول الأمر للثورة العرابية ثم لم يلبث ان تخلى عنها، وانقلب ضدها، غير مدرك أن الحركة التي أيدها كانت ثورة، وإن للثورة

منطقا يخالف منطق الحياة العادية ولكن الذين وجهوا هذا النقد للشيخ محمد عبده، أخطئوا لأن الشيخ محمد عبده لم يتخل عن الثورة العرابية حينما واجهت مخاطر الفشل، بل لان الشيخ محمد عبده لم يكن ثوريا أصلا، ولكن الثورة جرفته في تيارها، شأن كل ثورة في أي مجتمع تقوم فيه ثورة، فهي تهب على هذا المجتمع كما تهب العاصفة التى تقلع أمامها الأشجار والأشياء والأبنية.

وتحويل الامثلة الفردية الى قاعدة عامة، خطأ ، يقع فيه الباحثون من أجل التبسيط والتيسير

ويبقى بعد ذلك أصل الموضوع، وهو هل المثقفون طبقة؟ وهل هم طبقة من أفاتها الميل الى خيانة المثل التى تنادى بها؟ وعلى الاقل عوزها للشجاعة التى تقتضيها رسالتها.

لكن من يستطيع الاجابة على هذا السؤال. فانه من الاسئلة التى تثار لا للإجابة عليها، بل لتبقى باعثا على التأمل والتفكير، فى أن المثقفين ودورهم هو موضوع الحضارة فى عصرها الحديث، موضوع اليمين واليسار، والاشتراكية والرأسمالية ومستقبل الانسان كله، وحقيقة تأثره بالتطورات الهائلة التي جعلت الانسان الآلي، منافسا للانسان الحي، والتي جعلت (التكنولوجيا) خادم الانسان المطيع، وسيده الجبار المتحكم، وجعلت التقدم لونا من الفزع الذي يهدد الحضارة بالموت جوعا فى مكان ، وبالموت بالاسلحة الذرية، فى قارات.

ومع ذلك لابد لنا من أن نفكر في السؤال، لانه قادر على أن يلهم ويوحى، ويريك ويريح.

فلنفكر إذن فالتفكير يعوض صاحبه في الحال عن التعب والعناء والقلق

محنة الأدب والثقافة

من متناقضات الحياة أن السلعة الثقافية أغلى ثمنا.. وأعظم كلفة من السلعة العادية التي تسد حاجات الانسان الغريزية من طعام أو ملبس او مشرب أو مطية يركبها الانسان ليبلغ هدفا أو سلاحا يدفع به عن نفسه عادية الآخرين

فالكتاب والمسرحية واللوحة زيتية كانت أو مائية كلها سلع ثقافية تكلف الكثير من الأموال وتستنفد الطويل من الأوقات، والعظيم من جهة التحضير والاعداد والتنفيذ والاخراج ومن ثم حصل التناقض الذى قوامه ان الانتاج الثقافي لا يتأتى لعامة الأفراد، وهم لا يقوون على أداء تكاليفه في صورته اللائقة به، ومن يتصدى لإدارة واستغلال مكتبة أو مطبعة أو مسرح لتعرض للإفلاس في الأغلب الأعم، فتقفل الصحيفة أبوابها بعد شهور قليلة من بدء نشاطها وتسدل الجريدة الستار على مسرح أعمالها. وقد يحاول صاحب المكتبة أو الجريدة أو المسرح الاتصال بالجماهير وعرض إنتاجها في مثل الصورة القديمة أو في صورة جديدة معدلة ..

وكم من جريدة ومسرح ودار نشر في مصر . لحق بها الكساد فتوارت عن الانظار . وعاش صاحبها بعد ذلك سنوات يحاول أن يسد

● الهلال - يونيو ١٩٨٧ .

ديونه ويتفق عن طريق (سنديك) عينته المحكمة أو عن طريق التراضي والحل الودي .

يحدث هذا في حين تقوم إلى جانب الجرائد الكاسدة والمسارح التي بارت سوقها ودور النشر التي دهمها الإفلاس مشروعات تجارية ناجحة أشد النجاح تدر على أصحابها الدخل الوفير والكثير .

وقد يحدث استثناء في الظاهر فيكسب صاحب الجريدة أو المسرح أو المطبعة أو المكتبة رزقا وفيرا والحقيقة أن هذه المنشآت الثقافية قد وقعت الى مصادر رزق لاتمت إلى العمل الثقافي بأدنى صلة فاستطاعت أن تعيش وتواجه ظروف الزمان التي تثقل العامل في الحقل الثقافي بالنفقات الباهظة .

ففي مصر، ظهرت صحف كان أصحابها من غير المصريين ، إذ كانوا من أهل المشرق العربي، وقد تبنت الدول في الغرب بعض هذه الصحف، لتروج بين المصريين فكرة . الذين اتخذوها سبيلا لنشر زعامتهم وبث مذاهبهم فنجحت هذه الدور نجاحا عظيما، ودرت على المشرفين عليها والمتصلين بها وافر الرزق ، فأصبح هؤلاء من ذوي الثراء العريض، وتصدروا المجتمع، ووصلوا الى أعلى المراتب ولا أحد ينكر أن هذه الصحف أسدت يدا جليلة الى الثقافة . فخلقت هذه الصحف مجالات فكر، ونقد، ودعوة عادت على البلاد كلها بخير غير قليل ولما تطورت الاحوال تخلصت تلك الصحف من شوائب صلاتها بجهات النفوذ التي دفعت بمحرري هذه الصحف والمشرفين على إدارتها الى مجالات الرأي وانتهى الامر ناسين هذه الصحف التي انصرف المصريون عنها..وساء ظنهم بالقائمين على أمرها. وتحولت وربما على الرغم من أصحابها أو برضائهم الى منابر رأي وفكر .

ولسنا بصدد نقد هذه الظاهرة ظاهرة النشاط الثقافي الذي يقف خلفه أناس لا صلة لهم بالثقافة - انما نحن بصدد ارتفاع كلفة العمل الثقافي وعجز الفرد العادي عن النهوض به وتحمل أعبائه وإذا تجلد صاحبه وباع ما يملك واقترض واشرك معه سواه فان هذا الجهاد الدامي الجدير بالثناء والاشادة لا يمكن أن يطول وقد يخرج الصحافي المجاهد من جهاده مصابا بأكثر من علة تضعف جسده . أو تهرم قلبه، أو تطفئ نور عينيه والذين شاهدوا أمين الرافعي صاحب الاخبار بعد أن كانت رائجة يطبع عشرات الألوف في اليوم الواحد كسدت تماما وقل قراؤها ، وخفت صوتها ثم اختفت من الوجود ، وبعد قليل انحنى ظهر صاحبها وشابت رأسه، وأصبح يسير في الطريق وحيدا وساقاه لاتقويان على حمله

ذلك لأن الاخبار كانت لسان حال الأغلبية فلما اختلف أمين الرافعي مع هذه الأغلبية ، تخلت عنه واستمرت جريدته في الاضمحلال . والرافعي يأبى أن يغير موقفه أو يخفف من غلوائه .

وقد تقول إن هذا أمر طبيعي لأن الصحيفة سياسية ، والسياسة أمرها قلب ولها في كل حال شأن وهذا صحيح إلا أن ماجرى على أمين الرافعي صاحب الجريدة اليومية السياسية، جرى على أصحاب مشروعات ثقافية ، فعزيز عيد الذي حاول أن ينشىء مسرحا يعرض فنا جادا انصرف الناس عنه ومعه زوجته الممثلة الشهيرة فاطمة رشدي التي اسماها المعجبون بها بـ سارة برنارد الشرق. وحدث هذا ليوسف وهبي الذي عاش سنوات يدير مسرحا من أكثر مسارح القاهرة رواجا، بفضل ما تمتع به من قدرة فائقة في الدعاية واستثارة لاهتمام

الجماهير، بانتاجه وأخباره الخاصة، ولا أنسى الأيام التى كنت أرى فيها يوسف وهبي الممثل الشهير ، بمكتب أخيه المحامي اسماعيل وهبي وهو لا يخجل من أن يمد يده ليأخذ سيجارة من صديق يعطف عليه ويود أن يواسيه.

إن هذه صورة من محنة الأدب والثقافة في بلادنا اثرت أن يعرفها الناس من جهة ، وأن يعرفوا الاهوال التى تعترض سبيل الذين يريدون أن يخدموا الثقافة .

وإذا كان أمراء الاقطاع والأثرياء الذين كانوا يبسطون الرعاية على الشعراء والفنانين وهواة الموسيقى، ويقتنون ما ينتجه المصورون والرسامون من تحف وروائع - اذا كان هذا العصر انتهى وأختفى معه هؤلاء الأغنياء الذين كان بعضهم أقرب ما يكون من غنى الملوك وثرائهم ونفوذهم فلم يعد من يحل محلهم سوى الحكومة فالثقافة الآن - ولاسيما في العالم الثالث - هي البديل عن الأمير الاقطاعي الذى تولى الإنفاق على فرق الموسيقى التى شغفت بفن البالية وانفقت على فرقه ألوف الجنيهات ولابد من أن نضع خطة النشاط الثقافي للدولة، فإن حياتنا الثقافية هزيلة الى أبعد حد، ولا يزال الإنتاج الثقافي إرتجالا من جهة أخرى وكلنا نعرف قدامة الانفاق العربي، والحرص على استمرار وجوب توسيعه حتى في السنوات العجاف، فهذا إنفاق على مرفق تتعلق به حياتنا، ويرتهن به وجودنا ولكني ازعم - وهو زعم لن يلقى ما يستحق من الاحتفال والتصديق - ان الانفاق الثقافي، يجب أن يأتي بعد الانفاق العربي مباشرة وهو أهم بكثير من الاتفاق على التعليم ويحسبهما أمرا واحدا والواقع أن الفرق بينهما شاسع، وتأثير كل منهما يختلف عن تأثير الآخر، بمقدار عظيم.

فالتعليم يخلق العظم الذى ينشئ الوجود القومى، ولكن الثقافة هى التى تكسو هذا العظم لحما، والثقافة تسبق الحرب، وتصاحبها وتبقى بعدها فالانتعاش الروحى، والرغبة فى التغيير وكراهية القصور فى حياتنا والتخلف والتطلع الى مزيد من الحيوية والاتساق والحركة، لاتتم الابالثقافة فهى التى تحمى حياتنا من الرتابة والسوقية والجمود والفجاجة والفلظة والقبح واذا كنا نشكو هذه السمات فى حياتنا التى تؤدى الى التحلل والتخلف والاهمال الشديد وجهل الواجب والفتور فى ادائه، فذلك لأن ثقافتنا مضمحلة وسطحية ولاتعتنى بها عنايتنا بمرافق أقل منها شأنا .

والفرق – فى الواقع – بين أمة وأمة، هو الفرق بين ثقافة وثقافة وأى إصلاح نطمع فيه ونطمع له، لايمكن أن يتحقق بكل ما نقترحه من وجوه التغيير والتقدم، فسبيله الوحيد والفعال والناجح والسريع هو ثقافة واسعة النطاق وعميقة الأغوار ، يقوم على نشرها وتوصيلها الى جميع طبقات الشعب ، أناس يعتبرون العمل الثقافى لونا من الجهاد الروحى ، أو قل ضربا من الأستشهاد

فاذا كنت تسير فى القاهرة وكأنك تسير فى مدينة ضربتها طائرات الأعداء بالقنابل فهى كأطلال مدينة سابقة عليها ، واذا كنت ترى جهارا نهارا عمائرنا الأثرية أماكن لطهو الفول والخضراوات وتقديمها للناس واذا كانت المدينة العظيمة لا روح فيها ولا عمل ، واذا كنا الى الآن لم ننتج دائرة معارف عربية، ولم نترجم أعمال الفكر والفن والأدب العظيمة والشامخة فى بلاد الآخرين ولغاتهم،

فلأن الثقافة نشاط حيوى مهمل ومتروك ولا يشغل بال أحد من

الحكام وكذلك لا يشغل بال أحد من المحكومين وإذا كانت فرنسا قد أقامت مناحة لقطع أربع شجرات قديمة توطئة لاقامة مبنى معرض الفنون الأربعة (كاترارتو) فيتبارى الشعراء والكتاب والمصورون وكبار المسئولين في البكاء على هذه الاشجار .

وكنا قد قطعنا في السنوات الاخيرة أشجارا جديرة بمثل هذا الاعزاز دون أن يحس أحد أو يتحرك أحد .

وإذا كانت الاحداث الكبرى تقع في بلادنا فلا يبدو أن نبأها قد وصل الى سمع أو اتصل بنفس فذلك كله لاننا أمة ولا بد إذن من دعوة مجلجلة ومعضلة لتصبح الثقافة ثقافة لا شيئا شبيها بحاجياتنا الدنيوية التافهة والصغيرة

أزمة الثقافة العربية
سببها فكرى أم روحى

يكتب كبار كتابنا فى أكبر صحفنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية والشهرية مقالات مستفيضة تملأ صفحات ، ثم تمضى الأيام والسنون وهذا النشاط مستمر وموصول ، ولكن تبحث عن صدى له، أو اثر عند عامة الناس أو خاصتهم فلا تجد شيئا

ويؤلف هؤلاء الكتاب أحيانا كتبا ويطن عنها، وقد يباع الكثير منها أو القليل وتتداولها الايدى، ثم تفتش عن شئ، تركته هذه الكتب فلا تجد إلا العدم فكل ما يكتبه كبار كتابنا ومعهم صغارهم يطلع على الناس، ثم يطوى وينسى وكأن شيئا لم ينشر، أو شيئا يصبح ويقرأ، ورأيا لم يطمع ويعلن وهذا هو موطن الداء وبيت العلة

كبار كتابنا ولو ألفوا القصص، أو نظموا القصائد ، أو دبجوا المقالات عاجزون تماما على أن يلهموا الناس بخاطر، فلا هم يثيرونهم ويغضبوهم ولا هم يرضونهم ويحصلون على إعجابهم والحياة نفسها العامة، والشخصية لا تتغير فى بلادنا

فاذا أردت أن تصلح الحياة الثقافية فلا تبحث عن غلاء سعر الكتاب ولا عن رداءة طبعه ، ولا سوء مظهره، ففى الماضى كان كبار الكتاب فى

● الهلال - مايو ١٩٨٤ .

فرنسا مثلا لايجدون مطبعة لتطبع منشوراتهم الثورية، فكانوا يكتبونها ويكتبها أعوانهم والمؤمنون بهم، بالحبر على قصاصات من ورق صغير ربما كان بعضه ممزقا ولكن الأيدي تتداوله سرا وقد تحفظه عن ظهر قلب فلا يلبث أن يكون في كل بيت وعلى كل لسان ويظهر أثره فيما يفعله الناس في الشوارع وفي الجماعات التي تختفي عن أعين الشرطة وعيون الدولة

ولسنا نطلب بطبيعة الحال أن يكون كل الكتاب ثوارا ولا أن تكون الكتب والمقالات كلها من طراز ماكتبه فولتير وجان جاك روسو قبيل ثورة ١٧٨٩ ولكننا نذكر ذلك لنرد على الذين يعزون الفكر البحت الذي لا يقبل بالسياسة ولا بالحكم ولا بظروف الناس اليومية المألوفة .

والثابت أن النفوس لا تظفر بالقوة والطاقة والحيوية أو بمزيد من القلق، أو بخيال فسيح ، أو بجرأة تبدو أحيانا إندفاعا وتهورا إلا اذا صاغتها أحداث حياتها صياغة غير عادية أي لابد للمثقف قبل أن يثقف سواء كان يعاني في حياته الخاصة بفضل مواهبه ، وخصائصه فيفكر فيما لا يفكر فيه زملاؤه وأنداده أو يرفض ما يقبله مجتمعه أو يفطن الى حقائق عقلية أو روحية غابت عن الآخرين فهو بفضل هذا التميز يقلق الذين حوله بما يقوله ويبدو غريباً عنهم أو شاذاً أو غير طبيعي أو خيالياً يطير فوق الواقع ويحلم بالمستحيل أو يدعو إلى ما يفزع . فالمثقف أصلاً ثائراً أولا

ولا ينتظر بطبيعة الحال أن يكون كل المفكرين ثواراً، وإلا لا نقطع تعاقب المفكرين وتسلسلهم بالوفاة وبالعجز وبالتوقف عن الانتاج لأية علة ولخلا مكان الكتاب والشعراء والمصورين طويلاً حتى يأتي العباقرة

الذين يتمتعون بهذه الصفات التي نذكرها لا يتفق مع الحياة العادية التي لا بد أن نعيشها والتي لاتطلق من غير الكاتب والشاعر والاديب والمفكر والفنان ولكن مع التسليم بذلك فان المثقف بكسر القاف في العادية وإن لم يكن ثائرا ولم يكن كل ما يكتبه ثورة إلا أنه لابد إذ أردت أن تدخله في زمرة المثقفين بكسر القاف أيضا ان يكون في خلقه ومسلكه ومنهجه شئ من صفات الثوار وأخلاقهم ومواقفهم ويتفاوت الكتاب في نصيبهم من هذه الثورة وبقدر هذا التفاوت يتفاوتون في القيمة وفي الاثر وربما يحتاج هذا الكلام الى مزيد من التوضيح لذلك أقول أن المفكر والفنان كلاهما في الأصل ثائر فهما اشبه الناس بالرسل والانبياء الا أن ما يدفعهم أصلا الى الكتابة والتفكير والعمل الفني بأنواعه من الصورة والتمثال الى الأغنية والعمل المسرحي هو إحساس بالقلق في المجتمع الذي يعيشون فيه ورغبة في التغير ورفض لبعض الواقع واستشراق المستقبل والا لما فتح فمه ولا أمسك بقلمه أو أزميله أو فرشاته وبقدر ما تكون ثورته على هذا التغيير وإصراره عليه وتحمله للمتاعب والآلام الناجمة عن هذا الموقف يكون لانتاجه من الأثر في المجتمع ايقاعه وعند من يتلقون آثاره بخاصة وهذا هو السر في أن كثيرين من رجال الثقافة يمرون في حياتهم منسيين وغير ملتفت اليهم منكورين أو مرفوضين لأنهم يتكلمون بلغة غير لغة المجتمع ويفكرون في أمور لا تخطر على بالك وقد يبدأ الكاتب أو الفنان مثقفا أي قادرا على منح المتلقين لادبه وفنه طاقات فكرية أو روحية تنتقل إليهم منه بطريق العدوى فلا يقتصر دورهم على القراءة والاستمتاع بما قرأوه أو المواظبة عليه أو الاشادة به بل يحسون بأن ما تلقوه من الكاتب أو الفنان هو

دعوة لهم بأن يعملوا شيئا ما وليس ضروريا أن يكون هذا الشئ ظاهرا ومعلنا فما أكثر الذين قرأه لكتاب كبار وتأثروا باطنيا بما قراه فتغيرت حياتهم جزئيا أو كليا وقد يتأثرون ولكن بقدر لا يكفي لاحداث التغير الكفيل بإخراجهم من النطاق الروحي أو الفكري الذي ولدوا فيه وعاشوا لا يتجاوزونه ولكنهم يحسون مع ذلك بالارتباط بالكاتب الذي بدأ يؤثر فيهم فيواصلون القراءة حتى يأتي يوم فاذا هم شيء أخر وقد يلهمهم هذا التغيير المتدرج الى أن يجردوا أقلامهم كما يجرد الفارس سيفه ويعلنوا ما استقر في يقينهم فاذا بهم دعاة ومثقفون بكسر القاف بعد أن كانوا مجرد متلقين وبهذا الانفعال تتسع دائرة الثقافة ويتعمق أثرها ويتحول المجتمع من الركود واللامبالاة والعجز عن التأثر بالثقافة والفن والادب الى متذوقين لكل هذه الضروب من الانتاج الفكري والروحي ويكون هذا قمة النجاح الثقافي .

فاذا شكونا من حالة الثقافة العربية ومن ركودها ومن قلة ما يخرج للناس من كتب يتردد صداها في جنبات العالم العربي وتستثير الأقلام وتبتعث النقد وتنشر معارك حولها وتعلو لها أصداء الاعجاب والتقدير وتعتبر من معالم الحياة الفكرية فالأصل لكل هذه الظواهر التي لا ترضينا بل التي تحزننا الى أن المنتجين أي المؤلفين والفنانين والكتاب قد أصبحوا موظفين يعيشون حياة رتيبة لا قلق فيها ولا خوف ولا تطلع ولا مغامرة ولا أحلام رفيعة يتقاضون مرتبات ثابتة تكفل عيشهم ثم يمضي كل شيء على حاله.

واذا قارنا أحوال الكثرة الغالبة من كتابنا ومفكرينا الذين يتولون الآن تثقيفنا بالذين سبقونا لوجدنا هذه الحقيقة الصارخة أن الجيل الذي سبق لم يكن أكثر اطلاعا ولا أعمق فكرا ولكن كانوا جميعا ثمرة

التجارب المرة واحيانا المعارك القاسية وانهم تدبوا أنفسهم لابداء آراء كلفتهم الكثير في مجالات الفكر والسياسة ولقد طحنت الحاجة أكثرهم تحت رحاها فعرفوا الحرمان وكابدوا المشقة فهيأتهم هذه النشأة لخوض معارك من أجل الحياة في ذاتها ومن أجل أفكارهم اصطلوا نيران القهر وكيد السلطة وسخط المجتمع أو كل تلك مجتمعا ولذلك نجحوا في أن يقلبوا الاوضاع السائدة وأن يفتحوا ، أبوابا لم يكن أحد قادرا على أن يفتحها أو أن يقف على عتبتها .

وليس حتما أن يأتي على شاكلتهم الجيل الذي يليهم فلكل جيل ظروفه، فاذا كان من الادباء من حارب الاستعمار الاجنبي فلا تثريب على أدباء جيل تال أن أعطاهم القدر من وطأة الاستعمار فحاربوا قوي ظالمة سواء قد تكون هذه القوي مصرية، ولكن الغاية أن يكون في المثقف شيء من النفحة الربانية التي نفخها الله في آدم وأن يكون ممن تعلو عندهم رسالة الثقافة فتصبح لونا من الدين وأن تكون مهمة التثقيف معاناة وتحملا ومكابدة فاذا كان المثقفون ممن يخلدون للراحة ويقبلون الحياة على علاتها فان ما يكتبونه ولو وزع منه الآلاف وطبع على ورق مثل مقاسه أوراق البنكنوت فان ماسيصدر عنهم لن يحرك ساكنا ولا يثير حاقدا ولا يغير وضعا موروثا ولا يصحح عيبا سائدا فتشتد أزمة الثقافة باختفاء أمثال بيرم التونسي الذي نفي وذاق أهوال الغربة والجوع والعقاد الذي أصيب بالسل، وعبد الرحمن شكري الذي اشتدت عليه وطأة الغربة ولا شيء يمنع أهل النعمة من أن يكونوا على رأس أهل الثقافة ، ففي الادب الروسي اجتمع دستويفسكي الذي كان في قاع المجتمع يكاد يموت جوعا وتولستوي الكونت حفيد الاغنياء أصحاب الضياع ولكن كلاهما كانت تؤرقه قوة التمرد على المجتمع المصري الذي علق المشانق للاحرار وقذف بهم الى سعير الجليد .

السلف الصالح

يجب الالتفات إليه والاحتفال به

أهدى إليّ الكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أمين كتابه الفذ ، المعنون «تطبيق الشريعة الإسلامية» فقلبت صفحاته على عجلة ، وكلما وقع نظرى على عنوان فصل ، وددت لو قرأته من فورى

ولكنني غالبت نفسي حتى وصلت الى الفصل المعنون «تأملات في حقيقة أمر السلف الصالح» ، فوقفت عنده وطالعته في الحال ، وسر ذلك إنى رأيت هذا الفصل ذاته فى مجلة المصور فى الفترة التى كان الاستاذ حسين أمين يكتب خلالها مقالاته التي أفزعت قوما واسعدت قوما ، وأهمت أخرين فلم يسعدهم ما قاله الاستاذ حسين، ولم يفزعهم وانما أثار خواطرهم وحملهم على التساؤل وربما دفعهم الى مناقشة ما قرءوا مع أنفسهم حينا ومع إخوانهم وأصدقائهم حينا آخر. ولعل الحوار استمر والوصول الى رأى يطمئنون اليه يبدو أبعد من أن تناله الأيدى . قرأت عنوان هذا الفصل بنفس النص أو بنص سواه فاقبلت عليه وبعد أن قطعت فى القراءة شوطا ، جاء ني ماصرفني عن اتمامه ، وبقيت مشوقا أن أعود اليه ولكن الحوائل استمرت تمنعني عن تحقيق هذه الرغبة حتى جاء نى الكتاب حاو لسبعة عشر موضوعا الى جانب

● الهلال – ابريل ١٩٨٥ .

المقدمة فعثرت الفصول الستة الأول بنظرة عجلى ثم وقفت عند الفصل السابع فقرأته فى نهم وشوق فسرنى من هذا المبحث الاسلوب الذي كتب به والمادة الغزيرة التى فاض بها ، ثقة الكاتب بنفسه وبرأيه وهو يضرب بمعول كبير ، يحمله ساعد شديد فى موروثات عزيزة على المسلمين والعرب وهو مؤمن بأن ما يهدمه لابد أن يزول غير ملو بالا لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجرىء ، فى نفوس الاغلبية الكبرى من بنى قومه فى مصر، وفى غيرها من أقطار الناطقين بالضاد والمؤمنين بأن سلفهم الصالح هو خير الناس أجمعين ، نقاء سريرة وخلوص نية وعزارة وايثار على النفس وبذل الروح وحرص علي خير الأمة وسلامتها واستماتة لا تهدأ لتوفير أمن هذه الأمة وتأكيد عزتها وأن هذا السلف قدوة ومثل للناس فى المشارق والمغارب وفى القريب من الأيام والبعيد. ولمن آمن بمحمد ورسالته ولمن آمن بعيسي ودعوته ولمن آمن بموسى وعقيدته ذلك لأنهم كانوا قبل كل شيء أناس صالحين عالمين مجاهدين ، لا يقبلون الخطأ ولا يقاربون الزلل ولو صغر وهم مع ذلك أناس من الناس يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ويتزوجون النساء ويشتهون كما الادميون فليسوا هم معصومين لأن العصمة لله وحده ولا هم ملائكة فالانسان عند الله خير من الملائكة لان الانسان هو الذى اصطفاه الله ليكون خليفته

وسر اشفاق الكاتب المجيد الشجاع من المبالغة فى توقير السلف الصالح ونسبة كل فضيلة له ، ونفي كل نقيصة عنه. أن المسلمين بسبب هذا الموقف الذى تكاد تكون أمة المسلمين قد انفردت به دون سائر الامم، أن المسلمين كانوا يسيرون بأقدامهم فى الحياة الى الامام وأعناقهم ملوية الى الخلف ، لأنهم اعتبروا ان السلف الصالح فعل لهم

ومن أجهلم وأجل أمتهم ودينهم . ماسيعجز عنه كل جيل قادم . مما يحتم علينا وعلي الذين سيأتون من بعدنا . ألا يرفعوا أعينهم عن رجال هذا السلف وائمته وعظمائه . يستوحون في الملمة . ويحاولون محاكاتهم عندما تتفرد السبل، أو تقع الحيرة، ويتأسون بمثلهم وقدوتهم عند الرخاء والفرج

وقد لخص الكاتب أن ما دأب عليه الخطباء والوعاظ في المساجد ، والكتاب ومؤلفي الاشعار وما تنشره المطابع ، وما يردده ويكرره الاساتذة والمربون في المدارس كاد يثبت في وهم عامة المسلمين والصحاب أجمعين أمورا ثلاثة .

الأول أنه من قبيل الصفاقة أن يطمع أحد منا في أن يكون مثل هذا السلف الصالح .

الثاني أن الاجيال التالية للسلف الصالح مجبولة على النقص والفساد تالف حالها

الثالث أن تطبيق الشريعة كان أمرا ميسورا وقت أن كان ذلك السلف الصلاح على قيد الحياة ، وهو الأن متعذر لفساد الناس بعدهم، وسيظل متعذرا الى ما شاء الله (ص١٠٢) .

واحسب أنه من السهل المتاح أن نصل الى القضية التي عرضها الاستاذ حسين أحمد أمين على محكمة الرأى العام العربي الاسلامي ، وربما الانساني كله ، وهى قضية السلف الصالح في كل زمان ومكان وعند كل أمة ودين

ويتعين على كل من ينهض بالرد والتعليق على مقال المؤلف كتاب تطبيق الشريعة أن يلفت النظر الى أن الكلام يدور حول السلف الصالح يعني أن المناقشة لا تجرى حول السلف على اطلاق .

فالسلف الذي تحبه جماعة المسلمين وتقدره ، وترفع مقامه، وتعلي من شأنه وتبذل كل طاقاتها البلاغية ، وقدراتها البيانية في الاشادة به ، والدعوة اليه هو السلف الصالح، أي السلف الذي سبق غيره الى عمل خلد به اسمه وبه له ذكره وكان سيد هذا السلف وإمامه وقمة أمجاده هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قرب الرجل من رسول الله وأخذ عنه بعض مناقبه وفضائله جاز أن يضم الى قائمة السلف الصالح ولم تدخل التقاليد الاسلامية الدينية أو الفقهية أو العلمية ، رجلا من المسلمين أو العرب الى هذه القائمة النقية الشيقة. المجاهدة المؤمنة العالمة والمعلمة بسبب قرابتها لرسول الله بل أن في ذوي قربى رسول الله ، وحتى الذين لم يخرجوا عليه ، من ينتقص التاريخ الاسلامي من قدرهم ، أو على الاقل يحفل بهم ، ومن احترمهم التاريخ الاسلامي من أعمام رسول الله أو أبناء عمومته أو اخواله من ذكروا لهذه القرابة دون أن يحسب لهم سبقا في الدين أو أو اثرا في العلم فهم اقرباء الرسول وحسب

فلننظر بتجرد دون تحيز الى ما فعله السلف الصالح الاسلامي من أجل الاسلام ومن أجل خير الانسانية في مجالات العلم، والفقه والادب والفن والسياسة والحروب ، ومن السنن الرفيعة للخلق الانساني، والتقاليد السامية لنرى هل يستحق هؤلاء التكريم الذي نالوه والمكانة التي احتلوها أو انهم فعلا نماذج عظيمة للانسان في كل مكان وزمان وأن التأمل في تاريخهم ، والتأسي بهم ومحاولة محاكاتهم والنسيج على منوالهم واجب ديني وواجب تربوي لبناء انسان أعظم وأشرف منوالا .

لقد صنع السلف الصالح في اولى طبقاته شيئا لم يصنع مثله على مدى التاريخ الانساني، فلا الفراعنة ، ولا اليونان ولا الرومان، ولا أهل

الصين ، أو الهند استطاعوا فى أقل من عشرين عاما أن يقيموا دعائم دين يتضمن فى قواعده نظرة شاملة الى الكون ودعوة عامة للانسانية مع ارساء قواعد ثابتة لأصول الحكم وإدارة الدولة خلاصتها العدل والمساواة وتحرير بنى آدم وتكريمهم ودعوتهم الى العلم والتعليم والاخاء والترابط . والتسامح مع المخالفين فى الرأى وتحريم الظلم والتنفير من الجهل ومن الغلظة ومن السوقية ثم اقاموا دولة على صحراء قاحلة جدباء اتسعت أقطارها وترامت أملاكها . واستطاع صغار من شبابها أن ينازلوا امبراطوريتى العالم فى أولى سنى حياتها فهزموهما وأجلوهما عن أرض شاسعة كانوا يملكونها ، ثم انشئوا حضارة ليس حتى اليوم ارفع منها منارا ثم وضعوا اسس العلم الحديث فى كل درب ومجال. فبأى منطق علمى أو علمانى، أو مقياس قومى أو انسانى نحكم على هذا السلف بالحمد والثناء والاشادة ، والتمجيد .

ثم أرونى كتابا واحدا، أو مؤرخا أو عالما أو فقيها أو مشرعا قال فى شىء مما أثر عنه أو حفظ له . إن احدا من السلف الصالح تجاوز الطبيعة الانسانية. وأصبح إلها يعبد ، أو عبقريا لا يخطىء ولا يزل ولا يملك أحد أن يناقشه أو يحاجه أو يثبت عليه السهو او الخطأ أما مايخافه ابننا العزيز الاستاذ حسين أحمد أمين فيما يخافه من أمور ثلاثة وهو أن يستقر فى عقول عدد من المسلمين أو جماعة منهم أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا فى أن يكون مثل هذا السلف الصالح وإنى اناشد كل من يعرف القراءة والكتابة أن يقرر ما إذا كان لم يسمع منذ حيا على الارض حتى بلغ أرزله إذا تبقى له ذلك أن كاتبا أو خطيبا أو داعيا كف للحظة عن دعوة أمة المسلمين والعرب إلى التشبه بالسلف

الصالح ومحاكاته بأن لنا فى رسول الله اسوة حسنة. أما الأئمة فقد درجوا ان يقفوا إذا كانوا من السلف الصالح، امام الامراء على المنابر وفى المساجد والاسواق يتذكرونهم بما كان من الرسول والخلفاء الراشدين من إقامة العدل وتحريم الظلم وكراهية الدنيا وحب الاخرة .

ولقد ادخلوا فى قائمة الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز – الذى لا يعجب الاستاذ حسين أمين وقد تأخر به زمانه عن هؤلاء الخلفاء قرنا أو يزيد من الزمان لأنهم رأوا منهجه قريبا من منهج الخلفاء الراشدين وكان مسلكه هذا قاطع الدلالة فى أن جماعة المسلمين لم يروا فى سمو السلف الصالح مجرد صورة تعلق على صدر التاريخ الاسلامى، ينظر اليها ويعجب بها ولا يفكر احد فى الأخذ بها . والنسج على منوالها ، بل أن كتابنا وشعراءنا درجوا على القول بأن قوادنا الذين حاربوا من أجل الاسلام فى القرون الحديثة، كانوا بمثابة أحفاد للرسول . ولعمر ولخالد بن الوليد ولطارق بن زياد بل أن شوقى منذ أقل من خمسين عاما حيا مصطفى كمال قائد تركيا حينما وقف يحرر بلاده من غزو الانجليز والفرنسيين قال

يا خالد الترك .. جدد خالد العرب .

ولقد دخلت وأنا صبى صغير الى منزل أحد الزعماء فوجدت لوحة مهداة الى قرينته يقول كاتبها لهذه السيدة :

«عائشة أم المؤمنين وأنت أم المصريين» ولم تكن لهذه السيدة نصيب فى الجهاد للاسلام أو على علم بشىء من أحكامه إنما هو الاهابة بنا أن نرفع أعيننا الى السلف الصالح، ونحاكيه ونتأسى به ونتعقب خطاه أما الشر الذى يخشاه الاستاذ حسين هو أن نعتقد أن الاجيال التى

جاءت بعد السلف الصالح مجبولة على النقص والفساد ، فان تاريخنا الحديث وربما الحديث جدا يتضمن الدليل على أن حتي صغار شبابنا يحسبون انهم قادرون على أن يعيشوا كما عاش أوائل السلف الصالح في الملبس والمأكل والزى والمشية والخطوة، والكلمة والاشارة ، لعل مبالغتهم في هذا وحرصهم على أحياء الماضى والعيش فى أجوائه هو الجدير بتنبيه من الأستاذ حسين أن القديم الموغل في القدم، لاخير في تبعته، إنما الخير في بحث مبادئه. وفضائله فهذه لاتبلى وهى مطلوبة فى كل عهد أما مظاهر هذا القديم وأشكال حياته فهي أمور تتطور وتتغير وتزول والتاريخ الاسلامي ملئ بوقائع دول اسلامية. واتسع ملكها وتألقت حضارتها ونشأ في ظلها القادة ومنشئوا الدول ، وأهل الفكر، كما حدث في غرب أوربا عندما قامت الدولة الأموية في هذا الطرف الاقصى من أوربا ، فكانت عواصمها مثابة العلماء الذين أخذوا عن المسلمين أصول العلم الحديث في الطب والهندسة والفلك والعمارة والفلسفة والرياضة ثم قامت دول أصغر شأنا كالادارسة في المغرب والفاطميين فى مصر والشام ودول الممالك الذين شادوا علما رفيعا وحكما سامقا أما القول بأن الشريعة كان تطبيقها ممكنا في عهد المسلمين الأوائل حينما كانت النفوس صافية، والاخلاق سامية . فهذه حجة قلة من المسلمين يدفعهم الى هذا القول كراهيتهم للاسلام في ذاته . وخوفهم علي مالهم وسلطانهم في ظل حكم الشريعة .

وقد ساق الاستاذ حسين أحمد أمين مثلا لمنهج أقوام في تقدير رجال السلف الصالح فيخطئون في الميعاد الذى يقومون به الرجال فهم

مثلا يقولون عن عمر بن عبد العزيز انه من أعظم خلفاء الاسلام لمجرد ورعه وتقواه في حين لم تجلب السياسة المالية والادارية لهذا الخليفة غير خراب الدولة. ولنسلم جدلا في أن فضل عمر بن عبد العزيز يقتصر على الورع والتقوى ، وأنه حاكم تنقصه القدرة الادارية ، والكفاءة المالية. فهل اذا صح حكم الاستاذ المؤلف على عمر بن عبد العزيز سقط كل السلف الصالح، وهل السلف الصالح أهل ورع وتقوى ومع ذلك يقبلون النهوض بأعباء الحكم. الا ينكر المسلمون أن ابا ذر الغفاري طلب من الرسول أن يسند اليه ولاية من ولايات المسلمين ، فرده الرسول بقوله إنك امرؤ بك ضعف ، يعني أنه رجل تغلبه الرحمة . فلا يأخذ الخارجين على القانون بالشدة التي تروعهم. وهم مثل شائع على ألسنة المسلمين، مما ينفي عن المسلمين انهم لا يعرفون لما يلزم الحكام من حزم وعزم وشدة عند الاقتضاء ولين عند الحاجة .

وإذا كانت الدولة الاموية قد خربت - بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فلأن الخلفاء الذين سبقوه لم يكن لهم تقوى عمر بن عبد العزيز ولا ورعه ، وأنهم أحالوا الخلافة الى ملك عضوض ، ولأنهم استعملوا رجالا غلاظ الاكباد ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي استعمل أقواما في مثل بطشه كزياد بن ابية فاشاع في الدولة الفزع وبات الناس على كره الحكام ونقمة عليه ، فلما فشت الدعوة العباسيين التي تزيت بزي الدعوة العلوية، اقبلوا عليها، وأعانوها على النصر لان الخلفاء ظنوا انهم في غنى عن خوف الله وتقواه . ولا احسب ان عمر ابن عبد العزيز قد اخطأ حينما قال لعامله على مدينة حمص ، حينما

تهدم حصنها نطلب من الخليفة مالا ليعيد بناء الحصن فقال له حصنها بالعدل فهذه قولة حق وتوجيه حاكم عادل وحصيف فان حصن حمص لم يتهدم لأن المسلمين لا يصلون بل لأن حاكم حمص رجل ليس به ورع ولا تقوى فهو يبدد المال على ملذاته وشهواته، وذوى قرباه حتى لايجد في خزانته ما يبني به الحصن أو يرممه قبل أن يتهدم .

والغريب من الأمر ان الاستاذ المحقق، يريد أن يصرفنا عن الانشغال بالسلف لنرى أمور دنيانا كما تقع اليوم، ولكنه يضرب لنا الامثال برجال هم من السلف ، ولكن جمهور المسلمين كرههم لامور يكره أمثالهم لامثالها . فهو يبدى إعجابه بيزيد بن معاوية الذى لم يل أمر الخلافة بمبايعة صحيحة من المسلمين بل لأن أباه أخذ هذه البيعة له، وهو لايزال على أريكة الملك. وقد جعل وراء كل صحابى فى المسجد ، جلادا يحمل سيفا ليبايع الجميع لابنه لاحبا فيه ولا إعجابا به ، ولا اطمئنانا اليه بل لأنه ابن معاوية فاذا كنا نضمن.. على عمر بن عبد العزيز الاموى بالثناء عليه لزهده وورعه وكرهه للظلم ووقوفه فى وجه التعذيب والمطاردة للعلويين لأنهم خصوم الحاكم ، فما أحرانا الا نضرب الامثال للمسلمين بيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفى ، مادمنا لا نريد أن نشغل بالسلف بمامة .

وإذا كان لابد أن نعمل بالمعيار الاسلامى التقليدى الذى يحكم على الحكام بالورع والتقوى ، دون الكفاءة والمقدرة السياسية والإدارية فأحرى بنا أن تكون الكفاءة الادارية والسياسية وحدها هى المعيار الذى نقيمه لنحكم على أبائنا وأجدادنا . فقد ثبت أن أشد الحكام كفاءة،

حينما لا يتحلى بالعدل والاناة والبعد عن اصطناع أساليب القهر ومطاردة خصوم الدولة فان مصيره البوار

وفى المقال أشياء أخرى تستحق المناقشة ولكن قد يطول القول فلنبق ذلك الى مقال آخر باذن الله وحسبنا أن نشكر الاستاذ حسين أحمد أمين الذى يشق لقراء العربية طريقا شاقا وعرا يكلفه الكثير من الجهد عند الاعداد والتفكير والعرض، بعد البحث والتأمل والتنقيب ، ويكلفه أكثر من ذلك تحمل العداوات وآلام الخصوم بالحق وبالباطل ، حفظه الله من كيد الكائدين ووفقه الى خدمة وطنه ودينه بفضل علمه واجتهاده وايمانه .

رمضان أمتع شهور الناس

لقد نجح المصريون ربما منذ عهد الفاطميين ، في جعل شهر رمضان شهرا لا نظير له ولا ند بين شهور الناس ، طوال الأعوام ، وفي كل بقاع الدنيا

لقد كان من حظي أن أشاهد في بعض أقطار العالم أعيادا قومية ودينية ، في الشرق والغرب ، وكان بعضها معارض فنية ، ومهرجانات يتألق فيها الذوق ، وتصل فيها الجماعة الإنسانية في التعبير عن ألطف ما في أعماق نفوسهم من مشاعر الأخوة ، والميل إلى البهجة ، والرغبة في الغناء والترقص ، والدعابة والفكاهة والخروج نوعا ما من رتابة الوقار والتقاليد الراسخة ، إلى حد التزيي بأثواب مهرجين ، ووضع تماثيل تحاكي الحيوانات فوق الرءوس والتنكر في ملابس غير مألوفة والاتيان بحركات غير مقبولة ، ولكن كل هذا إذا قورن بما استقر عن المسلمين المصريين في شهر رمضان من طقوس للتفريح ، والتماس السرور ، والبحث عن مجالات تتسامى فيها الروح ، ومجالات نقيضها يترخص فيها البدن ، تفوق شهر رمضان المصري على ما عداه من الشهور

ولعل مرد ذلك أن الشعب المصري شعب طبع منذ طفولة تاريخه ، بتدينه ، وبحبه العميق للفن ، وفرحه الشديد بالحياة وتلقائية تعبيره عن

● الهلال - يونيو ١٩٨٢ .

كل ما ينطق به ، فى دنياه وآخرته ، وتدفق هذا التعبير ، فى حديثه الشخصى ، ونشاطه الاجتماعى ، وقد سجلت نقوش المعابد منذ آلاف السنين كيف كانت حياة المصرى مع زوجته وبناته وبنيه وخدمه ، على شواطئ النيل والبساتين القائمة على هذه الشواطئ وحدائق قصوره وبيوته واحتفائه بالصيد والقنص ، وإتقانه لصناعة الجعة ، وحرصه على اقتناء البخور الذى يعطر به المعبد والدار ، وآلات الرقص والموسيقى ، وتصوير كل هذا على جدران المنازل وحوائط القبور .

كل هذه الطاقات وجدت طريقها إلى التعبير فى أسلوب احتفال المصريين بحلول شهر رمضان ، حتى آخر أيامه . وهو احتفال يبين ما يظهره المصريون من الفرح والبهجة فى جميع أعيادهم ، بل ربما شابت أعيادهم ، سمة من سمات الحزن أو الاكتئاب ، كان أبلغ تعبير عنه ذهاب الأسرة المصرية كلها فى العيد إلى المدفن والمبيت مع الموتى ، وهجر المدينة فى تلك الأيام التى كان يجب أن ينسى فيها الإنسان المدفن ومن فيه ، إلا أن يكون مصاب الأسرة فى فقيدها ، مصابا حديثا لم تلتئم جروحه .

أما فى رمضان فكل علامات المرح والسرور والبهجة ، والسهر حتى السحور وإعداد المطاعم الشهية ، والمشروبات الباردة والساخنة ، وتمتد السهرات ، وتتبادل الزيارات ، والإكثار من أنواع النقل الغالية الثمن ، التى تستورد من تركيا وأوربا ، والتنافس فى إقامة الملاعب ودعوة الأصدقاء والأقارب .

ولقد كان من حظى أن أصوم فى مصر ، فى القاهرة ، وفى الصعيد ، والريف فأرى التباين الخفيف فى الأساليب والتطابق فى

الروح والجوهر ، فالمصريون في شهر رمضان ، يبعثون شعبا آخر ، وحياتهم تستحيل إلى حياة لا يعرفونها طوال العام

ومازلت أذكر كيف كان رمضان عند الأطفال ، مناسبة ينتظرونها ، ويشاركون فيها ، ويظفرون بأجمل وأشهى وأمتع ما يظفر به الطفل .

وقد كنت أحب كل ما في رمضان حتى المدفع الذي يعلن لحظة الإفطار والذي كان جديرا بأن يبعث الفزع ويدعو إلى الخوف ، كان عندنا فرحة مضاعفة . تهتز له كل جارحة من جوارحنا ، فإذا دعينا للطعام ، فتناهبتنا هذه الأطعمة اللذيذة وتلك المشروبات الفريدة ، فالواحد منا يرى أمامه من الأطعمة «الكنافة» و«القطائف» وكأنما صنعا لرمضان وحده ، مع الحلويات التي نأكلها أكثر العام ، كالبسبوسة «والبقلاوة» و«أم علي» أما مشروبات رمضان فهي «قمر الدين» و«الخشاف» وتزدحم الموائد حتى عند أفقر القوم باللحوم على أنواعها والدواجن والاسماك غير المشهيات التي تتقن إعدادها وحفظها لشهور عديدة المرأة المصرية ، الغنية والفقيرة ، الحضرية والريفية ، فإذا فرغ القوم من الطعام امتلأت الشوارع والحارات والأزقة بجيوش من الأطفال ، يحملون في أيديهم الفوانيس المصنوعة من الصفيح المزخرف، والزجاج الملون ، والشمع الذي تتراقص شعلته مع الهواء في حين تتوالى قذائف القنابل الصغيرة وتتعالى في سماء الميادين والحارات على السواء ألوان تنبعث من كبريت كان يسمى «كبريت الهواء» يصنع من عيدان طويلة وغليظة ، تشعلها الأطفال ثم يديرون بها في أيديهم مرة ومرتين ثم يقذفون بها في الهواء ، فتنبسط دوائر حمراء وصفراء وزرقاء ، تبعث في قلوب الآباء والأمهات فرحة تمتص بفضلها أحزان العام ، على أنه لا يلبث أن يضاف إلى هذه المهرجانات الضوئية ، لون

آخر من البهجة يبعثها أعواد مغطاه بمادة رمادية تشبه «الأرواز» تشعل كذلك ، فتنبعث منها طاقة ، تتراقص فيها أضواء صغيرة باهتة البياض ، سريعة الحركة ، تسمى «الشمس والقمر والنجوم» وقد يظن ممن يعيشون الآن ، وممن لم يشهدوا رمضان القديم . أن هذه المتعة الضوئية لا تزال باقية ، والحقيقة انها انتثرت كما انتثر معها كبريت الهواء ، فالباقي منها ليس الا ذبالة ضئيلة ، لا تقاس وأضواء الألعاب القديمة وكان للمصريين سعادة مبعثها «المسحراتي» الذى أختفى من حياتنا منذ زمن غير بعيد وما بقى منه ، ليس إلا سبحا ضئيلا ، يجرى فى بعض الشوارع ، وكأنما هو مذهب تتعقبه أجهزة الأمن ، لا يكاد يظهر حتى يختفى ، أما . «مسحراتى» العهد القديم فقد كان له صوت رخيم ، ويؤدى أغانى قصيرة جميلة عذبة ، وكان الكبار والصغار يسمعونه فيطربون من جهته ويحسون بشئ من الراحة النفسية ، كأنما الذى يسمعونه هو لون من الذكر ، أو الدعاء أو الصلاة ، وكان المسحراتى فنانا شعبيا ، يرتجل الأغانى حسبما يطلب أصحاب الدار الذى يمر بها ، ففى كل بيت طفل أحب أهله أن يدللوه ويمتعوه بسماع أغنية من المسحراتى ، فيعطون اسمه لهذا الفنان العجيب فيصنع أغنية فى الحال ، فتأتى آية فى الأحكام وقد كان لنا قط نحبه جميعا ، ونؤثره على أطفال البيت فطلبنا من المسحراتى أن يتغنى باسمه وكنا قد أطلقنا عليه «أصلان» فراح المسحراتى يصف أصلان بك ، ويقول عنه أصيل الجدود ، ياللى كرم طبعك والجود» حتى إذا ما انتهى الشهر الفضيل وأردنا أن ننفح المسحراتى ببعض هبات رمضان فى العيد ، قدمنا له «أصلان» فلم ييئس الفنان الأصيل ، وراح يقبل القط ويصف عيونه الجذابة وشعوره اللامعة والجميع سعداء .

ولست أنسى جلستى فى شرفة منزلى بشارع «سلامة» بالسيدة زينب ، وهو الشارع الذى شهد أحداث رواية «عودة الروح» والذى جمع بالفن فى عدد من الأدباء كان منهم الحكيم والمازنى وعلى مقربة منه عاش المنفلوطى والبشرى ، وكان بيتنا نحن مملوكا لملكة من ملكات المسرح فى تلك الأيام هى البريمادونة «مليانديان» أى الممثلة الأولى فى مسرح الشيخ سلامة حجازى . كنت أجلس فى شرفة هذا المنزل فأرى الفتيات قبل الإفطار يحملن فى أيديهن سلاطين «الطرشى» تتراقص على حافتها أعواد الجرجير الأخضر ، وأتصور بخيالى الخيار والبصل واللفت والفلفل حمراء وخضراء فى هذه السلاطين ، كما تمتلئ سلاطين أخرى بالفول المدمس الذى كانت تشتهر بإعداده محلات ، تستعمل انضاجه عائلات تفد كلها إلى القاهرة من الواحات ، وتستعمل فى مواقدها بقايا «القمامة» التى تلقى فى الشوارع ، فيجمعها أهل الواحات ويستخدمونها فيما يسمى «المستوقد» .

أشياء كلها انتهت . ولكن الذين شاهدوها لا ينسونها أبدا ، ومن ذكريات رمضان أننى صمته فى لندن فى شهر ديسمبر ، نهار لندن فى هذا الشهر ينتهى الساعة العاشرة مساء فكان صومنا طويلا ، وكان البرد يزيد من جوعنا ، وكان رمضان عجيبا فى هذا الزمهرير ، فلا مدفع ولا مسحراتى ، ولاشئ مطلقا من مظاهر رمضان . ولا طقوسه . مما زاد من وحشتنا . وحدث أن دعانا عضو فى مجلس العموم البريطانى . عاش فى مصر أكثر من ربع قرن وشارك فى أكبر مشروعات الرى فى بلادنا . فقد كان مهندسا ذائع الصيت . وهو السير مردوخ ما كدونالد . زرناه فى مكتبه فدعانا إلى تناول الغداء فى مطعم مجلس العموم فخجلنا أن نقول له أننا صائمون وأننا فى رمضان ، مع أن هذا الاعتذار كان سيوفر علينا موقفا أكثر إحراجا عند الغذاء . فقد

لبينا الدعوة وذهبنا إلى هذا المطعم الأنيق الفاخر . وأخذنا نتلفت حوالينا في دهشة عظيمة . فقد كان حوالينا أكبر شخصيات المجتمع البريطاني في رأينا على مقربة منا مستر تشرشل أكبر ساسة أوربا . وغير بعيد منه مستر أتلي زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال . وقريبا منه مستر «الانيوري» أكبر الاشتراكيين في تلك الأيام ، وكأننا في متحف الشمع لمدام تيسو الذي يعرض تماثيل عظماء رجال بريطانيا ، مع فارق هو أن المتحف الذي رأيناه في مطعم البرلمان الانجليزي كانت شخوصه من الأحياء يتحركون ويتكلمون .

وجاء موعد الطعام . وجاءنا الخادم . مرتديا الفراك . وطلب منا على عادة خدم الفنادق والمطاعم في انجلترا في تلك الأيام بأدب جم ورقة عظيمة أن نذكر ماذا نريد أن نأكل . وما كدنا أن نعلن لضيفنا أننا صائمون . حتى رأينا السير مردوخ ما كدونالد عضو مجلس العموم الذي كان في ذلك الوقت في السبعين من عمره حتى قفز على قدميه . وضرب جبهته بيده صائحا : كيف ارتكبت هذا الخطأ .. في رمضان أدعوكم لتناول الافطار – كان يجب علي أن أذكر ذلك ...

وحاولنا أن نخفف عليه . ونقول له انه يستحيل عليه أن يذكر في لندن أن رمضان داني . فرفض اعتذارنا عنه وقال :

أنا عشت في مصر نحو ثلاثين سنة وأعرف رمضان كأنه أحد أصدقائي ، فكيف أخونه هذه الخيانة . وصمم على ألا يمد يده إلى الطعام تأنيبا لنفسه .

ومازلنا به حتى هدأ روعة وتناول طعامه وهو يتمتم . رمضان رمضان .

هو الشباب دائما

النار والوقود ، والفكرة والإلهام

ليس في العالم اليوم أعلى من صيحة الشباب . بل أن العالم اليوم لايشغل إلا بالشباب . تعليم الشباب ، تجنيد الشباب ، الحرص على حيوية الشباب ، حركات الشباب ، هي كل المعين الذي يستمد منه الكتاب موضوعاتهم وبحوثهم ، وهي مجال مترامي الآفاق ، لدراسات المؤرخين والنفسيين والاجتماعيين ورجال الاقتصاد .

ويلذ للكتاب أن يطرفوا قراءهم بصور عجيبة من وثبة الشباب الحديثة ، لأنها تبدو للقراء خارقة للعادة ، ومباينة المألوف ، إذ تعود الناس أن تكون مقاليد الأمور في أيد أرعشتها الشيخوخة ، إذا أردنا أن نعطي للمسألة صورة متشائمة سوداء - أو في أيدي رجال حنكتهم الظروف ، وعلمتهم الأيام ، إذا أردنا ألا نغلو ونسرف

وكم من مرة سمعنا أن بالبو حاكم طرابلس الإيطالي قد أطلق لحيته ليخفي صغر سنه وحداثة عهده بالأعمال ، وأن فلانا من الوزراء ، أو رؤساء الدول ، لم يتخط بعد الثلاثين من سني عمره

● الهلال - يناير ١٩٣٥ .

ولكنا نخطئ إذ نحسب أن وثبة الشباب ، التي نراها اليوم ، وثبة فريدة لم يسجل التاريخ شبيها أو نظيرا لها ، لأن تاريخ الدنيا كله ، منذ عرف للدنيا تاريخ ، هو صنع الشباب ، وليس يعرف الناس عملا قلب وجه البسيطة أو ثني عنان التاريخ ، إلا وكان الشباب صاحب فكرته أو واضع خطته بل منفذه كله

ويسير على القارئ أن يتحقق هذا ، لو أنه جلس في مقعده ، وتأمل في تاريخ البشرية ، واستذكر اسماء أبطالها ، وبحث عن عمرهم واحدا بعد واحد ، ليكتب سجلا للقادة ، ويضع خطا بقلمه تحت اسماء كبارهم وليكتب سجلا آخر للانبياء ، وليحصي بقية المكتشفين والمخترعين وأصحاب المبادئ والعقائد ، وليخرج من هؤلاء جميعا ، الذين بدأوا عملهم بعد أن انحدروا إلي خريف الحياة ، وليبق الباقين الذين تفتحت أكمام شهرتهم في ربيع أعمارهم . فإذا وجد أن الذين نادوا بالمبادئ والذين قادوا الجيوش والذين فتحوا للناس أبواب التفكير والتصور والذين ألهبوا الثورات وأضرموها كانوا جميعا من الشباب الذين يجرى دمهم في عروقهم حارا والذين يضطرم خيالهم في رءوسهم مديدا ، استطاع أن يعرف أن الدنيا التي نعيش فيها ليست إلا خلق الشباب وصنع يديه حقا !

ليس في تاريخ قادة الجيوش اسماء ألمع ، ولا أكثر لألاء من الاسكندر المقدوني ورمسيس الثاني ، ونابليون بونابرت .

واسكندر الاكبر لم يجتح بجيوشه فقط الولايات اليونانية المعادية لبلاده ، ولم ينطلق على رأس جنوده لتمزيق الفرس ، فاتحا في طريقه إلى الهند أفغانستان ، ومتوليا في طريقه إلى مصر على سوريا

والعراق ، بل إنه الرجل الذى نقل إلى الشرق ثقافة الاغريق والقائد الذى كان يحلم بدولة إنسانية ، تمتزج فيها الصبغة الشرقية بالصبغة الاغريقية . وقد تم للاسكندر بعض هذا ، على الرغم من أنه ارتقى عرش أبيه في العشرين ، وأنه فارق الدنيا فى الثانية والثلاثين .

أما رمسيس الثانى الذى كان يجول بجيوشه فى سوريا والعراق ذهابا وجيئة عشرات السنين ، فقد كان على رأس جيوشه المظفرة فى الثامنة عشرة من عمره . وليس نابليون مجهولا ، حتى يجوز لنا أن ننكر أنه عرف فى الثورة الفرنسية كضابط عظيم فى الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه قاد جيوش الفرنسيين مارا معهم بجبال الألب ليهزم النمسويين فى أكثر من موقعة خلدها التاريخ وهو فى التاسعة والعشرين ، وأنه حلم بامبراطورية له فى الشرق وهو فى الحادية والثلاثين .

هؤلاء الذين عبثوا بخريطة الدنيا ، وعبثوا بالحدود والفواصل ، كانوا جميعا شبانا ، لو أن الواحد منهم كان فى عهدنا الحاضر ، وأراد أن يسلك الطريق الرسمى ، لما زادت مرتبته عن ملازم ثان !

فإذا انتقلنا إلى الجانب الروحى من الحياة الإنسانية وجدنا عجبا .

إن التاريخ يسجل أن أقدم ثورة دينية عرفها ، كانت ثورة اخناتون الملك المصرى القديم فمنذ أربعة آلاف سنة ، فطن هذا الملك إلى وحدة «الخالق» فأثار تعدد الآلهة فى نفسه سخطا على الكهنة ، فترك لهم طيبة ، ولجأ إلى مدينة جميلة بناها لنفسه على مقربة من تل العمارنة ، وحرر الفن والتفكير من القيود الحديدية المفروضة عليه وقتذاك ، فانتج

الصناع المصريون فنا هو أبدع ما وصل إليه ابتكارهم وافتنانهم وخلقهم

كان هذا الملك هائما فى ملكوت روحانياته ، شاعرا ينظم القصائد لمعبوده الذى رمز له بالشمس ، ويكتب الأناشيد التى يقول عنها أساتذة التاريخ إنها أشبه شئ بمزامير داود . هذا الملك الذى قال عن الله قبل أن تعرف الإنسانية التوحيد بآلاف السنين : «إنه واحد أحد» ، ارتقى عرشه فى التاسعة من عمره ، وألم بدينه الجديد فى الخامسة عشرة ، ووقف فى وجه الكهنة . وهزأ بهم ، وبمعتقداتهم قبل أن يقرب من الثامنة عشرة ؛ لكن لا يزال تاريخ مصر الروحى حافلا بأسماء كثيرة ، لن أذكر لك منها إلا اسما واحدا ، لطول القائمة ، ذلك هو اسم «يوسف» .

فان «يوسف» الذى قال لصاحبيه فى السجن : «يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟» ، والذى أدار مالية مصر ، فى سنى قحطها ورخائها ، لم يكن إلا شابا جميلا ، يفتن بحسنه النساء ، فيراودنه عن نفسه ويتقمن عليه إذ يصد عنهن ، لأنه رأى «برهان الله» أمامه !

ولو أنك سألت إنسانا ، كم سنة قضى السيد المسيح عليه السلام فى هذا الأرض وبين الناس ؟ لوجدت فى أجوبتهم بعدا عن الحقيقة ، لأن الصورة التى نراها للمسيح صورة رجل التفت لحيته الخفيفة بعارضيه وأكسبته سمة الرجل الكبير الذى تخطى الأربعين ، ولكن السيد المسيح لم يكن إلا شابا فى فترة الشباب ، فقد كان فى أول العقد الثالث من عمره .

وكان بطرس الرسول الذى دعا إلى المسيحية ونشرها فى روما ، راكبا حماره الهزيل ، مرتديا دثاره الجافى ، شابا لم يبلغ الثلاثين

لم يبق إلا صفحة الإسلام ، والناس انطبعت فى أذهانهم صور غريبة للرجال الذين ثبتوا أركان هذا الدين ، والذين ظاهروه وباعوا من أجله النفس والمال ليشتروا بها الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين بقوله «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»

يحسب الناس أن الذين وقفوا مع النبى (عليه صلوات الله) ، فى وجه العسف النازل به وبهم ، ولدوا رجالا ذوى لحى طويلة ، وأنهم تخطوا سن الشباب ، أو قفزوا فوقه فلم يعرفهم الشباب . ذلك كله لأن التاريخ الإسلامى تاريخ مهجور ، لا تطرق أرضه قدم ، ولا يبحث فى نواحيه باحث .

لكن دور الشباب فى صدر الإسلام دور عظيم ، بل أن الإسلام لم تنم شجرته إلا بدماء الشبان ولم تحم بيضته سوى صدورهم الفتية ولقد كان رسول الله (ﷺ) يقول يوم أن كان المسلمون مطاردين مراقبين . «اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك» ولم يكن أحب العمرين هذا سوى عمر بن الخطاب ، وقد اعتنق عمر بن الخطاب الإسلام فعلا ولكن كم كانت سن هذا الذى سيعز الإسلام ويزيده ؟ لم يكن «عمر» سوى شاب صغير يقترب من السادسة والعشرين من عمره ولقد اعتز الإسلام بهذا الشاب فعلا ، وأصبح وزيرا للرسول الذى حكم دينه الملايين . ولو أنه عين اليوم فى هذه

السن وزير في دولة من الدول لاهتزت أسلاك البرق وكتبت المقالات وألفت الكتب !

ولقد دعا الرسول ذوى قرابته مرتين ليفهموا منه دعوته وليعرفوا الدين الجديد عساهم يؤيدونه ويؤمنون به ، فنال الرسول الأذى في المرة الأولى ، وفي الثانية وقف فيهم يسأل . من منكم سيكون وزيرى وساعدى ؟ فلم يتقدم سوى صبى صغير هو على بن أبي طالب ، وكان في العقد الأول من عمره ، فاحتضنه الرسول واعتز به . ولا أحسب أن التاريخ الحديث قد سجل في صحائفه أن دولة قامت على مؤازرة الصبيان ومظاهرتهم .

ولما فتح المسلمون مكة أراد النبي (ﷺ) أن ينصب عليها حاكما ليعود إلى المدينة مع الأنصار فلم يقع اختياره إلا على شاب ، أتعرف كم كانت سنه وماذا كان اسمه ؟ أما اسمه فعتاب ، وأما سنه فثماني عشـرة سنة . ومكة هي مدينة العصبيات العريضة على المقامات الدقيقة فيما يمس الكرامة .

وقد أنفذ النبي قبيل وفاته إلى سوريا جيشا فوضع على رأسه أسامة بن زيد قائدا . وكان أسامة شابا صغير السن لم يزد عن الثانية والعشرين من سني حياته ، وقد أدركت الوفاة الرسول والجيش في ظاهر المدينة ، فلما مرت محنة الوفاة واستقرت خواطر المسلمين قليلا أقبل أبو بكر على تنفيذ ما أرتآه الرسول في إرسال هذا الجيش وعلى رأسه هذا الشاب . فجاءه عمر بن الخطاب وطلب منه أن يكون على رأس الجيش رجل آخر أكبر سنا وأعلى مقاما ، فجذب أبو بكر عمر من لحيته وصاح في وجهه ثكلتك أمك ، أأعزل رجلا نصبه رسول الله

لاضع في مكانه سواه ؟ وخرج الشاب على رأس الجيش ممتطيا صهوة جواده وسار أبو بكر - رضي الله عنه - إلى جانبه على أقدامه ، وهو خليفة المسلمين ، وهيبته تعنو لها الوجوه ، وتسكت عمر الذي لم يسكته إلا الحق .

ولقد كان النبي (ﷺ) يقول : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» ولم يكن يقصد بالحميراء سوى زوجته وأحب نسائه إلى قلبه (السيدة عائشة) ولم يكن عائشة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها حين لحق رسول الله (ﷺ) بالرفيق الأعلى .

ويخيل إلى الذين لا يمعنون النظر ، أن أبا بكر كان هرما تقدم به العمر على الرغم من أن النبي (ﷺ) كان يكبره بسنتين . والنبي كان في الأربعين حينما دعا الناس إلى الإيمان بالله الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فكان صاحبه وخليفته من بعده في الثامنة والثلاثين فقط .

وبعد ... ليس في قدرة الكاتب أن يجمع الشبان الذين هدوا الناس وعلموهم وغيروا أساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم . ولو أراد أن ينطلق في التعداد وضرب الأمثلة لوجد أمامه مثل كولمبس مكتشف أمريكا الذي أضاف إلى الدنيا قارة وهو في مطلع شبابه . وغاندي الذي وقف في وجه الامبراطورية البريطانية في جنوبي إفريقيا منذ ثلاث وأربعين سنة . وهو بعد في الثانية والعشرين من عمره . ومصطفى كامل الذي أيقظ الفكرة الوطنية في مصر وأنفق من روحه ما أفنى حياته وهو في ريعان فتوته . في الثانية والثلاثين .

هو الشباب دائما .. النار والوقود . الفكرة والإلهام . الخيال والأحلام . التشبث بالمثل العليا .

هو الشباب دائما .. الاستهانة بالحياة . والسخاء في البذل . والهيام بالمصارعة والمجازفة

صاغ الناس تاريخهم ، ورفع لهم شأن حياتهم ، ومنح للوجود معناه ، وجعل العالم قصيدة مفهومة عذبة مستحبة . فإن طغت على موسيقاه ألحان هرمة .. هرمت الإنسانية وشاخت . وإن شدا كالبلابل في صباح جميل ، أنصتت آذان القدر ، وجعل الناس يطالعون صفحات لم يقرأوها من قبل .

ماذا أريد من الشباب ؟

فى الفترة ما بين العشرين والأربعين من حياتى ، طلبت من الشباب الكثير ، كتبت إليه دائما ، واستحثثته ، وعاتبته ولمته ، ودعوته إلى أن يفكر فى نفسه ، وفى وطنه ، وفى مستقبل بلاده ، وماضيها وحاضرها دعوته إلى أن يثق فى نفسه ، وأن يؤمن بقدرته ، على أن يعمل ، وينتج ، ويخلق الكثير   فلما بلغت الأربعين ، رأيتنى محمولا على أن أوجه الكلام إلى الكهول والشيوخ ، ليؤدوا واجبهم نحو الشباب ، ويفسحوا له الطريق ، وليأخذوا بيده ، وليتجشموا متاعب التفكير الجرئ ، وليؤدوا ضرائب العمل المدروس .

ولا أحسب أن هناك فرصة أكبر قدرا ، لتقدير عمل الشباب المصرى خلال ربع القرن الماضى ، من فرصة التحدث إلى شباب اليوم، التى أتاحها لى الهلال الأغر

أن ربع القرن الماضى، هو عهد الشباب المصرى الذهبى ، فقد كان هو وحده الذى غير الأوضاع ، وأعاد بناء الوطن ، وأقام أساسا جديدا للتفكير السياسى ، وحدد اتجاهات مصر .

وقد كان دور الشيوخ والكهول ، فى نفس تلك الحقبة ، دور التعويق والتعطيل والإرجاء والتسويف ، أو الاستنكار والتثبيط ، هذا إذا لم يجنحوا إلى المطاردة والمصادرة ، والإرهاب والإخافة ، والاعتقال والمحاكمة

وقد يعتذر عن الشيوخ والكهول ، بأن الاعتدال والإبطاء ، هما طابعهم المميز لهم فى كل زمان ومكان ، وأن الطبيعة وزعت

المزايا والنقائص ، على فترات عمر الإنســان المختلفة ، ليحــدث من هذا الاختلاف والتباين ، التعاون والتكامل ، ولتتم حكمة التوالي والتعاقب

ولكن الشيوخ والكهول في مصر ، تجاوزوا في الخمس وعشرين سنة الماضية ، الاعتدال إلى التفريط ، والإهمال ، والخوف من المسئوليات ، والتشبث بالواقع المرير ، والرضاء به .

لقد كان يعوز شيوخنا الإيمان بشئ ، والإيمان هو هذا المولد الكهربائي الهائل ، الذي يحرك الهمة ، ويثير الخيال ، ويدفع إلى المجازفة ، ويخلق الآراء الجديدة ، ويغرى بالقتال والمصارعة ، والإيمان يجدد شباب الإنسان ، ماديا وروحيا ، فكم من شيخ أبلت الأيام بدنه ، ومع ذلك بقي متماسكا ، يعلو صوته ، وتلمع عينه ، ويشتعل في عروقه دمه ، لأنه يؤمن بشئ عظيم ، أو بشئ يراه عظيما ! وكم من شيخ بقي على رأس جماعة من المؤمنين يجالد ويصارع ، ويكر ويفر ، ويخيف الخصوم ، ويخاف منه الخصوم !

وقد خلا تاريخنا الأخير ، من شيخ من هذا الطراز ، فما من أحد منهم كان يدعو في شبابه إلى التغيير والثورة ، والتحرير أو التطور ، إلا تطامنت نفسه ، وقبل أن يستكين إلى جوار ذي سلطان ، سواء أكان صاحب السلطان ، هو الملك ، أو حزب من الأحزاب الرجعية ، أو جماعة ذات نفوذ زائف ، تستمده من المصانعة ، والمسايرة .

ولو راجعت ما كان يكتب قبل سنة ١٩٢٤ ، وما كان يكتب بعد سنة ١٩٣٠ ، لهالك الفرق بين كتابات ملؤها التطلع إلى المستقبل ، وتحدى أكاذيب الماضي ومخاوفه ، وكتابات ملؤها الاستخذاء والاستجداء ..

ومن هنا وقع العبء على أكتاف الشباب .. وقد كان شبابا غير مجرب ، لأن أساتذته اختفوا ، ولأن قادته فروا من الميدان ، فكان يخبط على غير هدى ، ولكنه مع ذلك كان شجاعا واثقا من نفسه ، لأن ما نعيش اليوم عليه ، هو من صنعه وخلقه ، ولقد اختلف موقف الزعماء التقليديين منه في الظاهر ، وإن اتفق في الجوهر . فهم بين رجل يتملق الشباب ليستظلهم في حروبه مع منافسيه ، أو رجل يطاردهم ، إبقاء على نفسه ، وكلا الرجلين لم يتطور ، وكلا الرجلين رفض أن يسير مع الزمن !

ولكن لماذا هذا الكلام كله ؟

ليس هذا الكلام إنكارا لفضل أحد من أصحاب الفضل ، ولا هو من قبيل المفاخرة والمباهاة ، فأصحاب الفضل لا يمكن أن يختفي فضلهم لمجرد كلمة جحود تقال في حقهم ، فالشيوخ الطيبون الذين حاولوا أن يمدوا يدهم للجيل القادم ، لا يزعزعون من قوة القاعدة ، فهم استثناء صغير ، يدل على تلك القاعدة ويؤكد وجودها .

وإنما الغاية من هذا الكلام أمران

أولهما : أن يعرف الشباب ، شباب هذا الجيل ، ماذا فعل أخوانهم، الذين اكتهلوا الآن ، وبلغوا إلى الأربعين ، لينتفعوا من تجاربهم ، وليفيدوا من عثراتهم ، وليتعظوا من أخطائهم .

وثانيهما : أن يعرف الكهول والشيوخ ، المصير الذي صار إليه أندادهم وأشباههم في الجيل الماضي ، فيحذروه ويتقوا أن يصيروا إليه وشباب اليوم مرجوون ، على ضوء تجربة الماضي ، ألا يسلموا أنفسهم للاستغلال ، ولا يحميهم منه ألا أن يفكروا لأمتهم ، وإن يتيسر لهم أن

يفكروا إلا إذا وضعوا لها نظاما ، والتزموه بقدر الطاقة . إن المطابع اليوم ، تقذف في كل لحظة، أكداسا من المطبوعات ، وكل مطبوع يجذب عقل الإنسان إلى ناحية ، فليقرأ الشباب ، ليعرف هذا العالم المتجدد المتطور المتدافع ، وليؤجل ارتباطه بحزب أو بفكره ، إلى أن يعرف مواضع أقدامه جيدا ، فإذا ارتبط ثبت في موقفه أمام الاعاصير التى تهب عليه من الخارج ، والأعاصير التى تهب عليه من داخل نفسه .

•••

والشباب المصرى مرجو بعد ذلك أن يعرف قدر المكان الذى تقع فيه لمدة .. ليعرف أن الحضارات نبتت منه ، وأن الرسالات احتمت به ، وأن مصائر الامبراطوريات تحددت على أرضه ، لايزال البحر الأبيض المتوسط ، هو البحر الأكبر ، ولا تزال البلاد الواقعة حوله ، هي بلاد الحضارة ، والخطر السياسي ، لقد سقطت في يد ميكادو اليابان هونج كونج واندونيسيا وكتل بشرية ضخمة ومساحات اقليمية شاسعة ، وسقطت أوربا كلها في يد هتلر سيد المانيا ، ومع ذلك كانت موقعة العلمين، وحرب شمال افريقيا ، هما نقطة التحول ، وبدأ انحسار موجة الزحف الفاشستى بعدهما .. فمصر التى تحدد على أرضها مستقبل اسكندر المقدونى ، ثم مستقبل يوليوس قيصر ، ثم مستقبل مارك انطونى وأوكتافيوس وكليو باترة ، ثم مستقبل نابليون ونلسون .. هى مصر التى تحدد على أرضها مستقبل هتلر وبريطانيا ، واليوم يختلف الانجليز والامريكان على قيادة البحر الأبيض ، ويقوم على زعامة البحرية مونتباتن البريطانى وكارنى الأمريكي ، لأن الامبراطوريتين القديمة والجديدة يعلم كل منهما ، ما هو البحر الأبيض المتوسط ، وما دور الدول التى تقع عليه .

فالشباب المصرى يجب أن يفكر على أساس أن أمته لا يمكن أن تكون تابعة ، على الأقل من الناحية الروحية . وأنها لا يمكن أن تلعب دورا وسطا ، فهى إما حكومة تجاهد غاصبيها ، وإما حاكمة فى الصدر، تزحف ، وتؤدى رسالة القيادة .

فلا تلفت أتن حضارات العالم وثقافاته ، قلب الشباب وذهنه ، عن حضارة بلده . ولا يقنع بأدب الغرب وفلسفته ، عن هذه الكتب الصفراء القديمة المتوارية فى رفوف المكاتب المهجورة . وليثق أن فى هذه الكتاب معينا لا ينضب ، وأنه كان مصدر وحى الذين خلقوا حضارة أوربا المادية

صحيح أن هذه الكتب غامضة وأنها بعيدة عن منال عقل الشباب اليوم ، ولكن العيب فى ذلك ليس عيبها وحدها ، إنما هو عيب الذين هجروها ، ولم يوالوها ، بالرعاية والاتصال ..

وعلى الشباب المصرى أن يؤمن بأن مظاهر الحضارة المادية ووسائلها وأدواتها شئ غيّر الحضارة نفسها ، وأن العلوم المادية التطبيقية ، ليست سوى ثمرة الآداب والفلسفات والموسيقى ، فهى نتيجة وليست سببا للتقدم . فيجب أن نستزيد من أدوات الحضارة الأوربية الغربية من المصانع والمطابع ، ومن الطائرات والتليفونات ، ويجب أن نصطنع أسلوبهم فى البحث ، وطريقتهم فى الدرس . وأن ننظم تفكيرنا، على الصورة التى نظموا بها تفكيرهم .. ولكن لا شئ أكثر من هذا ، إذ يجب أن يحيا تراثنا الأدبى والفلسفى والروحى ، فى نفوسنا من جديد، يجب أن نصل أنفسنا دائما بأجدادنا، لا على سبيل التفاخر والادعاء

والمباهاة ، بل لنكون نحن ، وإلا كنا صورة شوهاء من غيرنا ، فاحتلوا عقولنا ، ونفوسنا ، وذقنا مرارة الحيرة ، وعذاب «التيه» . كل أمة تعيش على أساس من ماضيها ، فالانجليز واليابان .. والألمان والروس ، لا تزال حياتهم تنبض بدم متجدد من الأجداد .. ولذلك كانوا سادة وتقدموا ..

فلنسلك المسلك الذي ساروا فيه ، وستكسب الإنسانية من ذلك خيرا عظيما ، فنحن أبناء أمة الإنسانية الكبرى ، علمناها في الماضي ، وسنعلمها في القريب .. إذا أراد الشباب .

مشكلة نشيدنا القومى

مصر اليوم بين الأمم ، أمة بلا نشيد قومى، وبلا شعار تضعه فوق رأسها ، ولعلها بهذين النقصين فريدة .

وإذا افترضنا أن الحركة الوطنية المصرية بدأت آخر أدوارها الحديثة ، منذ بدأ مصطفى كامل يكتب مقالاته فى جريدتى الأهرام والمؤيد سنة ١٨٩٣ حتى أصدر اللواء فى ٢ من يناير سنة ١٩٠٠ الذى اتبعه بإنشاء الحزب الوطنى فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، إذا اعتبرنا أن الحركة الوطنية المصرية فى دورها الأخير قد بدأت فى تلك السنة، فكان هذا الدور قد كاد يكمل قرنا إلاَّ عشر سنين ، ومع ذلك فإن تسعين سنة كاملة، انتظمت مرحلة مصطفى كامل، ومحمد فريد، والعمل الثورى خلال حرب سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ثم ثورة سنة ١٩١٩ ، ثم ثورة سنة ١٩٥٢ لم تكن كافية، لتصنع مصر خلالها نشيدا قوميا لها تتغنى به فى جميع المناسبات القومية ، كما تفعل جميع الأمم فى الشرق والغرب، وتعلمه لأطفالها فى رياض الأطفال بل وبيوت الحضانة، وتلقنه للجنود فى الثكنات ، وعلى سطح السفن والبوارج التى تمخر عباب البحر وأمواج المحيط

ولما أرادت الحكومة أن تستبدل بلحن موال «زمان يا سلاحى» نشيدا غيره ، اختارت لحنا وضع الفاظه يونس القاضى الذى ضمنه كلمة مصطفى كامل الدائمة الرنانة . «بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى» .. وإن كان قد أكمله بكلام لم يقله مصطفى .

● الهلال - يونيه ١٩٨٣ .

ومع ذلك فإن لحن هذه الأغنية لم يتجاوز أن يكون جمله الموسيقية ، هى لحن الإذاعة المميز ونشيد الدولة الموسيقى .

وقد قصرت همتنا ، عن أن نجعله نشيد البلاد الرسمي، بمعنى أن يحفظه أولادنا ، وشيوخنا ، العسكريون منا والمدنيون ، يعنى أن مصر لاتزال بلا نشيد .

فما هو السر ؟

لقد حاول الشيخ على الغاياتى ، وهو بعد شاب ، يكتب فى جريدة اللواء إبان رياسة تحرير مصطفى كامل، يبث طاقات شعرية وطنية ، تنتفض حماسة وتفيض حرارة ، وأن يضع نشيدا على نسق نشيد الثورة الفرنسية الذى نظمه الشاعر «روجيه دى ليل» وجاءت به فرقة من الثوار من مرسيليا الى باريس ، لتدعم ثوارها فذاع وشاع ، وطرق كل الاسماع ، واطلق عليه اسم «المارسييز» نسبة إلى مرسيليا التى حملت هذا النشيد على السنة بعض أبنائها فتلقفه أبناء العاصمة ، ورتلوه فى كل مناسبة ، وجعلوه هتافهم الثورى ، وإشعارهم الوطنى ، حتى بات علما على ثورة بلادهم سنة ١٧٨٩ ، ثم على فرنسا كلها ، فعاش نحو مائتى عام ، لا يغير فيه حرف ، ولا يحل محله شعر ولا لحن .

ووضع الشيخ على الغاياتى نشيدا ، وضمنه ديوانه الشهير «وطنيتى» الذى قدم له الزعيمان محمد فريد رئيس الحزب الوطنى والشيخ عبدالعزيز رئيس تحرير اللواء بعد مصطفى ، فدفع عن المقدمة الرقيقة الأدبية الخالية من العنف ، ستة أشهر فى السجن كانت من نصيب محمد فريد، وثلاثة أشهر كانت من نصيب الشيخ عبدالعزيز ، وسنة كاملة من نصيب صاحب الديوان «على الغاياتى» الذى آثر الهجرة

فترك بلاده سنة ١٩١٠ إلى جنيف في سويسرا ، حيث خلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس القبعة ، واتقن الفرنسية فأصبح يكتبها ويقرأها ويخطب بها ، كواحد من أبلغ أبنائها وهو أزهري قح ، وفد من دمياط إلى القاهرة ليلتمس العلم في رحاب هذا الجامع العريق ، وليحاور فيه كبار علمائه ..

أما النشيد الذي وضعه واقترحه ، فلم يسمع به أحد ، ولم يجر به لسان ، وإن كان الديوان الذي احتواه ، بقي نصف قرن أو يزيد أشهر دواوين الشعراء في مصر ، قبل أن يطبع ديوان الشوقيات ، وتتداوله الأيدي .

ومضت سنوات بعد ذلك وسنوات ومصر بلا نشيد ، حتى فاض وحي الشعر على أحمد شوقي أمير الشعراء ، فوضع نشيدا مطلعه :

بني مصر مكانكمو تهيـا

فهيا مهـدوا للمـلك هيا

خذوا شمس النهار له حليا

ألـم تـك تاج أولكـم مليـا

وعلى الرغم من أن شوقي قصد أن يكون هذا الشعر نشيدا لبلاده ، فإنه لم يتجاوز النشر في الصحف ، فلم يحفظه معهد، ولم يحتضنه حزب ، ولم يؤده وظيفة النشيد الذي تجتمع عليه الأمة ، ويحس كل أفرادها أو أكثرهم ، أنه صرختهم في وجه الأعداء ، وهتافهم عند الجلاء ، وكلمة السر ، إذا حانت ساعة البذل والفداء .

وسنرى بعد قليل آفات هذا الشعر وعيوبه كنشيد ، وخلوه من الحرارة وعجزه عن الإثارة .

وجرب أمير الشعراء حظه فى نشيد آخر ، ولكنه كان فى هذه المرة لقطاع من أبناء الأمة ، هم شباب الكشافة . فلم يكن أسعد حظا من النشيد السابق ، قال رحمه الله فى نشيد الكشافة :

نحـن الكشـافة فى الـوادى

جبـريـل الـروح لنا حـادى

يـارب بعيسـى والهـادى

وبموسـى خذ بيد الوطـن

وقبل أن تنطوى صفحة الكشافة فى بلادنا ، انطوت صفحة هذا النشيد الذى كان لحنه أشبه بمقطوعة ، استجداء ، كانت تطرق أسماعنا ونحن فى دورنا نسمعها كثيرا حتى حفظناها ثم بدأنا نرددها «الحمد لرب المقتدر» وقامت ثورة سنة ١٩١٩ ، وخرجت الجموع ، لأول عهدها ، تملأ الشوارع ومظاهرات الالوف ، تحمل الالوية المرفوفة وتسبقها نعوش الضحايا ملفوفة بالعلم المصرى ، وفى النوافذ والشرفات ، ربات الخدور ، يهتفن لمصر ، وللموت من أجلها ، والفداء فى سبيلها ، ورصاص الانجليز يئز فوق الرؤس ، ثم يخترم الصدور فيغسل بلونه الأحمر كل مخاوف الخوف واتقاء الموت وكان ذلك كله هو الجو الذى تولد فيه الأناشيد ، أحيانا تنبعث من وجدان الشعب ، لا تعرف معها اسم الشاعر ، ولا اسم واضع اللحن ، ولا تدرى من جاء الالهام بهذه الالفاظ ، السهلة الواضحة القوية الرنانة الثائرة ، وكيف عبرت برشاقة وجزالة ، ولطف واناقة ، عن كل ما فى النفس ، وقت الثوران والهياج من رفض الاذعان ، وتحد للقوة ، وأمل فى المستقبل ، واصرار على الكفاح ، وهزء بالمصائب والآلام .

جاءت الثورة ، واشتدت الحاجة إلى نشيد ، وبعد طول المخاض ، ظهر نشيد الشاعر مصطفى صادق الرافعى ، الذى لحنه «صفر على» والذى كان مطلعه :

اسلمى يا مصر أننى الفدا
ذى يدى أن مدت الدنيا
أبدا لن تستكينى أبدا
أننى أرجو مع اليوم غدا

وليس ثمة شك فى أن هذا النشيد، قد ألهبت ألفاظه نار الثورة ، ولكن وهى تخبو ، خلال من هذه المواعظ التى أثقلت نشيد شوقى فأحالته إلى قصيدة ، وتخلله عبارات المباهاة ، بتاريخ مصر ومجدها ، ولكن بعبارة تضفى مللا وسأما ، كأن قائلها قد شغف من كثرة ما أشاد بهذه الأمجاد ، حتى كادت تصبح كمناجاة الاطلال ، فى مطالع الشعر الجاهلى .

وقد احتوى شعر مصطفى صادق الرافعى معان وطنية جميلة مثل قوله :

ويل يا من رام تقييد الفلك
أى نجم فى السما يخضع لك
وطن الحر سما لا تمتلك
والفتى الحر بأفقه ملك

ولكن مثل هذه المعانى ، ليس مكانها نشيد ، فالنشيد فى واقع الأمر إهابة واثارة ، ودعوة ، وتحد ، فالتشبيهات الجميلة ، والحكم الرائعة تبطئ بها ولها حركة النشيد ، ويفقد معها تدفقه ، ويتحول من صيحة

صادرة من قلب الجموع ، إلى مخاطبة من الشاعر المنشدين ، وقد كان «نشيد المارسييز» بدعوته الافتتاحية : «إلى السلاح ! إلى السلاح ! أيها المواطنون فإن يوم النصر قد وافى».. هى النغمة النموذجية التى يجب أن يحتذيها مؤلفو الأناشيد ، ولكنهم اخطأوها جميعا حتى فى أناشيد ، الأمة العربية مثل نشيد : «بلاد العرب أوطانى» ..

المفروض أن ناظم النشيد ، يتصور عدوا أمامه ، ويتصور نفسه قائد جموع تتحفز وتتحجج وتتلاقى الهجوم على هذا العدو ، وأنها تتلقى من قائد مجهول الأمر بالانطلاق والركض والعدو والوثوب والقفز فى خفة وسرعة وشجاعة ، فالحديث عن حب المنشدين للوطن ، وإشادتهم بمفاخره ومآثره ، قد يبدو لبعض الشعراء أنه المعنى المحبب ، والحقيقة أنه المعنى الذى يجب تجنبه ، لأن النشيد معناه أن جموع المنشدين هم طليعة الشعب المهاجم ، فمن الفضول أن يعلنوا أنهم يحبون وطنهم وإنما المطلوب هو إعلانهم أن حبهم لوطنهم العزيز تجسد فى اجتماعهم للقضاء على أعدائه ، وكل من يعمل على تقييده أو انتقاص حريته أو المساس باستقلاله أو عزته .

وقد خطى مصطفى صادق الرافعى خطوة بعد «نشيد إسلمى يا مصر» عندما نظم نشيده الثانى الذى استفتحه بقوله :

حماة الحمى يا حماة الحمى

هلموا هلموا لمجد الزمن

لقد صرخت فى العروق الدما

نموت نمـــوت ويحيا الوطن

ولكن هذا النشيد كنشيد اسلمى مصر كلاهما لم يكتب له النجاح المطلوب ، وبقيت مصر إلى اليوم بلا نشيد .

فما هي دلالة هذه الظاهرة ؟

وما هو السبيل الخلاص منها ؟

إن عجز المصريين عن أن يكون لهم نشيد مع كثرة المحاولات ، ليس مرده أن الشعراء لم يوفقوا إلى نص يلقى من الجماهير قبولا إنما سببه أن الجموع لم تحس الحاجة إلى نشيد ، والجموع لم تحس هذه الحاجة ، لأن التربية السياسية في مصر ، لم تبذل سعيا مؤثرا ومثمرا، يقوى من روح الجماعة والرغبة في العمل المشترك ، والمستمر والمنظم ونشاهد انتفاء روح الجماعة في كثير من نواحي حياتنا العامة والخاصة، فما أكثر أسماء العائلات المصرية الكثيرة التي اختفت في مصر، على عكس الحال بالنسبة العائلات الوافدة من الأجانب واليهود، وبعض العرب الذين اصطنعوا الحياة الأجنبية ، وحاكوا أساليب الاوروبيين . فقد عرفت مصر ، تجارا كبارا ، اثروا ثراء عظيما ، واقاموا مؤسسات تجارية رابحة ، فإذا مات كبير العائلة من هذه العائلات اختلف الورثة واشتد بينهم الشقاق واختفى الاسم الكبير ، وتعطلت المتاجر الواسعة والرابحة من ذلك . عائلة مدكور ، التي كان يرأسها عبدالخالق مدكور باشا سر تجار مصر ، وعضو الجمعية التشريعية ، ومن ذلك أيضا عائلات السيوفي ، والجمال ، والصمصاني ، والراعي ، والماوردي والمويلحي .

وفي عالم الصحافة أخذت جريدة البلاغ التي أسسها عبدالقادر حمزة باشا ، وكوكب الشرق التي أسسها أحمد حافظ عوض بك ، والجهاد التي أسسها محمد توفيق دياب بك ، والسياسة التي أسسها حزب الاحرار الدستوريين ورأس مجلس ادارتها حافظ عفيفي باشا ورأس تحريرها محمد حسين هيكل باشا .

فى حين بقيت محلات شيكوريل وبواد عدس وبنزايون وبلاتشى ، وكلهم يهود ، كما بقيت جرائد الاهرام ، والمقطم والمقتطف والهلال أجيال ، ولولا تمصير وتأميم الصحافة لاستمرت هذه المؤسسات ، ولا تزال محلات تجارية انقضى على تأسيسها أكثر من قرن قائمة تحمل على جدارها الامامى ، تاريخ إنشائها ، وقد تغيرت الأحوال وعدلت القوانين وانظمة الحكم ، وهى راسخة تباشر نشاطها ، يتوارثها جيل بعد جيل .

فالمصرى لايزال يحسن العمل إذا انفرد ، فإذا اجتمع مع سواه ، أعوزته روح التآلف والتكيف ، والإيمان بأن تعدد الأيدى ، وتقارن المواهب ، يزيد العمل قوة وكفاءة ، ويطيل عمره بعد جيل المنشئين والمؤسسين ولا نزال نذكر أعمالا ومشروعات وافكارا بدأت فى مجال مختلفة ، ثم اختفت بدون سبب واضح ولا علة مفهومة .. خذ مثلا المسرح المدرسى الذى بذر بذوره المرحوم محمود مراد مدرس التاريخ بمدرسة الخديوية الثانوية عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، والذى ألف وأخرج على مسرح هذه المدرسة أوبريت مجد رمسيس ، ثم اتسع نطاق المسرح المدرسى ، وعظم نشاطه ، فما كانت تخلو مدرسة فى القاهرة أو فى ريف مصر أو صعيدها من مسرح ، وفى المدارس كان نظام التوفير بطوابع البريد رائجا ومنتشرا ، وكانت حركة الكشافة مزدهرة ، وبدأ مشروع القرش حياته فى نجاح شمل مصر من اقصاها إلى اقصاها ، ثم انطوت صفحته ، واختفى خبره .

والنشيد الوطنى ، ليس لفظا يحفظ وشعرا يردد وإنما هو إيحاء بالتجمع تعلو به موجة الروح العامة ، وتتدفق لها فى العروق الدماء ،

ويزداد الاتصال بين أبناء الشعب ، وتختفي بها كثير من الآفات التي تتردد بان كل فرد يحس بوحدته وانعزاله ، وانقطاع صلته بسواه .. ومثل هذا الشعور ، يؤخر أموراً كثيرة في بلادنا ، ويزيد من اعتماد الجماهير على الحكومة ، وانطفاء روح الابتكار ، ومواجهة الآفات والعيوب الاجتماعية ، وتقاضي الإدارة في الاستجابة .. لمطالب شعب ورغباته ولا شك في أن التربية في عهد الاستعمار ، وفي عهد الحكم العثماني وحكم المماليك ، وحكم العائلة المالكة ، شجع من هذه الروح التي تأبى التجمع - وتكره التلاقي ، والتنظيم ، والاستمرار والمثابرة ، ولذلك فنحن في أشد الحاجة إلى منح النشيد القومي العناية اللائقة به ، على أن نفهم سلفا معنى النشيد ، ودوره ، ودلالته .

ولابد أن تتكاتف الأحزاب والصحافة ووزارة الثقافة ، وأجهزتها ، ووزارة التربية والتعليم ، والقوات المسلحة وأجهزة الاتصال بالجماهير التي تعرف باجهزة الاعلام ، على وضع النشيد ونشره بترديده مرات في اليوم الواحد حتى يحفظ ويستقر في النفوس .

تأملات

«في كتاب القتل السياسي»

شهدت مصر في الفترة التي صاحبت ثورة سنة ١٩١٩ وأعقبتها نشاطا سياسيا عنيفا لم تشهد مثله ، وذلك بسنوات ، وكان من خصائص هذا النشاط أنه لم يكن ينقضي سوى بضعة أيام أو على الاكثر أسابيع حتى تقع جريمة قتل أو محاولة وبذلك لم ينج وزير من وزراء تلك الأيام من محاولة قتل تهدد حياته ثم هدأ هذا النشاط حتى كاد يتوقف تماما ثم استؤنف في الطقة الرابعة من القرن العشرين وتصاعد حتى بلغ غاية العنف والشدة .

وقبيل ثورة سنة ١٩١٩ أي في ٨ أبريل سنة ١٩١٥ حاول مجهول قتل السلطان حسين ، قتله بعيار نار من مسدس إلا أن القذيفة لم تصبه وأصيب بعدة جراح وفي يونيو من نفس العام تمت محاولة اغتيال ابراهيم باشا فتحي وزير الأوقاف ووقعت المحاولة في محطة السكة الحديد بمصر وكانت وسيلة القتل خنجرا ، اذ طعن المجني عليه ثلاث طعنات ، وحكم عليه بالموت ونفذ في المقاتل صالح عبد اللطيف حكم الموت ، وفي ١٠ من يونيو سنة ١٩١٩ شرع مجهول في قتل رئيس الوزراء محمد سعيد باشا أمام منزله بالاسكندرية ولم يقبض على القاعل

● الهلال – يونيو ١٩٨٧ .

وفى ٢٢ من يونيو سنة ١٩١٩ تمت محاولة أخرى لقتل محمد سعيد باشا وقد اقتصرت هذه المحاولة على مجرد بلاغ من مجهول عن نية أخر لقتل رئيس الوزراء وأنهم خبأوا قنبلتين فى مكان ما لإتمام الجريمة وقد تم تفتيش المكان ووجدت قنبلتان . لكن الشرطة لم تهتد إلى القاطين ثم تلقت النيابة بلاغين فى ٢٢-٦-١٩١٩ ، ٢-٩ من نفس السنة عن التحضير لقتل محمد سعيد باشا ولم تسفر هذه البلاغات عن شيء ، وقد اتهم فى هذا البلاغ الدكتور محمد سعيد باشا أحد رجال التعليم وعبد الحي كيره أحد البارزين في العمل السياسي المصرى اتهم معهما فى هذه الجريمة طالب بالأزهر يدعى سيد محمد على ومحمد شكرى الكرداوى موظف وقد حكم على الأول بعشر سنوات سجن مع الشغل وحكم على الثانى بخمسة عشر عاما ، وقد فر الأخير من وجه العدالة وبقى مختفيا حتى انتهت فترة قيام الحكم بالعفو .

وفى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ قتل الكابتن صموئيل كوهين أثر اصابته بأزيمة أميرة وواضح أن هذا القتيل كان من الضباط اليهود الذين يعملون مع البريطانيين فى المستعمرات .

وفى يوم ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ اطلق مجهولون على أربعة جنود بريطانيين اثنين برتبة جاويش وعسكريين واقتصرت الاصابة على واحد من الأربعة ولم يضبط أحد كما وقعت محاولة مشابهة فى ١٥ - ١٢ - ١٩١٩ على أحد الضباط الإنجليز ولم يصب ولم يقبض على أحد كما لم يقبض على أحد فى محاولة قتل اثنين من الضباط الإنجليز أثناء سيرهما ومعهما فتاتان انجليزيتان وبعد عدة اعتداءات على جنود وضباط إنجليز وقعت عدة محاولات قتل على الوزير اسماعيل سرى

باشا فى ١٩٢٠/١/١٨ ومحاولة أخرى فى ١٩٢٠/٢/١٢ على الوزير محمد شفيق باشا وكان كل منهما وزيرا للأشغال العمومية ومهندس رى كبير . ثم جاء دور القضية الكبيرة التى سميت قضية المؤامرة الكبرى ووجه الاتهام فيها إلى الوطنى الكبير عبد الرحمن فهمى بك وكان سكرتيرا لجنة الوفد بالقاهرة واتهم معه عددا من خيرة شباب مصر مثل محمد لطفى المسلمى وكان طالب حقوق وامتد عمره وأصبح نائبا من نواب الشرقية وحسنى عبده الشتاوى .

وكان كذلك طالبا بكلية الحقوق وتوفيق صليب الذى اشتغل بالصحافة فى أكبر الجرائد والدكتور محمد حلمى الجيار كان طالب طب وحصل على إجازة الطب من جامعة استانبول بعد أن فر من السجن وكان جرجس عبد الشهيد الذى وصل إلى منصب المستشار بمحكمة الاستئناف وحامد المليجى الصحفى وابراهيم عبد الهادى الذى وصل لمنصب رياسة الوزراء وهو الذى فى عهده صدر قرار تنفيذ حل جماعة الأخوان المسلمين بعد قتل محمود فهمى النقراشى . وقد استمرت هذه القضية شغل البلاد والشاغل حتى حكم فيها بعقوبات شديدة أول الأمر ثم خففت . وعادت محاولات قتل الجنود الإنجليز فى شوارع القاهرة وكان من هذه المحاولات وقع فى ٦ من مايو سنة ١٩٢٠ ثم ٨ من مايو نفس السنة ثم ٩ من نفس الشهر ونفس السنة ومحاولة أخرى مماثلة فى ١٩٢٠/٦/٢ ثم شرع فى قتل توفيق نسيم باشا رئيس الوزراء فى ١٩٢٠/٥/١٢ وقد قبض على المتهم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالموت فى ١٩٢٠/٦/٢٦ ونفذ الحكم فى ٨ من يوليو .

ثم اتهم عدد من المتهمين في قضية المؤامرة الكبرى التي كان المتهم الأول فيها هو عبد الرحمن بك فهمي بمحاولة قتل شهود الاثبات في تلك القضية الأولى

وأطلق الرصاص مرتين على محمد بدر الدين بك مدير الأمن العام في يومي ١٩٢١/١/١ و ١٩٢٢/١٢/٥ ولم يعرف الفاعل . ثم اطلق عيار ناري على محمد عبد الخالق باشا في ١٩٢٢/٢/٢٣ واتهم أربعة ، ثم أطلق سراحهم عندما صدر قانون عفو واستمر إطلاق الأعيرة النارية خلال سنة ١٩٢٢ على ضباط وجنود بريطانيا اثناء سيرهم في شوارع القاهرة وقد بلغ عدد محاولات قتل هؤلاء الجنود نحو سبع محاولات وتمت محاولة ثامنة في ١٩٢٢/٤/٢٣ فقتل عبد الخالق ثروت وقبض على أربعة متهمين وقدموا للمحاكمة وحكم عليهم بأحكام متفاوتة

ولكن حسن باشا عبد الرازق عضو حزب الاحرار الدستوريين والاستاذاسماعيل زهدي قتلا على أبواب نادي حزب الاحرار الدستوريين في يوم ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ وكان حسن باشا من كبار أعضاء حزب الأحرار ، وقد حوكم على هذه الجريمة الدكتور شفيق منصور وزملاؤه في قضية قتل السردار البريطاني (قائد الجيش المصري السير لي ستاك باشا في١٩ من نوفمبر سنة ١٩٢٤) .

وقد وصلت هذه السلسلة الطويلة من حوادث القتل ومحاولته إلى حادث ضخم ، كان له دوى كبير تجاوبت به أصداء مصر والعالم كله ، وأعني به مقتل الجنرال الإنجليزي السيرلي ستاك الذي أسندت إليه الحكومة قيادة الجيش المصري ليجرده من كل مقومات الجيش ، وليجعل

ضباطه وجنوده أشباحا لا يمارسون شيئا من فنون العسكرية ولا يتحلون بشيء من خلق الجنود المصريين الذين عاشوا قبل الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ يخوضون المواقع ويحققون الانتصارات العظيمة فى السهل والجبل وعند خط الاستواء وفوق الثلوج وكانت بعض خيوط هذه الجريمة تنتهى إلى أيدى البريطانيين الذين ما كانت الجريمة تقع حتى بادروا إلى استغلالها فوجهوا انذارا إلى حكومة مصر طالبين التحقيق السريع فى الجريمة وإنزال أقصى العقاب بفاعليها ، مع طرد الجيش المصرى من السودان عقابا لحكومة مصر وكأن حكومة مصر هى التى قتلت السرلى ستاك وقد أبت الصدفة إلا أن يقتل السير كيرروق قائد الجيش البريطانى نفسه فى طريق من طرق لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية مما يقطع أن الحكومات لا تسأل عن الجرائم السياسية التى تقع على أرضها إلاّ إذا شاركت فيها مشاركة ثابتة، المهم أن الشرطة ألقت القبض على ثمانية من المتهمين . ثمانية من شباب مصر هم الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته فى العمل السرى عقب تخرجه فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٩ فقد اتهم فى قضية مقتل بطرس غالى باشا سنة ١٩١٨ ، ثم طالبا الحقوق والمعلمين العليا عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت وهما شقيقان ومحمود راشد وابراهيم موسى وراغب حسن ومحمود إسماعيل وقد نفذ الحكم فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٥ . وقد توصلت الشرطة إلى معرفة هؤلاء الشبان بفضل شهادة تقدم بها شاهد ملك هو نجيب الهلباوى الذى كان من قبل متهما فى جناية الشروع فى قتل السلطان حسين كامل .

وبعد وضع اليد على هذه الجماعة النشطة الجريئة ، هدأت حركة القتل السياسي في مصر لبضع سنوات حتى استعادت شدتها ابتداء من ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وهو تاريخ مقتل الدكتور أحمد ماهر .

فهل كان وضع اليد على هذه الفئة هو السبب في انقطاع حركة العمل السياسي السري باعتبار أن هؤلاء كانوا رأس الجماعة التي تستهدف الموت ، وتجازف في سبيل انفاذ خطة القتل التي التزمتها الواقع أن ذلك يبدو للنظرية السطحية . وتاريخ الحركات السرية يؤكد أن سقوط شعبة من العاملين في هذا المجال لا يؤدي إلى توقف حركة العمل كله أو سرعان ما يعاود الباقون خارج السجون عملهم أو قد يعود إلى مسرح العمل السري سواهم في السر ، إذن في هدوء العمل السري بعد انفاذ حكم الموت في قتلة السردار في أغسطس سنة ١٩٢٥ ونفس السبب الحقيقي لهذا الهدوء تغير موقف بريطانيا من المطالب المصرية وما انتهى إليه اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني فقد تبين أن موقف العناد من الحركة الوطنية عبث لا طائل تحته ، وأن المصريين مستعدون لمواصلة الكفاح وأن أعمال العنف لا تدل على إنها شعبة منعزلة يمكن محاصرتها والقضاء عليها بل أنها تعبير عن الشعور الوطني العام وقد حصل تغير الموقف البريطاني على الوجه التالي .

أولا أفرجت بريطانيا عن سعد زغلول واخوانه وأطلقت سراحهم من المنفى .

ثانيا . خففت وطأة الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية البريطانية .

ثالثا أبلغت أن مصر دولة مستقلة دستورية ذات سيادة .

رابعا منحت مصر دستورا كان يتضمن النص على الحريات الجوهرية .

خامسا . جرت انتخابات كانت وحدها الانتخابات ، الحرة النزيهة
ن عشرين انتخابا جرت بعد تلك وكانت مزورة . وعاد سعد زغلول
ستقبل استقبال الفاتحين ، وألغت الاحكام المعطلة الصحف . والنشاط
حزبى ، وعقدت الاجتماعات وخطب الخطباء فى كل مكان .

تحولت مصر من سلطنة إلى ملكية دستورية يحكمها ملك بنص
دستور على أنه يملك ولا يحكم وأن أساس الحكم فى البلاد هو فصل
سلطان وأن القضاء مستقل والقضاة لا يخضعون إلا لضمائرهم .
ذه الاحكام العظيمة وهذه النقلة الضخمة ، وجو الحرية الذى ساد
عودة المنفيين وإطلاق سراح المعتقلين كانت بلا شك دشا بارداً ألقى
على نار الذين كانوا يرون أنه لا سبيل إلى إجلاء الانجليز إلا بمطاردة
لإنجليز واعوانهم برصاص البنادق حتى تصبح حياتهم فى مصر
جحيما لا يطاق ، وكان هؤلاء محقين تماما وقد تحرك فعلا كثير من
لساسة الإنجليز نحو تحسين الأوضاع السياسية فى مصر ، وزيادة
لقدر المتاح من الحرية لأبنائها ، وقد نجحت هذه السياسة فعلا ووضع
لمقاتلون المصريون بنادقهم جانبا واستعدوا لخوض حياة سياسية
جديدة ، واستعدوا للانتخابات العامة ونظموا صفوفهم وبهذا الأسلوب
خفت حملة العنف فى مصر وبعد أن كان . ينقضى اسبوع أو أسبوعان
حتى تنطلق رصاصة إلى صدر باشا من باشوات الحكم فى مصر .

واثبتت هذه التجربة أن الوسيلة الناجحة فعلا لتطويق العنف
السياسى هى الغاء مسبباته فإن كان هناك ظلم سياسى وتضييق على
المواطنين ، وإذا سادت روح القهر ، فلابد من رصاص ينطلق فى
الظلام ، ولابد أن يعلو صوت الرصاص لا صوت المنافسة والجدال ،

وقد استفادت بريطانيا من هذا الدرس في كل موضع من امبراطوريتها، فكلما عنفت الامور واشتد ساعد حملة البنادق وسقط الجرحي والصرعي من أنصار الحكومة سارعت حكومة بريطانيا إلى تخفيف حدة القيود وأطلقت الحريات ودعت إلى دورة من المفاوضات . حدث هذا في الهند وحدث في ايرلندا وحدث أخيرا في قبرص كما حدث في مصر على الوجه الذي أسلفت إليه الاشارة .

وهذه ما نستخلصه من مطالعة الصفحات التي طالعناها في السطور السابقة . ولذلك فنحن ندعو إلى معالجة اسباب الارهاب . ونزيد من مقدار الحرية فيتاح لكل نشاط إنشاء حزبه واصدار جريدته وعقد اجتماعاته . ونعيد النظر في القوانين المكروهة ، وعندها ستخف حالة التوتر ويسود الوطن جو من السكينة الصحيحة والطمأنينة الصادقة .

لا شك في أن الكثيرين وفي مقدمتهم رجال الحزب الوطني القديم حزب مصطفى كامل ، كانوا يرون في كل ما صدر من السلطات البريطانية من مظاهر تفريج الضيق ، وإسباغ صور الحرية على أسلوب الحكم ، هو مجرد خديعة يقصد بها صرف المجاهدين عن جهادهم والقاء الفتنة بين الوطنية بتقنيم وهم المفاوضات ولكن الإحساس الغالب كان المقدار المتاح من الحرية وأصبح أعظم من طرقات حملة البنادق من الوطنيين ، ولكنه تقدم نحو الأفضل ويجب استغلاله والانتفاع به . في مجالات الكتابة والخطابة والاجتماع ولهذا كسبت السلطات البريطانية جولة ضد العنف فلما تأزمت الأمور ثانية بسبب أزمة فلسطين عاد العنف إلى سطوته ودوى صوت الرصاص من جديد .

ألفاظ بلا معنى

ليس التضخم ظاهرة اقتصادية فحسب ، يقتصر أثرها على النقد، والأسعار ، بل إن هناك تضخما اجتماعيا أو أدبياً ، يصاحب التضخم النقدي ، ويكون أحيانا أثرا له وذيلا من ذيوله وأحيانا أخرى يكون ظاهرة قائمة بذاتها ، مستقلة عما عداها

وقد نشأت في مصر ، منذ سنوات ظاهرة التضخم الأدبي والاجتماعي وكانت له آثار عديدة ، منها الشعور بالحاجة إلى تأكيد معنى بعض ألفاظ ، بتكرارها حينا ، وبإضافة لفظ زائد إليها حينا آخر، بتغيير صيغتها ، أو اشتقاقها حينا ثالثا ، لتصور القائل متكلما كان أو كاتبا أنه إذا قال اللفظ المعروف والمتداول وحده وقنع به ، وسكت ، فإن السامع لا يتأثر بمعنى هذا اللفظ الأصيل والمتفق عليه ، أو لا يصدق المتكلم ، ومن ثم فلابد من فعل شيء ، يجعل اللفظ أكثر تأثيرا ، وأشد اقناعا وأدعى إلى الاحترام والتقدير .

ويبدو أن المجتمع المصري انتابه ما يسميه فرويد ، بالشعور بالنقص ، فلنخذ نفسه ، بتضخيم كل شيء يتصل به ، ويعبر عن القيمة أو المركز ، أو الأثر .

ففي مصر ، لم يكن إلا استاذ أكبر ، واحد ، هو شيخ الجامع الأزهر ، فاذا ذكر هذا الشيخ الجليل اقترن اسمه بلقب الاستاذ الأكبر ،

● الهلال – مايو ١٩٨٣ .

شيخ الجامع الأزهر . وفي هذا السجع غير المقصود ، ما يزين اللقب ، ويعلى من قدر صاحبه وكان باقي الناس في عالم الفكر والكتابة ، من رجال التعليم ، أو اساطين القضاء تذكر اسماؤهم بألقاب الدولة الرسمية ، مقرونة بصاحب العزة للبك ، وصاحب السعادة للباشا ، وصاحب المعالي للوزير ، وصاحب الدولة ، لرئيس الوزراء

أما الأفندية فقد تقرر لهم أن يسبق اسماءهم لقب هو «صاحب الرفعة» إلا أن الأيام اسقطته ، أما لأن صاحب الرفعة كانت أكبر من مقام الأفندية في المجتمع ، فاستغنى عنها ، ولم يستطع الأفندية ، الدفاع عن هذا التكريم ، لقلة شأنهم ، أو لتواضعهم .

ويحسن أن نذكر أن هذه الألقاب ، أو صيغ التكريم ، كانت من صنع رجل علم ، وصاحب وظيفة حكومية كبيرة هو المرحوم أحمد زكي باشا ، السكرتير العام لمجلس الوزراء قبل الحرب العالمية الأولى التي نشبت سنة ١٩١٤ واستمرت لسنة ١٩١٨ ، والذي تطوع للعمل في الجامعة المصرية الأهلية ، التي ولدت سنة ١٩٠٨ ، ثم الذي أصبح قبل العالمية الثانية ، حينما كثر الحديث عن العرب والعروبة والجامعة العربية قبل مولد هذه الأخيرة ، «شيخا العروبة» وقد وفق هذا الموظف الكبير الذي انقطع في أخريات أيامه للدراسات المصرية التي استندت إلى أمهات الكتب التي خلفها لنا أجلة كتابنا ومؤرخينا وفقهائنا مثل كتاب الأغاني للاصفهاني ، والكامل للمبرد ، والمعارف البيروني والقواميس الكبري المحيط وتاج العروس ، ولسان العرب ، ومختار الصحاح .

فشيخ العروبة الذي صنع لأبناء قومه المحدثين هذه الألقاب التي كانت تركية وأسماء لآلات وأدوات صنعها العلم الحديث : كالسيارة والدبابة وربما البرقية أيضا ، هو الذي منح الأفندية كل عبارة تكريمهم:

صاحب الرفعة ، فضاعت عليهم ، وبعث حينما أنشأ الملك فاروق والذين حوله لقبا جديدا زاد على لقب صاحب الدولة الذى كان وقفا على رئيس الوزراء ، فأضيف إليه لقب «صاحب المقام الرفيع» ، ثم جرى العرف على تكريم سعيد الحظ الذى وصل إلى هذا القدر من المكانة ، بنعته بصاحب الرفعة ، ومخاطبته بعبارة . «رفعتك» أو «رفعتكم» ..

وضحك الأفندية الذين كانوا فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، لأن صاحب الرفعة ، كانت أصلا من حظهم ، صنعت لهم ، فإذا بالأيام تدور ، والحظوظ تتغير وتتفاوت ، حتى يصل هذا اللقب الذى كان متواضعا ، ومتواريا ، إلى القمة ، فلا ينعم به ولا يتادى به ، إلا من وصلوا إلى أقصى القمة ، ولم يكن كل هذا ، إلا مظهرا من مظاهر التضخم ، فبالأمس كان أصحاب كل لقب قانعين وسعداء ، بما تم لهم من الألقاب ، وكان كل لقب فى مكانه ، مثيرا للاحترام ، مقرونا بالهيبة ، لا أحد يشكك فى قيمته ، ولا يشعر بالحاجة إلى الزيادة فيه ،

وبقى الأمر كذلك ، حتى اهتز المجتمع بعد ثورة ١٩١٩ ، فاقتحم الأفندية المناطق التى كانت وقفا على الباشوات ، ومن انحدر من أصلابهم ، وكان باشوات مصر فى الأصل أتراكا أو شراكسة ، مثل يكن باشا ، ورفقى باشا ، وشريف باشا ، ثم منح اللقب لمصريين أقحاح ، كانوا من أبناء العمد ، ومشايخ القرى ، الذين حرصت بريطانيا على أن ترفع من قدرهم ، وتزيد من مكانتهم ، ليدينوا لها بالولاء ، فكان الباشوات من أصحاب الثروات الزراعية التى تحصى بمئات الأفدنة ، أحيانا بآلافها ، فنشأت عائلات أمثال البدراوى باشا ، وحسن الشريعى باشا ، وشعراوى باشا ، وعبد الرازق باشا ، وسليمان

باشا ، وأبو على باشا ، وغالي باشا ، وكان أكثرهم لا يقرأون ولا يكتبون ، ولكن ضخامة أموالهم ، وسعة أراضيهم ، وقربهم من الحاكم ، واصهارهم للأتراك باختيار التركيات والشركسيات زوجات لهم ولأولادهم ، عوضتهم عن الأصل التركي الصميم ، وحفظت لألقابهم مهابتها !

فلما اقتحم الأفندية عالم الألقاب العتيق والعريق ، والمسور ، إهتز المجتمع اهتزازا عنيفا ، فقد أصبح الأفندى وزيرا ، وبدا لباشوات العهد القديم ، وبعض الوزراء يحملون تحت أباطهم حقائب المحامين ، ويجلسون مع الفلاحين وأبنائهم ، ويمدون إليهم أيديهم ، ويأخذون منهم النقود ، وجاءت الانتخابات فدار هؤلاء الباشوات الجدد على الكفور والنجوع ودخلوا بيوت أهل الريف التي تكاد تخلو من مقعد يجلس عليه الضيف ذو المركز، أو كوب يشرب فيه ماء ، أو يحتسي شيئا من القهوة، قبل غزو الشاي لقرى المصريين ، فشعر كل الناس أن ألقاب الماضي زلزلت ونزلت عن مقامها ، وأنها في حاجة إلى دعم ، لتبقى لها هيبتها وجلالها ، فلما جاءت الصحف ، وانتشرت وتداولتها الأيدي كثر كتابها ، واستفاضت شهرتهم ، وكبر مقامهم ، وهؤلاء أيضا من الأفندية الذين لم يزد آباؤهم على أن يكونوا تجارا صغاراً ، وموظفين أفندية في أدنى الدرجات ، ومضت سنوات لم يظفر واحد من هؤلاء الأفندية المشهورين ومن الكتاب والمحامين والمؤلفين ، بلقب البكوية أو الباشوية حتى العقد الرابع ، فقد أصبح من الكتاب عبد القادر حمزة «بك» ثم «باشا» ومحمد حسين هيكل «بك» ثم «باشا» وفكرى اباظة باشا ، ومن السوريين المصريين انطون الجميل باشا ، وادجار جلاد باشا ، وكريم ثابت باشا.

أما الأفندية المحامون من كان منهم قد وصل إلى رتبة البكوية أو لم يصل فقد كثر عددهم بين الباشوات فأصبح ينكر علوبة باشا ويوسى باشا والغرابلى باشا والهلالى باشا ورمضان باشا .

ولكن المجتمع بقى على شيء من تماسكه، فقد كان أكثر المشتغلين بالأدب يطلق عليهم لقب استاذ ، بلا تزيد ، فلم يكن هناك شعور بالمبالغة فى تكريمهم فكان أكبر كتاب مصر مثل ابراهيم المازنى ، وداود بركات ، والشيخ البشرى ومصطفى المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، لا يسبق اسماءهم ألا لقب استاذ . بل إن عددا من كبار الكتاب ، كان يشار إليه بلقب الأديب التى كانت الدرجة الأقل من لقب الاستاذ ، ولا أحد يشكو من شح المجتمع فى اختيار الألقاب .

وبقى الحال على هذا المنوال بغير استثناء حتى أصبح الاستاذ عباس محمود العقاد وحده دون غيره «الاستاذ الكبير» ولم يشعر كاتب آخر من خصوم الحزب الذى ينتمى إليه العقاد، أن يجاريه فى هذه الميزة، فتطلق عليه صحيفته هذا اللقب أو لقبا يشابهه فتقول الاستاذ الكبير محمود عزمى، أو طه حسين، أو منصور فهمى، أو الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكل هؤلاء كانوا من كتاب جريدة السياسة المعارضة .

إلا أن المجتمع استمر يهتز تحت مطارق التطور السياسى والاجتماعى خلال الحرب العالمية الثانية حتى جاءت الثورة ، فزالت دولة الألقاب زوالا تاما ، وزالت منها الحدود الفاصلة بين طبقة وطبقة ، ولقب ولقب ، وعاش الناس بلا ألقاب .

وكان لابد من سد هذا الفراغ ، فأصبح لقب الاستاذ الكبير ، هو لقب كل من يكتب ، حتى لو كان ناشئا ، ولما أصبح كل «الكتاب كبارا» أصبح من الضرورى أن تمسك ألقاب جديدة ، كالعملاق ، وأن يكون

هناك «قمم» ، وأن يكون هناك «رواد» ، وأن يقدم كل واحد من هؤلاء ، عند الاشارة إليه أو التحدث معه ببضعة سطور ، «تذكر «كيف» أثرى المكتبة العربية» بما كتب وما ألف ، وهو تقليد لم يكن يعرفه المصريون عندما كانوا يتحدثون عن أساتذتهم الذين سبقوا سواهم إلى العمل الفكرى ، حتى ولو كانوا اساتذة جامعة صاحبوا ثورة سنة ١٩١٩ ، أو سبقوها ، وأسسوا الكليات التى خرجت أكبر أهل العلم ، وأعظم أساتذة القانون والأدب ، فقد عاش ومات عبد الحميد أبو هيف وأحمد أمين ، وعبد السلام ذهنى ، وهم مجرد أساتذة أو دكاترة وإن كانوا ملء القلب والسمع .

إلا أن هذا كله ، خطبه هين ، ولكن الخطب زاد ، حينما ولدت الفاظ، لم تكن موجودة ، أو مسخت الفاظ ، ففارقت معانيها ، أو أضيف حروف جر ، أو غيرها إلى الفاظ بغير حاجة إلى تلك الحروف ، أو صيغت عبارات لتؤدى إلى معنى بذاته ، وهى قد تؤدى إلى نقيضه .

ولست أريد أن أتقصى هنا جميع هذه الالفاظ ، والعبارات ، والصيغ ، حتى لا تطم السيل ، فيجرف أمامه ، الفاظاً عزيزة ، صيغاً جميلة ، وعبارات غالية ، ويكون لهذا كله أثره العقلى على أساليبنا وطرق تعبيرنا .

من ذلك قولهم الآن :

فلان ترك بصمة .

وفلان فى الصورة .

وفلان عنده قناعة .

وأكد «على» .

وتواجد .

والإعلام .

البصمة

أما «البصمة» فلم يكن الناس يعرفون عنها حتى آخر القرن التاسع عشر ، ما عرفوه عنها في القرن العشرين

وحينما عرفوا عنها ما عرفوا ، اقترنت في الأسماع والأذهان بالجريمة والمجرمين . فالبصمة لا تعين أحدا إلا الباحثين عن مرتكبي الجرائم ، ومن ثم لم تكن سبيلا للتمييز أو التفرقة بين رجل من غمار الناس ، ورجل عظيم في مجال الفكر أو الفن أو الأخلاق . والإنسان قد يترك بصمته في مكان ، دون أن يترك فيه أثرا نافعا ، ولا ذكرى حسنة

وفي ذات يوم دخلت متجرا ، واتكأت بيدي على صندوق من الزجاج توضع فيه البضائع المعروضة ، فملأت اللوح الزجاجي العلوي للصندوق بصمات أصابعي ، فوقفت لحظة أتأمل في دلالة هذا الحدث الصغير ، وقلت لنفسي . الآن سأنصرف من هنا ، دون أن اشترى شيئا ، ومع ذلك ستبقى ورائي البصمات ، دون أن يلتفت إليها أحد ، ودون أن تشير إلى ، أو تكشف قليلا أو كثيرا من خصائصي .

وإذا كانت بصمة كل إنسان تخالف بصمة جميع الناس ، وهي بهذا الدليل القاطع على أن إنسانا منا كان في مكان ما ، وأمسك بشيء ما ، إلا أنها لا تصلح دليلا على خلق هذا الإنسان ولا كفايته ، ولا نوازع نفسه ، ولا خواطر عقله . وقد يتحرك عالم كبير ، ومجرم كبير ، أو إنسان لا في العير ولا في النفير بصمات ، ويكشف موظف البحث

الجنائى بصمة كل منهم ، دون أن يكون قادرا على أن يعرف بصمة العالم ، وبصمة الجاهل ، وبصمة المغمور .

ومن الخطل أن نهبط بآثار العظماء وجلائل اعمالهم ، إلى مستوى البصمة التى لا تذكر ولا يعتد بها ، إلا عند ذكر الجريمة وتعقب المجرمين ، والكشف عن شخصياتهم ، وفى لغتنا ، وما ألفنا أن نستعمله عند الإشادة بالأبطال والكبار ، أجيالا بعد أجيال ، ما يغنينا عن هذا التشبيه السيىء الذى يخلو من التكريم الصحيح ، وتتداعى له فى الأذهان ، فكرة الأجرام ، والخروج على القانون ، والإيذاء إلى المجتمع الانسانى .

فى الصورة

يشبه هذا التشبيه الزميم ، اصطلاح جرينا عليه في السنوات الأخيرة ، إذ لم يكن معروفا منذ ربع قرن من الزمان ، وهو اصطلاح أن انسانا ما ، في الصورة بمعنى أن هذا الإنسان على علم بالموضوع موضوع الحديث .

والثابت أن الإنسان يمكن أن يكون في الصورة ، بل في الصميم من الصورة ، وهو لا يدري شيئا عن ظروف أخذ هذه الصورة ، ومن ظهروا فيها معه ، والواقعة التي استدعت هذا التصوير .

وجرائدنا تنشر عند وقوع الحوادث الجنائية الكبرى أو الصغرى ، كقتل في الطريق ، أو سقوط عمارة ، أو تصادم سيارة ، يبدو فيها عدد من الأشخاص الذين كانوا عند أخذ هذه الصور في الطريق على مقربة من مكان الواقعة ، أو في المكان ذاته ، ولو سئلوا عن الحادث الذين تجمعوا له وأخذت صورتهم بمناسبته ، لما استطاعوا أن يقولوا حرفا واحداً ، عن هذا الحادث فقد يبقون جاهلين ، ما إذا كان الحادث تصادما ، أو سرقة أو قتلا أو شجارا . فوجودهم في الصورة ، لا يطلعهم على شيء مطلقا ، وليس هو سبيل المعرفة

والطفل الصغير يأخذه ذووه سنين متعاقبة ، إلى المصور ، في مناسبات متكررة كعيد ميلاده ، وحوله أمه وأبوه وأخوته ، وهو في صدر الصورة ، أو المركز بها ، ومع ذلك ، فهو لا يعرف أصلا ممن حوله ولا المناسبة التي صور فيها

ولكنا نحب أن نستعير من الفرنجة اصطلاحاتهم ، ووسائل تعبيرهم ، ونعد ذلك من باب الإناقة ، أو العلم .

المتغيرات

منذ بضع سنوات تسربت إلى لغتنا عبارة المتغيرات ، نقولها عندما نعني التغيرات ، ونحسب أننا حينما ندخل الميم على الكلمة الأصيلة «تغيرات» تكون أقرب إلى رطانة العلماء ، وأجدر بالاحترام .

والواقع أننا حينما نستبدل بلفظ «التغيرات» ، لفظ «المتغيرات» لا نقول شيئا له معنى ، ونخطئ خطأ جسيما .

فكل شيء في الوجود متغير ، وكلمة «متغيرات» تنطبق على الإنسان والحيوان والجماد ، وظواهر الكون ، وأقسام الأرض ، والأمم ، والشعوب ، والدول والأنظمة ، والقديم والحديث ، والظاهر والخفي .

فإذا أردنا أن نتكلم عما جاء بعد ثورة سنة ١٩٥٢ أو ثورة سنة ١٩١٩ المصريتين أو ثورة ١٧٨٩ أو ١٨٣٠ الفرنسيتين ، أو ثورة ١٩١٧ الروسية ، وقلنا عما جرى بعدها جميعا ، «متغيرات» لكان قولنا ، هراء» لأن المتغيرات واقعة بالثورات وبغيرها ، قبلها وبعدها ، وفي حالات الهدوء والاستمرار وحالات الانتقال والأزمات .

والتعالم مرض وبيل ، إذا لم نقف في وجهه استشرى .

القناعة والاقتناع

ومن أكبر الأخطاء الشائعة هذه الأيام استعمال لفظ «قناعة» بمعنى «الاقتناع» وهو خطأ أحيه الكبار ، قبل الصغار والعلماء قبل الجهال ، ففي الأحاديث التي تسمعها في الاذاعة المسموعة أو المرئية ، نجد الزعيم أو الكاتب ، يقول في رصانة عندي قناعة بكذا وكذا . ويكتب المحللون في بحوثهم الجليلة عن «قناعات» الشعب المصري أو الأمة العربية .

ولسنا في حاجة إلى جهد إذا أردنا أن نفرق بين القناعة والاقتناع

فالقناعة حالة نفسية ، قوامها الرضا بما قسم للإنسان ، أو بشيء معين ، أو كحالة دائمة وملازمة للإنسان والقناعة هي ما قال عنها القول المأثور«أنها كنز لا يفنى» ..

في حين أن الاقتناع هو ثمرة جهد عقلي ، ينتهي بالإنسان إلى التأكد من حقيقة معينة أو واقعة محددة ، وقد يكون المصدر الذي يستمد منه اللفظان واحدا ، وقد يتقاربان باعتبار أن في كليهما عنصر الاكتفاء بمعنى أن المقتنع مكتف بما اقتنع به دون غيره ، والقانع مكتف بما حصل عليه أو بما يحصل عليه ، ولكن الفارق بعد ذلك شاسع فرب« رجل مقتنع بشيء ، وإن كان غير قانع ، كأن يقتنع الإنسان بأنه لن يحصل من عمل ما إلا على مبلغ ما ، ولكنه غير قانع ولا راض .

أكد «على» وتواجد

وقد جرى العرف الآن على أن يضاف حرف الجر «على» إلى لفظ «أكد» مع أن فعل «أكد» متعد بذاته ، ولا يحتاج إلى عون من حروف الجر وفى القاموس أكد الشيء ، وثقه .

ولكن الحالة النفسية التى نعانى منها هذه الأيام ، تدفعنا إلى الشعور بأن اللفظ مألوف ، منذ وقعت دلالته ، ونقص معناه ، فيحتاج إلى إضافة أو تعديل . ومن ذلك العدول عن لفظ «وجد» إلى لفظ تواجد . فالآن نقـــول تواجدت ويجب أن تتواجد ، بمعنى وجدنا أو يجب أن توجد .

وفى القاموس تواجد أورى الوجد من نفسه أى الهوى والميل إلى المحبوب .

فالتواجـــد شيء غيـــر الوجود .. ووجـــد ، كافية للتعبير عن معنـــاها القــديم بلا حاجة إلى هـــذا التغيير المضحك والمؤسف فى وقت واحـــد ، ويزيد من الأسف له . أنه شائع إلى حد نسخ الأصل تماما

الإعلام

أما لفظ الإعلام فقد يحتاج منا إلى كلام طويل نوعا .. فمنذ إنشاء وزارة «الارشاد القومي» دار الحديث ، والجدل ، حول اسمها ، وقد كان الاعتراض على لفظ الارشاد ، أنه وإن كان من الفاظ تراثنا ، إلا أنه اقترن في الاذهان بالوعظ ، والوعظ ، بطبيعته مكروه لأن الوعظ ، صاحب الإنسان منذ طفولته ، فاقترن بهيمنة الوالد والوالدة والمدرس والكبار ، كما اقترن بالقيود المفروضة والتحريم والمنع . كما اقترن بوعظ الوعاظ الذى خلا من الرقة واللطف ، والقدرة على التأثير ، وضرب المثل الحسن

واعترض على هذا اللفظ أيضا ، أن «الارشاد » توحي بتدخل الحكومة وتوجيهها ، والتدخل في أمور الناس ، ورسم الخطط لهم ، وتكر لفظ «الاعلام» تعديل عن لفظ «الارشاد»

وقد كنت أعرف أن لفظ الاعلام والاستعلام في تاريخ السياسة والدعاية تاريخا .

فقد اقامت المانيا النازية كالعهد بصراحتها في كل ما تقوله وتفعله . وزارة اسمها وزارة «الدعاية» ، وأشرف على تنظيمها وتخطيط العمل فيها ، بكفاية نادرة ، «جوزيف جيبلز» أحد كبار زعماء النازية ، ورجل من أقرب الناس إلى «هتلر» وقد نجحت هذه الوزارة نجاحا هائلا في الدعوة لألمانيا النازية ، وفتوحها العسكرية ، واستدراج الانصار لها ، ونشر فكرتها ، بالخطة والكتابة ، والصورة ، وتنظيم الهيئات ، وتأليب

الأنصار. واضطرت دول الغرب أمام هذا النصر الساحق أن تفكر جديا وبسرعة في إنشاء وزارة مماثلة، تكون إدارة مركزية لدعايتها بدلا من الأجهزة العديدة المنتمية لأكثر من وزارة في الدولة. وفكرت طويلا في الاسم الذي تطلقه على هذه الوزارة الجديدة، وانتهت إلى استبعاد لفظ «الدعاية» لأنها نفرت الناس منه في بلادنا وفي العالم، ووصمت دعاية هتلر وأجهزته بالكذب والمبالغة وقلب الحقائق، وإثارة الفزع، وشراء الأنصار.

وانتهت إلى لفظ «الاعلام»، وبدأت وزارات الاعلام في الغرب في مباشرة عملها، فتفوقت على وزارة الدعاية الالمانية لهتلر، النازية، في الكذب، وتصدير الأوهام، ونشر الوعود التي لا يقصد بها إلا التمويه، وادخال الأمل الكاذب في نفوس الأمم المغلوبة على أمرها، وقد ساعد على سوء أعمال وزارة الإعلام الغربية أنها تضامنت مع الصهيونية العاملة لارتباط الفريقين.

فقد انطوى لفظ «الاعلام» على كذبة صارخة وضخمة، وذلك لأنه لا يتصور ولا يصح في العقل أن دولة ما، تنفق الملايين من الجنيهات بل البلايين، لمجرد نشر الحقيقة المجردة، حتى ولو كانت ضدها، وعلى النقيض من مصالحها.

فالاعلام هو الدعاية، مع ادعاء الترفع عن الدعاية، وهو ترفع مكشوف وبالتالي مرفوض.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل، ويقول لكل منهم «ادعوك بدعاية الاسلام».

فالدعاية هي واجب كل صاحب رأي، يؤمن بصحته، ويرى أن من واجبه أن يروج له. والإعلام لفظ غربي، علمنا من كذبه، وخلطه

للحقائق ، وعبث بالواقع الصريح والصادق . ومن ثم فإن من الواجب أن نهجره في صدد الدعوة لانفسنا حتى لا نقلد خصومنا ، ونتبعهم كالمواشى ، هم يقولون «الاعلام» فنقول «الاعلام» ، وهم يقولون «الشرق الاوسط» فنقول «الشرق الأوسط» . وهكذا ..

ومن هنا فقد أصررت أن يكون اسم وزارة الدعاية في بلادنا «الارشاد القومي» ، وقد ذاع الاسم في كل العالم العربي ولا يزال باقيا في عدد من الدول العربية الاسلامية .

ولا يصح الاعتراض على هذا اللفظ باعتباره – كما سبق القول – بأنه يوحي بتدخل الدولة في توجيه الافكار ، وهيمنتها على الرأي العام ، فإذا كنا قد أجزنا للدولة أن تعلم الناس ، وتربيهم وأن تخلق جهازا للتربية والتعليم دون أن نخجل ، فلا أقل من أن نتردد عن إنشاء جهاز للارشاد القومي ، فالإرشاد أقل تكوينا لعقول الناس ، من التعليم ومن التربية .

شريط الذكريات
أنا وأهل الفن

كنت على صلة بالفن وأهله، شببت عن الطوق، فقد شاءت الظروف أن أقضى سنى الصبا المبكر، أو قل سنى الطفولة، فى منزل تملكه بريمادونة مسرح الشيخ سلامة حجازى، والبريمادونة هو لفظ غربى يطلق على الممثلة أو الفنانة الأولى بمسرح ما، وكانت بريمادونة مسرح سلامة حجازى هى السيدة «مليايان» وكان لها بيت جميل مبنى على ما يشبه نظام «الفيلات الحديث» فقد كان يتكون من دورين كبيرين، سكن والدى فى الدور الأعلى منه، وسكن فى الدور الأول، مهندس مثل أبى، هو المهندس عبدالرحمن على الذى نال فيما بعد لقب الباشوية فأصبح عبدالرحمن باشا على، وأسندت إليه رياسة مصلحة الأموال المقررة

وقد بقيت جاهلا لأن صاحبة منزلنا يهودية مصرية، حتى نشأت قضية فلسطين، وأصبح موشى ديان علما من أعلام الصهاينة ووزير دولتهم على أرضنا العربية، وكانت «مليايان» سيدة جميلة الوجه، مليئة الجسم، تصلح لأداء الأدوار التراجيدية، فى تراجيديا سلامة حجازى مثل «أوديب» ، «عطيل» ، «روميو وجوليت» كان لها رداء يفصل قامتها الطويلة وامتلاء جسمها بلا بدانة ولا ترهل، ووجه يطوه الوقار كأنها

● الهلال – نوفمبر ١٩٨٥ .

أميرة، وكانت هذه الفنانة الشهيرة تزورنا في بيتها بين الحين والآخر، فيفرح كل من في الدار بمقدمها، ويجتمعون حولها، ويمتلىء المكان بعبق عطرها، الذي كانت تنثره الفنانة الكبيرة، بحركات ردائها الفاخر الثمين، وبمروحة بيدها التي تروح وتغدو في يدها، تتحرك معها القلوب، وكنت طفلا ـ أشبه بقط المنزل الصغير، فإذا جاءت «ملياديان» لزيارة أهلي، كنت في جانب من صالة الاستقبال الفسيحة، ورحت أتأمل وجهها، واستملى تقاطيع وجهها الجميل المهيب، كأنى أشاهد صورة رائعة ولا أحد يلتفت إلى أو ينتبه إليّ ما أنا فيه من انجذاب.

وقد زادت صلتى بالفنانة الشهيرة، إذ كلفتنى يوما بشراء علبة سجائر كانت معروفة يومذاك اسمها سجائر «كريازى» وأظنها علبة من الصفيح المصقول، وقد رسم عليها منظر جميل، هو منظر أسد تجلس أمامه إمرأة جميلة، عارية الذراعين كأنها ملياديان، خرجت من الواقع، وأخذت مكانها على هذه العلبة السحرية، وكان بين يديها سيجارة، المفروض أنها سيجارة من سجائر «كريازى» وراحت تنفث دخان سيجارتها في وجه الأسد، فطابت له رائحة السيجارة، وغلب عليه ما يشبه النوم من التلذذ، فأغمض عينيه قليلا، وقد عدت إلى ملياديان، وأنا أنظر إلى الصورة، وأتأمل المرأة الفتانة، والسيجارة التي تدغدغ الإحساس، ويخيل إليّ أن شخوص الصورة سيخرجون منها، ويأتون ليجلسوا مع ملياديان في صالون الاستقبال في دارنا.

كانت هذه هي الصفحة الأولى من حياتي مع الفن، زادت عمقا بذهابي مع أخوتى إلى منزل الفنانة الشهيرة في حى الظاهر لأراها في ملابس النوم التي تكشف عن مفاتنها أكثر مما كان يكشف «فستانها»

الرائع، ولعلها قبلتني وضمتني إلى صدرها، وهي لاتعلم أنني مأخوذ بجمالها، على الرغم من سني الصغير، وتجربتي المحدودة مع المرأة وجمال وجهها.

وقد كان بيت ملياديان في شارع له شأن غريب، ذلك هو شارع سلامة المتفرع من شارع زين العابدين، الخارج من ميدان السيدة زينب، فلعله الشارع الوحيد الذى ظفر من الأدب المصرى الحديث برواية كاملة، وهي ليست رواية عادية إذ هى الرواية المصرية الأولى فى الأدب المصرى المعاصر، وأعنى بها «عودة الروح» التى عرف بها توفيق الحكيم، فقد جرت وقائع روايته، والعائلة المصرية التي لعب أفرادها البطولة فيها، في شارع سلامة الذى كنا نسكن فيه بيت «ملياديان». وكان توفيق الحكيم نفسه من سكان هذا الشارع، كما كان أحد أفراد الأسرة التي حدث القراء عن شئونها المعيشية، وأزماتها العاطفية، وكان يسكن في الشارع نفسه أديب من أكبر أدباء مصر، وأحد أعضاء الثالوث الشهير المكون من عباس العقاد، وعبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وكان الأخير من هذا الثالوث، أى المازني، يسكن معنا في شارع سلامة، كما كان يسكن فيه عبدالرحمن الجديلي الذى كان صديقا أو مريدا لأمير الشعراء شوقي، وتلميذا مقربا من الزعيم سعد زغلول، وقد صور معهما في صورة واحدة في منزل شوقي كرمة ابن هانىء» وهو القصر المطل على النيل والذى أصبح متحفا الآن، وقد تم أخذ هذه الصورة، بمناسبة زيارة سعد لأمير الشعراء شوقي فى صباح أحد الأيام وليقدم التهاني الشاعر الكبير بمناسبة عقد قران ابنته فى مساء ذلك اليوم نفسه، وللاعتذار عن عدم الحضور في حفلة عقد

«القرآن لاعتلال صحته، وعدم امكانه الخروج فى المساء» وقد قال الجديلى يومها، «القائلون» فأشار سعد بيده إلى شوقى وقال: هذا هو القائل.

وقد كان شارع سلامة يتوسط ما يشبه مستعمرة أدباء فقد كان يسكن هذا الشارع، مصطفى لطفى المنفلوطى، صاحب النظرات والعبرات وماجدولين والفضيلة، والذى كان يعد من أشهر الكتاب فى ذلك العهد والذى بيع من الطبعة الأولى من كتابه «النظرات» عشرة آلاف نسخة، وكان ذلك فى تلك الأيام، رقما ضخما إذ لم ير المطبوع من أى كتاب عن ألف نسخة يباع منها نصفها فى سنوات إذا راج الكتاب وذاع اسمه.

وكان يقطن قريبا أيضا من شارع سلامة، الشيخ عبدالعزيز البشرى الذى عرف كابرع كاتب الصور العلمية التى عرفت باسم «فى المرآة» التى كان البشرى يكتب فصولها فى جريدة السياسة الأسبوعية. وهى الفصول التى أتاحت لقراء الأدب العربى فى مصر تذوق فصول أقرب ما تكون من آثار الجاحظ، خفة ظل، وبراعة وصف، ودقة تحليل.

ونعود إلى «مليابيان» فالقول إن شهرتها كانت مستمدة من شهرة أستاذها. ورئيس الفرقة التى تعمل فيها وهى فرقة الشيخ سلامة حجازى، وكان سلامة حجازى فى تلك الأيام ليس مطربا محبوبا كما أحب المصريون بعد ذلك محمد عبدالوهاب إذ كان سلامة حجازى إبان بدء شهرته، وذيوع اسمه بطلا بلا منافس ولا أحد يقارنه فى عظمته، وسطوع نجمه، فلم يكن أحد يدانيه فى قوة الصوت، وفخامته وجمال الصورة، فضلا عن اتقانه التمثيل وبراعته فى التلحين، حتى كاد يجمع

فى شخصية المطرب، والمؤذن والخطيب، والملحن المجدد، وكان محبو صوته، والمعجبون بفنه، يقفون أمام مسرحه، عند خروجه منه فى الليل المتأخر، ودخوله إليه فى المساء المبكر، وكانوا يتزاحمون لكى يحيوه، أو يقبلوا يديه، أو وجنتيه، أو يلمسون ثيابه ويشمون رائحته، وكثيرا ما حلوا سيور خيول عربته ليسحبوها بأنفسهم. وكان إذا دخل المسرح ولا سيما بعد إصابته بالفالج، يحيونه وقوفا، ويصفقون حتى تدمى أيديهم، وكان إذا بدأ الغناء ران عليهم صمت ووقور محترم.

وجدت أم كلثوم فى أول حياتها منافسة لها هى فتحية أحمد، وقد حاول بعض الناس، أن يبالغ فى إعجابه بفتحية أحمد، ثم اختفت فتحية أحمد وبقى عبدالوهاب ندا «لأم كلثوم» يقاسمها الشهرة، ويزاحمها على حب وإعجاب الجماهير العربية، ثم ظهر فريد الأطرش وشقيقته إسمهان صاحبة الصوت القوى المعبر الذى كان ينتظر له نجاح كبير، لولا أن المنية عاجلتها، أما سلامة حجازى فقد بقى النجم الوحيد الساطع فى سماء الفن والغناء والطرب والتلحين والتمثيل، حتى توفاه الله، ولذلك كانت «مليادبان» لأنها بطلة التمثيل والفن المتفرد الموهوب والمحبوب، شهرة تتعقبها الجماهير، وتحيى فى شخصها زعيم الفن فى أيامها.

ومضت السنوات حتى ظهر فى مدرسة الخديوية شاب بعثته وزارة المعارف «التربية والتعليم» ليدرس التاريخ فى انجلترا، وعاد وقد امتلأ صدره بآمال جسام، منها أن يجعل التمثيل مكملا لتعليم التلاميذ وتثقيفهم، ومعهدا لترقيق أذواقهم، ومدخلا إلى معرفة الفنون الأخرى من غناء وموسيقى ونحت وتصوير، ذلك هو المرحوم الأستاذ محمود مراد الذى درس التاريخ فى مدرسة الخديوية، وأنشأ بها أول فرقة تمثيلية فى

مدرسة ثانوية حكومية، ووضع لها أوبريت كاملاً اسمه «مجد رمسيس»، وقد ألف لهذه الرواية الموسيقية الشعر والألحان، ودعا ملحنين شبانا كانوا في ذلك العهد مبتدئين منهم على صقر على وعبدالرحمن على، فوضعوا لهذه الباكورة ألحانها، ثم تعرف على «سيد درويش» وعلى «محمد تيمور» ووضع لسيد درويش أوبريت الباروكة، فازدهر في مصر المسرح المدرسي، وأصبح في كل مدرسة بالقاهرة فرقة مسرحية، ثم انتقل حب المسرح إلى مدارس الوجهين القبلي والبحري، ودعى كبار الممثلين لتدريب الطلبة، فغرسوا في قلوب بعضهم حب هذا الفن الجميل، فتعلقوا به، وأصبحوا بعد ذلك فنانين كبارا، وقد برز وسط هذه النهضة الفنية الوقورة الناشئة في حضن المدرسة الثانوية وبإشراف وزارة التعليم ومشاركة الأدباء وكبار الفنانين أمثال عزيز عيد وجورج أبيض وأحمد علام الذين أحسنوا تدريب الكوكبة الأولى من هواة المسرح الذي وقعت على عاتقهم النهضة المسرحية القديمة يتصدر هؤلاء جميعا، وتفوق عليهم أحمد محمود حسين، الطالب بالمدرسة الخديوية فأصبح معروفا لزملائه يشار إليه بالبنان قبل أن يدعو إلى مشروع القرش، وقبل أن يؤسس جمعية مصر الفتاة التي أصبحت حزبا تتلمذ فيه، وتعلم على يديه شباب مصر الحديثة، في مقدمتهم جمال عبدالناصر.

ولصلتي الوثيقة بأحمد حسين إبان تزعمه لنهضة التمثيل في المدارس تعرفت على عدد كبير من زعماء هذه النهضة، أذكر منهم محمود المليجي الذي كان زميل أحمد وتلميذا له، وقد تأثر به وحاول أن يحاكيه ويقلده

وفي ذات يوم كنت في الزقازيق في الإجازة السنوية كعادتي السنوية، وقد كان لي خال من محاميي هذه المدينة، وألفت أن أقضي في

ضيافته على الأقل شهرا، أتنقل خلاله بين المحكمة صباحا والمكتب مساء أشاهد المتقاضين وأسمع المحامين وأتابع الجنايات الكبيرة، وكان في الزقازيق في تلك الفترة مجموعة من أكبر محاميي مصر بينهم فكرى أباظة وعلى أيوب الذى عين وزيرا وحامد فهمى باشا الذى أصبح مستشارا نايبا من مستشارى محكمة النقض.

وفى ذات يوم كنت في المكتب، مكتب خالى الأستاذ محمد على حمدى رحمه الله فسمعت جلبة لم أعهدها، فجريت نحو الباب، فإذا بي أمام مجموعة من الشبان لايتجاوز عمر أكبرهم العشرين، وكان في مقدمتهم أحمد حسين، يجاوره زميله الذى عرفته في مصر محمود المليجى والممثل أحمد فرج النحاس، ووقف وراءهم قليلا طالب طب هو عبدالرحمن الصدر الذى أصبح فيما بعد أحد كبار جراحى مصر، وقد شغل منصب أستاذ الجراحة وعميد كلية الطب في جامعة الإسكندرية، وكانت معهم فتاة لبنانية حديثة السن اسمها جوليت صيداوى، وسألت ما الخبر فقالوا لى أنهم ألفوا فرقة مسرحية من أنفسهم، وقرروا أن يطوفوا بها خلال فترة الصيف بعض مدن الريف، وقد وقع اختيارهم على مدينة الزقازيق ثم يتبعونها بمدينة ميت غمر، وقد هدتهم الحيلة إلى اختيار رواية فكاهية اسمها «دخول الحمام مش زى خروجه» وكان سر اختيار هذه المسرحية الناجحة أن مؤلفها هو الكاتب المسرحى المشهور يومذاك «إبراهيم رمزى بك» وكان المؤلف شقيق محافظ الزقازيق اسماعيل باشا رمزى فظنوا أن العلاقة بين المؤلف والمحافظ ستساعد على مد يد المعونة للفرقة إن تعثرت.

ورأيت نفسي واقفا أمام الأمر الواقع.. فاضطررت أن أشارك في أعمال الفرقة قبل ليلة الافتتاح من المشاركة في عملية التلقين ولكن لم

البث حتى دعيت لأشارك فيما هو أهم وهو تموين وتغذية الفرقة التى جاءت وليس عندها ما يقيم الأود، ولم أر بأساً من أن أسطو على مطبخ خالى دون استئذان، ولما اشتدت أزمة الفرقة، دعوتهم إلى عملية سطو منظم فى الليل بعد أن نام أهل بيت الخال العزيز، فشفوا كل ما كان فى الحلل والأطباق والنمليات وتركوا المطبخ قاعا صفصفا.

وجاءت ليلة الافتتاح «فكان المسرح الصغير بدوره قاعا صفصفا إذ لم يقبل على مشاهدة رواية «دخول الحمام» إلا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك جاء المحافظ ليجلس فى بنوار الشرف نزولا على مقتضى العلاقة بين المؤلف والمحافظ.. ومع ذلك أدى الممثلون أدوارهم ببراعة دلت على مواهبهم التى نضجت فيما بعد.. وضحك الحاضرون حتى امتلأت عيونهم بالدمع.

وفى صباح اليوم التالى واجهت الفرقة المشكلة الكبرى وهى كيفية توفير المال اللازم للعودة إلى القاهرة، فذهبوا إلى مكتب المحافظ يتقدمهم خالى ليطلبوا المعونة باعتبار أن المحافظة هى عون كل محتاج وكل من انقطع به السبيل، وقد أوصى الله خيرا بأبناء السبيل، ورق قلب السيد المحافظ وأخرج من اعتماد المصروفات السرية أو ما يشبهها، ما يلزم الفرقة لتعود إلى القاهرة، فى الدرجة الثالثة، وقد وقف بعض الذين شاهدوا المسرحية فى الليلة السابقة على الرصيف وهم يلوحون بأيديهم للفرقة العائدة، وكلتها «ساشكوباترا» وزعيمه «دون كيشوت»، وهم بين الضحك ودموع الفراق، ثم سافرت إلى أسيوط.. لأكون رئيس فرقة التمثيل فى مدرسة أسيوط الثانوية وليزاملنى فى المدرسة اثنان من نجوم المسرح والسينما والتليفزيون عماد حمدى الممثل ونيازى مصطفى المخرج وحسن رمزى.

أبوالهول قال لى...

(كتاب مجهول)

لا احسب أن الذين سمعوا بهذا الكتاب الفريد الخصيب، المليء بالحقائق التاريخية القديمة والحديثة، المتعلقة بالشرق والغرب، والخواطر الأدبية واللمحات الفلسفية، يزيدون على أصابع اليدين في الوطن العربي كله، وأن كاتبه كان أثناء ظهور هذا الكتاب، ونشره على الناس، ملء السمع والبصر، فقد كان رئيس أقدم الأحزاب المصرية قاطبة، ونعني به حزب مصطفى كامل الذي أسس في ديسمبر سنة ١٩٠٧ قبل أن يؤسس حزب الأمة الذي تحدث باسمه ونشر أفكاره أحمد لطفي السيد الذي بايعه عدد من مريديه والمقربين بفضله بوصفه أستاذ الجيل، دون أن يحددوا الجيل، كما سبق في الوجود جميع الأحزاب التي تشكلت بعد ثورة سنة ١٩١٩ وفي مقدمتها حزب الوفد الذي قاده زعيم هذه الثورة المجيدة سعد زغلول، وما تفرع على هذه الأحزاب، حينما تفرقت كلمة الأمة، وانهمكت فيما يمكن تسميته بالحرب الأهلية

وكان مؤلف ذلك الكتاب الفذ فوق ذلك نقيبا المحامين ووزيرا لأكثر من مرة، وأحد باشوات مصر، وهو بهذا كله أحد أهل الصدارة، وكانت موهبته تؤهله لهذه الصدارة ذاتها وتؤكد حقه فيها، فقد كان من أبرع

● الهلال - ديسمبر ١٩٨٥ .

المتكلمين، يتدفق إذا خطب، وينتقى عباراته، وهو يتدفق فيأتى عذبة وتزداد عذوبة لجمال جرس صوته، وكان يؤكد أثر خطابته فى النفوس، قامة طويلة، وطلعة مهيبة، ورصانة فى الحركة وحسن إيماءة فى اللغة.

ولكن لا أظن أن هذه الأوصاف كلها والنعوت قد أعانت القارىء الكريم على تعين صاحب الشخصية مؤلف الكتاب الذى مضى بين الألف أو ملايين الكتب التى تقذف بها المطابع كتابا مجهولا، لم يثر ناقدا، على الهجوم عليه أو التنويه به، ولم يحفز قارئا هاويا لدعوة زملائه القراء ليقتنوه ويطالعوه ومع ذلك فهو كتاب قيم جدير بأن يحرص على الإنتفاع به، ألوف من عشاق الثقافة الحرة، ومن محبى الإطلاع.

وإنى لا أطيل فى استغلال صبر القارىء، فأطلعه على اسم المؤلف، هو الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى فى ذلك الوقت على قائمة رؤساء هذا الحزب العتيد وإن الذى بعث الروح الوطنية وحفز الشعب المصرى على مقاومة الاحتلال البريطانى، وبث الكراهية له فى القلوب، ودعا إلى مقاطعة أنصاره والتصدى لسياساته بكل وسيلة وفى غير هوادة، وقد فاتنى أن أقول لك أن محمد حافظ رمضان باشا الذى اجتمعت له كل هذه المواهب، كان يتمتع بطاقة رياضية عظيمة، هيأت له فرصة الحصول على شهادة دالة على وصوله إلى قمة جبل (مون بلان) وهى قمة شاهقة من قمم جبال الألب الأوربية التى لم يصعد إليها، إلا عدد قليل يعد على أصابع اليدين على الأكثر، وكلهم من أبطال الرياضة ذوى الأجسام التى تجمع بين القوة والرشاقة والمرونة.

ولعل شهرة حافظ رمضان السياسية، جنت على مواهبه الأدبية، فلم يفطن أحد إلى أن الكتاب الذى طلع به على القراء به مادة دسمة، معروضة فى أسلوب شائق وعبارة أخاذة وعلى الناس لم يفطنوا جميعا

أن هذا الكتاب البديع، هو أول كتاب يؤلفه زعيم من زعماء السياسة فى مصر بعد وفاة زعيمى الحزب الوطنى الأولين مصطفى كامل ومحمد فريد، اللذين ألف أولهما كتاب المسألة الشرقية وكتاب اليابان بلاد الشمس المشرقة، وكتاب أخطار الاحتلال البريطانى لمصر، وألف ثانيهما كتاب تاريخ الدولة العثمانية، فكل الزعماء الذين جاءوا بعد ذلك شغلتهم مشاغل السياسة المحتدمة، فلم يؤلفوا كتابا، ولم يجمع لهم أحد خطبهم التى ألقوها فى المناسبات العديدة، ولا يهم أن تكون من وضعهم، فهى تعبر عن آرائهم ومواقفهم وقد قدم المؤلف كتابه بإهداء بليغ وعذب فيه: «إلى ناحت «أبى الهول» البعيد عنا بما مر من الدهر، القريبة منا، بما خالد من الصخر الذى أبدع أقدم تمثال عرفه التاريخ، «عسى أن يكون فى هذا الإهداء بعض الاعتراف بفضل كل خادم للإنسانية» بقى عمله وضاع اسمه، وكل عامل منسى وكل جندى مجهول».

وقال فى التعريف بكتابه:

« ولما كنت قد استوحيت أبا الهول بما خلطت للأجيال القادمة من غير الأجيال العابرة، واستلهمت رفيف الأرواح حوله، وحفيف العصور فى ساحته» ولا أحسب أن القارىء سيفته التأمل فى هذا المعنى الجميل» معنى أن تمثال (أبوالهول) أقدم تمثال عرفته الإنسانية، كان رمزا على كل عمل عظيم خالد، عمله فنان متمكن من فنه، ومتمرس، بأساليب وطرائق مهنته أو هوايته، ولا يبغى جزاء ولا شكورا ولا يسعى إلى تخليد اسمه، أو الإشادة بأثره، بدليل أنه لم يترك على التمثال العظيم الذى تركه يواجه عصف الرياح، وعدوان الرمال وقسوة الأيام

والليالى، التى تبلى الصخر، وتمحو الصروح العالية، والقصور الشامخة.

وقد فسر المؤلف لماذا اختار لكتابه هذا العنوان الغريب، وكيف تحدث إليه أبوالهول ومتى، فقال فى السطور الأولى من الفصل الأول من كتابه:

«لقد أويت فى إحدى ليالى الخريف إلى مضجعى مبكرا على خلاف عادتى، واستيقظت فى السحر بعد أن أخذت قسطى من الراحة والنوم، وقد أحسست فى نفسى رغبة في الخروج إلى العراء واستقبل النسيم العليل وأقر عينى بجمال الشروق، وانتجع مكانا معينا بعيدا عن الضوضاء أنعم فيه بالعزلة الهادئة واستجلى مباهج الطبيعة وجمالها، فخرجت والناس نيام، ووليت شطر أهرام الجيزة، ثم انحدرت فى سفحها نحو اليمين، وإذا بى أجد نفسى أمام أبى الهول، وقد أخذتنى روعة لمرآه فجلست شاخصا إليه، والمعبد خلفى، حتى تنفس الصبح، ورأيت وجهه يستقبل مطلع الشمس، فتذكرت أنشودة (رع) أبى الآلهة عند المصريين الأقدمين، تلك الأنشودة المدونة على ورق البردى التى تقول «أنت إله السماء، تطلع على العالم فتملأ القلوب فرحا، وترسل أشعتك فى الوجود فتملأ النفوس بشرا، والعيون نورا، فالسلام عليك أنت الأبدى السرمدى»، وتذكرت ما جاء عن النور في التوراة: أن النور هو أول ما خلق فى الوجود، وتذكرت كذلك ما جاء فى الذكر الحكيم فى «سورة النور»:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة

زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم».

فالمؤلف منذ السطور الأولى يكشف عن اتساع ثقافته، وتنوع مصادرها، وأن كتابه سيكون خلاصة المطالعة التي بدأها منذ شبابه، والتي عززها بأسفار متعددة، في الشرق والغرب، عرف فيها ألوانا لاتحصى من الفنون، وتذوق فيها آثارا انتجها فنانون مبدعون، ينتمون لأجناس متباينة، ويتمتعون بمواهب مختلفة، من المثال والمصورين والنحاتين والمزخرفين، فكتاب «أبوالهول» قال لي هو في الواقع خلاصة تجربة أدبية وعقلية لرجل قرأ كثيرا، وعاش طويلا، وعرف من الأحداث شيئا لايحصى وخالط الرجال في مئات من الأوطان مفكرين وزعماء، ورجال سياسة ومصوري شعوب، وصحفيين ومؤرخين وهذا الطراز من الكتب سيكون عادة موسوعة أدب وتاريخ وعلم وسياسة والعنوان لا يكون عادة في هذا الضرب من الكتب إلا مجرد ذريعة لعرض هذه الدنيا الطويلة العريضة من الأفكار والحقائق وصور الشخصيات وجوامع الكلمة، وخفايا التاريخ، « فسيمون دي بوفوار » حينما وضعت كتابها «الجنس الثاني» وأرادت أن تتحدث فيه عن المرأة في مختلف أدوار التاريخ، وجميع ما يصدر عن المرأة، في كل صورة ووضع، فتحدثت عن المرأة طفلة، وصبية، وشابة، وأما وزوجة وعشيقة، وراهبة، وغنية، وملكة وفنانة، وجاسوسة، وقديسة، ومتصوفة، وخائنة حان، ومريضة، وجميلة وقبيحة.

وقد اتخذت المؤلفة الفرنسية من هذا الموضوع المترامي الآفاق،

والطور والعريض، وسيلة لعرض آلاف من الأفكار في كل جانب من جوانب الحياة وزينت كتابها بمقدمات من أعظم روايات شكسبير وتولستوي وجيته ومسرحيات سوفوكليس، وبرناردشو، وبيراندللو، وأشعار إمرىء القيس . والفردوسي، وشوقي وإقبال.. ولم يبلغ حافظ رمضان شأن، سيمون دي بوفوار، لأنه لم يكن كتابا منقطعا لهذه الحرفة الشاقة، ولكن كتابه كان مع ذلك ذخيرة حية من التاريخ والأدب والفكر السياسي، واللمسات الفلسفية، والخواطر الروحية، وقد فسر كيف تم اللقاء بينه وبين أبي الهول ومن ثم تم الإيحاء والتلقي فقال «وفيما أنا غايته سمعت هاتفا يقول لي.

ألا ترى الرابض أمامك في جسم الأسد، ورأس الإنسان، إنه رمز الإنسانية في حياتها المادية، والروحية والتفت أمامي وإذا بي أرى أبا الهول، وقد راعني ما يلقاه وشفته من التشويه، فأخذت أسأل نفسي: أية يد همجية ياترى تلك التي امتدت إليه فمسخت ابتسامته، العلوية، وجعلت منها ابتسامة ساخرة من الإنسانية.

أهي يد الإنسان أم الطبيعة؟

«أهي يد المماليك في تمريناتهم الحربية أم يد الفرنسيين في مناوراتهم العسكرية».

«ثم تذكرت أن المماليك كانوا يعتقدون أن لحارس الصحراء أسرارا غامضة، وكانت معتقداتهم تلقي في روعهم الرهبة منه لا الرغبة في الاستخفاف به ثم قلت لنفسي لماذا وقع التشويه على رأس الإنسان، وهو رمز العقل، ولم يقع على جسم الأسد وهو رمز القوة، أوقع هذا الاعتداء لأن القوة تهاب ولا تخشى العقل.

ولاشك في أن المؤلف كان موفقا حينما اختار أباالهول مصدرا

ومبعثا لإلهامه، فأبوالهول لقي من المصريين أكثر من تمثال، وكان فخرهم به، واعتدادهم بانتسابهم إلى القوم الذين صنعوه، والفن الذي أبدعه والفكرة التي أخرجته، متجددا على طول العصور والأوقات والتأمل في التمثال وعنصرية المكونين له، رأس الإنسان وجسم الأسد، تهزهم من الأعماق، ولاسيما وقد تم هذا الاتحاد، في تمثال قديم غاية القدم، ووضعه أسلافهم على حافة الصحراء البعيدة التي لا نهاية لها، والتي تخيف سكونها الشبيه بسكون أبي الهول، فلما اعتبروا أبا الهول حارسا للصحراء، قصدوا من ذلك أنه حارس أسرارها، وحامي حمى وادي النيل الذي يجري تحت أقدامه ليضع أعظم صورة من صور التناقض، الصحراء بجدبها ووادي النيل بخصوبته وخضرته، وكثرة مائه، والذي يأتي بدوره من أصقاع مجهولة، فكان كل ما يتصل بمصر عند موقع أبي الهول عالم من الأسرار، التي تقدمه على تاريخ مصر، سحرا لا يرد، وجاذبية لاتقاوم.

ثم مضى حافظ رمضان في تخيلاته التي أوحى بها أبوالهول فقال:

«برزت مني التفاتة إلى أقدم تمثال لم يعرف له التاريخ عهدا فبدت لي عيناه المصريتان اللتان كانتا متجهتان نحو الأبدية اللا نهائية، وكأنما تتحولان نحوي وتدعوانني إلى المحاكمة فوقفت بعدما أطرقت رأسي وأخذت أسأل نفسي:

أي حديث ياترى ذلك الذي يدور بيني وبين هذا الذي عاصر الكليم والمسيح وعرفهما رسولين يمهدان النفس في هداية الناس.

كيف أرتب الحديث مع ذلك الذي عرف الإنسانية في مهدها وشهد عبر المتقدمين وخبر أحوال المتأخرين ورأى الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والجبابرة.

وقد كنت أود أن أنقل له طرائف وغرائب، وصورا قاتمة، مما فاض

به هذا السفر الجميل الذى بلغت صفحاته ٤٢٥ صفحة وبلغت فصوله عشرة سمى كل فصل منها بالحديث، وقد انطوى كل حديث على فصول فرعية بلغت عدتها أحيانا عشرة أحيانا وأحيانا أكثر من عشرين وقد كان الفصل الأول من الحديث الأول بعنوان رؤية تحتمس، والفصل الأخير ديانات الفراعنة، في حين أن الفصل الأول في الحديث الثاني كان بعنوان تطور الحضارة عند الإغريق ويتحدث في الفصل الثالث عن الحضارة الرومانية، كما يتحدث في الحديث الرابع عن يسوع المسيح والنصرانية، ويخصص الحديث الخامس للرسالة الإسلامية، ثم يتحدث عن الدولة الأوروبية في الحديث التالي ثم عن الدولة العباسية في الحديث التالي ثم عن الحروب الصليبية، ثم عن ضعف البابوية والانقسام الكبير في الكنيسة، ثم يختتم الأحاديث بكلام جيد عن الاكتشافات الجغرافية، فكأنه تلخيص للحضارة الإنسانية على مثال النسق الذى اتبعه المؤرخ الأمريكي ديورانت. على أن هذا كله هو الجزء الأول الذى كان المؤلف ينوى إتمامه، ولكن يبدو أن سوء استقبال الكتاب، وعدم احتفال النقاد به، هبط من همته وقد ألحق المؤلف بكتابه عددا من الفهارس المفيدة والمعينة للكاتب أولها فهرس الأعلام ثم فهرس الأماكن وهو فهرس لم أر له نظيرا في الكتب عادة، ثم فهرس الأقوام والأمم، وهو أقدر من سابقه وترى في هذا الفهرس إشارات إلى الأريين وآل يعقوب والإباضية وأبناء الحسين، وأبناء لاوى، والأتابكة، والأتروسك، والاثنا عشر وأحفاد شرلمان وإخوان الصفا.

وبالجملة، يأتي هذا الكتاب فذا وثمرة جهد كبير، واطلاع واسع، وإخلاص للوطن والثقافة وحب عميق للإنسانية.

البـــاب الثانى :

شخصيـــات

أثر الشيخ عبدالعزيز جاويش فى حياة طه حسين

الشيخ عبدالعزيز جاويش ، السياسي والكاتب الوطني هو الى دفع طه حسين الى الصحافة والى النقد الأدبي وإلى الجامعة المصرية الأهلية والي اللغة الفرنسية ، ثم إلى فكرة السفر إلى باريس وطلب العلم هناك.

يحسب الكثيرون أن الحملات التي قام بها «اللواء» جريدة مصطفى كامل ثم عبدالعزيز جاويش ، كانت صراخا عنيفا في الهواء ، أو أنها كانت حماسة كلامية مسرفة ، وأنها لذلك لم تحقق شيئا ، في حين أن أسلوب التعقل والتبصر الذى إلتزمه خصوم «اللواء» والذى مال بهم إلى التماس صداقة الاحتلال البريطاني وممثليه ، وخطب ودهم ، وتبادل الرأى معهم ، هو الطريق السوى السليم . وما ذهب إليه هؤلاء هو الخطأ بعينه ، فإن هذه الحملات - حملات اللواء - وإن بدت لبعض المستعقلين أنها اتسمت بالعنف والشدة أحيانا - إلا أنها كانت فى واقع الأمر كالقوارع التى تخرج الناس من جمودهم ، وتبث الشجاعة فى قلوبهم وأعصابهم ، وربما كانت وحدها الباعث في كل ما شمل البلاد من الرغبة في الإصلاح وكراهية النظام القديم ، والإقدام على تجديد التفكير الدينى والاجتماعى ، فلولا هذه الصيحات المدوية التى انشق

● الهلال - نوفمبر ١٩٨٣ .

عليها قلب مصطفى كامل وعبدالعزيز جاويش ، لما قامت حركة إصلاح دينى ، ولا ترجم كتاب عن اللغات الأوربية ، ولا نبتت فكرة إنشاء جمعية خيرية ، أو بناء مستشفى أو إقامة جامعة أو إرسال بعثة للخارج ، وقد صورت جريدة فرنسية فى عام ١٩٠٩ أثر اللواء فقالت : قد شرح أحد السائحين الذين جالوا فى الديار المصرية ذلك الآن فقال :

«إن الذى يزور الآن قرى مصر ، يرى فيها أمرا مستحدثا ماكان ليخطر على بال أحد ، يرى حلقات من الفلاحين حول رجل يتصدر مصطبة يتحدث وهم ينصتون إليه ، وهذا الرجل فى العادة من القصاصين الذين يروون القصص القديمة ولكنه يقرأ الآن «اللواء» ، ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم ، وبذلك يبذر فى قلوب أولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع ، بذرة جديدة قد تنمو وتثمر فى مستقبل الأيام» .

على أن نشاط الشيخ جاويش لم يذهب كله جهدا سياسيا بل إنه التفت فى عناية واهتمام بالغين ، إلى النواحى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وبذر فيها بذورا كانت هى أصول ما شهدته البلاد بعد ذلك من تطورات وحركات تحرر اجتماعى ، وتحرر اقتصادى ، يبغى فى كل منها قلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى رانت على صدر الشعب لتزهق أنفاسه أو تقيد حركاته . وقد بدأ الحزب الوطنى بقيادة عبدالعزيز جاويش وأحمد لطفى وآخرين من زعماء الشعب وقادته فى إنشاء مدارس الشعب ، لتوفير الثقافة الأساسية والسياسية والاجتماعية للعمال فى المدن ، وقام فيها الشيخ بتدريس مادة الدين ، وقد بدأت هذه المدارس بواحدة فى بولاق حي العمال آنذاك ، وعززت

بثلاث مدارس أخرى فى أقسام الخليفة وشبرا والعباسية . ولم تكن هذه المدارس مجرد معاهد ليلية مجانية لتعليم العمال ، بل كانت فى واقع الأمر خلايا للفكر السياسى ، وإرهاصات بالعمل السياسى فى قالب جديد ، يوثق العلاقة بين الحركة الوطنية والعمال ، ويثير فى نفوس هذه الطبقة المحرومة ماديا ومعنويا ، الشوق إلى التعليم وتحصيل المعرفة ، وإشعارها بأن الثقافة سلاح لا يجوز لها أن تهمله ، وقد تخرج فى هذه المدارس مئات انضموا إلى الحركة الوطنية والعمالية ، وقادوها فكانوا قادة فى المجالين ، ضربوا المثل لاخوانهم فى الايمان بأن العلاقة بين الوطنية والتحرر الاجتماعى ، شىء واحد - يكمل بعضه بعضا ، وقد جاء الدليل على صحة هذه النظرية سريعا ، فقد دعا الحزب الوطنى إلى تشكيل نقابات للعمال ، وكانت باكورة هذه النقابات العمالية «نقابة عمال المصانع اليدوية» وقام الشيخ بوضع قانونها ، وأسندت إليه رئاستها ، فأعجب لشيخ ذى عمامة فى هذا الوقت المبكر ، يفكر فى إنشاء نقابة عمالية ثم يضع قانونها ، ثم يتولى رئاستها ، وهو فى الوقت نفسه ، يرأس تحرير أكبر جريدة يومية سياسية ، فيبذر بيد بذور الثورة السياسية ويبذر باليد الأخرى بذور الثورة الاجتماعية والاقتصادية ولا شك أن الميدان المفضل للشيخ مع بذله أقصى الجهد فى الميدان السياسى والاجتماعى هو مجال التعليم ، فقد خلق معلما ، وانتهى معلما ، ولذلك لا يتولانا شىء من الدهشة حينما نطالع البرنامج الذى أعده الشيخ لاصلاح التعليم فى بلادنا ، فدعا الى أفكار متقدمة بمعيار الزمان الذى وضع فيه هذا البرنامج ، وبمعيار زماننا ، فقد

اقترح مثلا انشاء «رياض الأطفال» التي انشئت في بلادنا بعد ذلك بنحو ربع قرن ، واسماها «بساتين الأطفال» . وشرح فكرتها بأن منها تلقن للأطفال منذ تفتح حياتهم في الثالثة أو الرابعة من العمر ، عن طريق الأغاني والأناشيد والرسم والأعمال اليدوية ، والألعاب حتى يبلغ السابعة فيدخل الى مرحلة التعليم الابتدائي ، وقد حَصل قدرا غير قليل من المعرفة في جو يحبب له المدرسة ويحفظه في فترة الطفولة الأولي من الفراغ الذي قد يتلف مواهبه «بحجبها» ثم نراه شديد الاهتمام بالتعليم الفني ، حتى لا يكون التعليم في بلادنا كله ، حشوا للذاكرة أو الحافظة، بالمعلومات ، علي حسابات ملكات الطفل أو التلميذ ومواهبه الأخرى اليدوية . وهو الأمر الذي يعتبر إلى الآن آفة يشكو منها نظام التعليم عندنا ، لم يبرأ منها .

على أن في حياة الشيخ عبدالعزيز جاويش جانبا آخر ، كان عظيم الأثر ، ولكنه ضاع في حياته الصاخبة العنيفة . الا أن الدكتور طه حسين كشف عن هذا الجانب الخطير ، حينما حدثنا في الجزء الثالث من كتاب الأيام عن بداية حياته . فقد عرفنا في هذا الجزء لأول مرة أن يد الشيخ جاويش هي التي دفعته إلى الصحافة ، والى النقد الأدبي ، والى الجامعة وأخيرا هي اليد التي جذبته الى تعلم اللغة الفرنسية ، وألقت إليه فكرة السفر الى باريس ، وطلب العلم فيها . لقد كان الثابت لدي الجميع ، أن طه حسين هو غرس يد أحمد لطفي السيد ، وأنه مدين له بكل مافي حياته ، من تطور التعليم من دنيا الأزهر ، الى عالم الجامعات الحديثة ، ومن كتب التراث ، الى الأدب العربي ، بكل مافيه

من ثروة متعددة الألوان والمناهج والدروب ، وأنه لولا ارتباط طه حسين بلطفي السيد ، وتتلمذه عليه ، لبقى أزهريا ، كغيره من الأزهريين الذين وهبهم الله القدرة على الكتابة والخطابة والحديث ، ولكنه في حدود الأدب العربي التقليدي ، لا يزيد عليه ولا يخرج من نطاقه . ولكن اسمع ماقاله طه حسين . «واتصل الفتى (طه حسين) كذلك بالشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فأكثر الاختلاف اليه ، والاستماع له – وماهى الا أن أخذ يجرب نفسه فى الكتابة ، كما جرب نفسه في الشعر على يد استاذه المرصفى «سيد المرصفي» ، ولم يكد الفتى يأخذ في الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، فلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام ، ولكنه كان نقدا محافظا ، مغاليا في المحافظة ، الا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهناك كان يخرج حتى طور الاعتدال ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبدالعزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك ، وحثا عليه» .

ثم استمر يتحدث عن أستاذه عبدالعزيز جاويش ، بعد أن أشار الى صلته باستاذه الثانى أحمد لطفي السيد الذي كان يزوره كل يوم فى مكتبه بدار الجريدة فلا يحجب عنه ، وانما يلقاه هاشا له ، مرحبا به ، فاتحا أبوابا من التفكير لم تكن تخطر له على بال ثم قال : كان الفتى «طه حسين» يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فيسمع له صوتا عذبا وحديثا لينا رقيقا ، ويرى من وراء هذا اللين ، وتلك الحنوية عنفا أى عنف ، أن ذكر السياسة أو ذكر الأزهر وشيوخه،

أو ذكر بعض الكتّاب الظاهرين الذين لا يكتبون في صحف الحزب الوطني . وكان يحبب العنف إلى الفتى ، ويرغبه فيه ، ويزين في قلبه الجهر بخصوم الشيخ ، والنعي عليهم ، في غير تحفظ ولا إحياط ، فهو يرى أنهم آفة هذا الوطن ، يحولون بينه وبين التقدم ، بما كانوا يلجون فيه من المحافظة ، ويعينون عليه الظالمين ، بموالاتهم للخديو ، ومصانعتهم للانجليز .

ثم قال :

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطي ، راضيا عنها معجبا بها ، ثم لم يلبث أن سئمها ، وانصرف عنها ، ولكنه لم يكد يراها في كتاب مجموعة ، حتى ضاق بها أشد الضيق ، وكتب يصفها ، ويغض منها ، وفرح الشيخ عبدالعزيز جاويش بما كتب الفتى أشد الفرح واستزاده من الكتابة وحرضه عليها ، وألح في التحريض ، حتى ألقى في روعه الا يدع فصلا من فصول المنفلوطي إلا وأختصه بفصل من النقد ، وكان الفتى قديم المذهب في الأدب ، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحتمل من اللفظ الا بمكانه من معجمات اللغة ، فكان عيب المنفلوطي عنده أن يخطىء في اللغة ويضع الألفاظ في غير مواضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت في لسان العرب ، ولا في القاموس المحيط .

وقد لاحظ الفتى أن أحاديثه تلك عن المنفلوطي قد شغلت الناس حتى تحدث إليه فيها كل من يلقاه الا رجلا واحدا ، لم يشر إليها قط وهو مدير الجريدة «لطفي السيد» .

ثم قال .

«ولكن الشيخ عبدالعزيز جاويش فضلا على الفتى أي فضل ، فهو الذي ألقى في روع الفتى فكرة السفر الى أوربا حين قال له ذات يوم لابد من إرسالك الى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام» . لم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتى استقر في يقينه أن ليس له بد من عبور البحر ، على أي نحو من الأنحاء ، وأصبح الفتى كاتبا بفضل هذين الرجلين : لطفي السيد ، وعبدالعزيز جاويش ، وأصبح كاتبا بشيء آخر :

وهوانه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته في الصحف ، الا حبا للكتابة ، ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهما ولا مليما ، على أن فضل الشيخ عبدالعزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه ، فهو الذي عرف الفتى إلى جماهير الناس ، وأوقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا الشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

«كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجري كلما انقضى عام هجري ، واقبل عام جديد ، وكان الشيخ عبدالعزيز جاويش ، يحرص على أن يكون للحزب الوطني احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام في مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابا وكهولا وشيبة ، وكان الفتى قد انشد فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وانشدها أمام الشيخ عبدالعزيز جاويش فرضي عنها ، وحثه على أن يقول أمثالها .

فلما كان الحفل شهده الفتى مع الشاهدين ، ولكنه لم يكد يأخذ مكانه بين الناس ، حتى قبل من يأخذ بيده وأجلسه على المنصة ، ولم يقدر الفتى الا أن الشيخ عبدلعزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ،

ويتلطف له ، ويقربه من مجلسه ، فرضي «كل الرضاء وعده فضلا عظيما من الشيخ ، والقيت الخطب ، وصفق المصفقون ، ولم يرع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس ، ورأى نفسه يدعي الى انشاد قصيدته العصماء ، فلبث في مكانه جامدا واجما لا يدري ماذا يصنع ، ولا يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهم الفتى أن يمتنع حياء وخجلا ، ولكن الذي أخذ بيده جذبه جذبا شديدا ، وجعل الذين معه ينهضونه حتى انهضوه وجروه جرا إلى المائدة ، واستقبل الفتى بتصفيق شديد ، منحه قوة وجرأة ، فانشد قصيدته في صوت ثابت متان ، ولكنه لم يستقر في موقفه ، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعادا ، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال ، وأروعه ، حتى خيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظا «حافظ إبراهيم» أو قريبا من حافظ .

«ثم لم يقف الشيخ عبدالعزيز جاويش عند هذا الحد بالفتى ، ولكنه علمه الكتابة في المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية ، وطلب إلى الفتى أن يشارك في تحريرها ، ثم ترك أو كاد يترك الأشراف على تحرير هذه المجلة وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف ، وتنسيق ما ينشر فيها من فصول ، ولم تخل «الهداية» من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا ثم أضاف الشيخ الى كل هذا الفضل فضل آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، أرضاه عن بعض حاله ، وأكبره في نفسه شيئا ، وأشعره بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك .

«فقد انشأ الشيخ عبدالعزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على الا ينتظر على ذلك أجرا ، فالمدرسة عمل وطني لا أجر عليه لمن يشترك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئا ، وربما انفق عليها من رزقه ، وكلف نفسه في سبيل ذلك من الحرمان ، وربما ألح على بعض الأعيان وأوساط الناس حتى أشعرهم على أن يعينوه على نفقتها ببعض المال ، وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحا به ، مبتهجا له ، يرى فيه شفاء لغيظه من الأزهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركته في بعض الخير ، «ثم لم يلبث هذا كله أن أنقطع فجأة صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ، ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار ، ولم يره الفتى «طه حسين» منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر فجأة ، وعلى غير علم من أهلها ، وعاد الى مصر فجأة على غير علم من أهلها أيضا ، وعلى كل حال فقد اعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة الي الحياة العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف .

ثم قال طه حسين :

«كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض أصدقائه من الأزهريين بأن مدرسة مسائية انشئت في مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين ، وكان الشيخ عبدالعزيز جاويش يد في إنشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى» .

ومعنى هذه السطور أن طه حسين تعلم الفرنسية أول ما تعلمها ، فى مدرسة أقامها وأعدها عبدالعزيز جاويش لتعليم الأزهريين هذه اللغة، ولكن وقته لم يتسع لتحقيق نور الشيخ جاويش في بناء هذه المدرسة، ولكني أقطع بأن فكرة المدرسة ، وما تم فى شأنها حتى تقوم على قدميها كان عمل الشيخ جاويش وحده ، فقد أخبرني المرحوم الأستاذ على الغاياتى بأنه تعلم الفرنسية وقد كان أزهريا أيضا – فى مدرسة أنشأها الشيخ جاويش وأنه ألحق بها بناء على أمر من الشيخ بذلك .

ويختم طه حسين حديثه عن أثر الشيخ جاويش فى حياته فيقول : «ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس لي ، وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد ألقى الشيخ عبدالعزيز جاويش فى روعى فكرة السفر الى أوربا «إلى فرنسا خاصة» فما له لا يفكر في هذا السفر، وما يمنعه أن يتخذ اليه الوسيلة ، والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه ، وأصبحت جزءا من حياته ، جعل ينظر إليها ، لا على أنها حلم يداعبه نائما ، أو يقظانا بل على أنها حقيقة يجب أن تكون» .

وقد لخص طه حسين الفرق بين أثر الشيخ جاويش عليه ، وأثر لطفى السيد فقال :

«وكان صاحبنا «أى طه حسين» موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت ، أحدهما مذهب الاعتدال الذى كان الاستاذ لطفى السيد يدعو إليه ويزينه في قلبه ، والاخر مذهب الغلو والأسراف» ذلك الذي كان الشيخ عبدالعزيز جاويش يغريه به ويحرضه عليه

تعريضا، وكان الفتي «طه» المذهبين جميعا ، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني» .

وقد قلت تعقيبا على ذلك القول ، أن طه حسين كان أثر حياته مهاجما ، حتى فيما يعدل عنه في قابل أيامه في مجالات السياسة أو الأدب من رأي أو مذهب فهو أقرب الى جاويش ومنهجه ، لكن جاويش انسحب من الحياة السياسية ، بل من الحياة العامة كلها ، بل ترك مصر بأسرها سنين طويلة ، دالت خلالها دولة الحزب الوطني في مقاتلة الاحتلال .. وغلوها في مقاطعة المحتلين ، ونقدهم وكشف عيوبهم ، وتعقب أخطائهم ، وجاء ت دولة أخرى ، ولكل دولة رجال ، وكان لطفي السيد من رجال الدولة الجديدة ، ومن ثم فقد توقفت أسباب طه بلطفي السيد ، الذي يتربع استاذا للجيل ، وقد كان بحق استاذا لجيل الأدباء والسياسيين الذين تولوا الحكم أكثر المدة الواقعة بين الثورتين ، ثورة ١٩ ، وثورة ١٩٥٢ ، فقد كان استاذا لطه حسين ، ولمحمد حسين هيكل، ولمحمود عزمي ، ولمصطفى وعلى عبدالرازق ولمنصور فهمي .

وأزعم أنه لو بقى الشيخ جاويش في مصر ، ولم يصب الحزب الوطني ، حزب مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ما أصابه ، لدخل طه حسين في زمرة كتّاب الحزب الوطني ، ولاصطبغ أسلوب الحزب ، ولاعتنق مذهبه ، ولكن شاء ربك غير ذلك ، فأصبح طه حسين ، دستوريا يمنح ولاءه لحزب عدلي يكن ، وعبدالخالق ثروت ، واسماعيل صدقي ومحمد محمود وآل عبدالرازق ، ودار دوراته التي يعرفها مؤرخو الأدب والسياسة .

ولكنا نعود الى الشيخ جاويش ، فنقول للقارىء الكريم ، قد يبدو لك أننا أطلنا الاقتباس من كتاب الأيام الذى تحدث فيه طه حسين عن مطلع حياته كاتبا وصحفيا وخطيبا ، ولكنا لا نقصد من هذا الاقتباس ، أن نتحدث عن طه حسين ، لأنه من الشيوخ الذين خلعوا العمامة ، وارتدوا القبعة فى الخارج ، والطربوش فى مصر ، ولكنا أردنا من هذا الاقتباس المسرف أمرين .

أولهما . أن نكشف عن حقيقة فى حياة طه حسين ، بقيت مستورة ومحجوبة على الرغم من عظم خطرها فى هذه الحياة ، مبينين كيف تجنى تطورات الأحوال في بلد ما ، ولاسيما ما كان منها متعلقا بالسياسة والحكم ، على التاريخ وحقائقه الثابتة . فقد أكثر الناس الحديث عن طه حسين حيا وميتا ، مادحين وقادحين ، من أبنائه ومريديه، والقرباء عنه والبعيدين عنه ، فاجمعوا بغير استثناء على أن طه حسين هو تلميذ لطفي السيد ، وأن لطفى هو الذي قاده الى ما وصل اليه فى دنيا الصحافة والسياسة والفكر والجامعة ، ولم يمنحوا الشيخ عبدالعزيز جاويش ، في رواياتهم وأحاديثهم حرفا ولا أقول سطرا، فكأن طه جاويش لم يلتقيا ، وأن جمعهما عصر واحد ، ومهنة واحدة ، ومجال واحد فى عصر الخديو عباس ، قبيل حرب عام ١٩١٤، وقبل ثورة عام ١٩١٩ ، ومجال واحد هو مجال الصحافة والسياسة والأحزاب ، فإذا تحدث طه حسين عن نفسه أثبت بأنه لثمرة فضل وجهد، واستاذية الشيخ جاويش صنعه على عينيه وتفتح فى أدبه ، وأسلوبه ، وجهاده من روحه . فمه الناس تعرف ، وحفزه النقد الأدبى،

فذاع اسمه ، وأحب هذا اللون من النشاط الفكري وتعلق به ، وواظب عليه ، وحرضه على اصطناع الأسلوب الجاد ، الذي لا يجامل ، ولا يداري ، وجرءه على مهاجمة أصحاب السلطة والجاه الحكومي والأدبي من الحكام وعلماء الدين إذا تهاونوا ، أو اخطئوا ، فقلده وحاكاه . ثم ألقى اليه بفكرة السفر الي باريس ، فسافر ، وبأن يتعلم الفرنسية فتعلمها في مدرسة الشيخ جاويش ، واتقنها وأصبح واحدا من خير الناطقين بها والمعبرين عن أفكاره ومشاعره . وأوقفه أمام الجماهير الحاشدة لأول مرة ، فألف هذه الوقفة ، وأحسن التحدث الى المئات والألوف ، ثم قاده الى الصحافة ، فعرف فنها ، وأسلوب اعداد الصحف وتنظيمها ، ثم جعل منه استاذا للأدب العربي ، فبقى في هذا المكان حتى أصبح استاذ اساتذة هذا الجانب من حياة المصريين وحياة العرب. أما عن أثر لطفي السيد في حياة طه حسين فلا تجد شيئا ، فطه حسين كان شديد الولاء للطفي ، وعظيم التقدير له ، ولكن لم يستطع أن يقول لنا ، ولو على سبيل المجاملة أن لطفي أعانه على شيء أو يأخذ شيئا منه ، ولكن الناس حظوظا ، والشهرة والمكانة رزق والله يرزق من يشاء بغير حساب .

الباشا الأحمر

كان أنيقا غاية الأناقة ، منديله الأبيض من الحرير أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذلاته جميعا تلفت النظر بدقة تفصيلها وألوانها .. بدأ حياته العملية متأثرا بمصطفى كامل باشا .. وحتمها داعية إلى المذهب الشيوعي •..

عز عليّ أن غادر دنيانا الاستاذ محمد كامل البنداري باشا المحامي والسياسي والوزير والسفير ، والداعية إلى لون جديد من التفكير في شئون بلادنا وبلاد المنطقة العربية ، دون أن يشيع بكلمة تظهر قدره ، وتكشف الناس دوره ، وتحدثهم عن مواهبه العديدة ، وعن عجائب شخصيته الفسيحة المديدة

وقد كنت أحسب أن موته سيذكر الناس به ، وعلى وجه خاص ، الذين صاحبوه في العمل السياسي التقليدي ، أو العمل السياسي الجديد ، الذي جاء ت به الأيام بعد الحرب العالمية الثانية ، واستقرار روسيا في أقصى شرق أوربا وأقصى شمال شرق آسيا ، قوة ذات نفوذ، ودولة ذات رسالة ، ولكن لأمر ما سكت الجميع ، ومضى الرجل إلى العالم الآخر ، وكفنه عزاً بالذين صمتوا ولم يتكلموا لأنهم جهلوه ، والذين صمتوا لأنهم ضاقوا به حين كان ملء السمع وملء البصر ، لغرابة أطواره ، وجرأته على منهج الناس المتبع ، وأسلوبهم المحترم .

• الهلال – ديسمبر ١٩٨٣ .

أتم محمد كامل البنداري تعليمه الابتدائي ، والثانوي في إحدى مدن الوجه البحري ، في أخريات القرن الماضي بعد أن ولد في قرية جد قريبة من مدينة الزقازيق ، وقد اشتهرت تلك القرية بأنها خرجت أكثر وكلاء مكاتب المحامين وكتبة تلك المكاتب ، واشتغل بعد أن أتم دراسته في مدرسة الحقوق الخديوية - نسبة إلى الخديو توفيق فالخديو عباس حلمي اللذين تعاقبا على عرش مصر - والبنداري في مقتبل حياته ، ثم اشتغل بالمحاماة ، في الريف ، ثم انتقل إلى القاهرة . وقد قامت بينه وبين الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ، صلة ما لم أتبينها ، ولكنها لم تكن على كل حال صلة وثيقة ، إلا أنه لم يكن من الممكن كشاب في أوائل القرن العشرين في مصر ألا يتأثر بمصطفى كامل زعيم مصر ومؤسس حركتها الوطنية ، وباعث نهضتها في تلك الآونة . يتأثر به من بعد ، قارئا لمقالاته ، أو مستمعا لخطبه ، أو متتبعا لنشاطه في مصر وفي الخارج .

ولكن ما ماكاد يبلغ سن النضج ، حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، وقرر المحامون ، في مارس من تلك السنة أن يضربوا عن العمل احتجاجا على مسلك السلطة البريطانية من منع زعماء مصر من السفر إلى فرنسا ليشهدوا مؤتمر فرساي الذي انعقد في تلك السنة على مقربة من باريس ، ليصفي آثار الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٩١٤ ، ووضعت أوزارها في الساعة الحادية عشرة ، من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر في عام ١٩١٩ ، حتى جرى العرف على القول بأنها الحرب التي انتهت في ١١/١١/١١ .

وألفوا - أي المحامون المصريون - من أنفسهم لجنة لتنظيم الإضراب والمحافظة على تنفيذه بدقة وإحكام ، واختاروا لها من

أسموهم يومذاك برؤساء المحامين ، فوقع اختيارهم فيما وقع على البنداري الذي كان قد ظفر بلقب دبك لما لمع نجمه ، وظهرت كفايته في عمله ، وقصده أصحاب الدعاوى ، بوصفه محاميا كبيرا .

وزاد اسمه لمعانا ، حينما اتهم رئيس المخابرات أو المباحث في عهد الاحتلال ، وقبيل الحرب العالمية الأولى - «جورج فلعبدي» - وكان لبنانيا وفد إلى مصر واحتمى بسلطة الاحتلال الانجليزي وأعجبهم منه مكره ، وسعة حيلته ، وقدرته الفائقة على الاتصال بذوي الشأن نفسه أو عن طريق أعوانه ، وارتقوا به حتى أصبح مرجعهم يختصمونه بغضبهم فيحبسونه أو يعتقلونه أو يزجون به إلى السجن في قضية ملفقة .. فكثرت ضحاياه وتعددت صلاته النسائية ، حتى تورط في جريمة رشوة، وكان الإنجليز قد ضاقوا بفضائحه ، فتخلوا عنه ، فاتهم وحبس وقدم للمحاكمة أمام قضاء الجنايات .

وذهب محمد كامل البنداري ليترافع عنه ليفضح العهد كله ، بأسلوب جديد من القول لم يألفه الناس من قبل .

ولما أسفرت ثورة عام ١٩١٩ لا عن إستقلال ، ولا عن دستور مستقر ، بل عن حرب أهلية ، كان قضباها : سعد زغلول زعيم الأغلبية الذي يؤيده الشعب ، وعلي يكن زعيم الأقلية الذي انحاز له أصحاب الأطيان الزراعية ، وباشوات مصر الذين تتصل أصولهم بباشوات الاتراك والشراكسة الذين كونوا طبقة «الذوات» في عهد محمد علي وأولاده وأحفاده حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، فحجبت أكثرهم من السلطة ثم جاء ت ثورة عام ١٩٥٢ فقطعتهم من جذورهم أو خلعت البقية الباقية منهم في شكل أمراء ونبلاء .

انحاز محمد كامل البنداري بك إلى حزب الأحرار الدستوريين ، الذي ألفه عدلي يكن ثم تركه بعد قليل من تأسيسه ، ليتولوا زعامته على التوالي محمد محمود باشا فعبد العزيز فهمي باشا فالدكتور محمد حسين هيكل باشا .

ولم يكن انحياز محمد كامل البنداري لحزب الأحرار الدستوريين لأنه من أبناء العائلات الغنية ، ولا لدم أجنبي يجري في عروقه ، فقد كان ابن فلاح من محافظة الشرقية ، ولعله عرف في طفولته وصباه ، ضيق العيش ، ولوعة الجوع ، ولكن «البنداري بك» ، كان يقرأ باللغة الفرنسية كتب القانون ، وكانت فرنسا مرجع الفقهاء والمشرعين والمحامين في مصر ، وكان يحب أن يفكر ، وأن يعبر عن تفكيره ، في الأوساط التي يغشاها ، يتفهمه من يريد أن يفهم ، ويضيق به من يريد أن يضيق به .

وكان أنيقا غاية الأناقة ، وكانت أناقته تلفت النظر ، فمنديله الأبيض الحريري ، أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذلته جميعا تلفت النظر في دقة تفصيلها ، وتضارب لونها مع لون قميصه ، مع لون ربطة رقبته مع حذائه ، وهو إذا ذهب الى المحكمة ليترافع ، جاء متأخرا ، معلنا أنه عائد لتوه من رياضة كرة المضرب «التنس» فيغيظ بزملائه الغيظ ، وينكرون كل ذلك انكارا صريحا وهو غير عابىء بهم ، ولا ملتفت إليهم . وهو إذا تكلم ، اختار من صيغ الكلام ، ما تيقن في اختياره ، وهو يقطع الكلام ولا يتدفق ، ويؤكد معانيه ولا ينطق ، وتشعر من كلامه أنه يريد أن يقول أو يقول فعلا : أنه استاذ والسامعون تلاميذ أغبياء لا يحيطون بالعلم الذى جاء به .

ولم يكن كل ذلك ادعاء ، بل كان فعلاً يقرأ ما لا يقرأ زملاءه ، وينظر في الأحاديث إلى أمور يغفل عنها أشباهه ، ولولا هذا الذي بدا حذلقة لوصل البنداري بك الي مركز الصدارة في حزبه ، ومنصب الوزارة في أيامه .. ولكن الحظ تأخر به قليلا ، فلم تفته الصدارة ولا الوزارة .

وفي عام ١٩٣٦ ولِيَ الوزارة حزب الأغلبية ، وانكرت أحزاب الأقلية أشياء من حكم هذه الأغلبية واشتدت حملة أحزاب المعارضة وظهر أنهم كانوا يلقون تأييدا ممن كان يرمز إليه بلفظ «السراي» ، كما يرمز الى سلطان تركيا «بالبـاب العالي» ويرمـز إلى رئيس وزراء بريطـانيا بـ « ١٠داونتج ستريت» .. وهكذا .

وكانت مصر الفتاة في ذلك الحين ، حزب الشباب ، دخلت الى حلبة السياسة ومعها برنامج جديد، يتحدث عن مصر من عهد الفراعنة ، ومصر العربية الإسلامية ومصر محمد علي ، وأن مصر يمكن أن تبعث من جديد وأن بعثها سهل هين لو آمن الشباب بأنفسهم ، واستقلوا عن أحزاب الشيوخ التي تجري كلها وراء السفارة البريطانية والتي قالت يوما – غداة ثورة عام ١٩١٩ – أنها لا تشكو في مصر الا الى السفير البريطاني ، ولا تشكو في الخارج الا لبريطانيا ، ولفتت مصر الفتاة هذه الأنظار ، وارتدى بعض شبانها القميص الأخضر ، في وقت كانت فيه موجة القمصان تشمل العالم كله حتى بريطانيا موطن الديمقراطية التي تضيق بالأحزاب السياسية التي تعتمد على فيالق مسلحة ولو بالهراوات .

ووقفت مصر الفتاة من حكومة الأغلبية الحاكمة موقف المعارضة فأصبح بينها وبين أحزاب الأقلية شيء من الود ، لتوافق المصالح

وتقارب المواقف . وفي تلك الفترة وبسبب هذه الظروف ، عرف محمد كامل البنداري المحامي وعضو حزب الأحرار الدستوريين زعماء مصر الفتاة ، فأعجبه منهم تجديدهم في السياسة ، وخروجهم على الأحزاب التقليدية - التي كان يضيق بها هو سرا - ففتح لهم بيته وفتح لهم فوق ذلك قلبه ، فلما اتهم زعماء هذا الحزب الناشيء بالشروع في قتل رئيس الحكومة ، ذهب محمد كامل البنداري بك إلى المحاكمة ليدافع عنهم لا كما يترافع المحامون الآخرون بل تطرف في إبداء اعجابه بهؤلاء الشبان الذين رآهم أمل المستقبل ، وعدة الحاضر . ونجحت مؤامرات السراي فأسقطت حكومة الأغلبية ، وتولى حزب الأحرار الدستوريين الوزارة واختير محمد كامل البنداري بك وزيرا للصحة فتصور بعض الناس أنه سينفض يده من هؤلاء الشبان الذين وطئته حماستهم له في تصريحات استوقفت المسئولين ، وأثارت غير قليل من الدهشة .

إلا أن محمد كامل البنداري «باشا» - إذ منح رتبة الباشوية بمناسبة اختياره للوزارة - استمر يدافع عن شباب مصر الفتاة المحبوسين على ذمة قضية لا تزال معروضة على القضاء وتهمتهم فيها أشد ما تكون خطرا لأنها تهمة الاعتداء على شخص رئيس الحكومة القائمة آنذاك . بل إنه صرح للصحفيين بأغرب ما سمع آنذاك : إذ قال : «إنه لا ينام كلما تذكر أن الشباب الذي جاءوا به وبزملائه إلى الوزارة محبوسون ، وهو في الوزارة ، وأن يستغرب أن يكون لعمل الواحد وصفان . فهو جريمة حين ينسب إلى الشباب ، وهو عمل صالح حين ينسب إلى الحكم وإلى السلطة فيما يقوم به الشيوخ» .

وانزعجت دوائر السياسة من هذا التصريح غير المسبوق ، وتلقفته صحف المعارضة وقالت : إن وزير الصحة الذى عاش حياته يعمل فى المحاكم ويمارس المحاماة ، يدافع عن القانون ينسى هذا كله ويشيد بمتهمين في يدى القضاة ناسيا أن ذلك مما يؤثر على القضاء - وعلى الأخص على النيابة التي تحقق الدعوى ، والتى هى جزء من السلطة التنفيذية وليس لرجالها حصانة القضاة

ولم يحفل كامل البندارى بكل هذه الاحتجاجات ، ثم افرج عن زعماء مصر الفتاة ، فذهبوا فور الأفراج عنهم إلى كامل البندارى باشا وزير الصحة في مكتبه الرسمي فاستقبلهم مرحبا مهنئا وخطب فيهم بنفس المعاني التى قالها ورددها وهم فى الحبس الاحتياطى .

بهذا الموقف اتضحت شخصية محمد كامل البندارى فعرف أنه سياسى غير تقليدى ، وأنه لا يتوقف كثيرا أمام المواصفات التى اتفق عليها مجتمع السياسة فى بلاده . ثم زادت صورته وضوحا ، وشخصيته بروزا حينما تسربت إلى الناس ولاسيما إلى دوائر المعارضة أن البندارى باشا يضايق رئيس الوزراء وهو رئيس حزب البنداري دولة محمد محمود باشا ، وأن رئيس الوزراء يشكو منه فى كل مكان ، وعند كل صديق ، وعند «السراى» بخاصة .

وتعلو شكوى رئيس الوزارة فى تهمة واحدة كبيرة نسبت الى البندارى باشا، هو أنه «عين» لعلى باشا ماهر رئيس الديوان الملكى الذى يسعى لإسقاط محمد باشا محمود، ليقفز إلى الوزارة وأن العمل على هذا الوجه لا يستقيم فى الوزارة، ولذلك يجب إبعاد كامل البندارى من منصبه.

وشغلت دوائر السياسة بهذه الشخصية الجديدة في المسرح السياسي، وحدث ما يشبه الدوى حينما خرج محمد كامل البندازى باشا من الوزارة مبتهجا كأنه لم يفقد أكبر منصب في بلاده في تلك الأيام، وزادت الضجة حينما علم ان الملك فاروق قد وقع اختياره على هذا الوزير الذى ساءت علاقته بحزبه وبرئيسه الذى ارتقى به إلى الوزارة والذى أصبح صديقا لدولة على ماهر باشا رئيس الديوان الملكي، ليكون وكيلا الديوان الملكي.

وأصبح محمد كامل البندارى رجلا من رجال البلاط الملكي، وإذا به يؤكد انه سياسي من نسيج غريب، فقد سافر رئيس الديوان الملكي الى لندن ليرأس وفد مصر سنة ١٩٢٩ إلى مؤتمر فلسطين الذى عقد ليناقش هذه المشكلة ضمن الوفود العربية الأخرى مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وانفرد كامل البندارى باشا وكيل الديوان الملكي فأتى أشياء غريبة الى اقصى الغاية، فقد رأى الناس الملك يركب سيارته الملكية الحمراء الضخمة ويؤدى صلاة الجمعة في مساجد قائمة في أفقر الأحياء حتى ان قائد السيارة الملكية كان يجد صعوبة في الالتفاف في هذه الأزقة حتى يصل إلى المسجد الفقير المتواضع في الحى الفقير المتواضع، ويخرج الملك فيقف على عتبة المسجد ليحيى أهل الحى الفقراء بأسمالهم البالية، وفقرهم الواضح، يصفقون له، ويهتفون باسمه ويرد لهم التحية باسما متواضعا.

وأمسك انصار الملكية التقليدية قلوبهم بأيديهم وتساءلوا: أيكون من وراء وجود البندارى الى جانب الملك سياسة جديدة، يتساوى في ظلها الفقراء مع الاغنياء.

على أن كامل البنداري كان يمضي في اشياء أكثر خطورة فقد جاء عيد الهجرة، ورئيس الديوان الملكي غائب، فأعد البنداري خطبة للملك ليلقيها في هذه المناسبة عن طريق الاذاعة اللاسلكية، وألقى الملك خطبته بأداء جيد، خال من اللحن، وقال فيها شيئين خطيرين متصلين، اولهما ان الملك قال. إنه يسره أن يستعين بالشباب الذي يجب أن يفسح له الطريق وتتاح له الفرص. والثاني أنه ورث عن ابيه الاستقلال في الرأي والاعتماد على النفس، فلا يتأثر بمن حوله.

وعاد على ماهر من رحلته إلى لندن، وقد ادرك أن علاقته بالملك فسدت وأنه بعد أن كان المستشار الأثير لدى الملك، وصاحب المشورة التي لا ترد، أقصاه البنداري باشا عن مكانه، وحل محله، في غيابه، فاستشاط على ماهر غيظا، وأعلن انه لن يبقى في مكانه الا اذا أبعد البنداري صديق الامس لا من «السراي» بل من مصر كلها. وفقد الملك استقلاله في الرأي الذي كان يتحدث عنه في خطبته اللاسلكية، وخضع لتهديد مستشاره القديم، وتخلى عن مستشاره الجديد، محمد كامل البنداري باشا وكيل الديوان الملكي الذي أبعد عن «السراي» وعين سفيرا لمصر في بروكسل.

على أن محمد كامل البنداري باشا امتاز في هذه الفترة قبل هذا النفي، ذلك أنه كان يشير علنا وعن مركزه الرسمي، وفي الدوائر الرسمية بشيء لا يقل خطرا عن كل ما قاله ويقوله. ذلك هو العودة الى «الاسلام» في السياسة والحكم والتربية والتعليم، في السلم والحرب، وان دستور الاسلام هو الحل لكل مشكلات مصر، ومشكلات المسلمين ومشكلات العالم كله.

ويحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف «التربية تلك الأيام» في ص ١٥٦ من الجزء من مذكراته المعنونة مذكرات في السياسة المصرية عن هذه الدعاية التي كان يروجها محمد كامل البنداري باشا وكيل ديوان جلالة الملك فاروق ننقل منها السطور التالية قال:

«كنت أشهد ذات مساء رواية غنائية تقوم بها فرقة إيطالية على مسرح الأوبرا بالقاهرة، وتصادف ان كان صديقي كامل باشا البنداري وكيل الديوان الملكي ورئيسه يومئذ بالنيابة يشهد هذه الرواية، والتقينا في فترات ما بين الفصول في غرفة الاستراحة، فحدثني فيما كان يروج من بعض هذه الأفكار وبخاصة في نظرية النظام الاسلامي للحكم وقلت له يومئذ. لكن الدستور المصري يختلف في اسسه عن هذا النظام الذي تحدثني عنه، واجاب. كلا، فالدستور المصري يؤيد النظام الاسلامي في الحكم ويزكده... قلت. كيف يصح هذا ومن أسس الدستور المصرية حرية الاعتقادات يجيز للمسيحي أن يرتد عن مسيحيته في الاسلام من الاديان أو المذاهب المختلفة في أمر العقيدة، كما يجيز للمسلم أن يرتد عن اسلامه الى المسيحية أو غير المسيحية من الأديان أو المذاهب المختلفة في أمر العقيدة، بينما يقضي الاسلام بعقاب المرتد عنه بالإعدام؟... الخ.

ثم قال الدكتور هيكل. فأجابني البنداري باشا: كل هذه تفاصيل يمكن التوفيق بينها وبين النظام الاسلامي وليس في تعارضها معه ما يجعل هذا التوفيق مستحيلا.

وأشهد أنا أن البنداري باشا قرأ لي مقدمة لكتاب صدر في تلك الفترة بعنوان «صور إسلامية» فاتصل بي تليفونيا يطريني ويثني على باعتباري الشاب الوحيد المشتغل بالسياسة العلمية، ويفهم الاسلام فهما صحيحا، يقارب بينه وبين ما يجري في حياتنا المعاصرة.

وسافر البنداري باشا إلى بلجيكا، وعاد لا يتحدث عن الاسلام ولا يدعو إليه، كما كان يفعل من قبل، بل لعله انقطع عن ذكره تماما واصبح شديد الاعجاب بالنازية وبأنها رد الفعل المناسب والطبيعي لهمجية الاستعمار الغربي، وانه كان يرى الضباط النازيين يسيرون في الطريق وهم الغزاة الفاتحون، لا يرفعون رءوسهم لا يتعالون، واذا اصطدم بهم انسان في الطريق عفوا، احمرت وجوههم خجلا، واعتذروا من ذلك الاصطدام، ولو كان الخطأ من غيرهم. وان العالم سيبرأ من حكم بريطانيا وفرنسا، واستعمارهما، بفضل النازية، وان عالما جديدا سوف ينشأ.

وغبت عن محمد كامل البنداري باشا فترة، ثم دعانى لمقابلته فى فندق شبرد، وما كدت أجلس حتى سألنى عن رأيى فى الشيوعية، وقبل ان اجيب، تدفق فى بيان طويل يعرض نظرية الشيوعية، ويفصل فيها، ويدفع عنها كل عيب، وانا صامت.

ولكنى أشهد أنه بقى على ايمانه بها، وانه أصبح مرجعا عربيا فى النظرية الاشتراكية وتطبيقاتها، وقد بقى يدرسها للشباب حتى كبرت سنه، وتجاوز التسعين، فقد ألف شباب نادى الجزيرة، وفى مقدمتهم العاملون بالحقل الدبلوماسى، وواضعو رسالات الماجستير والدكتوراه، أن يلتمسوا عنده العلم بهذه النظرية وهو لا يضن عليهم بشئ.

وبقى البندارى باشا إلى جانب ذلك يمارس الرياضة فى مواظبة مثيرة العجب، فى وقت كان زملاؤه ومعاصروه، فى فراش الشيخوخة يعانون الضعف والعجز وهو يقرأ، ويتكلم ويحاضر ويداعب، وكأنه شاب فى العشرين فلتت من محمد كامل البندارى واقفته أو خالفته أمام شخصية، لا ينقطع نشاطها الذهنى، ونبلها الفكرى، وتزودها بالمعرفة.

ذكريات عن شوقى

من حقى أن أتيه على زملائى ولداتى، من أبناء جيلى ، فى فترة شهر اكتوبر سنة ١٩٣٢ . ففى هذه الفترة ، تسلمت من يد احمد شوقى، أمير شعراء العرب، آنذاك ، آخر ما امتع به اهل لغته ، وبنى عشيرته من شعره الذى أطربهم ، وهز أعطافهم ، وأبهجهم ، وواساهم فى الملمات ، وارتفع بهم فى المحن والحادثات ، وملأهم زهوا ، عند جلائل المواقف والانتصارات . وكان ذلك بمناسبة إقامة مصنع إقامة شباب الجامعات والمدارس فى مصر من قروش جمعوها من مواطنيهم ، بعد دعوة وجهها إليهم الطالب أحمد حسين بكلية الحقوق، عرفت بعد ذلك بمشروع القرش ولقيت نجاحا عظيما وإقبالا واسع النطاق .

فكنت قد مضيت إلى كرمة ابن هانى، على ضفاف النيل الغربية، حيث لقيت الشاعر العظيم . وكنت قد ترددت عليه من قبل مرارا ، وأصبح يعرف اسمى ورسمى، ثم التمست منه أن يخلد ذكرى إقامة هذا المصنع الفريد فى شارع إسمه (برج الظفر) ناحية العباسية ، فلبى الدعوة ولم يتردد ، كعادته معى من قبل ان تتوثق علاقتى به ، ويزداد اطمئنانا إلى ، وفى الموعد المحدد بالضبط لتسلم القصيدة المرجوة ، أعطانى الشاعر العظيم، ورقة منزوعة من كراسة مدرسية ، طبقت مرارا، ففقدت رواءها ، ووجدت ورقة مهملة ، بسطتها من يدى فألفيت فيها بضعة أبيات ، من شعر ليس فيه شيء من طلاوة شعر شوقى، ولا

● الهلال – أكتوبر ١٩٨٢ .

رنينه ، وحلاوة جرسه ، بدأت بمعنى دارج «سواء لن الملك بالمال والرجال» وقد نسيت هذه القصيدة ، حتى ان جامعي ديوان شعر شوقي الرابع، اخطأوا فقالوا ان آخر قصيدة لشوقي هي القصيدة الرائعة التي مطلعها «فتية الوادي عرفنا صوتكم» التي تجدها في الصفحة السادسة عشرة من الجزء الرابع من ديوان شوقي المخصص لما اسماه جامع الديوان «مكرمات في السياسة والتاريخ والاجتماع» وهو الديوان الذي جمع بعد وفاة شوقي بعشر سنوات .

وقد كان اول عهدي بشوقي ، في ذات ليلة ، كنت فيها مع خالي بسينما كان مقرها المكان الذي يشغله الآن ، مسرح الريحاني ، وكانت تعرف باسم (سينما راديوم) ولم تكن من دور السينما الرائجة فرغنا من مشاهدة «الفيلم» وتهيأنا لمغادرة المكان ، فإذا بخالي يصرخ : ها هو ذا شوقي» ، ونظرت إلى حيث اتجهت إشارة يده فإذا بي أرى إنسانا قصير القامة ضئيلا يرتدي معطفا ، ويرفع اطرافه العليا اذ كان الوقت شتاء ، والبرد قارسا ، وفي ثوانٍ اختفى هذا الانسان الضئيل، وكأنه شبح سار ، وقد ذكرت هذا كله فيما بعد ، حينما عرفت عن شوقي بعض عاداته ، وكان منها ، انه لا يحب من مقاعد السينما إلاَّ ما كان منها ، قريبا غاية القرب من الشاشة ، وهي أرخص المقاعد واقلها شأنا، فقد كان قصر نظره يمنعه من تبين الصور ، لذا جلس في المقاعد الممتازة في الصفوف الخلفية من القاعة .

وذهبت الى قصر شوقي لأول مرة لأطلب منه قصيدة لمشروع القرش وقد شاء الحظ الحسن أن اراه في الحديقة ، يسير مطرقا بخطى قصيرة متلاحقة ، كأنه على موعد حال ، وهو لا يعدو ان يكون قد اسلم نفسه لخواطره ، وراح يمشي مستمتعا بالوحدة ، وخلو المكان من

الناس ، ورأيت نفسي، وجها لوجه، في هذه الحديقة الأنيقة ، أمام هذا القصر الجميل، تبدو لنا صفحته ، ومن بعد ، تنعكس عليه شمس دافئة، وتتراقص عليها ، قوارب صغيرة ، ذات شراع أبيض ، وصفها شوقي في إحدى اغانيه فاحسن وصفها ، ومد لي الشاعر العظيم يدا ، فإذا هي يد طفل، صغيرة دقيقة نحيلة ، لو ضغطت عليها ، لانكسرت ، ونظر إلي ، بعينيه الصغيرتين اللتين كانتا تتراقصان ، فذكرت انذاك ما كنت قرأته من انه ولد بهذه الآفة التي كانت تحول بينه وبين خفض نظره إلى أسفل ، وكانت جدته وهي إحدى جواري الخديو اسماعيل ، قد حملته إلى الخديو، وهو بعد طفل في المهد، وقالت له أنه لا يملك أن ينظر الى الارض، فاخرج الخديو من جيبه لتوه بضعة دنانير ، والقى بها على السجادة ، فخطف بريقها ، عينه فنظر إلى السجادة وما فوقها : فقهقه السلطان الكبير، وقال للجارية : عالجيه بهذا الدواء فإنه جدير بأن يتماثل للشفاء ، فأجابت الجدة على الفور ، قائلة : يا افندينا هذا دواء لا يجده إلا في صيدلية سموك .

وقفت امام الشاعر ، في حديقة قصره، وقد اشتد علي ، ضغط الهدوء المطلق ، والصمت الشامل ، وخيل الي انى اسمع وجيب قلبي ، وقد كنت في اضطرابي، فرحا ان كتب لي ان اجتمع بهذا الشاعر الذي ملأ الدنيا ، وشغل الناس وحدنا ، وإلا يكون بيني وبينه حائل من شخص أو شيء .

وتمالكت جأشي وقدمت نفسي لرب الدار وقد غمغمت بريقي . ولا أذكر ما إذا كان قد رحب بي أم سكت ، ولكني أذكر اني اندفعت اتحدث في شيء من العصبية عن غايتي من الزيارة ، فمضى امامي في

خطى بطيئة وأنا اتبعه وأتكلم ، ثم ادار لى نصف وجهه فثابت نفسى إلى السكينة فقد احسست انه اطمأن إلى ، وسره الشأن الذى حفزنى للمجىء إليه . واستوضحنى عن المشروع، وشملت وجهه الصغير ، ابتسامة لا تعرف لها موضعا من قسمات الوجه ولكنك تحسها . ووعدنى بأنه سينظم لنا قصيدة، فحييته مودعا وشاكرا ، ومد إلىّ يده الصغيرة النحيلة ، فبدا إلى انها أكثر حرارة وانصرفت ، وأنا أكاد اقفز من السرور والبهجة .

ومضت أيام ، وذهبت إلى الموعد ، وقيل يومها لى إنه خرج من داره، وأنه ذهب إلى مكتبه ، ووصفوا موضع هذا المكتب، وكان قريبا من شارع زكريا أحمد وادخلت المكتب، ورأيت الشاعر جالسا على مقعد ذى مسندين ، ومن حوله شبان عديدون أذكر منهم الدكتور سعيد عبده الطبيب الأديب الزجال القصاص، وكامل الشناوى ، وربما يوسف حلمى ايضا المحامى الذى اشتغل بالسياسة ، واختير امينا عاما لحركة السلام العالمى فى مصر .

ثم ذهبت إليه المرة الثالثة فى كرمة ابن هانىء ، وكان فى مكتبه فى الدار، ولكنه خرج إلى الحديقة ، وكانت سيارته تنتظره على الباب، وخيل إلى انه لن يتحدث إلى بحجة أنه لا وقت لديه للحديث ، ولكن ادهشنى انه سار الى جانبى فى الحديقة ، بخطى بطيئة ودودة ، وأعنى بالخطى الودودة ، هى تلك الخطى التى توحى اليك ان صاحبها يقول عن طريقها لك . لا تطل على . دعنى أمضى، للذى ما يشغلنى غيرك، وانت تؤخرنى ، سار شوقى ، متمهلا ، وسرت معه حينا وخلفه حينا، فى مماشى الحديقة ، وانا سعيد بانه لا يتجه الى الباب حيث

ياخذ سيارته .. ولم أكن قد اكتشفت ان ملابسه غير قليلة الأهمية قد وقعت ، هي أن مجلة «المصور» ، كانت قد اصدرت عددا خاصا عن مشروع القرش، اشرفت انا على جمع مادته، وإصداره، وكان قد ضم آراء لعلية القوم حقا في المشروع ، وكانت ضمن مواده قصيدتان احداهما لخليل مطران والثانية لعباس العقاد. وكانت القصيدة الثانية هي مدار كلام شوقي معي، فقد قال كلاما لم افهم المقصود منه اذ قنع بقوله «يجب أن تميزوا وانتم تختارون الذين «يكتبون لكم ، وينصحونكم، ويشرفون على مشروعكم .. ابتعدوا عن الاراذل» :

ولم افطن من يعني بلفظ الاراذل ، ولكني اصغيت الى نصيحته ، بكل اهتمام فراقه ذلك مني ، واقبل علي ، وأطال سيره في الحديقة ، وأنا بصحبته ، استمتع بهذا القرب، ولا اقاطعه بشيء ثم توقف فجأة ، وفي يده مبسم سيجارته الذي لا يفارقه يعبث به ، ويدسه في جيب معطفه ، ويدنيه من شفتيه ثم يبعده ، ثم قال لي بلا تمهيد ، وقد احسست أن الشاعر قرر أن يسقط ما بينه وبيني من حجاب الكلفة . «هل تعرف انني احسن من حافظ ومن مطران ؟!» ..

وهزني ان أسمع هذا من الشاعر الخجول، الذي لا يطيق صحبة الناس، ويضيق بهم ، وأحيانا يفر منهم ، فقد رأى أنه يستطيع أن يجعلني موضعا لسر من اسراره ، أو لهم من هموم مقتمة . ولكني لم اقاطعه فقال :

«حافظ شاعر .. ولكن تنقصه المعاني . ويسيء إليه كثيرا أنه محدث عظيم . يخرج من بيته فيرتاد المجالس ، فيخلب لب السامعين بطرائفه وخفة ظله وحلاوة حديثه .. ينتقل من مجلس إلى مجلس ، وفي جميع

الأحوال هو المتحدث ، والناس يسمعون . لا يسمح لأحد غيره ان يتكلم فبدل ان ينفذ من كل زهرة رحيقها ، يعطي الناس أجمل ماعنده فاذا عاد إلى بيته، افرغ كل مافى جعبته ، وشعر بالحاجة إلى الراحة ، وسعى للنوم ..

«أما أنا فلا أحب الكلام وأهرب من الناس، وثقلاؤهم كثيرون ، ويطاردونني ولا أجد منقذا لي الا الشعر

«أما مطران فمتعلم ، علي عكس حافظ ، ويقرأ كثيرا ، خصوصا فى الأدب الاوروبى ، والشعر الاوربى ، ولذلك عنده معان، ولكن هذه المعانى فى حاجة إلى لفظ جميل مثلها ، ولكنه يشتغل فى الثقافة الزراعية، فيقضى سحابة نهاره ، فى شئون لا تمت إلى الادب ولا تجلو صدأ النفس ، فتأتى الفاظه خالية من الحرارة والجمال .

«لو وضعت حافظا علي مطران ، لخلقت منهما شاعرا .. وسكت ثم قال . «أنا هذا الشاعر ...» .

وتركني وأسرع نحو السيارة ، وأنا ماخوذ اللب بهذا الكلام الصريح البسيط المباشر، وأنا لا أكاد أصدق . قبل ان يدخل إلى السيارة ، وقف عند بابها وقد استدار نحوي وهو يقول . متى تعود ؟!.

فلوح بيده وهو يقفل باب سيارته : يومين أو ثلاثة ..

تحرك الشاعر ، بعد أن قرأ كلام الادباء والشعراء ، مي ، والمازني ، والعقاد ومطران، ورامي ، ووعد بأن يكتب قصيدة . سآخذ هذه القصيدة ، وسأذهب بها إلى جريدة «البلاغ» التى كان يصدرها المرحوم عبدالقادر حمزة باشا ، وترددت علي دار الشاعر ورأيته فى مكتبه ورحب بي حينا ، وبدا عليه الذهول ، والانصراف عني حينا ، وان كان

يتدارك اثر سوء استقباله ، فيعود مجاملا . وعلمت اخر الامر ان القصيدة اوصلها شوقى بنفسه إلى صديقه صاحب البلاغ وهي على صدره، واسفت ان القصيدة افلتت من يدى ، وذهبت الى الجريدة على طول ترددي على الشاعر ..

وراعتني القصيدة ، فقد كانت مطلعا ومتنا ، اثرا عظيما من اثار الشاعر العظيم .

وقد ابهجنا ، واسعدنا مطلع القصيدة .

لا يقيمن على الضيم الاسد

نزع الشبل من الغاب الوتد

كبر الشبل وشبت نابه

وتغطى منكباه باللبد

اتركوه يمشي في اجامه

ودعوه عن حمى الغاب يلد

واعرضوا الدنيا على اظفاره

وابعثوه في صحاريها يصد

واذكر اننا زكي مبارك وأنا ـ عرضنا لهذه القصيدة ، وكنت احفظ هذا المطلع ، فرويته للدكتور زكي، فترنح وقطار (المترو) يحملنا على متنه إلى القاهرة ، فاستعاد هذه الابيات مرة ومرتين وثلاثا . وهو ثمل بخمر الفاظها ، ولكني لم ألبث حتى استوقفني المصراع الثاني من البيت ، فصدمني التشبيه فيه ، فشوقي هبط بالأسد الى مرتبة الحمار حينما قال : إن الشبل نزع من الغاب الوتد . ولا يشد الى الوتد الا حمار او

ما يشبهه من الحيوانات ، ولكن بقيت القصيدة آية من آيات نبوغ شوقي، وعظم شأوه ، ولعله قد بلغ الغاية حينما تحدث عن الشبل ، فطلب من الجيل القديم ان يتركوا الشبل يمشي في الهام ، وان يجرب قوته في حماية الغاب والذود عنها ، ثم ان يعرضوا الدنيا على اظفار هذا الشبل يعني يفسحوا فرصة النزول الى ميدان المعارك ، وأن يذهب في اعطاف الصحراء واطرافها ، يبحث عن الصيد . لم يكن هذا شعرا جميلا فحسب . وانما كان أيضا دعوة الى التجديد ، ودعما للجيل الجديد .

ووجه الخطر في هذه الابيات ، انها كانت من آخر ما نظمه شوقي ، والمألوف في الكتاب والمفكرين والشعراء ، إنهم حينما يتقدم بهم العمر ، يؤثرون القديم ويميلون الى المحافظة ، وشوقي وهو على عتبة الدار الاخرى، يتحدث عن المستقبل بروح التفاؤل ويعلن ثقته بالشباب ويقول فيما قال :

سيرى الناس عجيبا في غد

يفرس الفرش ويبقى ويلد

ايها الجيل الذي نرجو لغد

فيك العز ويناك الرغد

وقد قلت ان المرحوم سعيد العريان جامع الديوان ظن ان هذه هي آخر قصائد شوقي ، في حين أن القصيدة التي تسلمتها منه وسلمتها لجريدة الاهرام ، كانت خاتمة المطاف وكنت انا آخر من تلقى ابيات الهام الشاعر .

غير انني بقيت على صلة به ، فقد دعوت إلى فكرة «مؤتمر الطلبة الشرقيين» وكانت الغاية من هذه الدعوة ، العمل على تأييد ودعم الرابطة بين شباب الشرق على مدى اتساعه ، وترامي آفاقه ، بحيث يجمع الشباب المنتمي إلى هذا العالم الفسيح حتى اليابان والصين على المحيط الهادى حتى المغرب على المحيط الاطلسي وعلى الرغم من ضخامة الفكرة ، وصعوبة أو استحالة تنفيذها ، الا ان طموح الشباب، وخياله، قرب البعيد، وذلل الصعب ، او اوهم بذلك . وقد تحمس لهذه الفكرة من بين اساتذتي في كلية الحقوق، المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهوري، فكان يمنحها من وقته وجهده ، ما زادني تعلقا بالفكرة وحبا له ، واعجابا بمثاليته . ولقد رأينا ان نصدر لهذه الفكرة أعدادا من المجلات الرائجة في مصر ، فاخرجت عددين اولهما كان من مجلة السياسة الاسبوعية اكبر المجلات الادبية انذاك وأعظمها رواجا، والثانية من مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال ، وقد نجحت في حشد عدد من أكبر أقلام العربية في مصر والمشرق العربي والمغرب العربي ، وترددت من اجل الحصول على قصيدة من شوقي ، لهذه الفكرة ، وكثر ترددي ، وجلوسي معه منفردين حينا . ومع آخرين من محبيه ومريديه ، أحيانا . وكنت ادخل احيانا الى مكتبه في كرمة ابن هاني» فلا اجده فيها وإنما أرى مجلدات ، معظمها من التراث العربي مثل الاغاني والامالي، والمعارف ودواوين كبار الشعراء كالمتنبي وابي تمام أراها رصت بعضها فوق بعض، وأراها مقلوبة عند الصفحات التي وصل إليها الشاعر في قراء ته . ثم اجدها كثيرا ملقى بها على

الارض ، هنا وهناك ، بغير ترتيب ولا احتفال . وكنت ألمح بينها أجزاء القواميس الكبرى كتاج العروس ، والمحيط، والمصباح المنير. ولم ار في كل هذا ولو لمرة واحدة كتابا بالفرنسية التى تعلمها الشاعر فى مستهل عمره بمصر ، ثم اتقنها حينما ارسله الخديو توفيق ليدرس القانون ، فتركه ودرس الآداب .

وقد عرضت مناسبة حملت الشاعر على ان يتحدث اليّ عن محمد عبدالوهاب المطرب الشهير، والذي كان اقرب الناس إلى شوقي، واحبهم إليه وكان يصحبه إلى دور الصحف حيث يقابل رؤساء التحرير وكبار الادباء ، فقد عرضت على امير الشعراء ، ان يقنع محمد عبدالوهاب بأن يؤدي في حفلة نقيمها (لمشروع مؤتمر الطلبة الشرقيين) ، ونزود من دخلها ، خزانة المشروع الخاوية . وقد حدثت شوقي في هذا الشأن ، في مكتبه ، وكنت واقفا وكان هو كالمضطجع على أريكة من ارائك الحجرة ، فاعتدل في جلسته وصاح باعلى صوته الضعيف : (يامحمد) وجاء عبدالوهاب ، ووقف بين يدي الامير في ادب . ورد عليه في صوت خفيض ثم انصرف ، فاتجه الي شاكيا ، ان عبدالوهاب يغني في سرادقات تقام لحفلاته في الليل وفي الشتاء فيدخل الهواء البارد من خلالها . وصحة عبدالوهاب لا تتحمل هذا العناء ولا ذاك البرد، وقد احسست عندها ، مدى حب الشاعر، لمن يغني له قصائده وازجاله فيشدو شدو البلبل حقا ، فيستخف بصوته آلاف المستمعين .

وقد سمعت المطرب يروي بعض ذكرياته مع شوقي ، فقال إنه علم من خادم الشاعر، وكان سودانيا يدعى احمد ان سيده عاد من الخارج

كعادته متأخرا فى الليل وطلب من تابعه ان يحضر إبريق الماء والطشت ليغسل وجهه ورأسه قبل أن ينام ، وبينما يحضر احمد هذه الأدوات ، يحضر الموت ، ويشتد الم الشاعر فى صدره ، فيأمر خادمه ان يدع ما بيده ويدعو ابنه ليعطيه حقنة ، تصرف عنه الم الصدر، ثم يدرك الشاعر أنها الخاتمة فيقول لخادمه :

«لاتدع احدا .. إنها النهاية . سلم لى على محمد» ثم اغمض عينيه وترك دنيانا . ليبقى شعره مقروءا وقائما يتغنى به الشباب. ويتغذى به الرجال والشيوخ ، ويجدد من شباب لغة العرب، ويزيدها على الايام جمالا وبهاء .

المثال مختار شاعرا

لقد اعتدت أن أقف - كلما أتيح لي الوقوف - أمام تماثيل مختار ، ثم أترك نفسي ، تتأثر ، وتنطلق مع نظراتها ، في عالم فسيح لا ينتهي عند حد ، أنسى فيه دنيانا المحدودة ، التي يعكر صفوها ضجيج لايطاق، ودناءات لاتحتمل ، وأناس صغار ، يخاصمون الفن، ولايدعون أحدا ، ليستلهمه أو يستمع إلى همسه الذي يحرك القلوب ..

كنت أفعل ذلك دائما وأنا مدرك أن ما يصنعه مختار في الصخر ، وفي البرونز أو الرخام ، هو شعر مجسد ، وأن الوزن فيه والقافية ، هما هذه البراعة التي تحيل الجماد إلى جسم حي ، تنطق كل قسمة من قسماته ، سواء كانت هذه القسمات في وجه أو في صدر أو في ذراع ، وبقيت هذه حاله مع تماثيله الصغيرة ، الرقيقة ، الى أن قرأت بعض ما كتبه فإذا به شاعرا حقا ، ينطق الكلمات كما ينطق الصخر ، فهو لايكرر المعاني المألوفة ، وإنما يخرج من اجتماعها وتفرقها صورا وألوانا ، وأشكالا تنافس تماثيله ، وإن كانت تشبهها في هذا الفيض الدافق من الإحساسات وهذه اللوحات التي يملأ بها القلوب ، وهذه اللوحات الزاهية والباكية التي يمتع بها العيون والأبصار .

وقد رأيت أن أعرض عليه نماذج مما كتب في أكثر من مجال ، لنتذوق هذه التماثيل التي صاغتها أنامله عندما تحمل كلمة.

● الهلال - فبراير ١٩٨٥ .

أرسل إلى صديقه «مارسل» خطابا جاء فيه :

«لقد نضب الشعر اليوم من نفسي ، فبعد جولة في جبال الجرانيت، وبعد ساعات طوال من الارهاق والعمل استلقى مجهدا وغدا لن يكون لى من النوم لحظة ، يوم ثقيل بعد وحده .

ولقد كان من الحكمة ألا أكتب إليك اليوم ، ولكنك ياعزيزى مصدر الأفكار التى تستمد قيمتها من وحيك وإلهامك وإنه يطيب لى أن أتصور أسماء نا وقد انبعثت بغتة من أوراق خطاب قد يعثر عليه ، وقد يتساءلون عن تلك المرأة التى لقيت كل هذا الحب وعندئذ سيصمون أطيافنا بالكثير من الحماقات والسخف ، فإذا كنا نسيء الحكم على الأحياء فماذا يكون الحكم على الفانيين أنا أكتب إليك وأنا مستلق على الرمال التى لاتزال تحتفظ بسخونة يوم محرق ، وفى الهوريج قبلات ، والرغبات اليائسة تتبدد فى الأحزان وعاونتني الأوهام ، رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفى مهام الزمان حيث كنت أتمدد بدت لى معالم تكوينك تتشكل ،

«إننى أرى النيل أمامى ، وفى الضفة الأخرى ، كشك أثرى قديم يغمره الليل والصمت» .

وحين أفتقد وجودك إلى جانبى تنصتين إلى وأحيانا تبتسمين فإننى إلى هناك أتجه ، ولكن طالما كان على مقربة منا شخص يحتاج لنا ألا تكون الحياة جميلة .

وهل لنا أن نشكو من يكون هذا الشخص محبوبا نستمد من وجوده ومن غيابه ، عواطف وأحاسيس غير محدودة .

وإذا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوى على نفسها وتصبح إحساسا داخليا ، أليس فى هذا أيضا شعور بالراحة ،

وكتب أيضا بعنوان «ترنيمة حزينة» خطابا لنفسه لا لصديقته لأن حبه من جانب واحد ، وهو بهذا الحب سعيد .

كتب لها أولا خطابا ، فوجدته مرا فحرقته ، بأي حق أشكو منها ! أني أحببتها بهذا الحب الذي لايعبر عنه بالكلام بل نحت في الحجر الصوان الأصم .

نعم كنت أحبها هذا الحب المقدس ، وأبحث في عينيها عن هذا السر الذي يجذبني دائما إليها ، لا كما يبحث الإنسان بين الأعشاب عن خاتم وقع من أصبعه ، بل كما يبحث المرء عن سعادة صنعتها له الحياة لكل هدوء في أسرار الأشياء ، كنت أحبها وأفاخر بهذا الحب السامي الذي وضعت تحت تصرفه جميع مواهبي لاقذف بها في أمواج الحياة المتلاطمة ، لأجعلها حي خالد .

وكان هذا وأكثر من هذا مما لايكتب ولا يقال ولكن يظهر لي أنها لم تقدر هذه العواطف الرهيبة وكأنما خشيت أن تنظر إلى بعمق هذا الحب المخيف ، الذي لم تتعوده بعد ، فلوقفته بيد من الثلج .

أنظر كيف تعامل هذا الحب فقد بقيت كل هذه المدة بدون أن أراها ، أو تصلني أخبارها ، كأن الحياة قد انقطعت أسبابها ونحن نعيش في مدينة واحدة ، كأنه وضع بيني وبينها سدأ من حديد ، فأصبحنا لايعرف أحدنا الآخر .

أنظر كيف تسرف في عدم الاكتراث ، وهي تعلم أن عدم الاكتراث ماهو إلا سم الحب الزعاف .

أنظر إليها بعد أن سقته كأس الموت ، كيف تنظر إليه يحتضر ولاينفطر قلبها ، وتذوب روحها إجلالا لهذا المنظر الرهيب .

أنظر كيف تبتسم أمام هذه السماء المقدسة ، وهي تعلم أن للحب الها حسابه عسير ، فسوف يأتي يوم تثوب إلى رشدها ، وعندها تلبس الحداد إلى آخر يوم من حياتها البائسة .

ولكن لماذا أقول لها كل هذا ؟

إنها سعيدة بدون هذا الحب ، وهل أنا أردت شيئا آخر غير سعادتها بلى حق أريد أن أشركها في مستقبلي المليء آلاما وغيوما .

بلى حق أريد أن أقذف زوابع حياتي وعواصفها في حياتها الهادئة الساكنة .

لا : فلتكن هي سعيدة ولتسامحني إذا عكرت عليها صفوها لحظة واحدة ولتكن إرادتها .

أما أنا فسأخضع لعزة نفسي ، وأعود إلى وحدتي الساكنة التي أجد فيها دائما العزاء الشافي ، لآلامي والبلسم الذي يضمد جروحي ، وسأنظر من هذه الوحدة إلى تذكار هذا الحب كما ينظر الإنسان إلى كسوف الشمس من خلال قطعة زجاج عليها سحابة من الدخان إلى أن تغيب .

ولكني سأبقى كالانسان الذي لاترى منه العيون العادية أثرا من بعيد ، حتى إذا زلت قدماها ألقم لها يد الشفقة لانتزعها من الهاوية .

هذان الأثران اللذي خلفهما محمود مختار ، واللذي وجدتهما في كتاب الكاتب العظيم بدر الدين أبو غازي وزير الثقافة والناقد الفني الفذ، عن مختار وهما يكشفان عن أغوار هذه النفس الشاعرة ، ومدى تلاطم مشاعره وعمق أحزانه .وأسلوبه الخاص به ، لا بالاحساس بالحب وتأثره به ، وتصغيره عنه ، بل بغرابة الدنيا التي علق فيها

والتى الهمته هذه القطع التى نحتها فى الجرانيت ، والتى ألانها بسحر أنامله ، فنطقت بألطف عبارة فاضت بالحزن والحرارة ، والحب والمرارة.

أنظر إلى قوله مثلا - فى الجورييح قبلات ، والرغبات اليائسة تتبخر فى الأحزان ، وإلى قوله - رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفى سماء الرمال حيث كنت أعتبرها معالم تكوينك تتشكل وأخيرا هو يغرى نفسه ، بكلمات تمتلىء بالحزن والأسى والانكسار فيقول :

وإنا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوى على نفسها ، وتصبح إحساسا داخليا ، أليس فى هذا أيضا شعور بالراحة؟

والحق أن الشعور الذى يصفه هنا ، ليس شعورا بالراحة ، لأنه الانطواء والعزلة والاحساس المحض بالوحدة ، ولكنه شعور محب ، لايجد من حبيبته متبادلا فى العاطفة .

وفى الترنيمة الحزينة ، عتاب يفيض بدم الحب المسفوك ، فالشاعر قد هجرته معشوقته ، فلننظر كيف يصف موت الحب ، الذى جرعته يد المحبوبة سما زعافا ، وكأنها لاتفعل شيئا ، لأنه هجرته فحسب ، وهى تحسب أن هذا الذى سفكت به دم هذا المخلوق الرقيق الحساس الذى نسميه ، أمر لا خطأ فيه ، ولاعتاب عليه وكالعادة يعزى نفسه بأنه ليس من حقها أن يعصف بهدوء نفسها أو يقذف فى دنياها الساكنة بأعاصير حياته وبعد هذا نرى أن الفنان الكبير المحلق والمتسامى فى دنيا الابداع ، والشاعر الذى يحس أضعاف مايحس الناس العاديون ، حينما تشتد به لوعة الحب ، وتحرقه نيران الهجر ليس إلا إنسانا عاديا، إلا أن قدرته الخارقة على التصوير من جهة وعلى التعبير من جهة أخرى تبديه فى صورة إنسان غريب ، وهو فى الواقع واحد من الناس يضاعف بتفوقه ودقة إحساسه ، آلامه .

على أن شاعرية مختار ظهرت فى أجل صورها فى لوحة قلمية وصف بها طقوس استقبال الطالب الجديد أى طالب جديد فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس ، وهى طقوس تصل فى القسوة الى أقصى الغاية وقد نال منها نصيبا لايحتمل ، ولكنه يخلد له ، ولما وصفه ، وصفه بهدوء وكأنه نسي ملقيه من مرارة جاوزت الحدود قال :

«لما وصلت إلى مدرسة الفنون الجميلة ـ نبهنى أستاذى إلى هذه اذ وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتى اختنق ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف السين حتى ساقه الشرطى إلى القسم ، أما اذا غضب الجديد فالويل له ، وقد يؤدى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا .

ولقد كان نصيبى كجديد أن يحكم على بالتجرد من جميع ثيابى ، وأبقى عاريا تماما ، ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة .

فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل ، فشدوا وثاقى الى كرسى ، وأنا عار كما ولدتنى أمى ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعون ، وكتبوا عليه «رمسيس الثانى» وحملونى على نقالة رفعوها على أكتافهم ، وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمنا من يفسح لنا ، وسرنا كذلك من المدرسة إلى عرض الطريق حتى كنيسة «سان جرمان دى بريه» فى آخر شارع بونابرت ـ وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا إلى قهوة بونابرت ، والناس من حولنا ينظرون ويبتسمون وهم جميعا يعرفون عادات مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدها .

وهناك وضعونى كما أنا على خوان فى المقهى وطلبوا طعاما وشرابا وجعلوا يرمونى بالفضلات وقشر المحار وكلهم يقدمون إلى على طريقتهم الزلفى والقرابين» .

وبمناسبة الحديث عن خطابات مختار العاطفية ، نذكر أن القريبين من مختار من الأصدقاء والأقارب ، يعرفون مدى ارتباط المثال العظيم بالمطربة نائغة الصيت أم كلثوم الآتية من ريف مصر ، وقد يمكن القول أنها كانت عنده بمثابة الفلاحة التي جسدها في تمثاله الرائع «نهضة مصر» والتي رمز بها إلى مصر الحديثة توقظ مصر القديمة ممثلة بدورها في «أبي الهول» وكان قول مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية المصرية «أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة» وقد ألهم المثال بفكرة التمثال ، ولاسيما أن قاعدة تمثال مصطفى كامل الذي صنع بأموال المصريين سنة ١٩٠٨ وهي السنة التي أنشئت فيها مدرسة الفنون الجميلة بناحية درب الجماميز ، وهي المدرسة التي تعلم فيها مختار .

وقد حدثني الفريق عزيز المصري باشا ، وهو صديق حميم لمختار ، عن ارتباطه وتعلقه بأم كلثوم ، على وجه لم يكن ليخفى عن أحد من أعضاء الدائرة الضيقة التي كانت تحيط بمختار ، وقد عبر المثال عن حبه لأم كلثوم وتقديره لفنها ، بتمثالين من أجمل تماثيله أحدهما أودع في متحف الشمع «جرفيه» في باريس وهو من الشمع ، والثاني من الجبس ، ولو لم يقل لي عزيز المصري أن مختار كان يحب أم كلثوم حبا عاصفا ، ولكنه كان حبا عفيفا مكتوما وقد يكون من جانب واحد، وإن كانت أم كلثوم شديدة الاعجاب بالمثال ، ملخوذة بشخصيته النادرة والمتحررة في مجتمع كان في ذلك الحين ، شديد المحافظة، عظيم الرياء، لو لم يقل عزيز المصري لي شيئا عن هذا الحب ، لوشت تماثيل مختار بهذا الحب وأعلنته مختار في سطور :

محمود مختار هو أول مثالى مصر حمل الأزميل من الفنان الفرعونى القديم منذ أربعة آلاف سنة .

وهو بذلك منشىء النهضة المصرية الحديثة .

ولد في قرية نشا بجوار المنصورة سنة ١٨٩١ .

دخل مدرسة الفنون الجميلة فى القاهرة عند إنشائها مرة لأول فى درب الجماميز سنة ١٩١٨ .

عرض أول تمثال فى صالون الفنون بباريس سنة ١٩١٣ وهو أول مثال غير أوربى يسمح له في هذا - بتمثال عايدة .

بعد ثورة ١٩١٩ - عرض تمثال نهضة مصر فى باريس فى معرض الفنانين الفرنسيين .

اكتتب المصريون بجميع طبقاتهم فى اقامة هذا التمثال ، وقد أقيم فى ميدان المحطة في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ .

كلفته الحكومة إقامة تمثالين لسعد زغلول أحدهما فى القاهرة ، والثاني فى الاسكندرية وعندما أقيما كانا مع تمثال نهضة التماثيل المصرية الوحيدة المقامة في ميادين مصر ، وبفضله نشأت الطبقة الأولى من الفنانين التشكليين ، أمثال يوسف كامل ، وراغب عياد ، ومحمود سعيد ، ثم الجيل الجديد عبد القادر رزق وجمال السجينى ، وصلاح طاهر .

وقال بدر الدين أبو غازى ابن شقيقة المثال عن صلة خاله بأم كلثوم مانصه كان من أشد المتحمسين لها مع مجموعة من الأصدقاء ، وتمثلت حماسته وصداقته لها في تمثال يفيض بالرقة والشجن والجمال، وفى تمثال آخر من الشمع اقامه لها ، الى جانب تمثال بافلوفا بمتحف جريفن بباريس .

أعلام معاصرون

يحيى حقى :

أمير المقالة القصصية

أريد اليوم أن أرسم صورة قلمية ليحيي حقي ، لقد كتبت عنه قبل اليوم مقالا في مجلة الثقافة ، ضمها كتاب اسمه «أفكار الكبار» ولكن اليوم أريد أن أتحدث عن يحيي حقى الأديب ، عن شخصه ، عن سماته، عن خصائص نفسه ، لأنى لا أظن أن أحدا يكتب عن هذه الجوانب التى لو وصفت بحذق وصورت بدقة ، لظفر القاريء العربي ، بشيء ممتع ، والحق أن الشخص الذى يمكن أن يقوم بهذا ، ببراعة ولطف وخفاء ودعابة وسخرية هو يحيي حقى نفسه ، ولقد صور نفسه في آلاف من السطور التى كتبها والتى كونت كتبا ستخلد كما يمكن أن تخلد الكتب قرنا أو قرونا ، ثم تبقى بعد ذلك أثرا يحتاج إلى مكتشف ، ووشم فى ظهر يد الزمان ، لايقرؤه الا شخص منقطع لقراءة هذه الآثار الباقية :

يحيي حقى ، كل شيء يدل على أنه ، واسع الحيلة ، عميق الغور ، لاتعرف ماذا يبطن ، فهو أولا قصير ، وآباؤنا وأجدادنا علمونا أن القصير ماكر ، وأن الطويل أبله ، ولكل قاعدة استثناء واحد على الأقل ، ولكن يحيى حقى إلى جانب قصره له ابتسامة لاتفارق شفتيه لاتدرى

● الهلال – فبراير ١٩٨٥ .

أهى مشروع نسى صاحبه أن يتمه فى مدة تجاوزت الثمانين ، فإننى أزعم أنه حينما ولد ، كانت هذه الابتسامة على شفتى الطفل الذى يصرخ صرخة الحياة التقليدية التى لاتبدأ الحياة إلا بها .

وبعد هذه الابتسامة التى تبحث عنها فى تقاطيع وجه يحيى فلا تدرى إذا كانت موجودة ، أم أنها إيماء لايثبت التحقيق والتثبيت ، وإلى جانب القصر والابتسامة الغريبة المحيرة يحيى حقى يتكلم همسا لم اسمعه يصيح قط ، ولو وهو ينادى على بائع جرائد وهو لايكتفى بأن يكف نفسه عن الصياح بأنه يعتبر الصياح جريمه من أخطر ما نسى المشرع النص عليها فى قانون العقوبات وأحسب أنه لو ولى يحيى حقى وزارة العدل لأصدر تشريعا يحرم الضجيج الصادر عن أصوات الآدميين وأذكر أنه شكا لى أن أحد وكلاء الوزارة لايعرف كيف يتكلم إلا وكأنه يؤذن فى جماعة من الصم .

فإذا أضفت إلى كل هذه الصفات والخصائص أن يحيى حقى اشتغل مثلا بالسلك السياسى ووصل إلى وظيفة السفير ، وقد أخذ السلم من أدنى درجاته «أمين محفوظات» إلى أعلاه ، وجاءت الثورة فلم ينح عن السلك السياسى هذا السلك الحساس جدا . ولكنى أؤكد أنه إذا كان يحيى حقى ماكرا ، فمكره خير كله : فلا هو آذى أحدا ولا هو فكر فى أن يؤذى أحدا ، بل لعله عاش ينتظر الأذى من الآخرين، حتى كاد يصبح هذا التوقع وسواسا .

ولقد عرفت يحيى حقى قبل أن اسمع باسمه أديبا . ولم ألتق به، وأراه رأى العين ، وقد لابست هذه المعرفة الأولى ، ظروف كانت جديرة بأن تفسد صلتى به ، وتدعونى الى النأى عنه ، ولكنها لم تترك هذا الأثر ، فقد وقعت هذه الظروف ، وهو فى القنصلية المصرية بتركيا ،

وأنا محام لعائلة تركية مصرية ، كان عميدها رمزى طاهر باشا كبيرا لياوران الخديو عباس وغضب عليه الانجليز لميوله العدائية ضدهم ، فأقصوه من مكانه إلى جوار الخديو ، وعينوه وكيلا لوزارة الحربية المصرية . فلما بلغ المعاش عاد إلى مسقط رأس أجداده فى تركيا وأقام هناك ثم قامت بين بعض أولاده والحكومة المصرية نزاع قضائى وكلونى فيه ووفقت إلى كسبه ، وإن لم أجن منه مليما واحدا مع أنى سلخت السنوات أترافع ضد أكبر محامى فى الحكومة فى درجات التقاضى كلها ، وكان آخرهم المرحوم عبد الرحيم غنيم الذى وصل الى منصب النائب العام وهو الذى حقق فى قضية حريق القاهرة .

وطال الزمن الذى كان على أن أتعرف بعده على أديبنا الكبير ، واقتصرت فرص لقائى به ، على جلسات قصيرة سريعة. بمنزل العالم الكبير باللغة العربية وأدبها وحضارتها ومحقق آثارها الأستاذ محمود شاكر الذى جمع أخيرا بين الحسنيين جائزة مصر التقديرية وجائزة السعودية الكبرى . وأن يكون يحيى حقى صديقا لمحمود شاكر ، أمرا من غرائب حياة الأدباء والمفكرين ، فمحمود شاكر شديد الغضب عنيف إذا كتب أو إذا خطب ، العيوب التى يراها فيما يقوله الناس أو مايفعلونه لايلقى منه إلا الحمم التى تفجر بها بركان سخطه .

ويحيى حقى لايغضب الا بينه وبين نفسه ، وما أسرع أن تتحول غضبته الى سخرية ، بالناس ، وبالدنيا ، وبالكبار بالصغار ، فشعاره «خليها على الله» ليس كلاما يقاله ولا عنوانا لأحد كتبه ، يرمز الى أسلوب نظراته إلى دنياه ، بل هو خلاصة فلسفته ، فقد مضت حياة يحيى حقى دون أن يدفع الناس ، أو يزحمهم عن طريقه، ولا أظن أنه

قال لأحد عبارة «من فضلك» ليفسح له طريقا ، أو يترك له مقعدا ، فكل ماهو آت قريب ، والطريق المزدحم سينفرج ، والناس الذين يتلكئون يذهب كل منهم إلى حال سبيله ، حسبك أنه رفض أن يكتب في جريدة رائجة، وأبى الا أن يتخذ له ركنا في جريدة المساء حينما قل جمهورها، وفتر رواجها ، وفي هذا الركن كتب أجمل ما كان ينشر في جرائد اللغة العربية . فما يكتبه يحيى حقى ، هو في واقع الأمر ضرب من الأدب ، لا أعتقد أن الجاحظ سمع به أو عرف شيئا قريبا منه ، وقد مضت قرون اللغة العربية تؤلف خلالها الكتب ، وينبغ الشعراء ، ويسطع نجم الأدباء، وليس في كل هؤلاء واحد يستطيع أن يلعب بالألفاظ ، ويصنع منها العجائب والغرائب ، ويخلق لاخوانه في هذه اللغة في القديم والحديث ، كنوزا من الطرائف التي لايعرف الناس بعد أن يقرؤها أهي شيء يقرأ فحسب ، أم هي سخرية يداعب عقولهم ويدغدغ شعورهم ، ويحملهم على أن ينظروا إلى الدنيا نظرة جديدة ، لأنه لايدع ظاهرة من ظواهر حياتنا ، ولاسيما مابدا منها لنا ، تافها قليل الشأن حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ثم يستخرج منه حقائق ومتناقضات وصورا وأفكارا ، لاتدرى كيف اهتدى إليها وكيف عرفها ولو كان لي من الشأن ما كان لحافظ ابراهيم شاعر النيل في الثلاثينات لوقف على مسرح الأوبرا ، قبل أن يحرق طبعا ، وهتفت في أذن الوطن العربي قاطبة ماهتف به حافظ وهو يكرم شوقي أمير الشعراء .

أمير القوافي لقد أتيت مبايعا

وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

فإنى أبايع يحيى حقى بأنه أمير المقالة القصصية وهى شيء غير المقالة ، وغير القصة ولكنها مزيج من الفنين ، يضفى أحدهما الى الآخر ، دون التزام قواعد القصة وشروط المقالة ، ليسكر قراء العربية ، بهذا الاكتشاف الفريد .

ولد يحيى حقى فى ٧ من يناير سنة ١٩٠٥ ففى يناير ١٩٨٥ يكمل العقد الثامن من حياته المباركة المثمرة ، وسيترك لقراء أدبه ولمحبى الأدب على طول الإنسانية وعرضها ، نحو ٢٨ كتابا أولها «قنديل أم هاشم» وآخرها «كناسة الدكان» وسيعرف الناس عندما يهبط الغبار بعد عمر طويل الذى يثور حول كل كاتب فى حياته حتى ولو كان غبار الشهرة وذيوع الإسم ، فيبدو على حقيقته . وعندما يعرفون الصنيع الجميل الذى صنعه هذا العاشق المتيم باللفظ الجميل فى اللغة العربية ، وهذا المصرى القح الذى لايحفل بروائح الحياة البلدية فى أحياء القاهرة العتيقة ، أكبر أحياء باريس وأجملها ، ولقد عبر بأسلوبه النفاذ والأخاذ عما يقال له من أولاد البلد الذين تخدعهم لون بشرته البيضاء والمشربة بالحمرة ، والبيريه يضعه على رأسه ، وتقاطيع دقيقة ، لاتشبه تقاطيع أغلبية الشعب المصرى فيقولون له : حاسب ياخواجة ! فيقول آه لو تعلمون .

آه لو تعلمون كم يخفى هذا المظهر الأجنبى ، من تعلقه الشديد بمصر ، والإسلام وأولاد البلد ، وكم يحبهم ، وينظر بعطف وود إلى أسلوب حياتهم وجهادهم الشريف من أجل لقمة العيش .

وإذا جاء دور الاستشهاد ببعض ماكتب يحيى حقى تأكيدا لماقلته هنا وماقلته فى مواضيع سابقة عن خاصية «يحيى» الكبرى ، وهو لعبة

الحاوى بالألفاظ ، قلت من قبل - أن سر قوة يحيى حقى ألفاظه وحين أقول ألفاظ يحيى حقى لاتظن أننى أعنى أنه يستعمل ألفاظا جديدة ينحتها أو يزاوج بينها أو أعنى الألفاظ ذات الرنين ولا ذات الموسيقى الداخلية أو الخارجية ، إنما أعنى الألفاظ البليغة حقا ، الفصيحة صدقا أى التى تقول لك فى موضعها من الجملة ، وفى مكانها من البيان مالا تستطيع أن تقوله كلمات أخرى ، مهما كانت جميلة الجرس ، ولطيفة الموقع ونادرة الاستعمال مع خلوها من كل مايشوب الألفاظ من عيوب كالغلظة أو الثقل على السمع أو اللسان ، أو غموض المعنى فضلا عن أنها تقول مايريده الكاتب بالضبط أو مايقوله وفوقه «علاوة» وقد قلت بعد ذلك «الكتاب ينقسمون الى ثلاث طوائف» طائفة اللفظ وطائفة الأسلوب ، وطائفة الفكرة ، وأعلى الجميع كعبا هم المنتمون للطائفة الأولى ، وإن بدا أن كاتب اللفظ هو أدنى الجميع مرتبة وقد قلت أن ما أعنيه بكاتب اللفظ ، هو الكاتب الذى يستطيع أن يوهم القارىء ويلهمه ، ويبعثه على الضحك ، ويحمل على الأسى ، ويشرح له الصعب ويقرب له البعيد ويدعوه إلى الحركة ، ويحرضه على السخط ، بألفاظه هذه الاداة الصغيرة التى كنا نصفها فى أحاجينا باللغة العامية «قد السمسمة ، وتجيب الخيل ملجمة» تماما ككاتب اللفظ هو الذى يعرف كيف يخرج من ألفاظ يضعها جنبا إلى جنب فى نسق معين ، تختفى من خلالها شياطين الأنس والجن ، ملائكة السموات وملائكة الرحمن ، فى حين أن كاتب الفكرة قد ينفرك منه لأن فكرته وأن كانت جميلة أصلا وتصاغ فى قالب من فخار أو طين ، فتنفر منها وقد وضعت أصابعك فى أذنك ، وكاتب الأسلوب كالمرأة التى تتقن فن الرشاقة المصنوعة ، تلبس ثوبا

جميلا ، ولكن على جسم قبيح فيستر الثوب بعض عيوبها ولكنه لايحيلها إلى جميلة .

وقد وجدت في بعض ماكتبه يحيى حقي عن البيت الذي نشأ فيه فقال «فالجو الغالب في هذا البيت كان أولا شيء من الاعجاب ، برشاقة اللفظ والابتهاج بالتوفيق في العثور عليه» وقد كان من أجمل النماذج المؤيدة لهذا المنهج فقد قدم ، في جملة واحدة ـ لكتابه دمعة فابتسامة فقال «دلق الزنبيل» .. أصدق وصف لهذا الكتاب فهو خواطر متناثرة في موضوعات شتى ، لا رابط بينها ـ ومن ورائها جميعا دافع واحد اعتاق الكلمة .. ثم تحدث عن كتابه «صح النوم» فقال : «ليس في هذا الكتاب لفظ واحد لم يكن موضع حسن وذوق ، وفيه صفحات كاملة لايتكرر فيها لفظ واحد ، والمسألة ليست مع ذلك مسألة صدفة ، بل مسألة ثراء في المعاني والأحاسيس التي تتطلب ألفاظا لاتتكرر .

وهذا بالضبط ماعرضته من قبل ، فالأدب اختيار للألفاظ تلاحق المعاني ، وتلصق بها ولاتكون أبدا كالثوب المتهدل الذي ترى فيه زوائد وفضولا ، ولا الثوب «المحزق» الذي يبرز بسببه أجزاء من الجسم ، تشينه ويتعوق حرك صاحبه .

وقد قال يحيى حقي في محاضرة ألقاها في جامعة دمشق فقال : آن الأوان لأن يكون في الأدب أسلوب أسميه الاسلوب العلمي ، يعتمد على تحديد المعاني وبالتالي اختيار الألفاظ بحيث لايكون صالحا إلا لفظ واحد فيتعذر أن يستبدل به لفظ آخر .

أريد أن اختار لك نموذجين أو ثلاثة مما كتب يحيى حقي، فلا أحد

أجمل ، ولا أصلح لهذه المهمة ـ مهمة النموذج من وصف يحيى حقى لجنازة مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ قال :

لايشفع لى فى العودة من جديد إلى الرمز الذى اتخذته للعهد السابق «وهو شخص مصطفى كامل» إيمانا معى بأن من انغرزت رجله فى هذا الشرك لاتنفلت منه بسهولة «بقايا طلقاء السجون من أشلاء دنشواى يحملون نعشا وتارة علم البلاد ، خفيفا كالنسيم يضم روحا لاجسدا ، لفتى كان جهاده هو الذى فك عنهم الاغلال يخوضون به بحرا لجيا من أهل الريف والقاهرة» .

دعك من هذا النموذج المزين الذى يحدثنا فيه يحيى حقى عن جنازة مصطفى كامل وأشلاء ضحايا دنشواى ، فقال الفتل البيك ، وصف المقهى التى اتخذها رواد القصة الجديدة فى العقد الثانى من القرن العشرين ، هؤلاء الرواد الذين يتقدمهم محمود طاهر لاشين والذين كونوا فيما بينهم مدرسة جعلوا أحمد خيرى سعيد ناظرا لها: قال يحيى حقى فى بعض الليالى يهرعون – كالجياع إلى وليمة ـ إلى مسرح الكورسال ليحضروا حفلات الفرق الأوروبية من مسرحية موسيقية ويصفقون أكثر من تصفيق الخواجات ، كان مكان أغلبهم فى أعلى التياترو ، وإذا غلى فى بطونهم الأدب الروسى ، سألوا أين يباع «الفودكا» فليس الا على أيخرتها يتاح لهم أن يتذوقوا هذا الأدب ، ويعيشوا فى جوه وقد غلب الطابع الشعبى على هذه الندوة ، ضمنا المسرح والنكتة والدعابة بانضمام شخصيتين غريبتين إليها ـ أولهما الاستاذ أحمد خيرى سعيد الذى هجر دراسة الطب بعد أن كان قاب

قوسين أو أدنى من الشهادة ، إلى الصحافة فقد كان بسبب هدوء نفسه وسماحة صدره وصبره على الحيل ، وقدرته على عقد الصلة وفك عقدها، وإن كان أقل أعضائها انتاجا ، والثانى هو الاستاذ محمود طاهر لاشين ، الذى يجوب الشوارع ويدخل الدور وبقهقه ملء فمه .. ثم اتسعت الحلقة وأصبح يخاطبها من الداخل ، أو على الهامش أدباء، ابراهيم المصرى وحسن محمود والمرحوم محمود عزمى ، وحبيب زحلاوى ، تنطلق من على موائدهم كالرصاص اسماء هوجو ودستوفسكى وموباسان وتشيكوف وبلزاك العظيم .

كانت تنشب ذات مساء معركة لأن أحد الجلساء بتأثير الثورة فضل كاتبا شعبيا مثل جوركى على كاتب ليست له رسالة شعبية مثل بلزاك ، ولكن المعركة انفضت وقد بقى على رخام المائدة فتات سمسم سميط وتبين أن ماسح الأحذية قد انتهز هذه الفرصة ومسح للجميع أحذيتهم .

والآن أنقل لك صورة قلمية لشخص عزيز عليَّ «يحيى حقى» هو السفير محمد توحيد السلحدار ، السفير الذى نشأ فى أحضان مصطفى كامل ، وبقى عاشقا لمبدئه وأسلوبه الوطنى قال يحيى : سعيد من يرسم هذه الصورة القلمية بخطوط سريعة من القلم كالبرق وأسرع وأخف ماتكون ريشة الرسام .

«تعال أنظره وهو جالس إلى قدح من الشاى مسترخيا فى مقعد وثير لبس فى أصبعه خاتم يتيم ، وكان له فى كل يوم مختلف خاتم ، ابتسم له حظه فرتب له من يسمع منه ، واحدا أو اثنين لا أكثر ، فما فوق الاثنين فى حكمه .

زحام يخلخل الجو . وكان الزحام أشد شيء يكرهه ، تختلط فيه الناس ، مقاصد واقدار ، ويسوى بين الباحثين عن زادهم والمتطفلين وعبيد قهوة الشيوخ ولايشترط فى المستوى أن يكون صديقا له يتوقع حضوره عن موعد أو عادة بل لا أحب إليه أن يكون المستمع منه غريبا جمعته به الصدفة فيحس أنه يتجدد معه ، وأن كل كلام له بداية لاتكرار، حينئذ كانت الساعة والمزاج تتفرد أشرعته كلتما من تلقائها لاستقبال نزهة مجـال لها ، فلا يستأثر بها تيار واحد بعقـد زواج ، بل تتنازل الرياح في كل صوب ، وتصطاد هذا بعد ذلك برشـاقة العاشق البوهيمي ، مابين شرقية وغربية وشماله وجنوبه ، هذا هو يحيى حقى.

المحامون الأدباء
شادوا بناء الثقافة فى مصر

قد يخف اعتراضى الذى يثيرهم عنوان هذا المقال ويحسبون أنه مبالغة فى التحيز المحامين الأدباء إذا علموا أن أمير شعراء العرب فى العصر الحديث كان طالب قانون فى فرنسا ، قبل أن يطلب المعرفة الأدبية فيها ، وأن حافظ إبراهيم مارس مهنة المحاماة وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن ينخرط فى سلك تلاميذ المدرسة الحربية ، وأن من المحامين الذين طال عملهم فيها وتمرسهُم بها الدكتور محمد حسين هيكل أحد أكبر أدبائنا ، فى العقد الثانى من القرن الحالى ، وصاحب أول رواية عربية ، ومؤلف العديد من كتب النقد الأدبى ، والتراجم الشرقية والغربية ، ومجموعات المقالات التى ضمت المئات من الدراسات والصور العلمية والخواطر الثقافية .

وأن من المحامين من ارتفع نجمه فى سماء المقامة النقدية ، والقصة القصيرة والطويلة ، والمسرحية ، وأنه بز بتفوقه وظهوره وكثرة انتاجه وذيوع اسمه ، الأدباء المنقطعين لحرفة الأدب ! من هؤلاء محمد فكرى أباظة ومحمد عبدالله عنان ، ومحمود كامل ، وعبده حسن الزيات ، وعزيز فهمى ، وحسن عفيف ، وعبده أبو شقة ، وعبدالحميد السنوسى ،

● الهلال - ابريل ١٩٨٤ .

ومحمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة .

ولا تزال القائمة طويلة ، فهناك طائفة من المحامين الذين لم يمنحوا الأدب والثقافة العامة ، إلا جزءا قليلا من وقتهم وجهدهم ومع ذلك كان أثرهم فى هذا المجال باقيا ومحسوسا به ونافعا ، نذكر من هذه الطائفة محمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة ، وأحمد توفيق ، وحافظ رمضان .

وثمة طائفة ثالثة كان انتاجها غزيرا حتى كاد عملها فى المحاماة يتوارى بجانب ما قدمته المكتبة العربية من آثار عظم عددها ، وذاعت شهرتها وخير مثال لهذه الطائفة عبدالرحمن الرافعى ، الذى سلخ من عمره سنوات عديدة حتى أتم سلسلة تاريخ مصر القومى من عهد حملة نابليون على مصر حتى آخر عهد شهده عبدالرحمن الرافعى المحامى بنفسه ونعنى به عهد جمال عبدالناصر ، ولم يقنع بهذا الهرم الشامخ فأضاف نحو خمسة كتب فى مواد متفرقة .

وهناك محام يكون وحده طائفة بأسرها ، ذلك لأنه لم يصبر على العمل بالمحاماة ، وإن كان ما ترافع فيه من القضايا وما تركه من مذكرات مطبوعة يكاد يكون مكتبة قائمة بذاتها ، تعلم الأجيال القادمة من المرافعة السياسية وتروى تاريخ حقب ذات خطر شهدتها مصر وشهدت معها أحداثا هزت البلاد ، ويتبقى أثرها طويلا ونعنى بهذا القول أحمد حسين الذى مرس المحاماة فى فترات متقطعة والذى ألف نحو خمسين كتابا أكثرها فى الدين الإسلامى، وتاريخ نبيه وتفسير قرآنه ، ولكنه مع ذلك كتب روايات طويلة ، وكتبا ضخمة فى فروع المعرفة .

وهناك أسماء ضاعت فى حلبة الأيام مثل أنور زقلمه ، ومحمد

شوكت التوني وأخيرا هناك الصحفي المحامي والمثل المكافح يوسف فهمي حلمي

ولو جمعنا آثار هؤلاء المحامين بعضها إلى جانب بعض ، تبدا لنا كم أسدى هؤلاء الأدباء والكتاب المتطوعون إلى بلادهم ، وكم انتفعت ثقافة مصر والثقافة العربية بنتاج عقولهم وأقلامهم ، والعجيب من الأمر أن هذا الإنتاج الغزير ، جاء متنوعا ، فلم يدع جانبا من جوانب الفكر ، إلا أضاف إليه وأضاءه بما كتب من نثر وشعر ، وأحيانا يبقى المحامي الأديب أو المؤرخ ، أو القصاص ، أو المحقق ، الذين تخصصوا للكتابة في هذه المجالات .

خذ مثلا عبدالرحمن الرافعي ، واضع سلسلة تاريخ مصر القومي، فالرافعي لم يكن مؤرخا ولا قصد أن يكون ذلك ، ولكنه تلميذ وفيّ من تلاميذ مصطفى كامل ، وقد شغله باله كيف يبعث في الشباب روح الوطنية ، ويحرك في قلوبهم الإعجاب ببلادهم، ويوقفهم على تاريخها ، وكيف ناضل الشعب المصري ضد الاحتلال بنوعية الفرنسي والبريطاني، وهداه تفكيره إلى أن يضع كتابا عن مصطفى كامل ثم تبين أن كتابا عن حفيد مصطفى كامل ، سيكون أميز ، لأن مصطفى كامل ، جاهر بالاحتلال ، فلابد اذن أن يعرف الشباب المصري كيف وقع الاحتلال فيمين التحدث إليه عن الثورة العرابية ، والثورة العرابية ثمرة الظروف في عهدي اسماعيل وتوفيق ، فلابد من الحديث عن هذين العهدين ، وهما بدورهما حلقتان في سلسلة تاريخ محمد علي، فلابد من الرجوع إلى هذا التاريخ من بدايته، ومحمد علي جاء كثمرة كفاح المصريين ضد الغزو الفرنسي والحكم العثماني ، فلابد من كتاب كبير

يتناول هذين العهدين بالبيان والتفصيل ، فتم بذلك وضع موسوعة عن تاريخ مصر الحديث استغرق وضعها أكثر من ١٥ عاما ، وحينما تكاملت اجزاؤها ، بقيت عملا علميا وأدبيا ضخما يدل على إصرار واضعه وقوة إيمانه بوطنه وبتاريخه ، وصبره على متاعب البحث والتنقيب ، والمراجعة والمطالعة ، لم يقدم مثله مؤرخ آخر ، إلا إذا استثنينا المجموعة العظيمة التي وضعها الاثرى المصرى سليم حسن عن تاريخ مصر الفرعونية ولكن سليم حسن مؤرخ منقطع لهذه المهنة وتاريخ مصر وأحبه

وهكذا كان عمل المحامي عبدالرحمن الرافعي ، عملا فذا ، أثبت به أن المحامين في مصر ، أسدوا أيادى لا تنكر للثقافة المصرية . فإذا انتقلنا إلى محمد حسين هيكل اقتفينا أثره في ناحية أخرى ، كبيرا وجديرا بالثناء والإقرار بالجميل ، فقد بدأ حياته العلمية برسالة دكتوراه قدمها لجامعة باريس عن «الدين المصرى» و «الدين المصرى» الذى بدأ في عهد الخديو سعيد ، واستفحل أمره في عهد الخديو إسماعيل ، جانب من تاريخ مصر ، مؤلم وداع إلى الحزن ، ولكنه يفضى بالباحث والقارئ إلى مقدمات أكبر كارثة في تاريخ مصر الحديث ، ونعنى بها الاحتلال البريطاني .

ولكن لهيكل يد أخرى في عنق الأدب المصرى، وهى رواية زينب التى كتبها وهو في باريس ، يطلب العلم ويحضر لرسالة الدكتوراة عن الدين المصرى ، وهى أول رواية مصرية ، وربما عربية .

وكانت ثورة لأكثر من اعتبار ، ثورة لأنها شئ جديد في الأدب المصرى ، الذى اقتصر حتى صدور «زينب» على قصيدة الشعر والمقالة، ومحاولات شبيهة بمقامة بديع الزمان والحريرى ، حتى قصة عيسى بن

هشام التى سبقت فى الظهور رواية «زينب» كانت أقرب إلى المقامة أيضا ، خلت من الوقائع ومن الشخصيات ، ولم تكن رواية زينب أول عمل روائي بالعربية ، إنما كان موضوعها ثوريا إلى أقصى الغاية ، فقد كانت زينب بطلة الرواية لم تكن المرأة التى تظفر بهذه العناية من قبل ، ولم تكن زينب مجرد إمرأة بل كانت إمرأة ريفية ، ولم تكن مجرد إمرأة ريفية بل كانت ريفية من فقراء الفلاحين ، وكانت وقائع الرواية كلها فى القرية ، وكانت الأزمة التى تعرضها هى أزمة فلاح شاب أحب فلاحة شابة ولكنه لم يهنأ فى حبه ، لأنه جند الجيش ، حيث كان المجندون لا يجدون ما يحترم ادميتهم ولا وطنيتهم ، وقد زوج أهل حبيبته ابنتهم إلى شاب غيره ، فلما سرح من الجيش وجدها فى أحضان رجل اخر ، ولم يلبث حتى مرضت وماتت ، ولم يكن الريف أنذاك يشغل بال أحد من الكتاب ولا الحكام .

فقد أعلن هيكل عن ثوريته حينما وقع على روايته بعبارة « بقلم مصرى فلاح» ، ولم يكن أحد فى ذلك التاريخ يعرف أن الفلاحين يكتبون وإذا كتبوا ينشرون ما كتبوه على الناس .

وتوالت بعد ذلك أثار محمد حسين هيكل باشا ، فكان كتابه الأول ، ترجمة لحياة «جان جاك روسو» الذى مهد لثورة ١٧٨٩ ، ثم جمع تراجم مختلفة كتبها فى الصحف ، فى كتاب بعنوان تراجم مصرية وعربية ، وتراجم الحياة لون من الأدب طريف ، وشهى ولكن المكتبة العربية لم تكن تعرفه كثيرا ، فكان كتاب هيكل تجديدا واختياره «لروسو» كان موفقا فى أشد حاجة المصريين أنذاك إلى حديث عن الثورة والثوار ، وفهم لما هدفت إليه ثورة الفرنسيين وما جاءت به من الأفكار ، وكان كتاب هيكل عن رحالة السودان ، عملا أيضا جديدا فما أقل الكتب التى

كتبها المصريون عن السودان حتى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور.

ويقى المكان الذى شغله إذ قدم لقراء العربية فى العالم العربى والإسلامى كله ، كتاب عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فقد كان هذا الكتاب فاتحة الكتابة الإسلامية التى تبعه فيها العقاد بتراجمه، وطه حسين عن مرآة الإسلام ، وعن الفتن الكبرى ، وهو الاتجاه الذى تأكد بعد ذلك ، وكثر السالكون فيه والسائرون على دربه .

فمحمد حسين هيكل الذى درس القانون فى مصر وفى فرنسا ، والذى اشتغل بالمحاماة فى مدينة المنصورة ، أثره الثقافى الأدبى عظيم، إذ أنه جدد وأضاف ، ما لا يمكن سرد التاريخ الفكرى من غير الوقوف أمامه .

ومحام ثالث كان عظيم الأثر فى دنيا الصحافة والفن والأدب السياسى والحديث الاجتماعى النقدى ذلك هو فكرى أباظة ، وقد كان محاميا ، انصرف إلى العمل أمام المحاكم وكان له مكتب فى مدينة الزقازيق، وكان يوقع مقالاته أيضا باسمه مقرونا بوظيفة «المحامى» .

وقد ابتدع هذا المحامى أسلوبا فى الكتابة لم يقلده أحد فيه ، ولم يسبقه أحد إليه ، فقد كان يكتب فى جريدة الأهرام نصف أو ثلاثة أرباع عمود ، فيه من علامات الاستفهام وعلامات التعجب ، أكثر مما فيه من الألفاظ .

وكان يتناول فيه المواقف السياسية التى تمر بها البلاد ، ناقدا وساخرا ، فأحب القراء مقالاته ، وذاع اسمه ، حتى كان الفداء لا يصدر عن باعة الصحف إلاّ مقرونا باسمه فما أكثر ما سمعناهم يصيحون . الاهرام فكرى أباظة .

وما لبث أن اعتبر كاتبا من كتاب الصحف ، فعرض عليه جبرائيل تكلا أن يشتغل في الأهرام محررا منجورا ، ولكنه رفض ، وبعد قليل عرض عليه أولاد جورجي زيدان مؤسس الهلال أن يعمل عندهم رئيسا لتحرير المصور ، ومحررا في مجلة «الفكاهة» التي عاشت عددا من السنين ثم اختفت ، إلا أن فكري أباظة أسعد المصريين بأسلوبه كمتحدث في الإذاعة فكان له كل أسبوع حديث ينتظره الجمهور ، في شوق وهو حديث بالعامية الراقية، التي تكاد تكون الفصحى ، وكانت أحاديثه نقدا اجتماعيا لكل ما يجري في البلاد ، وكان فكري أباظة فوق ذلك خطيبا بارعا ، وقد بهرت مواهبه الخطابية حينما انتخب عضوا في مجلس النواب ، واعتاد الوقوف على منبر المجلس ليصوب إلى الحكومات والوزراء نقده ، الذي يستلهم فيه مبادئ الحزب الوطني إذ كان بدوره من تلاميذ مصطفى كامل .

وقد عاش فكري أباظة حتى جاوز الثمانين وهو يؤنس القراء والسامعين بمقالاته وأحاديثه وخطبه ، فكان محاميا آخر ، تتعدد مواهبه البيانية وخدماته الجليلة لوطنه وحزبه .

أما المحامي الرابع ، فقد خلق زعيما ، ذلك هو أحمد حسين ، الذي كاد التمثيل يستأثر به ، فقد كان زعيم طلاب المدارس الثانوية المشتغلين بالتمثيل والمحبين له ، وعلم علي الشمسي باشا وزير المعارف بمواهبه فكاد يبعث به إلى فرنسا ليتعلم هناك أصول المسرح ، ولو تمت تلك البعثة ، لظفر المسرح العربي بواحد من أعظم الفنانين موهبة .

ولكن الوزارة سقطت ، وسقط معها وزير المعارف ، وضاعت فكرة البعثة إلى باريس ، لحسن حظ مصر ، فإن أحمد حسين لحق بكلية الحقوق وتخرج فيها ، واشتغل بالمحاماة فترة وبالصحافة ، ثم ألف جمعية مصر الفتاة ، بعد أن دعا إلى مشروع القرش ، ونجحت دعوته ، وأقام مصنعا بقروش المصريين ، ولكنه ما لبث أن اتجه إلى الأدب والتاريخ والدين ، فألف فيها جميعا كتبا كانت كلها من عيون الكتب ، فقد مزق قلمه أول الأمر في المقال السياسي ، حتى أصبح طيعا في يديه فلما اضطر إلى اعتزال السياسة وضع كتابين كبيرين يمكن اعتبار كل منهما موسوعة في بابه ، كان أولهما كتابه «الطاعة الإنسانية» ، ثم أردفه بكتاب «الأمة الإنسانية» ولخص الكتاب الأول بمعادلة مؤداها أنه مع الارادة الإنسانية فيمكن أن تتحقق أمور تبدو من المستحيلات ، وملأ كتابه بالأمثلة من تاريخ الإنسانية من أقدم الحقب إلى أقرب العصور ، ليؤكد معادلته ، فكان بهذا الكتاب داعيا إلى الثقة بالإنسان والإعلاء من شأنه ، وبثقته بنفسه ، وإقدامه على ما يراه ضروريا لحياته أو لتقدمه ، أو لمزيد من المعرفة أو السيادة ، غير آبه بالعقبات والمشاق .

والكتاب الثاني يؤكد حقيقة تشرف الإنسان أيضا ، وترفعه إلى السماتيين ، فقد اثبت سخف النظريات التي تتعصب للأجناس ، وتزعم أن الناس تتفاوت لا بعقولها وقلوبها ، بل بألوان جلودها ، وشكل جماجمها وحجم فكها ووضع أسنانها في أفواهها ، وملأ الكتاب بالأدلة التي انتهى إليها العلم بأن الجنس واللون وطول القامة لا تدل على مواهب عقلية ولا مزايا نفسية ، ثم تنوعت بعد ذلك مؤلفات أحمد حسين في الأدب والتاريخ والدين وعند الدين انتهى نشاطه الفكري ، ففسر

جزء عمّ وطبعه ، ثم فسر السور الطوال كلها ابتداء من سورة البقرة إلى سورة المائدة ، وقد استوقف تفسيره القراء واعجبوا به على طول العالم الإسلامى وعرضه ، وكان قد ألف روايتين طويلتين قص فيهما تاريخ حياته ، وتاريخ مصر فى حقب من أكثر عهود مصر استقلالا بالمشكلات والتحولات وألف المسرح مسرحيتين ، وتراجم عن مسرح تولستوى إحدى مسرحياته ، ومثلت على مسرح الأزبكية ونجحت ، ثم أراد الله أن يمتحنه - بعد السجن والاعتقال والتشرد - فنزلت به علة الشلل الذى أقعده ولكن يده اليمن وعقله وذاكرته نجت من الاصابة ، فراح يكتب المقالات والبحوث ويساهم فى الحياة السياسية العامة بقلمه، وأكثر الناس يرونه يكتب بحرارة وتدفق ووضوح وقوة حجة وسعة اطلاع، فخفى عليهم أن كاتب هذه الروائع مشلول ومقعد ، ولا يترك مكانه فى بيته ، وبذلك يكون قد ساهم فى بناء أمته الثقافى ، فى أخريات عامه بنصيب سيبقى مؤثرا ومذكوراً مادام فى مصر ثقافة ، وما دام فى العالم أناس يحتفلون بالكتب وآثار الفكر .

وكان لمحمود كامل المحامى ، دور فى الحياة الثقافية ، وقد اشتغل بالمحاماة .. ولا سيما فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وكاد ينقطع لها ، ولكنه منذ تخرجه فى كلية الحقوق وهو مشتغل بالصحافة والفن ، فكان ناقدا فنيا لجريدة السياسة ، غير أن نصيبه فى العمل الثقافى كبر بإصداره مجلة «الجامعة» وقد أردفها بأخرى ، ووقف أولهما على القصة، وأخرج للناس عددا غير قليل من القصص القصيرة ، وكاد ينفرد بهذا اللون من الأدب فترة غير قصيرة وقد تأثر به وبأسلوبه ومنهجه أكثر كتاب القصة فى تلك الأيام ، وقد نشر قصصه فى

مجموعات بلغت أربع عشرة مجموعة أولها «المتمردون» وآخرها «لاعبات بالنار» . وقد ترجم عددا من المسرحيات عن الفرنسية مثل بعضها على مسرح حديقة الأزبكية ، والبعض الآخر على مسرح الأوبرا أو مسرح برنتانيا أو مسرح رمسيس ، منها «الوحوش» ، كما أخرجت له السينما قصة بعنوان «حياة الظلام» وله كتب تتضمن دعوة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي منها «العمل لمصر» ، «ومصر الغد تحت حكم الشباب» كما أن له عددا غير قليل من الدراسات القانونية .

«ومحمد علي علوبه » محام له اسم لامع في دنيا الفكر ، فقد أخرج كتاب «مبادئ في السياسة المصرية» ضمنه آراء له في الاصلاح السياسي والقانوني ، ثم وضع كتابا ممتازا عن القضية الفلسطينية نشرته له دار الهلال بعنوان «قضية فلسطين والضمير العالمي» ، ثم وضع كتابا يتضمن ذكرياته منذ بدأه بداية حياته بعنوان ذكريات سياسية واجتماعية وهو يروي ذكريات عن ثورة ١٩١٩ وتأليف الوفد المصري ، والسفر إلى لندن وباريس بصحبة سعد زغلول زعيم الوفد وبقية أعضاء الوفد، وهو في واقع الأمر وثيقة سياسية قص فيها قصة الخلافات بين سعد وعدلي ، وهي الخلافات التي قسمت مصر إلى معسكرين ، واستمر أثر هذا الانقسام ، حتى قامت ثورة ١٩٥٢ ، وقد أسس جمعية البيان ورأسها ، وهي المجهودات التي بذلت في التقريب بين المذاهب الإسلامية في مصر .

هذه نماذج الشخصيات الأدبية من عالم المحامين، وقد كنت أرجو أن أحدث القارئ الكريم عن الشعراء والكتاب الذين ذكرت اسماءهم فيما سبق ، لولا أن الحديث سيطول بحيث لا يتسع له المقام ، ولكن هؤلاء لهم في أعناقي دين لابد أن نؤديه بفضل من الله وعونه .

السيد أحمد البدوى
قطب التصوف فى مصر

أحسب أننا لو قمنا بدراسة للأسماء الذائعة في بلدنا، مع ترتيبها حسب مقدار ترديدها على الألسن ، لكان اسم أحمد البدوى، فى مقدمة الأسماء ، فالعامة تلتمس من السيد العون، وترطب ألسنتها بذكره بالدعاء له مرات فى اليوم الواحد. فما أكثر ما يقوله الناس عبارة (شى اللاه ياسيد) معناها (شىء لله ياسيد) وهم يعتقدون أن (سيدا) ليس لقبا بل اسم هذا القطب الكبير. ولكن الصورة التى تنطبع السيد أحمد البدوى في أذهان أهل بلدنا، ليست واضحة تماما، فهم حينما يذكرون اسمه، لا يتمثلون رجلا من الأتقياء الصالحين، الذين وقفوا حياتهم على الدعوة للدين، وتطهير نفوس أتباعهم ومريديهم، ورسم طريق لهم يتبعونه في العبادة، وذكر الله، والنأى عن المعاصى ، والانقطاع، ما استطاعوا، لأداء الفروض ، ومجاهدة النفس، وحفظ كتاب الله وترتيل آياته، والاستماع إلى قرائه، ومحاكاة شيخ الطريقة في تقشفه وزهده، وصيامه وقيامه، وتلاوة حفظ الأوراد، والأحزاب، وتكرارها، التماسا لتقوية العزم، وتزكية القلب لا يتمثل الناس في مصر، أحمد البدوى على هذه الصورة فحسب، بل يتصورونه وسط هالات تكاد ترفعه من رتبة بشر إلى

● الهلال – يونيو ١٩٨٥.

مستوى يعلو عليهم فتصبح له طبيعة ، لا يستطيعون بالضبط تحديدها، فينسبون إليه من الخصائص ما يغنيه عن الطعام والشراب، وعن النوم وحاجات البدن، ويقرنونه بالكرامات التي تشبه المعجزات أو تزيد عليها، وهم بعد ذلك يحسون بالطمأنينة إلى أن السيد يضفي عليهم حماية تقيهم شرور الدنيا، وسطوة الحكام وتقلب الأيام، اشتد الظلم، وعظم العسف، وضاقت الحياة، كلما زاد السيد عن فريق من أتباعه علوا عن صفات الناس وقد بقي السيد أحمد البدوي في ضيافة ركن الدين سنوات، ولم يكن يعيش داخل الدار، وإنما اتخذ من سطحها مقاما له ومقرا، وقد اختلف رواة سيرته ومن جاء بعدهم في هذا المسلك فمنهم من قال إن السيد كان لا يطيق الحجرات المغلقة. وكان يؤثر أن يكون على اتصال بالكون الفسيح ، ويرى في مجلسه حركات النجوم والأجرام، والأشكال الجميلة التي تكونها في السماء، فيزداد اتصالا بصور من قدرة العلي العظيم، فيزداد إكبارا له، وتعظيما لخلقه، وبعضهم ذهب إلى أن المقام على سطح الدار، تحد من حركاته، فتعرض عليه تقشفا لحرمانه من راحة الدار، فيقل اضطجاعه وتنعدم خلوته، بمخالطته الدائمة بتلاميذه ومريديه، ويبقى تحت رقابتهم من جهة، وتدوم صلته بهم من جهة أخرى فيرونه على مدار اليوم بليله ونهاره، وهو في ولهه بالخالق ونظره الطويل إلى السماء ومن أجل ذلك سمي بالسطوحي وسمي أتباعه بالسطوحية وقد اتسعت دائرة طريقة الأحمدية وعظم شأنها، وانهالت على شيخها العظيم، الهدايا والهبات من أموال ونفائس، ورؤوس ماشية، وحبوب وخضر وفاكهة، وكان في وسع الشيخ أن يتقلب في أعطاف النعمة، إلا أنه وقفها جميعا على

الفقراء والمحتاجين من أبناء الطريقة، وغيرهم، وقد أوكل التصرف في كل هذه الخيرات لنائبه السيد عبدالعال، الذي صحب القطب سنين طويلة في حياته. فلما توفي القطب في يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٧٥ هجرية، ١٢٧٦ ميلادية، خلف السيد، والثابت أن خلافته كانت باختيار صريح من شيخ الطريقة، فلما لحق السيد عبدالعال بالرفيق الأعلى خلفه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن لمدة كانت تصل إلى ربع قرن من الزمان، ولكن لأقطاب التصوف في مصر على الرغم من كل ما نسب إليهم والصق بهم، تولو تربية وتنشئة آلاف من الأتباع والتلاميذ، على مبادئ، صقلت نفوسهم، وقوت عزائمهم، وأعزتهم بالبعد عن الناس، والاحتلاء بالنفس، وإطلاق عنان التأمل في شئون العباد، وأصول العبادة، والتمسوا وسائل للارتفاع بأنفسهم، ونذر الكثير منهم حياته، لإشاعة فلسفة الزهد والتقشف، والوقوف مع الضعفاء، والدفاع عن الفقراء، وكف شهوات النفس، ومطامعها، فانتشرت لهذه الحركات، موجات من التطهر، ومقاومة الحكام والتدريب على حمل السلاح، وحماية الثغور. وعاد الكثيرون من المواطنين الصغار من أرباب الحرف، والصنائع، وفلاحي الأرض، وزارعيها إلى الدين في أصفى صوره، ويطلب ذلك حركات فكرية، أطلقت ألسن الشعراء، وأرهفت قرائح الكتاب والخطباء.

ولكن من هو أحمد البدوي، كما تصوره وقائع المؤرخين، الخالية من مبالغات الأنصار والمريدين.

هو أحمد بن علي بن إبراهيم سيرتفع نسبه إلى علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويقول رواة سير السيد، أن أهله من العلويين هاجروا إلى المغرب، وأن جيلا منهم، بعد أن استقروا في هذا

الجانب من الوطن العربي، استقروا في فاس التي أنشئت في نهاية القرن الثاني للهجرة ، وأن والده عاد إلى موطنه الأصلي في مكة ومعه ابنه أحمد الذي كان أنذاك صبيا صغيرا والواقع أن الانتقال من الحجاز إلى المغرب والعودة من المغرب إلى الحجاز والتنقل بين هاتين النهايتين، والتوقف في أقطار عربية أخرى كتونس ومصر والشام ليس بالشيء المستغرب في تلك الأيام، فالوطن العربي والوطن الإسلامي كلاهما وطن لا يقدم منه في وجه راغبي الأسفار، ومحبي التنقل للتجارة والعلم، أي حواجز ولا موانع، فالسفر في هذا الوطن المترامي الآفاق، فيه ككل سفر خمس فوائد كما قال الشاعر، والتماس أسباب الرزق، والسعي إلى أئمة الفكر والدين كان من تقاليد تلك الأيام، ونجد ذلك مسطورا في أكثر سير الشعراء الأفذاذ، والأئمة الكبار ، كالإمام الشافعي، والمتنبي وابن خلدون.

انتقلت أسرة السيد أحمد البدوي، إلى فاس، سنة خمسمائة وثلاثين، ثم تركوها حينما عادوا إلى مكة سنة ستمائة وثلاثة، والثابت أن الأسرة في طريقها إلى مكة، طابت لها الإقامة في مصر، بضع سنين، ولم يلبث السيد أحمد البدوي أن عقد العزم على السفر إلى العراق، وكان العراق أنذاك مركزا من مراكز التصوف الإسلامي، وموطن القطبين العظيمين أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني. غير أن السيد ، غادر العراق إلى مكة ، ثم سافر من مكة سنة ٦٣٤ إلى طنطا، فوصلها بعد ثلاث سنين وقال بعض رواة سيرته على العهد بهم من المبالغة في ذكر وقائع حياة السيد، فزعموا أن السيد قطع المسافة بين مكة ومصر في إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون: إن السيد قطع المسافة

بين مكة ومصر فى إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون إن السيد قصد طنطا مباشرة ونرجع أنه أقام فى القاهرة زمنا لم يحدده المؤرخون ثم تواردت إليه أقوال الناس ، وأقوال أتباعه وتلاميذه الذين ترامت إليه شهرته وهو فى العراق ومكة فتوافدوا عليه وحسنوا له السفر إلى طنطا ، ثم الإقامة بها فأقام فى بيت أحد أعيان المدينة، وكان رجلا صالحا، ميسور الحال وكان قد جعل من داره، دارا للضيافة ينزل فيها ضيوف المدينة، من كبار القوم، وذوى المكانة، ولم يكن آنذاك دار أكثر منها سعة وضعف الأدميين، ويقول الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور فى كتابه

السيد أحمد البدوى ، شيخ وطريقة ما نصه .

«ونستطيع أن نقرر فى صراحة أن كتاب سيرة السيد أحمد البدوى أرادوا أن يحيطوه بهالة من المجد الموهوم ويظهروه فى صورة المصطلح القادر الجبار الذى يستطيع أن يجند الجيوش فى برهة عين من نجد والعراق وغيرهما ، والذى يسانده ال البيت جميعا، ويلبون نداءه إذا دعاهم ، والذى يستطيع أن يحيى الموتى، ويميت الأحياء».

والحق أن ما أضفاه أتباع القطب الكبير «السيد أحمد البدوى عليه من صفات وهالات، لا يد له فيها، ولا يسأل عن شيء منها ، فإن فى البشر ميلا شديدا إلى خلق أبطال لهم من رجال الدين، والفكر والحكم والحرب، فإن لم يفهم الواقع على هذا الخلق خلقوه من أوهامهم، وتصوراتهم وتركوه تراثا الذين يأتون بعدهم يؤمنون به، ويرجونه، فقد يأتى جيل أوسع خيالا، وأجمل عبارة فيصنعون من الوهم القديم ، وهما أكثر منه سحرا، وأعظم منه أثرا.

وقد لا يكمل الكلام عن السيد أحمد البدوي، بغير الحديث عن المسجد الذي أقيم على الأرض المجاورة لفيره حيث كان بيته وإلى جانبها أرض بنى عليها السيد عبدالعال، زاوية لفقراء الطريقة وقد بقيت هذه الأبنية كلها على حالها لا تمتد إليها يد التعمير والتوسيع والاصلاح حتى جاء السلطان الأشرف قايتباي الذي أمر سنة ٩٠١ هجرية (والسادس عشر الميلادي) فبني مقام السيد أحمد البدوي مقاما عظيما. فإذا ما جاء عهد على بك الكبير ، الذي كان عهد المقدمة المباشرة لعهد الاستقلال المصري بقيادة محمد على باشا، فبنى مسجدا عظيما له ثلاث قباب، وكان هذا الجامع الفسيح وهذا الضريح الحافل نعمة وبركة لمدينة طنطا ، فاتسع عمرانها ، وكثر سكانها ، وراجت تجارتها وذاع اسمها حتى أصبحت إلى اليوم ، المدينة الثانية بعد القاهرة ، ولكن على بك الكبير أسدى يدا كبيرة للدين والعلم ، إذ حول المسجد الأحمدي إلى معهد علمي ويدعون لهذا المسجد الأساتذة ومعاونيهم والفقهاء ومساعديهم والمدرسين لتدريس المواد المقررة في الجامع الأزهر وعلى منهجه ، فأمه طلاب العلم في النواحي المجاورة، وكبر مقامه شيئا فشيئا ، ولا سيما قد عين على بك الكبير شيخا للمسجد الأحمدي وأضفى عليه لقب (شيخ الجامع الأحمدي) وهو لقب يقرب من لقب شيخ الجامع الأزهر، وقد استمر التعليم في هذا الجامع يتسع كما، ويرتفع كيفا، وقد اختير لمشيخة الجامع الأزهر، عدد ممن تولوا مشيخة الجامع الأحمدي وهذا وحده إحدى بركات القطب العظيم أحمد البدوي ، فلو لم يكن مخلصا في دعوته للدين والشفقة فيه ولإيمانه بالعلم، بوصفه . سبيل النجاة للمسلم ، وطريقا فسيحا لتقدمه ورفعة شأنه، وتقدم الناس

أجمعين مهما اختلفت أديانهم ، وتباينت مذاهبهم ، كما بني على قبره معهد علم تدارس فيه طالبوا العلم لا المواد الدينية فحسب، بل أصبحوا يدرسون إلى جانبها ما يسمى بالعلوم الكونية أو العلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء ورياضة وهندسة وطب وفلك على أنه يجدر بنا أن نقول كلمة عن التصوف، نقرر فيها حقيقة لا يجادل فيها إلا الجاحدون هذه الحقيقة أن التصوف نزعة إنسانية قديمة قدم الإنسان ، فلما كان الإنسان مفطورا على حب الشهوات من النساء والولدان والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والاقرار بالذنب والحاجة إلى الاختلاء بنفسه ، وفرض نظام قاس ولو إلى حين على ذاته يحدد فيه مقدار ما يأكل ، ونوع ما يلبس ويحرمها من لذائذ تربطها تعلقا بالحياة، وتعلقا لأصحاب الجاه ، هاتان النزعتان الإنسانيتان، يتراوح بينهما الإنسان، وتنشأ من بينهما نزعة التصوف، فيسعى فريق من الناس، وهبهم الله منذ البداية الحرص على إصلاح النفس وتزكيتها. وقمعها عن الشهوات، وكبح جماحها وتعويدها الجوع والصمت والبعد عن الناس ، وقد بدأت هذه المحاولات الإنسانية منذ الخطوات الأولى للحضارة، فخادم المعبد الفرعوني والراهب البوذي ، والهندوكي والبرهمي، كلها صور من هذا التصوف، تختلف باختلاف الزمان والمكان مراسمه وطقوسه، وأدعيته وأناشيده ، ولكنها تلتقي جميعا عند هدف واحد هو الارتقاع بالإنسان عن طبيعته البشرية المادية إلى أسلوب من الحياة، يشوبه انكار الذات ومكافحة الهوى، وليس غريبا أن الرهبانية، بدأت في أرضنا في مصر، بعد أن دخل المصريون الأوائل إلى المسيحية ، فنزلت بهم مصائب الاضطهاد القيصري الروماني، فنجى بعض افرادهم بمسيحيته إلى أديرة ، بنوها في صحراء مصر قريبا من شاطيء البحر الأحمر وفي مقدمتهم «الأنبا انطونيوس» ثم «الأنبا بولا» ، وقد انتشر نظام الرهبنة

من مصر إلى أوربا الشرقية والغربية، وقد كان رهبنة تطوعية ، ينفرد بها الإنسان، ثم تكاثر عدد الرهبان، وقامت لهذا النظام قوانين متعارف عليها، وقواعد معمول بها.

وحدث الشيء نفسه في الإسلام ، فقد نشأت الطرق ، ثم وضعت لها القواعد ، وأصبح لشيخ الطريقة نفوذ على الأتباع والمهيمنين ليس له مثيل لحاكم ، ولا لأستاذ مدرسة أو جامعة ، وخرج من أتباع الطرق الصوفية فدائيون يحاربون أعداء الوطن، ويبذلون دمهم وروحهم بذل السماح وشاركت تلك الطرق في اصلاح أخلاق المجتمع ، وتقويم سلوكه، وحثه على فضائل الصدق في القول والاخلاص في العمل والوفاء بالعهد ونظافة الجسد والقلب، والاقبال على العلم والاقلال من الطعام والنوم والكلام، وتهذيب النفس وتعويدها شظف العيش إلا أن كل شيء من صنع الإنسان ، معرض للفساد والتحلل ، وقد أصاب الصوفية آفات أهمها تأليه شيخ الطريقة ونسبت المعجزات التي لم تتم للرسل إلى هؤلاء الشيوخ ، وتزييف الأقوال الساقطة على هؤلاء الأئمة الأجلاء ، لكي يكون لخلفائهم من بعدهم سلطان على صغار الأتباع من الفقراء الذين يكدحون ليحصلوا على قوتهم وقوت عيالهم، فتنتزع اللقمة من فيهم ، وتعطى لبعض المشايخ الذين انحرفوا عن جادة التصوف فعاشوا عالة على المسلمين ، لا ينفعونهم بعلم ، ولا يمدونهم بقدوة ، ولا يقودونهم لعمل.

ولكن الصحوة التي نشهدها هذه الأيام في مجال التصوف والمتصوفين في مصر وغيرها ، تقوى الأمل ، في تقويم لهذا النظام العتيد العريق ، صاحب الأيادي في عنق الشعب والدين.

خطابات
مصطفى كامل

نشرت هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» سنة ١٩٨٢، كتابا بعنوان أوراق «مصطفى كامل» وقدمت له بفصل دلّ على أن هذا المركز الفنى عقد العزم على نشر ما خلفه مصطفى كامل من آثار مكتوبة بعد تصنيفها فى ثلاثة أقسام . قسم خاص بالمراسلات، أى الخطابات الصادرة عن مصطفى كامل، أو الواردة إليه، والقسم الثانى يتضمن مقالات وأحاديث الزعيم الشاب، والقسم الثالث يشمل الخطب التى ألقاها، وأخيرا القسم الرابع ويشمل مؤلفاته.

وإذا كان عنصر المذكرات الشخصية، التى يكتبها الزعماء وأصحاب الصدارة فى بلادنا ، يوم بيوم، ويسجلون فيها ما يصادفهم ويرسمون صورا بالقلم للرجال الذين يقابلونهم ويعملون معهم، يؤيدونهم أو يعارضونهم، وصفاتهم وأخلاقهم وأسرار ما يخصون منه من أعمال ونشاط

إذا كان هذا العنصر مفقودا فى تاريخنا الحديث، فإن كل ورقة يتركها زعيم وتحمل طابعه فى التفكير ، وأسلوبه فى التعبير، وطريقته فى تحليل الحوادث ، وتعتبر ثروة تاريخية تضىء تاريخنا ، ومطلع على

● الهلال - يوليو ١٩٨٤ .

حقائق الأحوال في بلادنا ، وتبعث في هذا التاريخ الحيوية والحرارة، وتزيدنا تعرفا عليه ، وتذوقا له.

والثابت أن المذكرات بهذا المعنى الحرفي التي تركها كبار رجالنا لا تعدو اثنتين الكراسات التي تركها سعد زغلول والتي كان يكتبها تقريبا كل يوم ، وما تركه محمد فريد تحت عنوان «مذكراتي بعد الهجرة»، فكلتاهما يحمل طابع المذكرات ، التي تروى ما يصادف الكاتب من أمور ، وتعكس تأثراته بهذه الأمور فور حدوثها، وهي بعد حية في ذاكرته، وجوها يشمله ، وهذا النوع من التسجيل يختلف عما يصح تسميته بالذكريات التي تروى ما حدث من وقائع ، بعد فترات تتباين مدا وقربا تسمح للنسيان بأن يحجب هذه الأمور ، أو بعضها على الأقل ، أو يضعف أثرها في نفس راويها ، أما ما تركه عبد الرحمن فهمي ، ومحمد على علوبة، وإسماعيل صدقي ومحمد حسين هيكل، فأبعد ما تكون من المذكرات، فبعضها لا يتناول إلا مرحلة صغيرة من حياة الكاتب ، وبعضها كتب بعد زمن طويل من الحقبة التي نتحدث عنها، وفي أغلب الأمور كتب قبل الوفاة أو في آخر العمر.

ويمكن القول أن خطابات الزعيم أو العظيم التي كتبها لمن يراسلهم، أو التي تلقاها من صحبته ومعاونيه والمقربين إليه، تأتي في الأهمية التاريخية ، والقيمة الأدبية ، بعد المذكرات الشخصية . وقد تكون في بعض الأحيان أكثر أهمية وأعظم خطرا . فهي كالمذكرات ، كتابة شخصية خالية من التكليف الذي تفرضه الظروف الرسمية ، يكتبها كاتبها على سجيته ، وقد ينبسط فيستعمل اللغة الدارجة ، وقد يروى

الوقائع التي تبدو للقارىء تافهة مع عظم دلالتها ، وهي تصدر عن الكاتب في الوقت الذي يتحدث عنه ، ففيها الحداثة والصدق.

ولذلك فإن نشر رسائل مصطفى كامل من جانب هيئة الكتاب عمل تهنأ عليه الهيئة وتشكر.

وقد بلغت هذه الرسائل ١٨٠ رسالة منها أربع عشرة رسالة كتبها مصطفى إلى صديقه الأستاذ عبد الرحيم أحمد الذي كان يعمل أمينا للقسم العربي بديوان الخديو عباس حلمي الذي تولى حكم مصر من سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩١٤، والذي عاصره مصطفى كامل معاصرة كاملة فقد ولدا في عام واحد، واتصل أحدهما بالآخر ، فتآلفا وائتلفا ، ثم عادا إلى الألفة وحسن العلاقة، ثم تنافرا ، ثم فارق مصطفى الحياة، وعزل الخديو عباس بعد وفاته بست سنوات عن العرش ، فلحسن في مصطفى الشهادة.

ومن هذه الخطابات ثلاثة موجهة من مصطفى كامل إلى الخديو عباس نفسه ، ومنها ثلاثة عشر خطابا أرسلها مصطفى إلى زميل صباه وشبابه ورجولته ، محمد فؤاد سليم بن لطيف باشا سليم ، والذي كان أول أمين عام «للحزب» الذي شكله مصطفى سنة ١٩٠٧ . ثم عشرون خطابا إلى صديقه وساعده الأيمن في الكفاح وخليفته بعد وفاته محمد فريد ، وخطابان بعث بهما مصطفى إلى شقيقه علي فهمي كامل والذي احتمل نصيبا غير قليل من عناء وآلام الجهاد بحكم عمله تحت قيادة شقيقه الذي كان يصغره، ثم ست رسائل كتبها مصطفى إلى أحمد حلمي كاتب اللواء الأول في عهد رياسة مصطفى لتحرير هذه الجريدة ، وكان أحمد حلمي كاتبا فذا. ترجع إلى مقاله المعنون «يا دافع

البلاء» شهرة ومذبحة دنشواى وذيوع اسمها ، إذ وصف أحمد حلمى كيف ينفذ حكم الشنق والموت فى أربعة من فلاحى قرية دنشواى بمحافظة المنوفية ، وحكم الجلد فى نحو ضعف هذا العدد من فلاحى تلك القرية ذاتها، وكان الوصف مؤثرا وبليغا، اختنق له المصريون وهم يطالعون الجريدة، وذرفوا الدموع الغزار ، وحفظوا المقال، وأحسوا أن مذبحة «دنشواى» هى مذبحة لذوى قرباهم ، فبقيت هذه الكارثة مذكورة عند المصريين، ومعلما فى تاريخ كفاحهم مع الاحتلال . ويشرف كاتب هذه السطور أنه وفق إلى تخليد ذكرى هذا الكاتب البارع على شارع فى أول حى شبرا، وقد أصبح هذا الموقع من أشهر المواقع فى القاهرة، وهو بعض ما يستحقه أحمد حلمى.

وأخيرا ١٠٧ من الرسائل كتبها مصطفى إلى صديقة عمره الصحفية الفرنسية الذائعة الصيت ، مدام جوليت آدم ، وصاحبة المجلة الجديدة «نوفيل ريفو» التى كانت تحررها وترأس تحريرها ، وقد خطب مصطفى هذه الصحفية سنة ١٨٩٥ بخطاب أرسله إليها فى ١٢ من سبتمبر من تلك السنة ، فادهشها هذا الخطاب أن كاتبه رجل فى سن النضج ، فلما جاء لزيارتها بعد أن حددت له موعدا رأته شابا ناحلا بدا لها كصبى . فاكد لها أنه بلغ الحادية والعشرين وحصل على اجازة القانون من كلية «تولوز» الفرنسية ، منذ ذلك اليوم تحابا، وتوثقت بينهما علائق الود ، وبقيت له أما ، وزميلة ، ومرشدة ، وبقى لها محبا ومخلصا . وقد كان لمدام جوليت «صالون» أو «ندوة» يتردد عليها أكبر رجالات الأدب والسياسة والحرب ، وكان من بين هؤلاء الشاعر الفرنسى بيريوتى، والكولونيل «مارشان» بطل واقعة فاشودة الشهير ، والكاتب

روستور وغيرهم . وهذه الخطابات جميعا تموج بالأفكار والصور البيانية الجميلة ، والحقائق التاريخية الخطيرة، وأسرار السياسة المصرية، والفرنسية ، والدولية، ولذلك فقد كانت تستحق تعليقا ودراسة من المؤرخين ورجال السياسة ، ولكن انقضت سنتان منذ صدرت مجموعة هذه الرسائل دون أن يقع نظرى على مجرد الاشارة إليها . وهذا البرود فى الحياة الأدبية والثقافية فى بلدنا ، يؤدى إلى خمود تلك الحياة الذى نسميه أزمة الثقافة .

ولذلك رأيت أن أتناول هذه الرسائل بالتعليق ، وأن أقدم للقارىء نماذج مما جاء فيها ، حتى يتضح بعض ما فيها من النقاش البيانية والتاريخية .

أنقل هنا خطابين قصيرين أرسلهما مصطفى كامل إلى الأستاذ عبد الرحيم أولهما فى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٦ وقد قال فيه :

حضرة أخى الفاضل .

بعد السلام أرجوكم تنتهزوا الفرصة هذه وتطلبوا من سمو مولاى أعزه الله أن يتكرم علىَّ بتحديد مقابلة خصوصية أنفى فيها عن نفسى ما نسبه ذوو الأغراض لى ولكن أعلم إذا كان سموه لا يريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى حتى يتيسر لى عنده أن أعمل ما أريد فى مصر أو خارجا عنها عاجلا أو آجلا. وانى أنتظر منك الرد هذا المساء أو غدا فى الصباح لأنى لا أريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار.

دمت للوطن المحبوب ولأخيكم الصادق مصطفى كامل.

أما الخطاب الثانى فقد كتبه فى ١١ فبراير ١٨٩٦ وقال فيه :

أخى الفاضل حرسه الله

بعد التحية والسلام. أخبركم بقه يمل صبرى ولست أظن أن هناك داعيا لكل هذا التأخير فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلته فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتى ، وعلى رغبتكم فى محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة للبلاد وأميرها إن شاء الله وأظنكم لا تلومونى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغكم فقد مضى فوق النصف شهر من يوم ما جئتم عندى وبلغتونى رغبة الأمير حرسه الله فى تشريفى بمقابلته.

وإنى أهديكم فى الختام مع شكرى عاطر سلامى.

مصطفى كامل

هذان الخطابان معنيان يجلوان حقيقة . كثر حولها التكهن والقول والرجم بلا دليل ولا سلطان، وأعنى بذلك حقيقة العلاقة بين مصطفى كامل ، والخديو عباس حلمى ، فقد كان تصور خصوم الحركة الوطنية الأولى ، أن مصطفى الشاب الصغير والفقير ، والذى لا سند له من السلطة ولا من نسب هو صنيعة الخديو وعملية يتقاضى منه المال وصاحب السلطة أى الحاكم ، ولكن هذين الخطابين يدلان على أن مصطفى يملك أمة نفسه، وأنه لا يتلقى الوحى إلا من قلبه، ولا يعمل إلا بإملاء ضميره ، وأنه عندما يحس انصرافا من الحاكم أو غضبا من قدره ، أو تجاهلا لأمره، تثور كرامته ، فيوجه أقسى الكلام إلى الخديو، الذى يظن أنه الآمر والناهى، وسنعود إلى نصوص أخرى وكثيرة، مشابهة حينا ، وأشد غلظة حينا آخر، يظهر منه الزعيم الشاب ، حرا مستقلا غضوبا رافضا للإهانة ، مهددا بالانفصال والقطيعة كأنه هو

الوالى صاحب الكلمة النافعة ، والواقع أنه كذلك لأنه باعث الروح الوطنية ، والمتحدى للاحتلال ، والداعى إلى الاستقلال.

أما خطاب مصطفى إلى مدام جوليت أدم فقد أرسله إليها فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ من مدينة فيينا عاصمة النمسا قال لها فيه :

سيدتى المديرة المبجلة

استسمحك الاذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل ، لقد وصلت إلى هنا من القاهرة وفى عزمى أن أكون فى باريس بعد جولة فى بودابست وبرلين فى منتصف شهر إبريل ، وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فيه عن حالة وطنى العزيز التعسة إلى آخر درجات التعاسة، والتى ما كنا نظن أنه واصل إليها .

إن الانجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يرغبون ، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوربا – وعلى الخصوص من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمات الأخيرة قد دفعت الإنجليز إلى ظلمنا ظلما أشد مما كان ، ومما يزيد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلدكم الجميل الكريم.

وهذا النص بدوره كالنصين السابقين ، يجلو حقيقة أخرى ، شابتها الشبهات وأحاطت بها الظنون ، فقد كان بعض الناس، الذين لا يعرفون من الحياة إلا جانبها الأسود القاتم، جانب الشهوات والأغراض والمصالح الذاتية، والجرى وراء المال والنفوذ من أى طريقة وبأى ثمن ، هؤلاء ما كانوا يتصورون أن مدام «جوليت أدم» الصحفية الفرنسية الكبيرة المقام، وزوجة مسيو آدم عضو مجلس الشيوخ الفرنسى، والد

أعداء بريطانيا لأنها تتآمر على مصالح فرنسا، وتحاول اقصاءها عن مجالات النفوذ والصدارة في أوربا وفي السياسة الدولية بعامة - هؤلاء ما كانوا متصورين أن هذه السياسية الكبيرة ذات التجربة الواسعة ، تعمل للقضية المصرية، لأنها ترى في ذلك مصلحة لبلادها ، بل كانوا يتصورون أن مصطفى كامل عميل «المكتب الثاني» والمكتب الثاني في فرنسا معناه المخابرات الحربية الفرنسية، فمصطفى كامل عضو في شعبة المخابرات التي تديرها مدام جوليت وتنفق عليها من مصروفات تلك الإدارة ، مصطفى كامل وطنيته، وطنية مصنوعة ، سرها ما يتقاضاه من مال ، وما يدعمه من نفوذ، ولذلك فهو لا يعمل لحساب أمته، بل لحساب الإدارة الأجنبية التي توجهه وترسم له الخطط.

وهذا الخطاب ، يدل على أن مصطفى كامل الشاب المصرى الصغير الناشىء يكتب لسيدة في سن جدته وقد ماتت سنة ١٩٣٦ عن مائة عام كاملة، منددا بسياسة بلادها، مقترحا تغيير تلك السياسة، مبينا أخطاءها وعيوبها. والخطاب الذي نقلنا صورته ، هو ورقة خصوصية أرسلت من مصطفى إلى الصحفية الفرنسية الكبيرة لتكون ضمن أوراقها الخاصة ، فلا يطلع عليها أحد ولا تنشر ، ولم يكن أحد من المرسل والمرسل اليه ، يعلم أنه سينشر على الناس في يوم من الأيام ولكنها نشرت لتكشف عن نقاء صفحة مصطفى وطهره ، واستقلاله وحريته ، وأنه يمثل أمته فقط، وصنيعة مبادىء حزبه.

خطابات مصطفى كامل
إلى مدام جولييت آدم *

من هى جولييت أولا ؟

فى العدد الأسبق من الهلال ، تحدثت عن المجلد الذى أصدرته هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» بعنوان أوراق مصطفى كامل - المراسلات ..

وقد بدأت القول بالرسائل المرسلة إلى الأستاذ عبدالرحيم أحمد الذى كان صلة الوصل بين الزعيم مصطفى كامل والخديو عباس حلمى . وقد كان عبدالرحيم أحمد من خريجى مدرسة دار العلوم : ثم عين نائبا للديوان العربى للخديو ، أو سكرتيرا للشئون العربية . وقد استخرجنا من هذه الرسائل دلالاتها النفسية والخلقية لمصطفى كامل . وفى هذه الحلقة من دراسة خطابات مصطفى كامل ، يدور الحديث عن المرسل إليها مدام جولييت آدم ، وهى بذاتها المرسلة لخطابين باللغة الفرنسية إلى مصطفى، وهما موجودان بمتحف مصطفى كامل فى القلعة .

وقد كان لمدام جولييت آدم دور ضخم فى حياة مصطفى كامل وكفاحه ، فقد تبنت مصطفى ، منذ وقع نظرها عليه فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، بعد أن أرسل إليها خطابا ، وطلب منها موعدا .

وسنصف هذا اللقاء الأول ، ونذكر وقائعه فى الحلقة التالية ، فقد كان لقاء مثيرا ومسرحيا يليق بالكاتب الخطيب الذى كان فى العادية

---

* هلال - سبتمبر ١٩٨٤ .

والعشرين من عمره ، ومع ذلك فهو يحلم ببعث مصر الهرمة فى مصر الفتاة ، ويخطب ود كبيرة الصحفيات الفرنسيات فى عهدها ولكن على الرغم من أن المصريين سمعوا اسم جولييت آدم مرارا ، وقرأوا عنها كثيرا فما أقل الذى يعرفونه عن حياتها ، ودورها العظيم فى سياسة بلدها فرنسا ، والأصول التى انحدرت عنها ، واسم «آدم» الذى تحمله من يكون وماذا أسدى لوطنه ؟ .

ولهذا فقد رأيت أن أقصر الحديث فى هذا المقال على مدام جولييت آدم ، فأقدمها للقارئ العربى ، تحية لها ، وإكراما لدورها ، وردا لبعض جميلها ، وهى تعد شخصية فذة من كل جانب وبكل معيار ، حسب القارئ أن يعلم أنها أتمت مائة سنة كاملة ، فقد ولدت فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٦ ، وماتت فى نفس الشهر سنة ١٩٣٦، بعد أن أبرمت المعاهدة المصرية البريطانية فى هذه السنة بقرية «فريرى» من إقليم بيكاردى من أقاليم فرنسا ، وكان والدها جراحا واسع الشهرة هو الدكتور لمبير والذى كان مشغول الخاطر بالعمل السياسى فى بلاده ، وكانت ميوله جمهورية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع باريس فى حين كانت والدتها حفيدة القائد «سيرين» الذى ذاع صيته فى حروب الملك لويس السابع عشر ، وقد درست جولييت فى كلية الآداب وحصلت على إجازتها ، وقد تزوجت مرتين ، أولاهما وهى بعد صبية فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان زوجها الأول محاميا من كبار المحامين هو «دى لامسينه» فلما مات تزوجت فى سنة ١٨٦٨ ، بالمسيو «آدم» أحد كبار الحزب الجمهورى ، الذى اختير عمدة لباريس ، ثم ما لبث حتى انتخب عضوا دائما بمجلس الشيوخ «السناتو» بعد

تأسيس الجمهورية الثالثة ، ثم انتخب رئيسا لهذا المجلس ، فلما توفى زوجها ، نذرت مدام چوليت آدم نفسها للعمل الوطنى والكتابة فى الصحافة ، والتأليف ابتداء من سنة ١٨٧٧ .

وحينما سطع نجم چوليت آدم فى عالم التأليف والتفكير ، لم يكن يناظرها من كاتبات الجنس اللطيف سوى «چورج صاند» الكاتبة الدائمة الصيت ، و«دانيل ستيرن» و «چيرار دين» وقد كانت بداية شهرتها ، حدثا أدبيا كبيرا فى فرنسا ، فقد أصدر المفكر الفرنسى الشهير «برودون» كتابا حمل فيه على أثر حال النساء وهاجم بعنف «چورج صاند» وقد كانت تتشبه بالرجال ، وتتزيا بزيهم ، وزميلتها دانيل ستيرن ، وحقر مدارك النساء ، ولم يكد ينشر الكتاب ، حتى تخاطفته الأيدى ، ونال تأييدا ساحقا ، وجبنت «چورج صاند» عن التصدى لـ «برودون» الكاتب اللاذع ، صاحب السطور الأدبية التى لا تقاوم آنذاك إلا أن مدام چوليت آدم ، لم تخيفها شهرته ، ولا انتقاد الكتاب الناشرين لغضبه ، ووضعت كتابا فى الرد عليه ، ثم طافت به على الناشرين ، فأجفلوا جميعا من مواجهة «برودون» إلا أن ناشرا قليل الشهرة ، حديث العهد بدنيا النشر ، يقوم بنشر كتابها ، قائلا : أنا ناشر مجهول ، وأنت كاتبة مجهولة ، فلن يخسر «أحدنا شيئا» ، وراج الكتاب وعرف اسم چوليت آدم التى جرؤت على أن تواجه الأسد فى عرينه ، وبدأت الأصوات المؤيدة لها ، والمعارضة لملك الكتاب الفرنسيين فى ذلك الوقت ، تعلو ، فى حين آثر «برودون» الكاتب الفحل الصمت أمام حملة «چوليت آدم» المكتسحة والمتقدة ، ومنذ هذه الواقعة الأدبية الكبيرة وشهرة چوليت آدم الكاتبة الشابة ، يتسع نطاقها

فيتردد اسمها ، ويكثر قراؤها ، فواصلت التأليف حتى بلغت في منتصف عمرها فوق القصة والأربعين كتابا ، أما الصحف والمجلات فقد نشرت لها آلاف المقالات والبحوث والأحاديث ، وقد شملت اهتماماتها مساحة واسعة في مجالات وضروب الفكر ، حسبك أن تعرف اسماء بعض كتبها لتدرك مدى اتساع جهدها الأدبي ، فمنها «خطرات فلاحة» و«السياحة الشرقية» و«ديانة الصينيين» و«الوثنية والمسيحية» و«سياحة الأدب» و«العقيدة تحرك الجبال» و«التربية النفسية» و«البيت المعمور» و«تقلبات السياسة» و«مدارس الشعب» و«المسارح المحببة» و«الوطن المجري» و«الوطن البولوني» و«مدينة اليونان» .

وإن كانت جولييت آدم الأديبة الناقدة ، والمؤرخة وصاحبة الخواطر الشعرية قد ظفرت بأعلى مقام بين مواطنيها وقرائها في فرنسا وخارجها ، إلا أنها كانت بمثابة القائدة والزعيمة في كتبها الوطنية التي كتبتها لتثير الفرنسيين ضد الألمان الذين سلبوا بلدها الألزاس ، واللورين ، وضد الانجليز الذين جعلوا همهم الأكبر أن ينافسوا فرنسا ، ويسدوا طريقها إلى الزعامة ، ولعل أعظم دليل على هذه المكانة أن أحد كتبها الموسوم «بالحرب السبعينية» قد طبع ١٥٠ طبعة ، وهو رقم لم يبلغه كتاب آخر في فرنسا وحدها ، بل في عالم النشر كله ، فالكتاب الذي يطبع في فترة حياة المؤلف عشر مرات يعتبر حدثا لا يقاس عليه .

ولما أحست «جولييت آدم» أنها باتت في حاجة إلى أداة نشر واتصال بالجماهير ، تطبع لها وتلبي احتياجاتها ، أصدرت مجلة «لانوفيل ريفيو» المجلة الجديدة سنة ١٨٧٩ ، وهي في حقيقة الأمر كتاب

قائم برأسه ، إذ لم يقل العدد الواحد من هذه المجلة عن ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير ، كانت كلــها صدى لفكر صاحبة المجلة ، وإن أصبحت المجلة ، ندوة لكبار الأدباء والساسة ، ومدرسة للأجيال الناشئة من هواة الأدب ومحبيه ، ولعلنا تغنى أنفسنا عن الجهد في بيان قيمة «المجلة الجديدة» ودورها الأدبي والسياسي بمجرد ذكر بعض الذين كتبوا فيها وترددوا على دارها ، فمن هؤلاء «جي دي موباسان» منشئ فن القصة القصيرة و«بول بورجيه» و«أناتول فرانس» و«ليون دوديه» و«ميرلوتي» و«كاميل موكليز» وأخيرا مصطفى كامل ، الذى أصبح بعد سنة «١٨٧» من كتاب المجلة الجديدة ، ومن أصدقاء كتاب المجلة ، بمجالسهم ويكسب اعجابهم ، ويضمن تأييدهم لكفاح مصر ضد الاحتلال البريطاني .

ولما قرأ السياسي الفرنسي - اليهودى - برنامج المجلة الجديدة السياسي ، أعلن أن رجال وساسة فرنسا حتى إذا اجتمعوا لا يستطيعون أن يقوموا ببرنامج هذه المجلة في السياسة الخارجية ، ولذلك فلنا أؤكد فشلها ، ولكن ثبات صاحبة المجلة وإيمانها ببرنامجها ، وتكريس حياتها وجهدها وصلاتها وصداماتها لهذه الصحيفة ولما تدعو له ، كتب لها النجاح مما اضطر «جامبيتا» إلى الإقرار بخطئه ، واعترافه بأن نجاحها كان معجزة .

ولقد كسبت مدام «جولييت آدم» بسبب تطرفها الوطني ، ووقوفها في صف جميع الحركات الوطنية خارج فرنسا ، كالحركة المصرية ، وكفاح بولندا وكفاح المجر ، وقد كان ممن كسبت عداوتهم البرنس بسمارك ، مستشار ألمانيا الداهية ، وساسة بريطانيا التي كانت تصطليهم وتصلى سياستهم في مصر شواظا من نار .

ولما لم تكن «المجلة الجديدة» عملا صحفيا غاية في الكسب ، وإنما هدفه الدعوة الوطنية ، والبحث الأدبي والفكري فقد كبرت خسارتها المادية حتى بلغت نحو مليوني يعني ثمانين ألف جنيه انجليزي ، مما اضطرها إلى النزول عنها إلى جماعة من أبنائها الأدباء سنة ١٨٩٩ ، واكتفت باصدار نشرة أدبية عنوانها «الكلمة الفرنسية في الخارج» ، وقد كان لهذه «الكلمة الفرنسية» الموجزة أثر بالغ في الدوائر السياسية الدولية ، فكان خصومها يخشونها ، وأصدقاؤها ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، فلما بلغت السبعين توفرت على كتابة مذكراتها ، وقد نشرت إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» ستة أجزاء من تلك المذكرات ، ولما كانت تلك الحرب انشغلت بتقديم المعونة للمحاربين ، وإرسال الهدايا لهم ، ومعاونة عمليات الإسعاف ، وتحرى أحوال الأسرى وعائلات المقاتلين الذين ماتوا في ميادين القتال ، فلما ايقنت مقتل الضابط الشهير «جوزيف مادييه» زوج حفيدتها الذي كانت تحبه كابن لها ، أصدرت كتابا بعنوان «حياة الأرواح» ولأنها كتبته تحت وطأة الجرح الذي أصاب قلبها ، تأثر به كل من قرأه فراج كأشهر كتبها .

ولعلنا لا نجد عبارة موجزة تصف «جولييت آدم» وتعدد فضائلها كهذه العبارة التي جاءت في مقال أوقعه الكاتب الذي ذاع صيته في أوائل القرن الحالي «كاميل موكلير» ، فقد قال :

«لست أظن أن بين السيدات اللواتي اشتغلن بالأدب والسياسة في الماضي والحاضر واحدة مثل مدام جولييت آدم» .

إننا كنا ننفر بغير اختيارنا من النساء ذوات الأدمغة الجامحة ونستهجن استرجالهن أما هذه السيدة الجليلة القدر ، فإنها مثال

المرأة الكاملة والإنسان النادر الوجود لها جمال مشهور ولطف كنسمة العطر ، تجمع إليهما سيرة نقية ، في صفحة بيضاء ، ووقارا كله الشمم وعلو الهمة والآباء ، فقد شهدت وقائع رائعة ، ووالت خطباء أمم ، كما عرفت أسرارا خطيرة ووقفت على ضمائر أطوال الفلاسفة وفطاحل السياسة ، وأثرت بقوتها النفسية وسلطانها الأدبي في المسائل العامة تأثيرا كبيرا ..»

ويهمنا كمصريين أن صلتها بمصر الروحية والسياسة ، توطدت منذ أن عرفت مصطفى كامل، واحبته وأعجبت به كبطل، وقدرته كإنسان، حتى تبنته فتبادلا الرسائل التي جمعت في كتاب بعنوان رسائل مصرية فرنسية ، كانت آية من آيات الأدب السياسي والبلاغة الروحية ، وقد زارت مصر في فبراير سنة ١٩١٤ فاحتفى بها مصطفى كامل وحزبه غير المعلن الذي كان آنذاك أقوى الأحزاب المصرية ، وأقبل المصريون على الوقوف أمام الأماكن التي تزورها وأعلنوا لها بكل وسيلة حبهم لها وامتنانهم منها ، وكتب مصطفى كامل في اللواء ، جريدة الوطنيين المستبسلين من أجل الاستقلال ، في عدد ٢٤ فبراير مقالا طويلا جاء فيه

«نعم ، منحها الخالق كل ما يرجوه الإنسان في حياته مالا وجلالا وعلما وأدبا وسمعة طائرة ، ونفوذا جيدا ، وقد استخدمت كل هذه المواهب لخدمة وطنها» .

وقد استقبلها الخديو عباس خلال اقامتها في مصر ، فهاج هائج اللورد كرومر واحتج احتجاجا صارخا باعتبار أن مدام جولييت آدم هي من أعدى أعداء بريطانيا ، ولكن الخديو لم يحفل بهذا الاحتجاج وقال لكرومر أنا استقبلها باعتبارها من أعظم أصدقاء مصر

وقد وضعت مدام چولييت آدم كتابا رائعا عن تاريخ مصر السياسى الحديث ، بعنوان مدام انجلترا فى مصر ، كان موسوعة تاريخية وسياسية ، وقد كتبت فى إهداء هذا الكتاب ، ما نصه «إلى الأمة المصرية الكبيرة النبيلة ، إلى ابنى المجيد البطل المقدام «مصطفى كامل» إلى الذى أفنى حياته فى سبيل دفاعه الوطنى عن استقلال مصر وحرية وادى النيل ، وإلى شقيقه ابنى على فهمى كامل الذى داوم على الجهاد بعزم صادق وعقيدة راسخة» .

وقد ترجم على فهمى كامل هذا الكتاب إلى العربية ، وقدم له بمقدمة جميلة ، ومليئة بالمعلومات والحقائق ، وقارئها يشعر بمدى الغبن الذى نال هذا المجاهد المحمود الفضل .

السطور الأخيرة فى قصة عباس الثانى ★

السنة التى تجرى فيها أحداث هذه القصة ، هى سنة ١٩١٤ . وفى هذه السنة كان خديو مصر عباس حلمى الثانى ، يصطاف فى باريس ، لا يدرى ماذا سيصيبه بعد شهور قليلة ، غير مدرك أن لقب «الثانى» يحمل فى طياته لعنة الذى يتحلى به فغليوم الثانى امبراطور ألمانيا ، ونقولا الثانى قيصر روسيا ، وعبدالحميد الثانى سلطان تركيا ، وفؤاد الثانى ملك مصر ، وعشرات غيرهم سقطوا من عروشهم ، أحياء ، أو سقطوا موتى .

كان الخديو عباس حلمى الثانى فى فرنسا ، فى تلك السنة كعادته كل سنة ، يتلقى علاجه فى مدن المياه ، ويجدد نشاطه ، ويلقى من النساء والرجال من يحب أن يلقى بعيدا عن أنظار أصحاب الفضول ، وإن لم يكن بعيدا عن أعين الرقباء من إدارات المخابرات التابعة لبريطانيا وتركيا وفرنسا وربما ألمانيا

وكان من عادة الخديو ، بعد أن يستحم ويستجم فى فرنسا وباريس أن يسافر إلى استانبول ، حيث يلقى والدته «أم المحسنين» فى قصرها المطل على البوسفور فى ضاحية «بيك» . وكانت

★ هلال - نوفمبر سنة ١٩٨٢.

الأميرة الوالدة تمضي إلى شواطئ الأستانة على ظهر اليخت «المحروسة» ومعها حاشيتها ، ويذهب ابنها الخديو إلى عاصمة الخلافة الإسلامية ، دار السعادة ، في القطار ..

ولم يكن قد نشب حتى تلك الأيام ، خلاف يستحق الذكر بينه وبين الخليفة سلطان تركيا ، السلطان عبدالحميد ، ومع ذلك فقد تلقى الخديو تحذيرات كثيرة وجدية ، من أن حكومة استانبول تفكر جديا في التخلص منه ، إلا أنه لم يحفل كثيرا بهذه التحذيرات ، وإن كان يعلم يقينا أن ابن عمه الأمير سعيد حليم رئيس وزراء تركيا ، ينفي عليه أن يكون خديو مصر ، وانه كان صاحب الحق في وراثة عرش هذه البلاد ، لولا أن الخديو اسماعيل ، نجح في تغيير نظام وراثة العرش ، بفضل ما بذله من رشاوى ضخمة لوزراء الخليفة .

وقد شاء القدر أن يبقى في باريس حتى بعد يوم ١٤ يولية سنة ١٩١٤ ، مع أنه كان معتزما تركها قبل ذلك أي في أوائل ذلك الشهر ، لولا أن رئيس جمهورية فرنسا ، دعاه إلى حضور احتفالات ١٤ يولية السنوية ، أي احتفالات العيد القومي الأكبر لفرنسا ، ولذلك لم يصل إلى استانبول إلا في يوم ٢٢ يولية ، التي كانت تحتفل بدورها باليوم الأول من يومي عيد قومي تركي ، وهو عيد الدستور الذي أعلن في ذلك اليوم سنة ١٩٠٨ في عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي لم يلبث حتى عزل في سنة ١٩٠٩ لما بدا منه من نوايا السوء ضد النظام الدستوري الذي أجبر على إعلانه ، ولما كانت العادة تقضي باحتجاب الصحف التركية عن الظهور في أيام الأعياد ، فقد بقي وصول الخديو إلى العاصمة التركية مجهولا إلا من الدوائر الرسمية ، وبعد أن قام

الخديو بتحية والده ، ذهب إلى عدوه اللدود ، ومنافسه الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم أى كبير الوزراء في مقر رياسة الدولة التى كانت تسمى «بالباب العالى» . فقد أرسلت الحكومة إلى الخديو حرسا صاحب موكبه من مقر الوالدة إلى مقر الدولة ، فسارت عربته يحف بها الخيالة

وما كادت هذه العربة تدلف إلي مدخل الحكومة ، حتى اندفع شاب إلى الأمام مرسلا إلى الخديو أربع رصاصات . فأصابته الرصاصة الأولى في خده ، في حين استقرت الرصاصات الثلاث ، في كتفه وذراعه ، وقد وقف الخديو بصفة تلقائية في العربة ، وحاول رمزى باشا طاهر ، كبير ياوران الخديو أى كبير حرسه أن يقفز من عربة الخديو ليلحق بالقاتل ، إلا أن ضابطا من الحرس التركى حال بينه وبين تنفيذ رغبته وأطلق الرصاص على القاتل ، فقتله في مكانه ، وبذلك انعدم الأمل تماما في معرفة الذين خلف الفاعل الأصلى من محرضين وشركاء وقد كانت هذه هى العادة المألوفة في بلاد البلقان جميعا ، يقتل الفاعل أو يهرب ، فتقفل ملفات التحقيق ويخرس كل صوت .

وقد نقل الخديو إلى المستشفى ، حيث رقد تحت العلاج ، وقد مضت أيام طويلة والأمل في نجاته ضعيف إلى أبعد حد ، لأن الإصابة كانت جسيمة . ولم يكن – بطبيعة الحال – في وسع الجريح أن يستقبل زوارا ، ولكنه تماثل الشفاء ، فاستأجر عدد من كبار الموظفين والأعيان في مصر ، باخرة حملتهم إلى استانبول ليقابلوا ولى الأمر ، ويهنئوا الخديو للعودة إلى بلاده ، حيث كانت الحاجة إلى وجوده شديدة ، فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت تدق أبواب العالم بشدة ، ولم يكن

وجود صاحب الدولة حسين رشدى كنائب الخديو أو قائم مقام له ، يغنى عن الحاكم الأصيل والحق أن المعلومات التى كان يرسلها نائب الخديو فى مصر ، لسيده فى استانبول قليلة ، مما أقلق هذا الأخير ، لقلة ثقته فى شجاعة وولاء نائبه حسين رشدى ، والحق أنه حامت حوله أمانة رشدى ، وحسن أدائه لواجبه كنائب الخديو شبهات كثيرة ، حتى لقد قيل إنه لو أدى واجبه فى تلك الأيام على وجه طيب ، لما تطورت الأحداث إلى عزل الخديو ، وإعلان الحماية البريطانية على مصر . ولقد طمأن الخديو أول الأمر إلى سلامة مصيره ، فقد تلقى وهو على فراش المرض وبعد إبلاغه من المستر «بيهم» القائم بأعمال السفارة البريطانية فى الاستانة تأكيدات بأنه لا خوف على عرشه ، ومن ثم فإنه لا داعى لسرعة عودته إلى مصر ، إلا أن الخديو لم يلبث أن تلقى - بغضب أكثر من الدهشة - فى ٢٧ من سبتمبر أن السفير البريطانى «السير مالت» نفسه يريد أن يقابل الخديو فى ضاحية «بيك» حيث قصر الوالدة ، وكان السفير قد عاد من اجازته فى بريطانيا ، وتمت المقابلة ، فلم يضيع السفير وقتا كثيرا فى عبارات المجاملة أى فى السؤال عن صحة الخديو ، إذ أنهى إلى مضيفه فورا بأن الحكومة البريطانية ترجو من الخديو أن يترك البوسفور ، ويسافر إلى أوربا ، حيث أعدت له بريطانيا «فيلا» فى مدينة نابولى ، وقد تشاءم الخديو من هذا الطلب ، وكان هذا من حقه . فنابولى كانت موضع اقامة جد الخديو ، أعنى الخديو اسماعيل باشا ، عند عزله عن عرش مصر فى يونية سنة ١٨٧٩ ولم يكن السفير البريطانى مجاملا فقد أضاف إلى طلبه الجاف ، طلبا زاده جفافا ، مؤداه أن يسافر الخديو إلى إيطاليا ، بأقصى سرعة ممكنة طالما تسمح له صحته بذلك .

ورد الخديو عباس على هذا الطلب بقوله إنه لا يريد من أية حكومة أن تبحث له عن مسكن ، وأنه في وسعه أن يدبر لنفسه محل الاقامة الذى يرضيه ، وأنه على أية حال ، لا يقوى ، ولا يريد أن يقيم في نابولي . والحق أن الخديو تاق إلى قضاء بضعة أسابيع في مصر ، حيث كان أهلها ينتظرون عودته ، بوصفه الحاكم الفعلى لمصر ، إن لم يكن قد صدر بعد ، أى شئ يسقط عنه هذه الصفة

ويروى في الحجرة التي ضمت الخديو المصرى والسفير البريطاني قول السفير – كالرقعة عنيفة – انك لن تعود إلى مصر بعد اليوم .. ومن ثم يمكن اعتبار عزل الخديو عن عرشه قد تم على النطق الذى صدر عن السفير البريطاني في ذلك اليوم : السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١٤ في مدينة الاستانة أو استانبول أو القسطنطينية ، كيفما شئت

ولم يفقد الخديو عباس حضور ذهنه عندما سمع بهذا التصريح الصاعق حتى حينما عاد السير «ل مالت» إلى تكرار طلبه يجب أن تسافر فورا إلى «نابولي» ، فقد طلب أن يسمح له بالسفر إلى سويسرا ، لأنه لا يطيق العيش في إيطاليا ، بيد أن هذا الطلب رفض في الحال ، من جانب السفير الذى أعلن أن إيطاليا وحدها هي المكان المناسب في نظر السلطات البريطانية . وقد رأى الخديو أنه لا يليق بمقامه أن يدخل في جدال مع السفير ، فسكت وهو ينوى أن يبقى حيث هو ، مادام أنه لا يطيق فكرة السفر إلى إيطاليا ، ولا سيما أنه كان لايزال في دور النقاهة . والظاهر أن بريطانيا لم تبذل جهدا آخر لارغام الخديو على تنفيذ أمرها . على أنه لم تمض سوى أيام قليلة ، حتى دخلت تركيا في

الحرب ضد بريطانيا ، وحليفتها فرنسا ، في بداية الحرب ، ثم إيطاليا بعد المرحلة الأولى من تلك الحرب .

ولما كان الخديو أيضا غير راغب في أن يرتبط بأحد طرفي الحرب ، لقد قرر السفر إلى سويسرا ، باعتبار أنها دولة محايدة وقد اتخذ مقرا له بعد ذلك في برن وجنيف ، فراح يتنقل بينهما حتى سنة ١٩١٧

والطريف أن أكثر المؤرخين ، تأثروا بالقرار البريطاني الذي صدر في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩١٤ بإعلان الحماية البريطانية بما أعلنه ذلك القرار من أن الخديو انحاز إلي جانب الأعداء ، ولذلك استحق أن يعزل عن عرشه . من ذلك ما قاله السير فالنتين تشيرول في كتابه «المسألة المصرية» الصادر سنة ١٩٢٠ ، وهو يعتبر مرجعا متداولا «ان الخديو ترك بلاده ، وأنه وضع حدا لدوره كخديو بخلعه القناع عن وجهه ، بعد أن لبسه بنجاح زمنا طويلا ، منحازا انحيازا صريحا مع الأعداء حينما اندلعت نيران الحرب» .

ويدافع المستر «بيمان» في كتابه «عزل خديوه عن عباس حلمي بقوله إن الخديو كان مريضا وملازما فراشه لمدة ستة أسابيع ، وفي هذه المدة اتهم أنه انحاز صراحة للأعداء ، في هذا الوقت الذي لم يكن في وسعه أن يأتي بحركة ذات قيمة .

والواقع أنه لم يذكر أي أسباب لخلع الخديو ، سوى هذا الذي ذكرناه من أنه انحاز للأعداء ، ولكن قيل بعد ذلك أن خلعه كان بناء على نصيحة من اللورد كتشنر الذي كان مندوبا لبريطانيا في مصر مباشرة قبل حرب سنة ١٩١٤ ، ثم قيل بل كان هذا العزل بناء على مشورة

اللورد كرومر ، المندوب البريطانى السابق على مصر . والمعروف أن الرجلين - كرومر وكتشنر - كانا من ألد أعداء عباس حلمى ، وانهما ضاقا به ولطموحه وميوله الاستقلالية ابان وجودهما فى مصر .

فيعود «مستر بيمان» إلى القول أن تحرياته ومجهوداته فى كشف السبب المباشر لعزل الخديو عباس ، فلم يجد اثرا ، لصلة كرومر أو كتشنر بهذا القرار ، وان كان الرجلان - كما سبق القول - كانا يسيئان الظن بميول الخديو عباس ، ضد بريطانيا ، وإعجابه بالمانيا ، وأمله فى أن تعين على تحرير مصر ، أو تشارك في هذا التحرير .

لكن «بيمان» يقول إن الكثيرين من بطانة الخديو ، كانوا يختلفون معه فى الرأى ، ولكن لم يتهمه أحد من هؤلاء ، بإنه مأفون أو قصير النظر ، ويعهم أن «عباس» كان يعلم أن بلاده فى حاجة إلى من يحميها من العدوان الخارجى ، وأنه قرأ الكثير عن أساليب الحكم الألمانى العنيفة بحيث لا يمكن أن نفكر فى أن يستبدل بالرعاية البريطانية الأبوية ، طريقة سوق العبيد الألمانية .

وهذه شنشنة نعرفها من المؤرخين الأوربيين الذين درجوا على القول بأن الحاكم المصرى ، لابد أن يقارن بين دولتين أوربيتين دون أن يفكر قط فى استقلال بلاده انتقاعا بتنافس الأقوياء وخلافهما

وقد استرسل بيمان بعد ذلك فى دفاع مجيد عن «عباس حلمى» واستنكار شديد لقرار عزله الذى كان يراه بلا سبب ، ودون أن يعود حتى على الحكومة البريطانية بأى نفع ، وفى رأيه أن التهمة الوحيدة التى ألصقت بالخديو منذ عهد كرومر ثم كتشنر كونه «صانع مؤامرات»

وقال إن سند هذه التهمة لا يقوم على صحتها ، بل على أنها تهمة عائمة، لا تعرف لها حدودا ، بل قد لا تعرف لها معنى ، فما هو المقصود بالمؤامرات ، ومتى تلقيت هذه المؤامرات ، وماذا حققت من خير . واشتدت حماسة مستر بيمان فقال إن كرومر وكتشنر لم يكونا فوق شبهة التآمر ، وإن كان الشائع عند الغربيين أن الشرقيين يميلون إلى الدسائس ، وحبك المؤامرات .

فالانجليز عزلوا أميرا محترما لا عند المصريين وحدهم ، بل عند أمراء المنطقة أمثال آل سعود في نجد ، والإمام يحيى في اليمن ، وأمير المحمرة ، وبعض الأمراء في آسيا ، ولو استمع الانجليز لنصائحه لكانت أغلى من الملايين من الجنيهات الذهبية

ولقد شمل الخديو عباس الأزهر ، هذه الجامعة العريقة بعطفه ، وعنايته ، بعد أن تسلمها فقيرة ، فقدت مكانتها ، فبذل لها غير قليل من ماله ، واستحث غيره من الأعيان والأغنياء المصريين ، على التبرع لها ، فاستعادت رداءها القديم ، واهتم بها الرأى العام المصرى .

وينفى الكاتب ما أسنده الانجليز إلى الخديو من أنه كان مكروها للجماهير ، وقال إنه بالعكس كان المصريون متعلقين به ، ولو قيض له أن يعود إلى مصر ، لاقيمت لعودته الأفراح في كل مكان من القاهرة إلى الخرطوم . ولعل الكاتب لا يعرف أن المصريين عاشوا أجيالا يسمعون من أفواه أطفالهم غناء ، يبدأ بعبارة «عباس جى» . وقد بقى الملك فؤاد وهو عم عباس حلمى ، والذي حل محله على العرش بعد وفاة السلطان حسين الذى كان أيضا أحد أعمام عباس حلمى ، بقى هذا الملك فى خوف من عودة ابن أخيه عباس ، ويتصور فى كثير من حركات بعض الأعيان الذين كانوا يعرفون ، مؤامرة لخلعه .

ولذلك كان لابد من أن تعمل بريطانيا ويعمل الملك فؤاد كل ما في وسعهما لحمل الخديو عباس على الإقرار بالنظام الملكي القائم ، وبولي عهد الملك ، وأن ينزل عن كل حق له في ميراث العرش . وقد حدثنا بيمان طويلا عن المفاوضات التي دارت بين ممثلي بريطانيا الذين يقومون بالوساطة بين الملك وابن أخيه المعزول ، لينتزعوا من هذا الأخير وثيقة النزول عن حقوقه في الملك والعرش، وعن كل ما كان يملكه من أطيان شاسعة وعمارات وعقارات في مصر ، واستمر ذلك طويلا دون أن يتحقق شئ ، حتى جاء اسماعيل صدقي باشا ورأس الوزارة ، وكانت السن قد تقدمت بالخديو عباس ، واستقر الملك فؤاد على عرشه ، وتضاءل الأمل في أن يعود الخديو إلي وطنه ، وان يعلو ثانية عرشه فأصبح ممكنا الحصول على الوثيقة المطلوبة . وقد تم ذلك في وثيقة أعلنت في ١٢ مايو سنة ١٩٣١ ، ننقل منها :

قال الخديو عباس في بداية الوثيقة

«إني مؤمن بأني خدمت بلادي بأمانة وإخلاص ، وأني كرست لها مدى ثلاث وعشرين سنة ، بالرغم من دقة الظروف ، كل قواي وخير أيام حياتي ، وإني أتمنى من صميم قلبي سعادة مصر ورخاءها .

وقد تتبعت عن كثب ما أحرزته البلاد ، وما لا تزال تحرزه من أسباب التقدم في جميع النواحي ، وأني مغتبط بما أراه من خطاها الثابتة في سبيل توثيق استقلالها والتوفيق بين نظامها السياسي ، وبين حاجاتها وأمانيها .

وأورد مني في تحديد موقفي حيال نظام مصر السياسي وتأكيد

بخلاصى نحو ذات ملكها المعظم ، فإنى أعلن اتباعى الدستور المقرر بالأمر الملكى رقم ٧ لسنة ١٩٣٠ ، وأصرح أنى سأتوخى فى جميع الظروف خطة مطابقة للنظام المقرر لقوانين البلاد ، وعلى وجه الخصوص أعلن التزامى للأمر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية وللقانون نمرة ٢٨ لسنة ١٩٢٢ الخاص بإقرار تصفية أملاكى وهما جزآن لا يتجزآن من الدستور المصرى ، ولقانون التضمينات نمرة ٢٥ لسنة ١٩٢٢ وأعلن اتباعى لها جميعا .

وختم الخديو هذه الوثيقة بإقراره بأن الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل ملك مصر الشرعى ، وانه لذلك يعلن تنازله عن كل دعوى على عرش مصر، كما أعلن تنازلى عن كل مطالبة ناشئة عن أنى كنت خديو لمصر أيا كان وجهها سواء عن الماضى أم عن المستقبل .

وانتهى إلى الدعاء للملك بصالح الدعوات وأن يحيط ولى عهد المملكة الأمير فاروق بعين عنايته ، وليزيد فى إسعاد مصر فى حاضرها ومستقبلها .

وبهذا الكلام ، أسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر استمرت أكثر من ثلاثة وعشرين عاما لعب فيها الخديو دورا كبيرا جدا ، كاد يكون فى بعضه دعما وطنيا ، حين وضع يده فى يد مصطفى كامل ، وأيد كفاحه الوطنى واصطدم بكرومر وكتشنر ، ثم انقلب بعد ذلك مواليا للانجليز بعد اتفاق سنة ١٩٠٤ التى أبرمت بين بريطانيا وفرنسا ، والتى عرفت بالاتفاق الودى والتى أطلقت بمقتضاها يد بريطانيا فى

وادى النيل ، بدون معارضة ولا منافسة من فرنسا . وقد عبر كرومر فى كتابه «عباس الثانى» عن . ضيقه بنشاط عباس وحيويته وقال بصراحة لقد «حيرنى هذا الشاب» .

إلا أن ما ساقه لنا «بيمان» فى كتابه ، يرينا كيف يهون الملوك على الدول الاستعمارية ، حتى يستطيع سفير الدولة المستعمرة أن يعزل الملك عن عرشه بكلمة واحدة ، فى حين أنه لو فكر فى عزل أحد خدمه ، لتحرج وتردد ، وخجل من أن يطلبه بالفصل . وهو درس ، يرينا أن هذه الدول ، ليس لها صديق تحرص على مودته ، أو تراعى اعتبار كرامته ، فمن كان فى خدمتها ، تغدق عليه من العطف والمال ، ومن قامت الشبهة بلا دليل فى وفائه وولائه ، يطرد فى غير رحمة

عبدالمنعم عبدالرءوف
وأكبر قضية عسكرية فى
تاريخ مصر الحديث ★

غاب عن دنيانا هذه الايام الضابط الطيار عبد المنعم عبد الروف، وهو اسم نجده في كل مذكرات أو كتب تناولت تاريخ ثورة ٢٣ يوليو

لم يشذ عن هذه القاعدة لا ضابط ولا مؤرخ . ولم تعرف مصر، عبد المنعم عبد الروف، بوصفه ضابطا من تنظيم الضباط الاحرار، بل عرفته في مناسبة أخرى، هزت مصر والوطن العربي، هزا عنيفا وبقيت تشغله لفترة طويلة، وتبعث في الوقت نفسه، امالا في نفوس الوطنيين الذين كانوا يمنون انفسهم بقيام حركة تمرد أو مقاومة ، تقف في وجه الانجليز، وكان الامل الاكبر أن تنبعث هذه الحركة من صفوف العسكريين المصريين، أى ضباط الجيش، ولا سيما الشبان منهم . فالجيش هو المنظمة التي تضم أقدر المصريين على مقاومة الانجليز ، لأنها :

أولا تتكون من مجموعة غير قليلة من المصريين أصحاء البدن، المدربين على حمل السلاح واستعماله، وهى فى الوقت نفسه أكثر

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٥ .

المصريين احساسا بما يلحقه الجيش البريطاني من العار والاهانة بشرف مصر، وبجيشها .

وثانيا لان اتفاق الضباط المصريين بحكم كونهم مقاتلين ، على رفض الاحتلال ، وكراهيته يهيئهم لان يكونوا طلائع المقاومة ، ومصدر الروح الوطنية في البلاد، واجتماعهم في أماكن مشتركة لأوقات طويلة، يتيح لهم تبادل الرأي والتحضير للعمل الوطني الشامل .

كانت المناسبة التي عرفت فيها مصر، حدثا ضخما تمتزج فيه المجازفة المتسمة بالبطولة والشجاعة والمناداة بالعمل السياسي المخطط له والمدبر ، ففي مايو سنة ١٩٤١ ، علمت الدنيا كلها ان رئيس اركان حرب الجيش المصري الفريق عزيز المصري ، حاول الخروج من مصر في طائرة عسكرية، تولى قيادتها اثنان من ضباط سلاح الجيش العاملين .

إن هذين الضابطين هما النقيبان. عبد المنعم عبد الرؤوف ، وحسين ذو الفقار صبري وان الطائرة سقطت بركابها في ناحية قليوب بعد أن اصطدمت باسلاك كهرباء في هذه المنطقة ولم يعد لمصر، شغل يشغلها ولا العرب، إلا التحدث عن هذه الحادثة التي لم يسبقها شئ مثلها ، وترديد اسماء ابطال هذه المجازفة عزيز المصري باشا، والضابطين عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبري ثم متابعة مجريات المحاكمة العسكرية امام المجلس العسكري العالي الذي شكل من خمسة من كبار الضباط لمحاكمة هؤلاء الضباط وحفظت هذه القضية العسكرية بعد ذلك وأفرج عن الضباط الثلاثة وعاد الضابطان الشابان الى عملهما في الجيش ، ولكن في غير سلاح الطيران .

لم يعد اسم عبد المنعم عبد الرءوف يتكرر حتى فوجيء المصريون في صباح يوم ٢٣ من يولية ١٩٥٢ بثورة عسكرية اقتلعت الملك ثم الملكية من جذورها ، ثم استقرت الثورة، واخيرا بدأت الكتب والمقالات والبحوث تظهر لتروى وقائع ميلاد الحركة التى دبرت الثورة ونفذتها ، وقد اجمعت كل هذه المراجع على شخص واحد، هو ان عبد المنعم عبد الرءوف ، كان ضمن اعضاء الخلية الأولى من خلايا الثورة، وانه كان الرجل الثانى بعد جمال عبد الناصر، وانه كان مثال الضابط الثائر استقامة وامانة، واليك الامثلة على ذلك .

كان أول كتاب يروى قصة الثورة هو كتاب انور السادات الذى جمع فيه مقالات كان ينشرها في جريدة الجمهورية بعنوان قصة الثورة كاملة، واختار الكتاب نفس الاسم، فذكر عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا، فقال تكونت الهيئة التاسيسية فعلا وكانت تضم فى البداية جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين وعبد المنعم عبد الرءوف، ثم قال . بينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على اساس تقديرنا لموقف البلاد فى ذلك الوقت فوجئنا بالبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف وهو ينادى بضم تنظيم الضباط الاحرار كله الى الاخوان المسلمين .

ولم يجد عبد المنعم عبد الرءوف من يستمع اليه واصر عبد المنعم عبد الرءوف على اخضاع الضباط الاحرار لجماعة اخوان المسلمين وقال وهو يحاول اقناعنا بوجهة نظره ان جميع اعضاء تنظيم الضباط الاحرار يمكن ان يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شيئ. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم ، وقلنا له جميعا، إننا مثله لنا زوجات وأولاد،

ويهمنا ان نطمئن عليهم وعلى مصيرهم ، ولكن المسألة ليست مسألة شخصية ، فنحن نعد ثورة لا مؤامرة .

وقد تحدث جمال حماد عن عبدالمنعم عبد الروف في كتابه ٢٣ يوليه، اطول يوم في تاريخ مصر فقال

تخرج عبد المنعم عبد الروف في الكلية الحربية عام ١٩٣٨ فهو من نفس دفعة السادات وعين ضابطا طيارا بسلاح الطيران وعرفت عنه الاستقامة والصلابة وصدق الوطنية ، وقد حذا عبد المنعم حذو الكثيرين من الضباط الشبان المتحمسين الذين اجتذبتهم شخصية عزيز المصرى فبدأ يتردد على منزله بالمطرية وتولدت نتيجة لذلك رابطة قوية من المودة والثقة الى الحد الذى جعل عزيز المصرى يصارح عبد المنعم برغبته الملحة في السفر الى بيروت ويسأله المعونة وكان عزيز المصرى يهدف من وصوله الى بيروت . أن يساعده عملاء الالمان على السفر إلى العراق للمساهمة فى ثورة رشيد على الكيلانى التى قام بها ضد الانجليز .

واستطاع عبد المنعم بدوره اقناع زميله ، في «الكلية والدفعة» ، حسين ذو الفقار صبرى للاشتراك فى نقل عزيز المصرى الى بيروت بطائرة من السلاح الجوى المصرى بحكم وجود حسين ذو الفقار فى سرب المواصلات .

ولكن المغامرة التى وقعت يوم ١٦ من مايو ١٩٤١ ، لم يكتب لها النجاح ، فإن حالة الاستعجال تسببت في أن يغلق الميكانيكي مفتاح الزيت بدلا من ان يفتحه مما ادى الى هبوط الطائرة، اضطراريا بالقرب من قليوب ، ورغم اختفاء عزيز المصرى والطيارين لمدة ٢١ يوما فى حى امبابة عند أحد اصدقاء عبد المنعم تمكن البوليس من القبض عليهم يوم

٦ من يونيه سنة ١٩٤١، واجرى التحقيق معهم بعد اعتقالهم وقدموا للمحاكمة واستمروا معتقلين حتى افرج عنهم فى مارس ١٩٤٢ فى عهد حكومة النحاس ولم يعد عبد المنعم عبد الروف الى سلاح الطيران بطبيعة الحال بل نقل الى الجيش وانضم لقوة الكتيبة الثالثة المنشأة بمنشية البكرى بالقاهرة وهناك جمعته الاقدار بضابط شاب تعرف عليه لأول مرة ولعب بعد ذلك دورا خطيرا فى مجرى حياته . وكان ذلك الضابط هو جمال عبد الناصر الذى كان يعمل وقتئذ مساعدا لاركان حرب الكتيبة الثالثة، وكان من ضمن قوة الكتيبة التى نقلت من الصحراء الغربية الى القاهرة فى مارس سنة ١٩٤٢ وهو نفس الشهر الذى افرج فيه عن عبد المنعم عبدالروف وانضم فيه الى قوة الكتيبة هو الاخر .

كما تحدث عن عبد المنعم عبدالروف كثيرا حمدى لطفى فى كتابه الذى صدر ضمن سلسلة كتاب الهلال بعنوان «ثوار يوليه – الوجه الاخر» فقد اورد على لسان عبد اللطيف البغدادى اسماء اعضاء لجنة الضباط الاحرار، فقال من قسم الطيران هذه المنظمة: من الطيران حسن ابراهيم وجمال سالم ووجيه اباظة والمرحوم محمد شوكت وعمر الجمال السفير بعد ذلك، ثم انضم الينا على صبرى ، وشقيقه حسين ذو الفقار صبرى ثم عبد المنعم عبد الروف ثم قال :

لقد اكتشفت فى جولة بحثى بين ثوار يوليه أن بين زملاء دفعة الرئيس السادات، الضابط الثائر بكباشى عبد المنعم عبد الروف ، وقد انضم عبدالمنعم عبدالروف إلى سلاح الطيران . وكان شابا متينا مؤمنا. وقد قاد الطيار عبد المنعم عبد الروف زملاء دفعته الى لقاءات

تعددت وكانوا جميعا يؤمنون بفكر واحد وآمال واحدة فضلا عن تقارب اعمارهم واحلامهم وهم المرحوم احمد سعودي وحسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادي وحسن عزت وكانت بداية التجمع الثوري، ونشوء الفكر الوطني المتحرر الرافض لمقاييس الحكم الملكي واعمدته التي تسانده وهي في الدورة الأولى قوات الاحتلال البريطاني في مصر وكان هؤلاء الثوار من صغار الضباط خلف فكرة الاتصال بالفيلد مارشال روميل وارسال صور المواقع العسكرية الانجليزية المنتشرة في أنحاء المملكة المصرية اليه عن طريق الطيار احمد سعودي الذي سقطت طائرته قبل ان يصل الي القوات الالمانية في الصحراء الغربية . بينما نجح الصول محمد رضوان سالم في اليوم الثاني من الوصول الي الالمان وقاد طائرة استكشاف للبحث عن طائرة سعودي وقال كمال الدين ضابط المدفعية في هيئة الضباط الاحرار عن عبدالمنعم عبد الرءوف « في حي السيدة زينب، كنت اسكن ، وفي الحي نفسه يسكن الضابط عبد المنعم عبد الرءوف والتقينا، وكنا نستخدم تراما واحدا في الذهاب والعودة ، ونتحدث في كل شيء..

وذهبنا معا الي جمال عبد الناصر بمنزله في منطقة تقاطع شارع احمد سعيد مع شارع الملكة نازلي - والتقينا هناك بالصاغ محمود لبيب لأول مرة ، ثم ذهبنا الي اجتماع الاخوان المسلمين بتشجيع من المرحوم محمود لبيب، ومحمود لبيب هو ضابط مصري بدأ جهاده في عهد الحزب الوطني الاول، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، وقد هاجر الي ليبيا في فترة الغزو الايطالي لها سنة ١٩١١ وزامل في هذه الحرب عددا من الضباط والمجاهدين المصريين كان منهم صالح حرب باشا

فيما بعد رئيس جمعيات الشباب المسلمين، وعبد الرحمن عزام باشا امين عام الجامعة العربية .

وجاء في كتاب ثوار يولية ما نصه :

«وتولى كمال حسين قيادة مدافع الميدان ، في فلسطين ومعه المرحوم انور الصبحى وخالد فوزى وتولى حسن فهمي قيادة المدافع المضادة للدبابات وذهبو الى فلسطين ومعهم ايضا الشهيد سالم عبد السلام، وعبد المنعم عبد الروف .

وجاء في كتاب «صفحات من تاريخ مصر» تأليف حسين محمد احمد حمودة ، عن عبد المنعم عبد الروف : «قدمت نفسى يوم ٢٨-٦-١٩٤٢ للكتيبة الثالثة مشاة بالماظة وكنت وقتئذ ضابطا برتبة الملازم أول وتصادف أن نقل الى هذه الكتيبة اليوزباشي عبد المنعم عبد الروف بعد ان افرج عنه في مارس سنة ١٩٤٢ وحل المجلس العسكرى الذى انعقد لمحاكمته هو وزميله حسين ذو الفقار صبرى والفريق عزيز المصرى

وحدث اثناء تناول الطعام مع الضباط في الميس «قاعة الطعام» ، في يوم لا أذكر تاريخه بالضبط في الشهور الاخيرة من عام ١٩٤٣ ، أن كان يجلس بجوارى اليوزباشي عبد المنعم عبد الروف فاخذت اتجاذب معه اطراف الحديث ومالبث ان همس في اذنى انه يريد التحدث معي على انفراد في موضوع بعد الغداء .

وانفردت معه بالميس بعد انصراف الضباط، فقال عبد المنعم عبد الروف لي انه لاحظ اهتمامي الزائد بعملي وحرصي على تفوق سمعتى في التدريب وتمسكى بمبادىء الاخلاق الكريمة وانه يود أن ازوره في

منزله ليتحدث معي حديثا اكثر حرية واعطاني موعدا مساء الجمعة ، ذهبت الى منزل عبد المنعم عبد الرؤوف بالسيدة زينب وتحدث معي عبد المنعم عبد الرؤوف حديثا خلاصته ان مصر حالتها لا تسر احدا، فالاحتلال البريطاني جاثم على صدر البلاد يكاد يخنق انفاسها ويحيل بينها وبين اى تقدم والفساد يضرب أطنابه في كل اجهزة الحكم.

وتلاقيت مع عبد المنعم عبد الرؤوف كثيرا حتى اطمأن لي واطمأننت له

هذا هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى تجمع المصادر جميعا، انه صاحب دور هام في تأليف جمعية الضباط الاحرار، وانه الرجل الثاني في مؤسسيها

وان كان بعضهم قد حاول ان يجعله المؤسس الاول. وقد كانت مجازفته الضخمة بالاشتراك مع زميله حسين ذو الفقار صبرى ، في نقل عزيز المصرى باشا بطائرة حربية وخلال فترة اكبر حرب عرفتها الانسانية بعد الحرب العالمية الأولى، ضربا من الفدائية التى لا ينكر احد أنه عنوان شجاعة لا تهاب شيئا ولا شخصا ولا تفكر في مصيرها، ولا تبقى على حياتها وقد كان لهذه المحاولة التى تمت في ١٦ من مايو سنة ١٩٤٣ ، دوى ايقظ كل النائمين، وحرك كل المستسلمين للامر الواقع والراضين به .

وقد كنت اعرف اطراف هذه المغامرة الكبرى على درجات من التفاوت . وكانت معرفتى لعبد المنعم عبد الرؤوف، تجعله قريبا مني، دون أن تنشأ بيننا صداقة حميمة فقد جمعتنا الظروف في مدينة أسيوط، وأنا في السنة الأولى الثانوية، فقد كان أبوه قائد ما يسمى –

سنة ١٩٢٤ وما بعدها - بالاورطة التي كانت تعسكر في عاصمة الصعيد، وكان أبي مهندسا للري، وكان بيتانا متجاورين في هذه المدينة، وقد لعبنا معا كثيرا، ولكن بقيت علاقتنا سطحية، حتى وقعت طائرته وطائرة زميله حسين ذو الفقار صبري في قليوب، ولجأ الى صديق من أصدقائي هو المثال العظيم عبد القادر رزق الذي كان آنذاك مدرسا لفن الحفر في مدرسة الفنون الجميلة .. وكانت أجهزة الأمن تبحث أصلا عن المرحوم أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، وكانت صلتي به معروفة، فراقبت أجهزة الأمن مكتبي وشاء الحظ أن يزورني ذات يوم زميلي في الحزب الوطني أحمد مرزوق «أستاذ الرياضة في معهد التربية البدنية العليا آنذاك» فتتبعوه حتى قابل بطريق الصدفة المحضة في شارع عدلي المثال عبد القادر رزق وكان شخصية مجهولة للشرطة، ولكن المخبر الذي كان يراقبني بدا له أن يتعقب هذه الشخصية المطاردة وهو يمني نفسه أن تقوده إلى حيث يختبئ أحمد حسين، وسار وراءها حتى وصلت الى منزلي في حي امبابة فابلغ رؤساءه الذين داهموا هذا المنزل وهم يعتقدون أنهم سيجدون أحمد حسين فإذا قائد الشرطة السياسية اللواء محمد ابراهيم إمام يرى نفسه أمام الفريق عزيز المصري ومعه الضابطان عبد الرؤف وذو الفقار، وأمامهم أسلحتهم، فصرخ فزعا خشية ان يقتلوه بهذه الأسلحة، ولكنهم لم يفعلوا، والقي القبض عليهم وسيقوا للمحاكمة، أمام مجلس من خمسة من ألوية الجيش، وترافع عنهم عدد من أكبر المحامين كان على رأسهم حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطني ، ورأت بريطانيا انه ليس لها مصلحة في استمرار القضية فحفظوها ، وأفرج عن

المتهمين. ثم ما لبثت الثورة أن قامت واختلف عبد المنعم عبد الروف مع إخوانه من اليوم الأول، كما أسلفنا ، وحكم علي عبد المنعم عبد الروف بالموت، ولكنه لجأ الى الاردن وهناك عينه الملك سفيرا للاردن فى الهند وسافر جمال عبدالناصر إلى الهند زائرا لنهرو، وفي المطار اصطف سفراء الدول ليحيوا الضيف العظيم القادم، ووقف في مقدمتهم عبد المنعم عبد الروف سفير الاردن فى الهند، وصافحه عبد الناصر دون ان يلتفت جيدا الى شخصه ثم عاد فدقق واذا به يفاجأ بأنه يصافح صديق العمر، وزميل الجهاد ، وعدوه اخيرا. واضحكته المفارقة، ثم تعانقا

حافظ محمود *

كانت صورة حافظ محمود القلمية من اولى الصور بالتقديم ، لا لطول سعيه في مجال الصحافة والخطابة والكتابة في دروب السياسة والادب والاجتماع، ولا لانه عاصر اكبر الاحداث وعاشر اكبر الشخصيات واقترب من القمة حتى كاد يعلوها ويستقر عليها وقد خرج من كل هذا سليما معافى، لم يمس احد شرفه بكلمة، ولم يجرح خصما مهما اشتدت ضراوته وحميت عداوته، وبقى هادىء النفس ، خافت الصوت حسن العلاقة بالجميع بغير اضطرار الى المنافقة أو المصانعة .

تعارفنا ونحن اشبه الناس بصبيين صغيرين ، ولست ادرى كيف تم هذا التعارف ، ولا مناسبته ، ولا ماذا تبادلنا من حديث، ونحن نبدأ علاقتنا الاولى ولكن الذى اذكره ان صلتنا لم تنقطع منذ نشأت ، وقد طوحت بنا المقادير وكل فى اتجاه ، كأنما نحن النقيضان ، ولكن فقد كان دائما قريبا من الحكومة او بعض سادتها دون أن يكون حكوميا، ودون أن يجنى من هذا القرب جنيها ولا قرشا، فقد بقى عفيفا خجولا متأبيا لكل مواقف الوشايا والصغائر ، وكنت بعيدا عن السلطة، لا أعرف أحدا من ذويها، ولا اعرف كيف اتحدث اليهم وكنا اذا اجتمعنا لم يدر حديثنا حول موقف كل منا من الحكام، فقد كان هذا شأنا قليل القيمة والقدر عندنا ، وكان لدينا موضوعات الحديث تخصنا، تمتعنا وتطلق ضحكاتنا على ما يجرى حتى الثمالة ، فاذا هممنا بالانصراف لم

---

* الهلال – أكتوبر ١٩٨٥ .

نتفق على موعد، لأن كلا منا كان يعتقد باطمئنان لا يشوبه قلق باننا سنجتمع حتما، سنستأنف ضحكنا وسخريتنا مما يجرى ، وأن هذا الاجتماع سيعقد بلا موعد ولا تحضير . وربما ونحن سائران فى الطريق، كل يمْضى الى غايته، وهو لا يدرى انه ملتق بعد خطوات بصديق الصبا واننا سنبدأ فى التو، كأننا كنا معا فى الامس القريب او كاننا نتم حديثا بدأناه ولم نفرغ منه. ثم جاءت ايام كان تلاقينا يتم بعد ما يشبه قطيعة الشهور او السنوات ولكن دون أن يحس احدنا أنه فقد صاحبه او انقطعت صلته به، او أنه إذا رآه تعثر بحثا عن بداية الحديث أو موضوع الكلام .

كان بيتانا فى شارع واحد، هو شارع السيدة زينب المتفرع من الميدان العتيق الذى يقع على ضلعه الجنوبى مسجد حفيدة الرسول، زينب بنت الامام على ، أم هاشم التى يأتنس الشعب المصرى كله لا شعب الحى وحده ولا شعب القاهرة، بجوارها له، واشراقها عليه، واقل ان يوجد مصرى مثقف أو أمى ، لم يقل يوما فى ضائقة «شيئا لله يا أم هاشم» أو «شيئا لله يا ست» «او شيئا لله يا أم العواجز» .

وان لم يقلها بلسانه مسموعة، فانه قائلها بقلبه ، ولا يسمعها الا هو

كنت أنا وحافظ فى جوار ام هاشم وعلى القرب تطل علينا مئذنة مسجدها العظيم وتوحى الينا ، كما توحى الى مئات الألوف من أهل الحى ، بخواطر واحساسات وافكار، وتصورات واحلام، كان بعضها يندس فى شعورنا الخفى، وبعضها تعلن وتحدث به الناس وانفسنا وكان بيته بعد بيتى على يمين القائم من الميدان ويجاوره مباشرة

مسجد، كنت احسبه جامعا فقيرا متواضعا الا انني قرأت في كتاب يتحدث عن مساجد القاهرة فيقف امامه، ويصف عمارته، ويروي شيئا من تاريخه ونحن لا ندري ان جامعنا القريب الذي كنا ننقل اليه بعض ايام الجمعة لنصلي فرض الجماعة ونسمع خطبة مطبوعة في كتاب يتلوها امام المسجد العجوز الذي يصعد درجات المنبر في اناة ورفق ، فنحس لصعوده بما وصف محمود سامي البارودي بأنه يشبه دبيب الاماني في النفس، ذلك لان امام المسجد، والخفير، والمسجد نفسه، والاذان وإقامة الصلاة قد اصبحت كلها اجزاء حية من حياتنا ودنيانا، لا يمكن ان نعيش بغيرها، وكانت تحرك الراكد في نفوسنا ، والخفي في قلوبنا والعجيب انني لم ار حافظ محمود ، وهو يدلف الى المسجد يوم جمعة، وان كنت اذكر جيدا والده بلحيته البيضاء الجميلة الوقورة يخطو الى المسجد ، مشغولا به عن الدنيا كلها، إلا أنني كم صليت بعد ذلك مع حافظ في زنزانة واحدة ومعنا اخونا الحبيب احمد حسين بعد أن نتناقش ونختلف ونتقاطع ونحتد، ثم نصطلح بعضنا مع بعض ، ونسمع حافظ محمود يتلو بصوته الجميل الرخيم، من المصحف أو من محفوظه ايات، تنسينا اننا في قبضة الحاكم وأننا لا ندري متى سنترك السجن ونستأنف الحياة، وتنسينا قبل ذلك اننا صبية صغار فقراء ، ولا حول لنا ولا قوة واننا نتحدى السلطة، ونحسب اننا اقوى منها وان الظفر يكتب لنا، مهما صالت وجالت واستأسدت وتعالت .

كان بيت حافظ محمود في شارع السيدة زينب بيتا عجيبا جديرا بأن يحفظ ولا يهدم الا انا كانت يد الهدم قد ازالته بقصد توسيع الشارع وتجميل الميدان، ذلك لان بيت حافظ محمود ، كان مقرا لنشاط ادبي خاص، في وقت كان فيه علم الناس بالندوات الادبية، علما

ضعيفا، وكانت الندوات التي جاءت بعد ذلك، اجتماعات للوجاهة فيها، وازجاء الفراغ ، وادعاء الاهتمام بمشكلات البلاط ، اكثر مما فيها من صدق وجد واخلاص .

كان أطفال وشباب الحي كلهم، يلعبون في الشارع، او في حوش درب الشمس القريب منا، او حوش ايوب البعيد عنا، او حي بركة الفيل الذي ضم انذاك احمد رامي الشاعر، وعبد الحليم حافظ المطرب ، وضم في وقت بعيد نوعا، دار اكبر مطربي وممثلي مصر المديدة الشيخ سلامة حجازي ، ولم يخرج على هذه القاعدة إلا فتى واحد، هو حافظ محمود لم اره قط قذف بقدميه كرة ولا حصاة، بل لم اره قط في جلباب فقط، او في جلباب فوقه جاكتة كما كان حالنا جميعا ومنا من وصل الى اكبر المناصب العلمية رئيس جامعة في الاسكندرية او في الخرطوم او في القاهرة ، أذكر منهم الدكتور حسين فهمي الداغستاني عميد كلية حقوق الاسكندرية، ونائب جامعتها ومدير جامعة الخرطوم وشقيقه محمود الداغستاني وزير المواصلات واخرين كثيرين غير ان حافظ محمود كان لا يسير في الشوارع الا ببدلة كاملة وربطة عنق من طراز البابيون غالبا، وهو يسير في جميع الاحوال : بسرعة خاطفة كأن وراءه موعدا ومطرقا كأنه يخجل ان ينظر الى وجوه الناس او يترفع عن ان يكون فضوله معلنا بلا حياء ولم نلبث أن دخلنا إلى بيت حافظ ، وقلنا ان ننضم الى النادي المفتوح الايوب والذي كان يقف فيه أحيانا صاحب الدار ، ليسمعنا خطبا يرتجلها ، فلا ندري ما إذا كانت خطبا أو ألحانا جميلة

ثم دعانا حافظ لأن نكون اعضاء في جمعية القلم ، فلبينا الدعوة دون أن يسكرنا هذا الاسم الجميل الرائع «جمعية القلم» وكلنا فرحنا

بالانضمام ونحن اقرب ما نكون من الطفولة العزيزة ان نتصرف تصرف الرجال وأن نكون اعضاء في جماعة تفكر ويخطب رئيسها ويحدثنا عن خطباء مصر ، سعد وحافظ رمضان ، ومى ، وعن اساتذة مصر امثال منصور فهمى وعن شباب الابناء المتطلعين الى الصدارة امثال الدكتور زكي مبارك والشيخ الصاوى.

لم ندرك آنذاك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو هذه المياة الهائجة المائجة التي ولدت ثورات، وجمعيات وأفكارا جديدة وخطيرة ، وشبابا سيحملون تاريخ مصر الحديث على أكتافهم ، وسيواجهون السجن ويقتربون من اعواد المشنقة وتطاردهم السلطات الاصلية والدخيلة ، كما ستلد مجلات وصحفا ، وكتبا وكان حافظ محمود بغير جدال ، هو اسبقنا الى الصدارة ففى الوقت الذى كنا نمسك فيه الاقلام ولا ندرى كيف نقبض عليها جيدا فاجأنا حافظ بسلسة من المقالات غير مسبوقة تدور كلها حول نفسيات وكانت كلمة «نفسية» كلمة مستحدثة، طارئة لم يستعملها من قبلنا أباؤنا واجدادنا

وقد اختار حافظ لمقالاته التفكير بحديثه نفسية القاضى ونفسية المتهم ونفسية الشاهد، وكان فى هذا الاختيار ملهما فقد كان القسم الثانى من قضية الاغتيالات السياسية قد بدأ عرضه على محكمة الجنايات برياسة قاض بريطانى استعمارى قح هو المستر كرشو، وكان المتهمان الرئيسيان في هذ القضية اثنين من ابناء البيوتات اولهما الدكتور احمد ماهر الذي عاد من اوربا بعد أن حصل على اجازة الدكتوراه ثم اختير وزيرا للمعارف «التربية والتعليم» وجلس الى جانبه زميله ورفيق كفاحه محمود فهمى النقراشى الذى اختير وكيلا لوزارة

الداخلية . وكانت خواطر المصريين كلهم مشغولة بهذين البطلين وبزملائهما في تلك القضية الخطيرة . ولذلك كان الحديث عن نفسية المتهم ونفسية القاضي ونفسية الشاهد، حديثاً في موعده . واتسع نطاق نشاط حافظ محمود . فأقام في حوش منزله مهرجانات الخطابة سمعناه فيها، وتعلمنا منه كيف تكون الخطابة التي تعلو فيها نبرات الخطيب وتتناغم فيها الالفاظ . حتى تصبح لونا من الطرب ثم ذهب حافظ الى قاعة سينما في شارع طلعت حرب «الشيخ السباع » سابقاً وكان كل هذا شيئا جديدا غاية في الجدة . فشبان تلك الايام تشغلهم الرياضة ولا سيما كرة القدم، او الجمعيات التمثيلية كجمعية انصار التمثيل التي ضمت محمد تيمور ومحمد صلاح الدين «الوزير» وزكي طليمات وسليمان نجيب ذهبت انا الى الريف وبقي حافظ واحمد في القاهرة . لتتسع شهرتهما ويترامى نطاق نشاطهما فقد اصبح احمد حسين نجم التمثيل المدرسي يناظر يوسف وهبي في المسارح الكبرى، ويشبهه صوتا وموهبة حضورا. اما حافظ فقد اخذ يكتب الفصول المتتابعة ويلفت نظر قرائه شيئا فشيئا، حتى اجتمع شملنا في بداية مرحلة التعليم الجامعي . فقد انضم الينا كمال الدين صلاح الذي رأس جمعية التمثيل في مدينة المنصورة وكان من معاونيه الشاعر صالح جودت واتصل بشعراء المنصورة على استحياء على محمود طه ، والدكتور ابراهيم ناجي وربما العشرى ايضا .

وفي اوائل سني الدراسة الجامعية . توثقت علاقتنا بالاستاذ امين الخولي . وباساتذة الجامعة وفي مقدمتهم المرحوم محمد حلمي بهجت بدوي «الوزير فيما بعد» والدكتور مصطفى القللي رئيس جامعة القاهرة» والدكتور على مصطفى مشرفة العالم المصرى العالمي .. واحد رواد الموسيقى الكلاسيكية في مصر بالتعاون مع محمد زكي على باشا

«الوزير وعضو مجلس الاذاعة» وكان كلاهما يتقن الغناء الاوبرالى - والناس لا تعرف ...

واخرجت جماعتنا جريدة الصرخة بعد ان حصل على رخصتها زميل لنا هو الاستاذ عبد الرحمن البيسوى «رحمه الله» وفى هذه الفترة خرج احمد حسين بمشروع القرش اكثر مشروعات الشباب نجاحا ، وأعظمها شهرة، ثم مشروع الطلبة الشرقيين الذى سافرنا من اجله فى البلاد العربية وتركيا ، وإدارة السلطة فى عهد عبد الفتاح يحيى باشا ثم اسس احمد حسين جمعية مصر الفتاة ، واخرجنا لها جريدة الصرخة لتكون لسانا لحالها. ورأس حافظ محمود تحريرها ، وراح يكتب المقال الرئيسي فيها. وزجت بنا السلطة الى سجن الاستئناف ، وكان لاعتقالنا صدى بعيد فقد نشرت الصحف صور ثلاثة شبان ، لا يؤيدهم حزب كبير ولا يسندهم زعيم خطير .. ولا تحمي ظهورهم سلطة ولا يملأ جيوبهم مال، ولذلك كان هذا الاعتقال حدثا، وكان فى الوقت نفسه بداية عهد جديد يتوالى فيه نشاط الشبان يوجهون السياسة ويتزعمون الحياة العامة فكانت جمعية مصر الفتاة يرأسها احمد حسين وجمعية المهدى المصرى يرأسها سلامة موسى. ويقوم بأمانتها حافظ محمود . وجمعية الاخوان المسلمين يرأسها حسن البنا وابتدأت الحياة فى مصر تأخذ صورة جديدة وتشق لنفسها نهجا جديدا .

وكان من أعلام هذه الحياة الجديدة حافظ محمود وأحمد حسين بلا جدال. وثبتت مكانة حافظ محمود كصحفى حتى اختير امينا عاما لأول نقابة للصحفيين واصبح حافظ محمود الخطيب. عنصرا ثابتا فى كل اجتماع كبير، والمتكلم الاول فى كل ندوة واصبح اسلوبه فى الكتابة . وموضوعاته التى يطرقها ضربا جديدا من ضروب الكتابة - الادبية والصحفية .

كيف فكر أحمد حسين
فى مشروع القرش *

أمسك أحمد حسين ورقة وقلما وكتب بسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعى بقرش صاغ واحد، وقبل الجراح المصرى الكبير على ابراهيم باشا رئيس الجامعة المصرية حينذاك رئاسة المشروع وانفتحت ابواب النجاح لمشروع القرش فى الجامعة وفى كل مكان

مشروع القرش، عمل استقل به الشباب فى العقد الثالث من القرن العشرين اى فى الثلاثينات كما يقولون هذه الايام وقد يبدو الحديث عنه غريباً باعتباره حدثا صغيرا لا يجوز أن يشغل به الكبار، وفى الواقع انه حدث كبير، وان له خلفية سياسية اجتماعية ترفع من قدره وتعلى من شأنه

وقد نبتت فكرة هذا المشروع الجليل فى رأس طالب بكلية الحقوق سنة ١٩٢٥ وكان انذاك طالبا بالسنة الثانية فى تلك الكلية . وكان يتوق من قبل ذلك الى السفر الى باريس، فقد هام بفن التمثيل حينا وبلغ فيه من التجويد والاتقان، على الرغم من انه كان هاويا وكان طالبا منتظما، لا ينجح فقط بل ينجح متفوقا على زملائه فجمع بعض المال القليل، وسافر الى باريس ليرى من فنون المسرح ما سمع عنه فى الصحف

---

* هلال – يناير ١٩٨٤.

والكتب، وما لا وجود له في مصر . وفعلا تردد على دور التمثيل الجادة والفكاهية، وحاول أن يقابل بعض كبار الفنانين، فضلا عن طوافه واسع النطاق الذي شمل المتاحف في باريس وضواحيها، والمعارض، وندوات السياسة كالبرلمان الفرنسي بمجلسيه النواب والشيوخ، وسجل مشاهداته وتأثراته وتعليقاته في مذكرات يومية بعث بها الى احد اصدقائه وقد كانت هذه كلها، صالحة لان تكون نواة لكتاب ككتاب رفاعة الطهطاوي الشهير «تخليص الابريز في تلخيص باريز» وفيما كان أحمد حسين يستريح في احدى حدائق الاطفال رأى تمثالا في جانب من تلك الحديقة، فقام يتأمله، ورأى أسفل القاعدة لوحة صغيرة كتب عليها اقيم هذا التمثال بملاليم الاطفال الذين يترددون على البستان، فاهتز أحمد لهذه العبارة اهتزاز السرور العميق، والالم العظيم، السرور لانه وجد ان أطفالا في مكان ما في الدنيا، حفزهم احد من الناس، ليتبرعوا بأقل العملات الفرنسية قيمة ليقيموا تمثالا صغيرا وانيقا يزينون به جانبا من الحديقة التي يترددون عليها ويلتمسون الراحة والمتعة في ارجائها ومن احواض زهورها

ولما كان «أحمد» مشغول القلب والنفس دائما ببلده، فقد قال على الفور، ولم لانقيم في بلادنا شيئا نافعا بقروش المواطنين والتصقت الفكرة برأسه، فلم يكد يعود من رحلته الى القاهرة حتى أمسك ورقة وقلما وكتب على عجل منه وبسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعي بقرش صاغ واحد.

ولما كان كاتب المقال هو طالب مجهول في كلية الحقوق، فقد نشر المقال في جانب من جريدة الاهرام، فلم يحرك احدا ولم ينشر تعليقا، وكاد أحمد يصاب بخيبة أمل تقعده عن المضي في مشروعه إلى أن

حدث أحد إخوانه بهذه الفكرة، قبل ان يكتب مقاله فشجعه صديقه هذا ورأى الفكرة جديرة بالتنفيذ فلما نشر المقال المتضمن شرحها والدعوة اليها راد صديقه من تأييده، واعتبر مجرد النشر فالا حسنا يجب ان يتبعه يعمل ما وكان في مصر في تلك الآونة زعيم كبير مهيب يتوقى الناس طلب مقابلته فقد كان جادا قليل الكلام يبدو متجهما، ذلك هو الاقتصادي الكبير محمد طلعت حرب باشا رئيس مجلس ادارة بنك مصر ومؤسسه، وصاحب الدعوة اليه، وكان الدافع أن محمد طلعت حرب، شقي كثيرا حينما نبتت في رأسه فكرة إنشاء بنك وطني للمصريين، وقد ألح في عرض هذه الفكرة وواظب على الترويج لها وتحسينها للمصريين فلما انعقد المؤتمر المصري في هليوبوليس سنة ١٩١٠، كان هذا الزعيم بمكانة وبالمعاناة التي تحملها في سبيل الدعوة إلى إنشاء مشروع اقتصادي، اجدر الناس بأن يستقبل الداعي الجديد والصغير ، ويطيل الاستماع إليه ، ثم يفسح صدره لاماليه وأحلامه ، ثم يمد يده، ولكن حدث النقيض لكل ذلك، فقد استقبل أحمد حسين، متجهما، وسأله عن الغاية من حضوره اليه، فلما شرح له الفكرة لم يلبث حتى قال بلا تفكير، يا ابني «مشروع ايه، روح انت وصاحبك وذاكروا ولما تخلصوا المدرسة وتلخدوا الشهادة تبقوا تعملوا اللي أنتم عاوزينه»

وقد كان هذا الكلام بالضبط، كلام رجل كبير. لأي شاب مبتدئ، ولا سيما اذا كان هذا الشاب المبتدئ طالبا في الكلية ، ولكن أحمد لم يتزحزح وان كان وجهه قد احمر خجلا وغضبا في الوقت نفسه ورد على الزعيم الكبير بالرد المقنع ولا أقول المفحم فقد قال: ولكن هذا مشروع

للشباب، وانا اوجه الدعوة فيه أول ما أوجهها إلى الطلبة الذين أحسب أنهم سيكونون حملة الدعوة، ومنفذى المشروع، فأليق وقت بى، هو بطبيعة الدعوة، هى فترة طلب العلم.

فقام الزعيم الكبير بدوره، لما وجد الشاب، ثابت القدم، قوى الحجة، واثقا من نفسه، بغير اجتراء، ولا يتجاوز الحدة فقال. وهل أنت مستذكر لدرس الاقتصاد حسنا مادمت مشغولا بحالة بلدك الاقتصادية فقال نعم، قال الزعيم ، الآن قولا لى من الذى ثبت الفرنك الفرنسى وما معنى تثبيت الفرنك ، وكان موضوع تثبيت الفرنك الفرنسى من موضوعات الساعة فى العالم كله وكانت برقيات الوكالات تنشر فى صحف مصر، وهى متضمنة أنباء أزمة الفرنك الفرنسى ومحاولات رئيس الوزراء فى إصلاحها، وكان أحمد وصديقه ممن يحسنون قراءة الجانب الجاد من أنباء الصحف وفى مقدمتها البرقيات الواردة من الخارج فأسرع أحمد وقال له فى لفظ واحد : بوانكاريه! وفتح طلعت حرب عينيه فى دهشة واعجاب وعطف وقال وما التثبيت ؟

وقبل أن يتم سؤاله شرح أحمد معنى تثبيت العملة، فى إيجاز ووضوح فطابت نفس الرجل وعاد يتأمل أحمد وصاحبه، وكأنه يقول لنفسه . أيرجى خير من هذين الشابين .. وبعد فترة قصيرة قام الى جانب من حجرته، وأخرج من درج من ادراج صوان فى هذا الجانب منديلين من حرير دمياطى، جميلين ونشرهما فى الهواء قليلا ليبين للشابين انهما هدية ثمينة وقال الرجل. حسنا، هذه هدية بمناسبة زيارتكما، وانى ادعو لكما بالتوفيق، وما زلت على رأيى.. انهيا واكملا الدراسة وسيكون لكما شأن، ولم يضف شيئا ووقف، فوقف الشابان

ومضيا واحمد غاضب يكاد يسب ويلعن لفرط غضبه وصاحبه سعيد بالنتيجة

ولقد أردت أن أسجل هذا الموقف هنا، لانه تصوير لموقف جيلين. جيل الشيوخ الذين ادوا الواجب ونهضوا بالرسالة، واحسوا أن كل شئ يمكن عمله قد عمل، وان الشباب عليهم أن ينتظروا ثم يتابعون الاباء والاجداد الى أن يتم نضجهم وتلوح لهم أفكار تستحق أن تبذر في تربة الوطن ومضى أحمد لتوه الى على ابراهيم باشا، جراح مصر الاول في تلك الايام ورئيس جامعة القاهرة، قبل أن تصبح جامعة فؤاد الاول، ولعلها لم تكن ايضا جامعة القاهرة لان تمييزها لم يكن له داع اذ لم يكن في مصر الا هذه الجامعة التي كان مقرها القاهرة وكان اسم على ابراهيم كجراح عظيم دائما وجاريا على الالسن، وحتى الذين لا تهمهم الجراحة في شئ ذلك لان الاقدام على اجراء عملية كان مخاطرة لا يقوم عليها الا من يئس من الحياة، ورأى أن يسلم نفسه لمبضع الجراح باعتباره الحل الاخير، والذي لا حل سواه وكان التفكير في اسناد رياسة لجنة مشروع القرش، الى هذا الجراح الموقر، واستاذ أساتذة الجامعة بغير منازع توفيقا عظيما فان جميع الابواب التي كانت مغلقة في وجه المشروع فتحت. فقد نشر على ابراهيم بيانا بتوقيعه اعده له الشباب، يدعون الى مشروع القرش، فلما طبع قبلت شركة ترام القاهرة أن تلصقه في عربات الترام وقاطراته فأصبح كل راكب في وسيلة الانتقال الوحيدة في القاهرة، يجد امامه عند الصعود وعند الهبوط اعلانا ممهورا عليه من رئيس الجامعة العظيم يدعو الى مشروع دعا اليه الشباب ويعدون بأن ينفذوه فكان ذلك تحولا ذا ثلاثة معان.

من الاول ظهور اول اعلان يلصق فى عربات الترام ولا يحمل تنبيهات إدارية للركاب وكانت عربات الترام فى تلك الايام وقورة، فلا اعلانات فيها الا «ممنوع البصق» «ممنوع الركوب من الشمال» «احترس من النشالين» وقد ألف الركاب هذه الاعلانات الثلاثة حتى لم يعودوا يحسون بها أو يقرأونها.

فإن يوجد الى جانب هذه الاعلانات المألوفة، إعلان عن شأن اجتماعى، وموقع عليه من استاذ كبير فتلك كانت ثورة، وان بدت صغيرة الا انها خطوة نحو ذلك وامتلأت بنشاط الشباب .

والمعنى الثانى هو مدى تجمد الحياة العامة قبل مشروع القرش، فكل شئ يتوقف على كلمة من كبير، فاذا جاءت الكلمة بطل البحث، وتوقفت المناقشة وأصبحت هذه الكلمة هى ضمان النجاح وسلامة العمل.

المعنى الثالث، ان الشباب نجح فى أن يحرك الشيوخ الذين جللت هاماتهم الايام بالشعر الابيض، والدال على طول التجربة..

فقد استجاب على ابراهيم لدعوة شاب، فاذا بطلعت حرب يغير من موقفه، ويقبل ما كان يرفضه.

أصدر طلعت حرب أوامره الى مطبعة مصر التابعة لبنك مصر كإحدى شركاته ان تطبع كل شئ يلزم لمشروع القرش بلا مقابل . وسهرت مطبعة مصر ليالى عديدة لتطبع ملايين من الطوابع التى تقرر جمع القروش مقابل بيعها للجمهور واستمارات التطوع، وايصالات النقود وبيانات لجنة مشروع القرش . فكان ذلك سهما فى نجاح المشروع يشكر لطلعت حرب ويذكر، وهو سهم يتناسب مع المعروف من خلقه ومن نظراته الى العمل الوطنى العام.

وجدنا تحولا اخر، فقد أصبح واجبا، بعد ان تولى على ابراهيم باشا رئاسة لجنة المشروع، ان تكون معه لجنة من أساتذة الجامعة تقوم دونه بالعمل، وتتوجه به وجهة صحيحة، فانضم الى هذه اللجنة من أرى وجوب ذكر اسمائهم تحية لهم وتخليدا لتذكراهم وهم.

دكتور على مصطفى مشرفة باشا وكان استاذا بكلية العلوم إن لم يكن عميدها، وزكى عبد المتعال باشا وكان استاذا للاقتصاد بكلية الحقوق، وأمين الخولى وكان استاذا بكلية الاداب، ومحمد عبدالله العربى، وكان استاذا بكلية الحقوق لعلم الادارة . وانضم الى اللجنة اثنان من كبار الموظفين احدهما مختار باشا وكان مديرا لإدارة الشركات بوزارة المالية، ثم اصبح رئيسا لمجلس إدارة شركة المحلة الكبرى، ومصطفى الصادق باشا الذى كان مديرا لمصلحة الصناعة بوزارة الصناعة والتجارة وكان كلا الرجلين استاذا بكلية الحقوق .

وقد اصبحت مصلحة الصناعة، نواة لوزارة الصناعة، ثم عبدالله فكرى اباظة بك احد مديرى شركة من شركات بنك مصر . هؤلاء الاساتذة لم يجدوا غضاضة فى أن يزاملهم فى هذه اللجنة، كسكرتير لها «أحمد حسين الطالب الذى يتلقى العلم على بعضهم» وكان هو محرك هذه اللجنة وباعث الحياة فيها، وكانوا يحسون انه فوق الند لهم، بما يقترحه من الافكار الجديدة ووسائل العمل المستحدثة.

ولهذه القصة ختام يستحق ان ينوه به، وان يتأمل القرار فيه فمشروع القرش مضى ناجحا وموفقا، اذ خرجت جموع الطلبة تحمل شارة المشروع فوق صدورها، ومعها دفاتر فى كل دفتر مائة طابع يوزعها على الناس والناس تدفع راضية سعيدة لا قرشا ولا قرشين بل

عشرات القروش، واحيانا الجنيهات وتسابقت فتيات المدارس على توزيع الطوابع فكن اسبق من الشباب وابرع ولعل حداثة الفكرة فكرة ان الطالبة تخرج لتعين الشاب وتوزع على الناس طوابع من أجل الصناعة قد لقيت ارتياحا من الرجال، فاقبلوا على التبرع واجتمع للمشروع في عامه الأول ١٧ ألف جنيه كانت بحساب تلك الايام مبلغا غير قليل، وفي العام الثاني، تعثر المشروع بسبب حملة حزبية عليه، اذ خيف من بعض زعماء الاحزاب ان يكون الغرض من هذا المشروع صرف الشباب عن العمل السياسي فهبط المبلغ المجموع الى ١٣ ألف جنية، ولكن اجتمع من المبلغين ٣٠ الفا من الجنيهات.

وكانت الفكرة قد تبلورت خلال تنفيذ المشروع حول مصنع للطرابيش، يقام في مصر، وبهذا المال المجموع، باعتبار أن الطربوش كان شعار المصريين في تلك الايام حتى كاد يكون رمزا على المصريين وكان مع ذلك يصنع في النمسا، فكان ذلك مما يحز في نفوس المصريين الا أن الشركة النمساوية التي كانت تصنع الطرابيش للمصريين وعمامتهم، ضايقها أن يستقل المصريون بانتاج شعار رؤسهم فجاء السفير الالماني ليضغط لحساب النمسا، واستجابت الحكومة لأول وهلة لهذا الضغط السياسي، فأوعزت لثلاثة من أعضاء اللجنة، ان يتقدموا اليها باقتراح اقامة مشروع للجبن والالبان، بحجة ان مصر الزراعية تشتري بالوف من الجنيهات جبنا مع انها اولى بأن تصنعه في مصر ومن البانها وأن تجدد صناعة الجبن بعد أن أصبحت عالة على بلاد أخرى كالدانمرك وهولندا وفرنسا وربما المانيا . وأن مشروع القرش لن يكون مصريا بحتا لان اصواف الطرابيش ستستورد من الخارج.

ورفض أحمد حسين أن يغير طبيعة المصنع، فقد وعد المصريين بأنه سيقيم مصنعا للطرابيش، ويجب أن يفي بالوعد، وأن الخسارة الادبية ستكون كبيرة اذا عدل الشباب في أول مشروعاتهم عن وعد قطعوا لانفسهم ولاي سبب لضغط من حكومة أجنبية.

وإن انسى لا أنسى أحمد حسين واقفا في حلقة من أساتذة وشيوخ مصر يجادلهم في هذا الشأن، ويضرب الحجة بالحجة، في صوت مسموع، يفيض بالحماسة والإصرار، ولكن حججه ذهبت هباء، فالأعضاء الذين تأثروا بضغط الحكومة ولم يغيروا موقفهم، فاضطر أحمد أن يذهب الى رئيس الوزراء وكان وقتذاك اسماعيل صدقي باشا، وكان شديد الاهتمام بالصناعة المصرية، فاستغاث به وقال له: انه لا ينقذ المشروع من الخضوع لضغط اجنبي الا انت وتحركت نعرة الوطنية في نفس الرجل فأمر بأن يستمر تنفيذ مشروع مصنع الطرابيش في شارع بالعباسية كان اسمه فالا حسنا اذ كان يحمل اسم «برج الظفر» وعند وضع الحجر الاساسي لهذا المصنع نظم امير الشعراء قصيدة جميلة مطلعها.

نـــزع الشـــبل من الغـــاب الوتد

وتخطـــى منكـــبـــاه باللبــــد

ولما تم انشاء المصنع ودارت عجلاته، واحتفل بافتتاحه وضع شوقي قصيدة كانت اخر قصائده، قد حملها كاتب هذه السطور، فكانت أخر ما نظم لبلاده.

بقي أن نسأل السيد وزير التعليم متى يفكر في بعث هذا المشروع ليخدم الشباب والوطن والصناعة، وليكون وسيلة من وسائل التربية الوطنية ودعوة الى تأييد صناعة البلاد .. متى؟

شخصيات لا شبيه لها *

كنت أسمي هذه الشخصيات التي أنا بسبيل الحديث عنها «غريبة» ثم رأيت العدول عن هذا الوصف ، فالغرابة قد توحي بأنها شخصيات شاذة ، والشذوذ كما يكون إلى الخير ، يمكن أن يكون إلى النقص والشر

والأغلب والأعم من العباقرة والأفذاذ ، شواذ ، لا يتقيدون بعرف ، ولا يسيرون على مقتضى تقليد ، حتى يبلغ بعضهم في غرابة الأطوار ، حد الجنون ، حتى كاد البعض يحسبون أن العبقرية بعامة هي ضرب من الجنون ، وأصل هذا اللفظ في العربية ، يؤيد هذا التصور فالعبقرية نسبة إلى واد تصور العرب القدماء أنه واد يسكنه الجن ، والإنس إذا مسهم طائف من الجن ، قد يتفجر من أعماقهم قدرات ، يتجاوزون بها ، قدرات البشر الأقوياء الأصحاء ، فيكون منهم أفذاذ الشعراء والمصورين والمثالين والخطباء والكتاب وقد يعين على توقع الغرابة ، ومخالفة المألوف والخروج على تقاليد الناس ، إن أكثر عباقرة المفكرين والمبدعين يخرجون على الناس بما يشبههم فيرفضونه لأول وهلة ويردونه إلى اختلال الفكر ، واضطراب النفس ، وقد كان الأنبياء أكثر الناس تعرضاً لتهمة الجنون ، وفي الذكر الحكيم مواضع عديدة ، ذكر فيها الرسول

---

* هلال – أغسطس ١٩٨٥ .

مقرونا بتلك الآفة فقد جاء في القرآن «يا أيها الذي نزل عليك الذكر إنك لمجنون» وقد نزه الله تعالى رسوله من هذا العبث الجسيم فقال «ما أنت بنعمة ربك بمجنون»

ولو لم يخلق الله من عباده أناسا لهم قدرات خارقة ، وطاقات نادرة، وطموح يفوق طموح عامة الناس ، لبقيت حياتنا على ما كانت عليه ونحن خارجون لتونا من الكهوف ، وربما لبقينا في الكهوف ، والحق أن ما من شيء جديد في حياتنا ، إلا قبلناه بفتور على الأقل .. ولكننا في الاغلب الأعم ، نلقى كل جديد بالرفض العنيف ، والانكار الغاضب ، سواء كان هذا الجديد ، يتعلق بالعقائد والافكار ، أو اساليب الحكم والسياسة ، أو انظمة الادارة والقانون فكل دعاة هذا الجديد والمروجين له يصيبهم نصيب من الكراهية والاعتراض على الجديد الذي يعرضونه فيتهمون غالبا بالغرابة والتطرف ، أو بالشذوذ أو الجنون ، وحينما تقوم الألفة بين الجديد والمجتمع ، تتغير المشاعر نحو المجددين ، فيرضى عنهم المجتمع ، شيئا فشيئاً ، حتى ينقلب الرضا إلى اعجاب ، ثم ينقلب الإعجاب إلى حب ، ثم ينقلب الحب إلى تقديس وقد يصبح خصوم الامس انصار اليوم

والشخصية التي أريد أن أحدثك عنها ، لم تصدم المجتمع بشيء ، يثير سخطه أو احتجاجه ، بل على النقيض كانت تحسن الصلات بالمجتمع ولكن مع ذلك ، كان الكثير من أعضاء المجتمع ، ينظرون إليها باعتبارها ، خروجا على المألوف .

كان السفير طاهر العمري ، احد رجال السلك السياسي المصري أفاء الله عليه الثراء والعلم ، والمكانة الرفيعة . فقد وهبه الله حسا فنيا

جعله متذوقا للموسيقى الكلاسيكية ، وقادرا على شرح اعظم اثارها ، شرح الخبير المتمكن وارجح أنه كان يستطيع العزف على اكثر من آلة من آلات الموسيقى . ولكن يغلب على الظن بأن تذوقه واحساسه بدقائق الاثار الموسيقية الكبرى وقدرته على ابراز هذه الدقائق لغيره من محبى الموسيقى فاق مواهبه كعازف ولذلك اصبح استاذ مدرسة تسمع السيمفونيات الخالدة فى بيته، ثم يبدأ هو بشرح هذه السيمفونيات، فإذا برواد صالونه يسمعون طرازا من الفن ، لا يقل جمالا ولا روعة عن تلك السيمفونيات التى يحفظ حركاتها عن ظهر قلب ، ويعرف الفوارق بين الواحدة والأخرى والمؤلف ، بل يعرف كيف تطور المؤلفون الموسيقيون من مرحلة إلى مرحلة ، وقد استقرت ندوات طاهر العمرى وعرفت ، واصبح للانضمام اليها ، والتتلمذ فيها ، أصول وقواعد وأصبح منشىء هذه الندوة ومعلمها ، رائدا لهذا الطراز من الاتصال بالفن وتلقيه والتأثر به . إلى هنا لا يكون طاهر العمرى شخصا غريبا، فقد كثر الذين يشرحون الاعمال الموسيقية الكبرى ، ويترجمونها إلى مئات أو الاف المتذوقين الذين يريدون أن ينفذوا إلى اعماق هذه الاثار ، ويستزيدون من مكنوناتها وخفاياها . ولكن الجانب الأول من تميز طاهر العمرى ، عرفته ذات يوم ، حينما أعطانى صورة لى ، فراعنى شدة انطباقها على الاصل ، ولكن أدهشنى حينما قال لى إنه تخصص فى ضرب من رسم الاشخاص أو التصوير ، لا يستعمل فيه سوى المسطرة والبرجل ، أى لا يلجأ فيه إلا إلى الخطوط المستقيمة والدوائر فقط ، ثم ترى نفسك بعد ذلك إلى صور وجوه غاية فى الدقة .

وقد أرانى طاهر العمرى عشرات من الصور لعظماء الرجال والنساء مصريين وعرب وأوربيين ، وأرانى التخطيطات الأولية لهذه

المصور ، فعرفت أن الضرب الذي يعالجه طاهر العمري لا يشاركه فيه غير رسام سواه ، وعندئذ تجتمع في مصري ، هاتان الموهبتان العظيمتان التصوير بأسلوب نادر والموسيقى عزفا وتذوقا وشرحا ، وهذا يكفي لتميز هذا الانسان ، ووضعه في طائفة الافذاذ .

ولكن لا تزال أشياء في جبة الفراشب التي ينفرد بها طاهر العمري ، فقد دعيت إلى معرض لاعمال طاهر العمري في التصوير ولما ذهبت لم افاجأ بصوره لوجوه الاشخاص المرسومة بالمسطرة والبرجل وحدهما أي بالخطوط المستقيمة والدوائر ، فقد كنت قد عرفت سرها ، ولكني فوجئت بأن طاهر العمري ، يعرض لنا لوحات صغيرة من نوع «المنيافير» أي الصور الصغيرة الدقيقة بألوان جميلة تستوقف نظرك وتحملك على التساؤل ، أنا لم أر الوانا يمثل هذا التألق والبريق والجدة وأعلن لنا طاهر العمري المواد التي استعملها في ابداع صوره وانني أدعوك لتفكر من أي شيء يصنع صوره ، هل صنعها من طباشير الباستيل ، أي من أنابيب المعاجين المعدة للرسامين والمصورين ، أو من الالوان المائية ، أو بالقلم الرصاص مضافا إليه اشياء أخرى والواقع أنه لم يستعمل لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ولا اتصور أنه سيكون في مقدور أي قارىء أن يهتدى إلى المادة التي استعملها طاهر العمري في صوره الجميلة الرائعة التي استوقفت رواد المعرض وجعلتهم يطيلون الوقوف امامها ، ويطيلون الوقوف امامها ، ويطلبون التأمل فيها ، ولا يحبون أن يتركوها

إن المادة التي استعملها طاهر العمري هي أعشاب البحار . نعم اعشاب البحار . ولكن هذه الأعشاب حينما تقع في يد الفنان طاهر

العمري ، فإنها تستحيل اداة للتعبير ، ناطقة وحساسة وتستطيع أن تمتع عين وحس المشاهد المتأمل ، بعالم متوهج من الالوان والاشكال ، وقد عبر بتلك الاعشاب عن تأثيرات بإحدى السيمفونيات فكانت الصورة الصغيرة سيمفونية بذاتها . والمتأملون فيها تجانبهم اكثر من احساس، فقد كانوا مفتونين بجمال ودقة وبراعة الصورة ، وكانوا مأخوذين بغرابة المادة المستعملة ، وكانوا سعداء ومستمتعين بهذه الالوان الجديدة التي نقلتهم إلى عالم لم تطأه من قبل اقدامهم . إلى هنا، وتبدو غرائب طاهر العمري مقصورة على شخصية ولكنه يتمتع بغرائب تتجاوز إلى صديق له في مثل تفرده ذلك هو الاستاذ رمسيس شافعي .

ورمسيس شافعي ، هو زميل لطاهر العمري في السلك السياسي وقد اشتغل اخيرا في احدى الوظائف بهذا السلك في باريس ، وهو صديق حميم لطاهر العمري .. فماذا فعل واظب على أن يرسل كل يوم من باريس لصديقه في القاهرة خطابا مكتوبا باللغة الفرنسية بخط جميل يكاد يكون لوحة جميلة . خطوط مستقيمة انيقة ، تنقل إلى أحد الصديقين خواطر ومشاعر واحساسات الاخر، احدهما في عاصمة عتيقة في المشرق ، والثاني في عاصمة في الغرب ، والخطابات لا تنقطع يوما واحدا كل يوم يكتب الصديق في باريس خطابا وفي كل يوم يتسلم الصديق في القاهرة خطابا ، وتتوالى الخطابات وتكثر ، وتكون مجموعة، يمكن لو جمعت لكونت كتابا في أدب الرسائل ، يمتع القراء ، ويعلمهم ، ويكشف لهم عوالم لم تخطر لهم على بال ، فهي الخواطر التي تصدر عن الكاتب الذي يعرف أن القراء ستطالعها وتعلق عليها وقد تنقد

بعضها أو تفقدها كلها والصديقان يواصلان هذا التراسل النادر الغريب ، دون أن تشغلهما الدنيا التي يعيشان فيها ، ويواصلان هذا الطراز من التواصل الانساني غير المسبوق والرجلان في الشيخوخة التي تنضب فيها العواطف ، ويقل النشاط ، وينصرف الانسان عن الدنيا وبما فيها مللا من تعاقب الايام وتشابه الاحداث ، وخلو الحياة .. اخر الامر من المعنى والهدف واعجب ما وصل إلى علمي عن طريق الاستاذ يحيى حقي كاتبنا العظيم أن زوجة طاهر العمري جاءته تتساءل ماذا افعل بهذه الرسائل وقد قلت له وهو يتهيأ للسفر إلى باريس أعطها لي اهيىء لها مكانا في أحد معارض وزارة الثقافة

الباب الثالث :

ثورة ٢٣ / ٧ / ١٩٥٢

المصرى الجديد

فى العهد الجديد ★

المصرى الجديد ، فى العهد الجديد ، هو المصرى القديم . فالمصرى لم يتغير ، والفساد الذى كانت أمواجه تتدافع حول ذلك المصرى ، لم تصل إلى جوهره ، ولم تعد على فضائله ، ولم تغير نظرته فى الحياة ، ولا نظرته إلى الحياة .

كان كل شىء يتغير حول «المصرى» فى الماضى القريب ، كما تغير من حوله فى الماضى البعيد مرارا ، فكان ينظر إلى ذلك كله ، هازئا به ، ساخرا منه ، متمسكا بتقاليده هو ، وبتقديره للخير والشر ، والنفع والضر ، والباقى من الامور ، والزائل منها . وكان الناس يحسبونه كما مهملا ، أو قدرًا ضائعا ، أو صفرا على الشمال . فلم يكن يهتز لهذا الحكم الظالم ، بل كان يبدو عليه ، أنه يقبله ويرتضيه ، ولا يعارضه ولا يطعن فيه . حتى إذا تهيأت الظروف لينتفض ويثور ويتمرد ، يضرب ضربة واحدة هائلة ، تطيح بكل الحثالة الذين ظنوا أنه مات . وللأبد

★ هلال – يناير ١٩٥٣ .

فتركيا التي حكمت مصر ، ثلاثة قرون ، لم تستطع أن تغير حرفا واحدا من لغة هذا المصري ، حقيقة أخذت منه اقواته ، ووقفت في وجه تعليمه، وركبته بصنوف الهوان والاذلال ، ولكنها لم تغز قلبه ، ولم تغز ثقافته ، أي عقله .. فلما كانت سنة ١٨٠٥ ، كان السلطان التركي مستسلماً لوهمه القديم ، فاعتقد أنه يستطيع أن يفرض على المصريين من يشاء ، فإذا به يرى حدثا غريبا .. رأى جموعا تتدفق ، إلى المحكمة الشرعية ، ورأى في هذه الجموع تكتلا ، وتنظيما ، واتحاداً في الرأى ، وتصميما على العمل ، واستهدافا الخطر .. من الذى نظم هذه الجموع؟ ومن الذى لقنها هذا الهتاف الجديد «ليسقط العثمانلى» ؟ وكيف التقت فجأة ، وافرادها بالأمس كانوا مبعثرين موزعين ، لا قائد لهم ولا موجه ولكنها مصر ، ولكنه المصرى العجيب !

وأعجب من هذا كله أن هذه الجموع حينما اجتمعت وتلاقت ، وضعت في الحال مطالب دستورية ، هي أعلى ما تطمح إليه الأمم العريقة في كفاحها الدستورى .

وقد سبق قبل هذا الموقف الرائع ، موقف يشبهه في عهد المماليك ، فقد أبى الشعب أن يترك الحاكم على هواه وألزمه بشروط ، يعتبرها المؤرخون أنها وثيقة حقوق الانسان الأولى ، التي سبقت في التاريخ اعلان حقوق الانسان في فرنسا ، عقب ثورة ١٧٩٨ .

فالمصرى القديم ليس به بأس ، انما البأس والعيب ، عيب الحاكم القديم هو الذى أرهب المصريين ، وهو الذى افقدهم الثقة في العمل ، وهو الذى قتل فيهم القدرة على الابتكار والخلق ، والتجديد والمجازفة . فإذا استنشقوا نسيم الحرية الطليق ، انتجوا ، وأمنوا بالنظام ، وعادوا إلى العمل

ولن يحتاج الهداة والمرشدون إلى كثير من الجهد ، إذا هم طلبوا من المصرى الجديد ، أن يعرف قدر الثقافة . فهو يحبها ، لكنها كانت عزيزة المنال ، لأن ثمن الثقافة كان يعوزه

ولو دعوه إلى العدول عن النظام القديم فى الانتاج الزراعى ، وهيئت له أسباب استغلال ارضه استغلالا حديثا ، مستعينا بالآلات التى جادت بها الحضارة ، اقبل على هذا التوجيه اقبالا شديدا ، وفهمه فى الحال ، ونفذه لتوه وقد لاحظ الكثيرون أن الجندى المصرى عرف بقائق المدافع المضادة للطائرات ، وأحسن استعمالها فى وقت قصير ، مع أن ثقافته النظرية كانت فى اكثر الاحيان دون البدائية ، ولكن عند هذا الجندى رواسب حضارة عظيمة ، انحدرت اليه عن اجداده ، ولا تزال جذوتها تومض بالشرر ...

ولو دعى المصرى إلى التضحية ، وإلى الخدمة العسكرية ، وإلى الخدمات الكثيرة المتعددة التى تقوم على التطوع ، سارع إلى تلبية النداء ، فى غير تردد ، ولا ابطاء . فما كان يثنيه عن هذا التطوع ، إلا ما كان يراه من تهافت القادة والاغنياء ، على جمع الاسلاب ، وحشد المنافع لهم ولذويهم .

وبالجملة ، إن المصرى الجديد ، سيكون صورة جميلة ، للمصرى القديم .. صورة رفع عنها غبار مفاسد العهد الذى انقضى .. صورة وضحت معالمها ، ووضعت فى اطارها اللائق بها ، وفى المكان الخاص بها الذى نحيت عنه ، ظلما وعدوانا .

هل أدت الثورة رسالتها ؟ *

استطيع أن أقول إن الثورة لم تؤد رسالتها المنشودة ، ولم تحقق اهدافها ، لأنها اكبر مما يتصور الناس ، بل أكبر مما يتصور بعض المتصلين بها . ولو حققت هذه الثورة اهدافها في بضعة أشهر ، أو في عام ، لكانت ثورة تافهة سطحية ، لا قيمة لها . فالثورات ليست انقلابا ماديا ، يغير مظاهر الناس ، أو شكل المدن ، إنما هي تطور باطني ، يتم على دفعات ، في بطء ، ثم يصاب بما يدفعه إلى الأمام ، أو بما يدفعه إلى الخلف ، ليعاود بعد ذلك سيره المرسوم له . ولو راجعنا تاريخ الثورات ، لرأينا اكبر احداثها وأعظم وقائعها في السنوات المتوسطة منها ، ولعل مرد ذلك أن الثورات كالآدميين ، تبلغ سن النضوج ، في المرحلة الوسطى من العمر ..

وقد يظن البعض أنه يمكن القول إن الثورة حققت أهدافها ، إذا الالقاب ألغيت ، أو إذا الملكية حددت ، أو إذا الأرض المنزوعة من ملك الاغنياء الكبار ، وزعت على المعدمين الصغار .. ولا شك أنها تكون قد حققت الجانب المادي من الثورة . ولكن هذا الجانب ، لا يحقق رسالة الثورة ذاتها . لأن الالقاب قد تلغى رسميا ، وتبقى مع ذلك متداولة في السوق السوداء . وقد تختفي من السوقين السوداء والبيضاء ، وتبقى

---

* هلال - يوليه ١٩٥٣ .

مع ذلك الفوارق الزائفة الصورية التي كانت الالقاب تخلقها ، فلا يحس الصغار انهم كبروا ، ولا يحس الكبار أنهم قد تساووا بغيرهم ، ويبقى المجتمع بروحه القديمة ومعاييره الفاسدة . ولأن الملكية قد تحدد ، وقد يعطى بعض الفقراء القدر الذي نزعت ملكيته من الاغنياء ، وتبقى الفوارق الاقتصادية بين الطبقات فسيحة شاسعة ، فلابد إذن أن تسود روح الثورة ، وروح الثورة لا تسود في مجتمع من المجتمعات ، إلا إذا اصطدمت بالعقبات القائمة في طريقها ، وهي عقبات انفق الماضي في صنعها وبنائها وتقويتها وتدعيمها السنين ، والجهد الطويل ، والتجربة المستفادة من تعاون الأجيال ..

فإذا تصور أحد أني أمدح الثورة ، إذا قلت إنها حققت أهدافها ، في عام ، فقد أخطأ خطأ بعيدا .

إنما الثورة بذرت بذورا لا يمكن أن تنتج اشجارا عالية ، إلا بعد زمن طويل . وقد بدا اثرها في افكار الناس وعقولهم ، وفي تقديراتهم للأمور ، ووزنهم للأشخاص . وهذه هي الثورة الحقيقية .

لقد كان محرما على الشعب أن يذكر اسماء بذاتها . فإن ذكرها تلفت يمينا ويسارا ، وإن جهر بها انتصر به الحاكمون ، واذاقوه العذاب. من هذه الاسماء الجمهورية مثلا . وكان المصري يرى الجمهورية في كل مكان من العالم حتى في البلاد العربية ، ومع ذلك لا يستطيع أن يفكر فيها ، أو يدعو إليها ، وقد لا تكون الجمهورية نظاما صالحا ، أو نظاما مثاليا ، ولكن التحريم التحكمي المفروض على الشعب ، يورثه من العاهات النفسية والعقلية ، ما يسبب تأخره ، ويفسد عليه مواهبه .

والآن رفعت هذه الحواجز ، واستطاع المصرى أن يمد ذراعيه إلى أقصى الحد ، وأن يبسط رجليه ، إلى أبعد مدى ، وأن يرى كل ما تمتد إليه عيناه ، وأن يسمع كل ما تصادفه أذناه .

وليس ثمة شيء انجع في علاج الأمم ، وتحريك عناصر قوتها ، من الحرية . إن الحرية لا توحى إلى الشاعر والفنان وحدهما ، بأجمل ما يكتبان أو ينتجان ، بل إنها توحى للعامل والصانع والزارع ، بل الخادم والاجير ، من الثقة بالنفس ، والفرح بالحياة ، ما يخلق هؤلاء جميعا خلقا جديدا ، فيصنع منهم رجالا أشداء رافعى الرأس ، بعد أن كانوا ادوات صماء بكماء ، تحس أنها تحيا باسم غيرها وتعيش لحساب سواها .

والثورة جعلت الحرية شيئا مقدسا حينما ازاحت عن العرش فاروق، لأنها لم تزحه باسم الجمهورية مثلا ، ولا باسم الوطنية انما ازاحته باسم الدستور ، أى أزاحته لأنه كان يعتدى على الدستور ، ولأنه كان يقتل الاحرار ، ولأنه كان يكمم الافواه ، ولأنه كان يكبل العقول .

ولا يطعن فى معنى الرسالة التى اخذتها الثورة على عاتقها ، أن الاحكام العرفية بقيت بعد نجاح الثورة فى ٢٦ يولية ، فإن هذه الاحكام البغيضة هى جزء من كل ثورة فى بدايتها . ولقد كانت الاحكام العرفية، هى طابع الثورة الفرنسية ، وطابع الثورة الروسية ، حتى ولو لم تعلن بمرسوم أو لم يسن لها قانون . فإن الانفعال والتدافع ، والتربص ، والتطور السريع ، كل هذا يجعل للحكومة في المرحلة الأولى من الثورة ، مهمة أخرى غير مهمتها العادية فى الظروف العادية .

ولكن ليس هذا سوى عرض يزول . فإن الثوار فى فرنسا بعد عام ١٧٨٩ كانوا يقتلون بعضهم بعضا ، وكان ميدان (كروش) ساحة يتسلى فيها الشعب الفرنسى برؤية الرقاب وهى تطير عن الاكتاف ، وابر النساء لا تكف عن الشغل بخيوط الحرير أو الصوف . ولكن هذا الدور انتهى، وأمن الفرنسيون على أرواحهم وأعراضهم ، وزال روبسبيير ودانتون ومارا . وبقى الشعار المثلث رمز الحرية والاخاء والمساواة ، ثم زالت الجمهورية ، وعادت الملكية ، ثم أصبحت امبراطورية ، ثم عادت جمهورية ، فامبراطورية . ولكن الثورة واصلت سيرها ، وواصل سلاحها شق الأرض الفرنسية ، وتقليبها حتى أصبحت مبادىء الثورة جزءا من بديهيات الحياة الانسانية .

وستفعل ذلك الثورة المصرية .. لقد اقتلعت النظام القديم ، أى اخرجت جذوره من الأرض . إنه قد يبقى على سطح الأرض زمنا آخر ، ولكن صفحته انتهت ، إلى غير رجعة .

فالاسس التى كان يقوم عليها الحكم ، والتى كان يختار عليها الرجال زالت وهذا هو التغيير الاساسى الذى سيحدد مستقبل مصر ، والذى يمكن معه أن نقول إن الثورة حققت أهدافها .

والفلاح ، سواء أخذ من الاراضى التى نزعت من ملك الاغنياء أم اخطأه الحظ ، فقد أصبح مخلوقا آخر . هو لم يكتشف بعد هذا المخلوق الجديد . ولكن تحديد الملكية فى ذاته ، له من النتائج النفسية والروحية ما لا يتسع له كتاب .

ولقد استتبع هذا كله ، الرغبة فى مراجعة التاريخ الحديث لمصر .

وهذه الرغبة فى ذاتها ، مظهر من مظاهر الثقافة الروحية المصريين فقد كتب لهم تاريخهم بأقلام أرادت أن تنزع من هذه الامة ثقتها بنفسها وأن تقطع صلتها بماضيها ، وأن تفسد علاقتها بجيرانها . وليس أخطر على الأمم من سوء فهمها لتاريخها ، لأنه المكان الطبيعي لفلسفتها فى الحياة . ولقد ابرزت الثورة ابطال الشعب الذين دافعوا عنه ، ووقفوا فى وجه الطغيان الداخلى وفى وجه الاحتلال الاجنبى ولابد أن هذه الأسماء ستبعث غيرها حتى تكمل التاريخ المصرى صورة كاملة فى ذهن الشعب . فالثورة إذن ماضية ، ولا يمكن أن تهزم ، ولكنها ككل ثورة ، لا يمكن أن تحقق الاهداف القريبة والبعيدة ، والمادية والروحية فى سنة ، إلا إذا كانت كحركة التنقلات التى يجريها الوزير الجديد فى وزارته .

وثورتنـــا فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ أعظم من هذا قدرا وأبعد منه اثرا .

هزيمة ٥ يونيو وملحقاتها ★

لقد سررت أيما سرور بالرد أو التعليق على مقال الأستاذ الفاضل الدكتور فؤاد زكريا حول التفاسير المختلفة لهزيمة ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ ذلك لأني لبثت أحقابا استمع الكلام حول هذه الهزيمة ، وكان لكل كلام أسلوب ومنهج وكان لكل كلام غايته وهدفه ، وكان لكل كلام حافز ودافع والحق أنني أول الأمر ساءني هذا الكم الهائل من التعليق والتفسير ، على واقعة - في رأيي - واضحة الحدود بينة المعالم - وإن جاءت ثمرة أكوام من الأحداث القريبة غاية القرب ، والبعيدة أقصى البعد ، فقد بدا أن هذا الفيض المتدفق من الكلام حول هزيمة ٥ من يونيو ، ليست الغاية منه الرغبة في تقصي الحقائق المتصلة بهذا الحدث الضخم ، والغوص إلى أعماق عناصره ، والتوق إلى كشف كل أسراره ، بفرط من الحب لمصر ، ولشدة الألم للهزيمة ، وإنما الباعث الحقيقي لكل ما قيل وكتب ، هو تجاوز الهزيمة وأسبابها ونتائجها إلى شيء آخر يقض مضجع أكثر المشاركين فيما يبدو أنه بحث ودراسة وتعليق وتفسير ، تلك هي ثورة سنة ١٩٥٢ ، فهي عند الكثيرين غول كاسر ، ذو أنياب وأظلاف ، وأنه التهم الكثير مما كانوا يعتزون به ، ويحرصون عليه ، وأنه سيأكل أشياء أخرى عزيزة وغالية ، مالم يحيطوا به ، ويضيقوا عليه ، ويتهمونه بكل المثالب ، وينسبون إليه كل المصائب

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٦ .

فالأحزاب القديمة التي كانت تنظر إلى المستقبل القريب نظرة الطمأنينة والتفاؤل ، على اختلاف اسمائها ، هي في الواقع بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو حزب واحد ، وهي كذلك بالنسبة للاحتلال البريطاني ، وهي نفس الشيء لتاريخ مصر السياسي وإن كان بعضها قد استأثر بأغلبية انتخابية ضخمة ، وإن كانت الأحزاب الأخرى قد اطمأنت إلى قلتها ورحبت بها ، لأنها كانت توفر لها من المزايا والمنافع ، والسلطة والنفوذ ، مثلما وفرت الأغلبية لحزب الأغلبية ، وربما أكثر مما وفرت لهذا الحزب ، فالأغلبية في بلاد الأحزاب والانتخابات السليمة ، توفر لحزب الأغلبية مدة في الحكم أطول ، وقدرة على التغيير أعظم ، وتأثيرا على الأفكار والميول أكبر ، في حين أن أحزاب الأقلية في مصر ، تعمر في الحكم أطول من حزب الأغلبية وهي أثيرة عند أصحاب السلطة الحقيقية في البلاد ونعني الانجليز والملك أكثر من حزب الأكثرية ، وفي نهاية الأمر ما من حدث أكبر يقع في البلاد إلا وتدعى أحزاب الأقلية لتساهم في معالجة هذا الحدث وإبداء الرأي فيه على قدم المساواة مع ممثلي حزب الكثرة ، ففي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مثلا دعي زعماء الأقلية مع زعيم الأغلبية ، وكان لهم صوت مسموع ورأي معلن مثل ما كان لزعيم حزب الكثرة هذه . كذلك دعي زعماء أحزاب الأقلية ليساهموا في تشكيل لجنة المفاوضات حتى ممثل حزب الاتحاد الذي كان قد انقضى على انفضاض أعضائه وغلق داره وجريدته وفشله المستمر في أن يكون له نائب واحد ، حتى ليذكرنا اليوم ، حزب الأمة في القاهرة بحزب الاتحاد الذي وسد التراب عقب ولادته بقليل .

ولذلك فثورة سنة ١٩٥٢ كريهة جدا إلى قلوب زعماء الأحزاب التى سدت ثورة ٢٣ يوليـو أبواب رزقـها ، كما سدت طريق حياتها ، فلم يعد لها وجود ، ولا أمل فى المسـتقبل حتى بعـد أن أجهضت هذه الثورة على يد أنور السادات . وقد جرى على نهج الكراهية أبناء زعماء هذه الثورة وأحفادهم وأصهارهـم وتابعوهـم من خدم وحشم وكتاب وموظفين فى الحكومة والشركات فقد كانوا يكسبون الكثير من اتصالهم بتلك الأحزاب سواء كانت فى الحكم أو كانت خارجه . إذا احترم اتباع تلك الأحزاب جميعا معاهدة غير مكتوبة ولا موثقة موادها تخدم بعضها بعضا عند اتباع الأحزاب ، ونحن فى الحكم أو أنتم فيه فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . فان وصلتمونا ونحن خارج الحكم ، وصلناكم ونحن فيه ، وقد قال الناس جميعا آمين ، وهناك مجموعة أخرى من خصوم الثورة الأوفياء . وهى تضم كل من أصابه ضرر سواء بأخذ أرضه الزراعية ، بوضعه تحت الحراسة ، أو بإيداعه فى معتقل ، أو فى تقديمه لمحاكمة . أو بحصول شئ من هذا ، لأحد ابنائه أو زواج بناته ، أو عائلة كان يكسب منها ، وبعض الناس كان يتصور أنه يتمتع بسلطة أو مال أو جاه ، وضيعت الثورة فراح يشكو ادعاء الوجاهة المستجابة ، حتى صدق نفسه ، فأصبح خصما لدودا للثورة وأعرف رجلا فقيرا لم تأخذ منه الثورة ، ولا سهما من قيراط من فدان، كان دائم الشكوى من الإصلاح الزراعى الذى أضر بالبلاد . والذى لم يقرره ضباط الثورة لاصلاح ولا لحب الفـقراء وإنما خلـقا لفرصة السلب والنهب ، وقد سـلبوا بالفعـل ونهـبوا حتى كانوا يتقيئون الفـلوس تقيـؤا هكذا كانوا يقولون

أما الطبقة المتوسطة من الأطباء والمحامين والمحاسبين والمدرسين والصحفيين ، فقد كرهوا الثورة لعلل كثيرة بعضهم رأى أن الثورة قد فتحت الأبواب لأمثالهم فجعلت بعضهم وزراء وآخرين سفراء وفريقا ثالثا من رؤساء مجالس الإدارات وفريقا رابعا كانوا ضباطا فأصبحوا أصحاب سلطة ونفوذ لمجرد كونهم ضباطا سابقين .

وبقي هؤلاء المدنيون في أماكنهم أو تحسنت أحوالهم قليلا ، ولكن ليس بالقدر الذى يعتقدون أنهم يستحقون مع أنهم أذكى وأقدر وأعلم ممن سطع نجمهم وعلا صيتهم وربما يكون غضبهم قد أثير لبعض أمور ، رأوا أن الثورة أخطأت فيها ، فأصبح لديهم ما يقولونه حبا في المصلحة العامة ، حرصا على خير البلاد . والواقع أن كراهيتهم للثورة سبقت كشف هذه الأخطاء .

وهناك فريق أخير يكاد يكون من المرضى فهو محافظ لغير مصلحة شخصية هو محافظ بالمولد والطبيعة ، فهو حزين لأن الملك فاروق عزل ، حزين لأن باشوات زمان كانوا مخلوقين وزراء وكانت ملابسهم وربطات أعناقهم تؤكد أن الوزارة رسمت لهم ، في حين أن ملافيت هذه الأيام الذين يصلون إلى الوزارة والسفارة ، تنقصهم الوجاهة ، ويعيبهم قلة الوزن ، وصغر الكرش وضمور الوجوه أو امتلاؤها ولكن ، بغير المقاييس التى ترضى عنها هذه الجماعات التى تحب كل قديم وهم لا يتذكرون علم مصر الأخضر حتى يبكوا ولم يروا صورة لفريق ذى شوارب مثل عثمان باشا المهدى حتى ينتحبوا هؤلاء لم يكفوا عن التحدث عن الثورة إلا باعتبارها لعب عيال وأن (عبدالناصر وزملاءه) لا في العير ولا في النفير ولكن الخطأ خطأ فاروق لأنه بعد

أن عرف الضباط الأحرار وكان يعرفهم جيدا - لم يشنقهم في ميدان العتبة الخضراء ويريح البلاد مما فعلوا ومما سيفعلون والعياذ بالله العظيم

هؤلاء جميعا سرتهم - في الواقع - هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وإن كانوا قد احتبلوها أي انتهزوها ، ليلطموا الخدود ، ويشقوا الجيوب لأنها فرصة لا يضيعها عاقل ، ليؤكد بطريقة علمية ، أن هزيمة مصر في ذلك اليوم أمر راجع لأشياء خطيرة ورهيبة يجب أن نضع اليد عليها، حتى لا تتكرر الهزيمة من جهة ، ولكيلا يقوم نظام شبيه بالنظام الذي قاد مصر والعرب إلى هذه الهزيمة المنكرة ، ولكيلا تقوم ثورة مشابهة لهذه الثورة التعسة التي ألحقت بنا هذا العار الذي سيبقى عالقا بشرفنا حتى يوم القيامة .

وكل هذه الردود ، هي ردود فعل إنسانية ، ليس فيها شئ غريب ، فهزيمة ٥ من يونيو لم تكن هزيمة عادية من أي جانب . فهي من ناحية الحجم والضخامة ، كانت هزيمة منكرة بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ فقد تمت في وقت قصير عاليا ، فالتاريخ الحديث والقديم لم يشهد حربا جارفة وصاعقة وخاطفة كهذه الهزيمة ، وإن كانت الهزائم الفرنسية أمام الجيش الألماني الهتلري ، كانت بهذا المقدار من الفداحة وربما أكثر لو أدخلنا في حسابنا ماضي الجيش الفرنسي القريب في الانتصارات وحسن استعداده وتمتعه بالقواد العظام الذين أبلوا بلاء حسنا في مواقع ذات حديث بعيد وأثر عظيم .

وقد كانت أيضا هزيمة بالغة الفداحة لأنها جاءت حلقة من سلسلة من الأحداث شاركت فيها مصر الثورة ومصر الدولة حتى أصبح كل ما

يصدر في مصر خطير . وقد كانت الحركة العربية نحو الوحدة قد تقدمت تقدما عظيما على إثر تأميم قناة السويس ، ثم حرب السويس التي شاركت فيها بريطانيا العظمى ثم فرنسا ، وأخيرا اسرائيل ، والتي كانت الحرب الدولية الأولى التي حسمت نتائجها الأمم المتحدة لأول مرة . وقد جاء في أعقاب هذه الحرب التي انتهت تماما في ديسمبر سنة ١٩٥٦ أي بعد جلاء جميع الدول المشاركة في الحرب عن الأرض التي احتلت . وسقوط الحكم الهاشمي في العراق ، وقد كان لهذا السقوط دوي هائل لما للعراق من أهمية عسكرية وسياسية لقربها الشديد من حدود الاتحاد السوفييتي ولايران ولتركيا ولسوريا ، وكل هذه الأقاليم حساسة إلى أقصى حدود الحساسية عربيا ودوليا ، وكانت مصر كبيرة جدا في خيال الكثيرين بعد انتصاراتها في الفترة منذ هزيمة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وانسحابهم من الأرض المصرية التي احتلت ، وبقاء قناة السويس في يد مصر ، بعد محاولة أكبر دولتين أوروبيتين سحب القناة من أيدينا . حتى الذين يسلحون مصر والذين لا يسلحونها كانوا يتصورون أن مصر إذا حاربت حتى ولو كتبت عليها الهزيمة آخر الأمر ، فستحارب جيدا وستصيب الأعداء اصابات قاتلة وستثبت في مواقعها ، وستحسن استعمال الأسلحة التي حصلت عليها ، وسيبدو أن جيشها اكتسب مرانا بفضل التدريب الطويل الشاق والمعونة السوفييتية التي منحت مصر خير مالديها من سلاح وتدريب ، ولذلك كانت الهزيمة مفاجأة كبيرة للجميع .

ولو نوقشت الهزيمة في حدودها الحقيقية السياسية والعسكرية ، لما كان هناك شيء يدعو إلى الشكوى . فهي هزيمة ولم يكن في

مقدور أحد أن ينكر كونها كذلك ، وقد تضاءلت عقب حدوثها إلى الحدود الدنيا إذ لم يترتب عليها شيء مما كان يمكن أن يبنى عليها فالنظام التى تمت الهزيمة فى عهده ، لم يسقط ولم يشرع أحد فى الانقضاض عليه ، والنظام الذى كان يحكم فى مصر لم يغير شيئا لا فى أسلوب ولا فى منهج ولا فى الخصائص الكبرى التى عرف بها . وهو أمر غريب جدا فى حياة الأمم ، ففى أكثر الأحوال ، إن لم يكن فيها جميعا أن النظام القائم المهزوم خصوصا إذا كان تقصيره فى الحرب كبيرا ، لابد أن يسقط .

ولست أعتبر ما قاله المتدينون من أن هزيمة سنة ٦٧ ، كانت بسبب ضعف عقيدتنا فى الدين ، وبعدنا عن طريق الله ، بالشيء الغريب ولا هو بالقول المغرق فى الخطأ . ذلك لأن المتدين ، إذا كان صادقا فهو يؤمن بطبيعة الحال أن ضعف الإيمان بالله يؤدى إلى بوار الأمم ، وخسرانها لأنهم يؤمنون بأن الله قال إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وهو غير مخطئين لأن عقيدة المحاربين هي رأس مالهم الروحى ، أيا ما كانت هذه العقيدة ، فإن الاعتقاد فى مبدأ ما ، حينما يكون هذا الاعتقاد خاليا من المصلحة الشخصية ولم يكن مجرد تظاهر يمنح المعتقدين قوة تعينهم على تحمل متاعب الحرب ، وتثبت أمام شدائد القتال وتحميهم من السقوط فى وهدة اليأس ، حينما تنزل بهم المصاعب، أو تحل الهزائم فليس الإيمان بنصر الله ، مجرد كلام غيبى ، بل هو حقيقة علمية ، أكدتها جميع الحروب فكلما كان المقاتل مؤمنا بالهدف الذى يقاتل فى سبيله ، كان نصيبه من النصر أكبر وثباته عند الشدة أوضح اعتقادا .

أما القول بأن هزيمتنا سنة ٦٧ مردها إلى الاشتراكية ، فهو فى الواقع الصيغة الثانية للتعبير عن الاعتقاد بأننا هزمنا لأننا تركنا الاعتقاد فى الله ، باعتبار أن الاشتراكية هى قرب من الإلحاد ، والبعد عن الله ، عند الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا واضحا عن المذاهب الحديثة سواء كانت من مذاهب اليمين الفاشية والنازية والبراجماتية والوجودية أو كانت من مذاهب اليسار كالاشتراكية والشيوعية والوجودية اليسارية ، والواقع أن القول بأننا هزمنا لأننا اخترنا طريق الاشتراكية هو غير مستقيم ، بل لأن ايماننا بالاشتراكية لم يكن كاملا ، والإيمان الذى تحتاج إليه الأمم فى نضالها من أجل مستقبل أفضل ، وأسلوب حكيم أصلح ومنهج حياة أقوم ، لابد أن يكون ايمانا عميقا عامرا يستأثر بكل خلجة من خلجات النفس ، وبكل نبضة من نبضات القلب ، ويكون هذا الإيمان عقيدة الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، وعقيدة الجهلاء والمتعلمين ، كل فئة أو طائفة أو جماعة بأسلوبها لكنهم جميعا يتساوون فى التسليم بصحة المذهب ، وبأنه وسيلة العلاج ، ودواء الأدواء ، وسبيل الإصلاح . أما إذا كان قد شاب ايماننا شك فنحن خاسرون ، إلا أن يكون ايماننا بالقتال ، قام على عقيدة وطنية ، وضعت جانبا جميع المذاهب والعقائد واعتقد أن الوطن فى خطر ، وأن واجب كل مواطن الدفاع عن هذا الوطن ، والاستشهاد فى سبيله وبذل الغالى والرخيص من أجله ، فهذه عقيدة مؤثرة ، تنطوى على حافز قوى ، لو أحسن القادة اثارته أولا ، ثم الانتفاع به ثانيا .

فنحن لسنا عجبا بين الأمم ، حينما يعتقد فريق منا بأن الاشتراكية هى التى هزمتنا ، فقد قيل شبيه بهذا الكلام فى كل دول أوربا المتمدينة

السائرة على طريق العلم وحقائق الوجود الثابتة ، فحينما كانت النازية والفاشية وأشباههما سائدة في العالم ، يستميلون الكثير من الناس ومن الأحزاب ومن القادة ، كان الكفر بالديمقراطية هو شعار تلك الأيام، فلما قامت الحرب ، وتهاوت دول الغرب ، في أيام معدودة أمام جحافل النازية واشتد قتالها الساحق الذي كان يحصد الشعوب والجيوش في ساعات لا أيام كان الكثيرون يعتبرون هذا دليلا على فشل الديمقراطية في جانب ، والشيوعي في جانب آخر ، ولما جاءت الولايات المتحدة لنجدة أوربا في وجه النازية الألمانية وحدها ، وأجلت جيوش أوربا وأمريكا مجتمعة ، يوم النزول على شاطئ نورماندي في أقصى غرب أوربا ، كان ذلك تأكيدا لفشل الديمقراطية ، وخوائها الروحي ، وفساد الأسس التي قامت عليها ، فلما رجحت كفة الديمقراطيات في السنتين ٤٤ و١٩٤٥ ، عاد الإيمان بالديمقراطية ونسخت مذاهب النازية والفاشية أي مذاهب الشمولية .

أما رد الهزيمة إلى التآمر الخارجي على مصر ، فليس إلا الحقيقة التي لا يجوز الخلاف حولها مع تغيير بسيط في الصياغة ، فالهجوم الخارجي على مصر متمثلا في إسرائيل المؤيدة بالولايات المتحدة ، هو السبب المباشر للهزيمة بلا شبهة ولاشك بدون حاجة إلى إضافة لفظ التآمر الخارجي فالتآمر يوحي بأن هناك عملا كان يدبر له في الخفاء ، وأنه استمر يعمل داخل صفوفنا ، وفي صفوف قواتنا المسلحة في حين أن الهجوم على مصر بوصفها قائدة الشعوب العربية ، وداعية إلى الوحدة العربية ، كان حقيقة واقعة ومعلنة ، فالقتال بين مصر ودول الشعوب الغربية لم ينقطع منذ بداية القرون الثلاثة الأخيرة ، قبيل الغزو

الأوروبى للجزائر سنة ١٨٣٠ ثم سائر الشعوب العربية فى الفترة التالية حتـى نهاية الحرب العالمية الأولى والغرب منذ بداية القرن الحادى عشر ، التى اندلعت فى مفتتحه (أى مفتتح هذا القرن) ، قلبه يتلهب بطمع مشتعل فى أن يضع يده على الشرق العربى الذى يضـم مصر وسوريا وفلسطين والذى يتوسط العالم العربى الممتد من الخليج إلى المحيط ، والذى يضـم من الثروات المادية المكشوفة والمخبوءة ، ومن الذخائر الروحية دينية وأدبية وفلسفية مالا نهاية له ، ولا مثيل له فى أية بقعة أخرى من الأرض إلى جانب الموقـع الفريد الذى يمسك بيديه أطراف الشرق وأطراف الغرب ، ويترامى أثره عند ملايين من البشر متنوعى الأجناس والألوان واللغات . فإذا أصررنا على استعمال عبارة (المؤامرة الخارجية) فلابد أن نعرف أن هذه المؤامرة ترجع إلى قرون ، وقد أخذت صورا وأشكالا متباينة ، واستغلت فرصا بعضها من صنع المتآمرين أنفسهم ، وبعضها من صنع أهل المنطقة . عن تعمد أو عن غباء ، وسوء تقدير أو كسل طرأت عليهم بحكم توالى السنين والقرون والحروب والمناوشات . من هؤلاء الأعداء الذين يطير النوم من عيونهم ، حينما يتصورون أن المنطقة العربية قادرة على أن تجتمع وينسق عمل أهليها ، وتتوق إلى استعادة المجد ، وبعث الماضى ، حقا وصدقا فإن الغرب يعلم أن هذه المنطقة هى منطقة سيادة وزعامة وقوة وسلطة . ومن ثم فإن بث الوهن فى قاطنى أراضيها ونسخ عقولهم ، وفصل صلاتهم بثقافاتهم وأصول حضارتهم . هو شغل زعماء الغرب .

وقد مرت على مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، حلقات من هذه المؤامرة كانت الحلقة الأولى محاصرة نظام محمد على ثم

القضاء عليه ، وفرض معاهدة سنة ١٨٤٠ على مصر وعزل الخديو اسماعيل فى يوليو ١٨٧٩ ، ثم هزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ ، ثم محاولة غزو مصر وإعادة الاحتلال البريطانى بعد فترة قصيرة من الجلاء الناقص فى يونيو ١٩٥٦ فأمريكا ، كانت قد عقدت العزم - بعد أن أفلتت مصر من الهزيمة الكاملة بعد تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، على أن نظام عبدالناصر وقف تماما فى وجه ما يوحى به هذا النظام بخيره وشره وقوته وضعفه من طموح ضخم للعرب ، وتمرد عظيم ضد الغرب واطماعه الاستعمارية والحجة موجودة ، والوسيلة موجودة أيضا ، وكلا الحجة والذريعة يتجسدان فى إسرائيل ، ولذلك كان من الطبيعى - مهما فعل نظام عبدالناصر - أن تحدث الغزوة أو الهجمة على مصر فى ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأن تكون نهايتها هزيمة مصر العسكرية واكتساح منطقة سيناء واحتلالها ، فالحقد الذى تضمره الدوائر الاستعمارية وتعلنه ، والفرق الهائل بين قوة مصر العسكرية والاقتصادية وبين القوة الاستعمارية المتمثلة لا فى الولايات المتحدة وحدها بل فى أوربا كلها والمسيحية الاستعمارية التى تريد أن تطوق الإسلام لا لحساب مبادئ السيد المسيح ، ولا إيمانا بها ، بل لحساب المصالح التجارية والأهداف السياسية ، ولا ينقص من هذه الحقيقة أن فيتنام صمدت أمام أمريكا مع أنها دولة فقيرة وأقل شأنا من مصر من كل جانب ، ذلك لأن طبيعة الأرض فى فيتنام وهى أرض مستنقعات وأحراش وغابات ومناطق شبه جدبة غير أرض مصر المنبسطة الخالية من الجبال والتلال والهضاب ، وشدة تقشف الشعب الفيتنامى بتأثير العقيدة الدينية ، وظروف الحياة الخالية من أسباب

الترف والميل إلى الراحة ، والعجز عن مواصلة الحرمان ، هذا كله مضاف إلى الظروف المتغيرة في كل حرب وصراع بين دول بعينها ففرنسا النابليونية التي اكتسحت النمسا وبروسيا وروسيا ، هي فرنسا التي هزمت على يد بسمارك في حرب السبعين أي في سنة ١٨٧٠ والتي هزمت مرة أخرى في سنة ١٩١٤ أمام جيوش غليوم الثاني وغلبت ثالثا أمام جحافل هتلر .

ولكن لاشك في أن نتائج الحرب - أي حرب - يمكن أن تتغير بفضل قدرة كل من الطرفين على المناورة ، والاستعانة بالحلفاء ، وتغيير السياسة المتبعة دوليا أو داخليا فمحمد على ومن قبله على بك الكبير استطاعا أن ينشئا مصر العظمى ، وأن يمدا سلطانهما على الشام واليمن وأوربا في مرحلة ، ثم هزما في مرحلة تالية ، والقيادة هي القيادة والاقليم هو الاقليم وأنا أعتقد أن نتائج حرب سنة ١٩٦٧ كان يمكن أن تتغير أو تخف وطأتها على الأقل لو اتبعت مصر سياسة أخرى مع الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية ، ولكن في جميع الأحوال كانت اطماع الغرب في انزال الهزيمة بمصر ، وبنظام عبدالناصر قرارا نهائيا عند الولايات المتحدة واسرائيل ، والهزيمة - على قوتها - ليست كل شئ فيها - بمعنى أن أسباب الهزيمة يمكن أن تكون أوجع من وقوع الهزيمة ، وهنا نعني بأسباب الهزيمة ما يترتب عنه لأحداث الهزيمة بهذا النطاق وبذلك العمق ، والواقع أنه لم يعد هناك شخص يريد أن يخفف منها ، أو يدعي أسبابا واقعية أو غيبية عن الأسباب الحقيقية . وقد قيل كل شئ تقريبا ، ومن صاحب اختصاص لا ينافس ولا يبارى ذلك هو الفريق أول محمد فوزي في كتبه حرب الثلاث

سنوات، فقد رسم صورة مبكية ومضحكة ، لهذه الهزيمة والغريب فى الأمر أن الذى رسم هذه الصورة القاتمة المخزية ، هو القائد العام للجيش الذى يلحق به أولا وقبل أى إنسان آخر كل حرف كتب فى هذا الكتاب .

ولا شك أن أثر هذا الذي كتب وذكر ، يخف كثيرا بعد حرب سنة ١٩٧٣ فقد عوض الجيش المصرى والشعب المصرى والقيادة السياسية كل ما لحق بنا وبشرفنا وبقدرنا كأمة مقاتلة ، فى حرب ٦٧ ، وانتصار سنة ٧٣ وإن ضاعت قيمة هذا النصر الباهر والضخم بالتواطؤ السياسى الصريح ولكن هذا التواطؤ الذى حال بيننا وبين الوصول إلى الممرات والمضايق ، والوقوف قبلها والسكوت على الثغرة ثم ما تم بعد ذلك من فض الاشتباك الأول ، ثم التجهيز لرحلة القدس .

إن العظة التى يجب أن نستخرجها من الهزيمة ، يتحمل النظام وزرها ، ولكنها ليست من صنعه وحده ، فهى تراث أجيال متعاقبة .

إن الذى ألحق بنا الهزيمة المنكرة ، هو عجز (إدارى) نوارثناه ، وهو يزداد تأصلا بعد كل بضع سنوات ، وأكاد أقول كل بضع ساعات، فنحن لا نعرف كيف ننظم احتفالا أو مهرجانا ، ويبدأ هذا العجز بأول خطوة إدارية نقوم بها ، وهى تمرير بطاقات الدعوة وتحديد الموعد وتوزيع البطاقات على المدعوين . الخطأ فى كتابة صيغة الدعوة على الآلة الكاتبة . فأى بضعة سطور تكتب على هذه الآلة ، تمتلئ بالأخطاء، وفى آخر مؤتمر حضرته منذ أسابيع ، لم أجد مكانى فى القاعة .

وإذا كان موشى دايان حينما قال إنه على المصريين أولا أن ينظموا صعودهم إلى السيارة العامة ونزولهم منها قبل أن يفكروا فى إنزال

الهزيمة بإسرائيل ، فإن هذه الكلمة القصيرة تعنى فى الواقع كل ما نريد أن نقوله عن العجز الإدارى الذى قامت الدلائل منذ الفراعنة على نقيضه فى قرون عقب قرون كان تحديد التفاصيل والجزئيات ، وضمها بعضها إلى بعض فى خطة ، والصبر على التدريب وموالاته ، وإجراء التجارب البدنية المظهرية ، والتمسك بما رسم من خطط ، وما صدر من أوامر ، كما لا يجوز أن تتغير الخطة إلا بناء على ضرورة حقيقية تقتضيها ، ولا يعدل عن أمر إلا إذا حل محل أمر آخر أكثر صلاحية .

هذه هى التربية الوطنية فى الميادين المدنية والمجالات العسكرية على السواء ، وهى التى تنقصنا على السواء وإلى الآن ، بلا أى شعور فى المدرسة أو البيت أو النقابة أو الحزب ، لضرورة هذه التربية والمبادرة بها ، ووضعها فى رأس الأولويات ، والتشبث بها لسنوات عديدة حتى تصبح طبعا وخلقا ودينا ، قد كنت أكرر أن حديثى رسول الله اللذين يقول أولهما : إذا قلت لجارك أنصت والإمام يخطب ، فقد لغوت ولا أجر لك والذى يقول الثانى : إن الله لا يحب أن ينظر إلى الصف الأعوج هما خلاصة لحضارة وجوهر الثقافة وأساس التمدين والتنظيم والحرب والسلام .

فمجرد النطق بلفظ فى وقت يراد فيه الانصات الكامل ، هو ترويض وضبط للنفس ، وتعليم لآداب الحرب والسلام ، وفى قاعات الموسيقى السيمفونية ، يمتنع على النظارة أن يسعلوا ، مجرد سعال ، وهم لذلك يحسنون تحمل آلام وويلات الحرب .

وكون الله لا يحب النظر إلى صف أعوج كلام خطير جدا فالله العظيم الذى خلق الكون بل الأكوان قد لا نتصور أنه يشغل بالصف

الأعوج ولكن الصف الأعوج ، بلاء نعانى منه فى الطريق ، وفى السفر ، وفى المتجر وفى كل خطوة ، ويصبح آفة تلاحقنا فى كل موقع حتى نهزم كهزيمة ٥ من يونيو ، فيكون محلا السخرية فى العالم كله .

صحيح أن ثورة ٢٣ يوليو ربما لم تفطن لهذا التوجيه ، فورثت مصر لا تطيق النظام ولا تسير عليه ، ولكنه ليس خطئها وحدها فانه خطأ خلفته سنوات الانحلال والتفكك والتردى - والدليل على ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ لم تسقط عبدالناصر عن مكانه العالى ، ولم تزحزح ثورة ٢٣ يوليو لا فى العالم ولا فى الوطن العربى .

أربع ثورات فى ثورة ثورة عمر مكرم فثورة عرابى ثم ثورة سنة ١٩١٩ ... وأخيرا ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ *

هى أربع ثورات، فى حكم التاريخ الرسمى، وهى أربع ثورات، لأن الزمن الذى يفصل الواحدة منها عن التالية يتسع حينا، حتى يكاد يبلغ القرن، ويضيق حينا آخر فيكون ثلث قرن تماما أو ثلث قرن ويضع سنين.

ولكن قليلا من التأمل والتدقيق، يكشف أنها ثورة واحدة، اختلفت أزمانها، وتباينت مظاهرها، وتنوعت مقدماتها ونتائجها، وتغيرت أسماء زعمائها وأبطالها، ولكنها بقيت واحدة فى جوهرها هى أولا وأخيرا ثورة شعب واحد، فى فترة لايعدها التاريخ بأى معيار من معاييره طويلة، فقد بدأت والقرن التاسع عشر، يفتح عينيه، ويستقبل النور متكاسلا، وانتهت فى تمام منتصف القرن العشرين، فهى فى مجموعها قرن ونصف قرن، تمضى فى حساب الأمم، كلمح البصر، خصوصا، إذا كان الشعب الذى

---

* هلال - سبتمبر ١٩٧١.

خاض عمارها، وأثار غبارها، واحتمل أكلافها، ورفع أعلامها، هو أقدم الشعوب طرا، امتدت حضارته في اتصال واتساق، وتجدد إلى اليوم، من سنة ٤٧٧٧ قبل أن تلد العذراء البتول طفلها عيسى المسيح، وهذه السنة يقول عنها المؤرخون العلماء من أهل الغرب، إنها بدء سنى عصر الأسرات الأولى، قبل أن تبدأ الدولة القديمة حكمها الباهر، على أرض النيل العجيب.

على أن الأمر الذى يقضى حتما، بأن تكون هذه الثورات، محاولة واحدة ذات وجوه متعددة، أن مصر خلال فترة الثورات الأربع احتفظت بكل خصائصها الاجتماعية والاقتصادية، على الرغم من المشروعات الكثيرة التى نفذت، والمصانع التى أقيمت وانتجت، والمدارس والمعاهد والكليات والمعامل، التى أخرجت الملايين وراء الملايين من التلاميذ والتلميذات، ودور الطباعة والصحافة، التى أخرجت تلالا بل جبالا من الصحف والمجلات والكتب والمؤلفات. .

فإن مصر، بعد عصور طويلة من الظلام الكثيف، والظلم المروع، خرجت أمة زراعية وقد بقى إنتاجها الزراعى، عصب اقتصادها القومى وبقى انتاجها الزراعى معتمدا على محصول رئيسى واحد وبقيت الزراعة فيها بدائية، تعتمد على الثور والمحراث، وتلعب دودة القطن، ومكافحتها باليد حينا وبالمبيدات الحديثة حينا آخر، دورا رئيسيا فى نشاط الفلاح، الذى احتفظت قريته كوحدة إدارية واجتماعية وروحية، بمكانتها فى البناء الإدارى والاجتماعى للدولة، وفى هذه الوحدة، تعايش الأمية، أجهزة الحضارة الحديثة، من (راديو) و(ترانزستور)، ويعانى الفلاح من قلة الدخل ومن الأمراض المتوطنة،

وفى مقدمتها البلهارسيا والانكلستوما.

وإذا كان الكفاح ضد هذه الآفات المالية والاجتماعية لا يكون بطبيعته إلا طويلا وشاقا، ومضنيا، لأن السبيل إلى النجاح فيه، هو تغير شامل فى الفكرة والوسيلة، وفى المنهج وفى الأداء فإن الغريب فى حياة مصر، خلال فترة الثورات الأربع، أن أعداءها السياسيين كانوا، هم هم لايتغيرون، الانجليز، والفرنسيون، والصهاينة وأصحاب رؤوس الأموال، وفى العالم، والعائلة المالكة، المنحدرة من الأصل التركى، والمتحدة مع الدولة العثمانية حينا والمخاصمة لها حينا آخر.. تتغير أوضاع ومواقف هؤلاء الأعداء فيما بينهم، يتحالفون، ويتعادون، ولكن موقفهم من مصر فى جوهره واحد وثابت، الطمع فى الاستئثار بها، والرغبة فى استغلال مواردها، والخوف من أن تستقل، أو أن تلعب دور الزعيم فى المنطقة، أو أن تتحد مع سواها من أهل المشرق العربى، سواء فى الشمال أو الجنوب، فى اليمين أو اليسار.

لذا كانت للثورات الأربع، وبصفة خاصة الثلاث الأولى منها، خصائص تجمعها، ولذلك فالأصح أن نتحدث عن هذه الثلاث الأولى، معا، ثم نختم الحديث بفصل عن الثورة الأخيرة باعتبارها ختام تلك الثورات وتتويجها وباعتبار الأولى تحضيرا وتمهيدا وتجميعا، أسلمت حصيلته، للأخيرة، تبنى عليه وتستمد منه وتضيف إليه، وتطوره وتخرجه فى صورته الكبرى

من المتفق عليه، أن مواقف الغضب، تبرز خصائص الفرد الكامنة، وتجسمها، كما تبرزها وتجسمها، حالات الخوف والقلق، وبالجملة، حالات الانفعال الشديد، التى تتراخى معها الضوابط الكبحية، التى

يمارسها العقل الواعي للإنسان، ويسلطها على دوافعه الغريزية، والثورات في حياة الأمم، هي قمة الانفعال لجماعة من الجماعات، ومن ثم فالتأمل في مسلك الأمة الثائرة، سبيل مضمون النتائج لتبين صفات هذه الأمة الكبرى، التي لاتبين وتتضح، في الحياة اليومية لأفراد هذه الأمة، في ذهابهم وغدوهم الرتيب.

وثورات شعب مصر، ولاسيما الحديثة منها، تعلن في غير خفاء، أن المصريين هم في الأغلب الأعم، شعب يؤثر الاعتدال، ويكره التطرف، وبالتالي، ينفر من العنف، في القول والفعل، ويستهويه الرفق فيما يأخذ وفيما يدع، ولكنه ـ ككل حليم ـ إذا غضب ينفجر غضبه، وكأنه بلا سبب واضح، أو بغير مقدمات تمهد له، وتؤدي إليه، ولا سبب لهذا، إلا أنه يحسن ضبط نفسه، ويطيل الصبر على الأمور، حتى يرى هذه الأمور قد تجاوزت كل حد، وأن الذي صبر عليهم، أطمعهم فيه، هذا الصبر.

وهذا الشعب، على حبه لكل ما هو لطيف، ومعتدل، حريص على استبقاء الأساس من مناهج حياته، وأفكاره، فهو أقرب إلى المحافظة، بحكم كونه شعبا قديما وأصيلا من ناحية، وزراعيا متدينا من ناحية أخرى، إلا أن هذه الخصائص فيه، لاتجعله عدوا للتطور، أو كارها للجديد، فتاريخه القديم، أهله لأن يدرك أن كل شيء يتغير، وأن الفناء والتجدد سنة الحياة، والزراعة ذاتها، وإن كانت تؤصل في الفلاح، حب الاستقرار، وتؤكد فيه الإيمان بالثبات، إلا أنها تريه، في كل يوم، صور التطور في الطبيعة، فهو يلقي البذرة، لتفنى في التربة، وليخرج منها شيء جديد، يختلف عنها في الصورة والحجم واللون.. وما يخرج منها،

يتغير بدوره، وينتقل من دور إلى دور، ومن حالة إلى حالة، ولقد شهدت مصر، أكبر التطورات الإنسانية ثورية، من مثل كشف الأفكار الأساسية في الفلك والرياضة والهندسة الزراعية، وفكرة الآلة والبعث، والصراع الدائم والمتطور بين الخير والشر، والقوة والضعف وبالتالي بين مصر، وأعدائها، وبين وحدة الوطن وتفتته، ومن هنا جمع شعب مصر، صفات تبدو كالنقائض، فيقدر محافظته، تبدو ثوريته، ففوز المرأة في مصر، تم بأيسر وأسرع، مما تم في أي بلد عربي آخر، وقبل كثير من بلاد الشرق القريب والبعيد.

أما تدين المصريين فهو كذلك عامل من عوامل المحافظة، ولكنه في الوقت نفسه، عامل من عوامل الثورة، فالإسلام، منذ البداية، دين ثورة عملية على مجتمع قديم، كاره للتطور، متصلب وجامد، وقصة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وآيات القرآن الكريم نفسه، مليئة بالتنديد بمن يرفضون الجديد، ويكرهون التغيير، ويتمسكون بما آمن به الآباء والأجداد، وفي الإسلام دعوة ملحة، وعالية ، ومتجددة، على مر عصوره وحقبه إلى محاسبة الحاكم، والأخذ على يده إن ظلم، وعزله إن لم ينصلح، ويقبل النصيحة، وينزل على رأى الشعب أو الجماعة، وقد ترددت أصداء هذه المبادىء القوية في جميع ثورات الشعب المصرى الأخيرة، من ثورة عمر مكرم إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، بل إن بعض هذه المبادىء، قيلت بالألفاظ نفسها، وفي المواقف نفسها، كأن الذين قالوها في مطالع القرن التاسع عشر هم الذين قالوها في مطالع القرن العشرين، أو كأن الذين قيلت لهم، على سبيل النصح والتقبيح، والإخافة والتهديد، لم يلفظوا أنفاسهم، ولم يفقدوا سلطانهم.

وأخيرا، يبدو هذا الشعب المسالم، المتدين، الرقيق، اللطيف،

الصبور، زاهدا فى الحكم عاجزا عن الحرب، مشفقا من أهوال الصراع، أو أن الثقة بالنفس تعوزه، والاعتماد على الغير، يريحه ويخرجه من «ورطات» السياسة، ومتاعب الحكم.

والواقع أن المصريين حيل بينهم وبين ميادين القتال أجيالا، لأن الذين حكموهم، خافوا من أن يتسلحوا أو يتدربوا على صنعة الحرب، ثم أرهبوا هذا الشعب، بألوان من المظالم جعلت المصرى بعامة، والفلاح بخاصة، لايدرى أيبقى فى داره، حتى طلوع النهار، أم سيساق إلى حيث لايدرى، فإن عاد، إلى بيته، لم يعد وهو مطمئن إلى أن شرا لم يصب زوجته أو عياله، أو القليل من متاع الدنيا، الذى يعتمد عليه فى تحصيل رزقه، ورد عادية الموت عن نفسه.

وشعب مشغول بلقمة العيش وحدها، والمخاوف تطارده، فى الليل والنهار، لا يعاب عليه إن هو بدا كأنما قد فقد خصائصه العسكرية التى أعلنت عن نفسها قرونا طويلة، ولا يعاب عليه إن انصرف ذهنه عن الحكم، ولم يزاحم فى سبيل الظفر به، ولكن الذى يذكر له، أنه بعد هذه السنين المتطاولة من الظلم والعسف والفقر والحرمان، بقيت له سليقته السياسية التى ورثها عن أجداده وعن دينه وعن بيئة سليمة، فهو لم يستسلم للظلم، ولم يرتضه، ولم يعجب بظالم، ولم يفقد إيمانه بالعدل، وبأن مصير الطغاة، هو أسوأ مصير.

بقيت أشعاره، ومواويله، وقصصه و(حواديته)، وأمثاله ونوادره، ونكاهاته ودعاباته، تدور حول انتصار العدل والسخرية بالظالم، بل إن الأمثال التى تروى عن الفلاح، وكأنها تبرر الإذعان للظالم فى واقع الأمر، لاتصدر عن الفلاح، إلا تعبيرا عن رفضه للإذعان وسخريته بالمذعنين، فالمثل الذى يقول مثلا: «اللى يجوز أمى أقوله ياعمى»،

أو المثل القائل «إن رأيت الناس بتعبد عجل، حش وارمى له» أو «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه». لاتروى إلا من قبيل الحسرة على ما وصلت إليه حال الناس، لا إقرارا لهذه الحال، ولا تبريرا لها، أو دعوة لقبولها، ولكن سوء ظننا بأنفسنا فى العهود الأخيرة، جعلنا نبحث عن كل ما يثبت التهمة ضد الفلاح المصرى، بل وضد الشعب المصرى كله، والفلاح والشعب كلاهما برىء من التهمة.

بقى أن نعرف كيف انعكست هذه الخصائص النفسية والروحية لشعبنا فى ثوراته الأخيرة التى شهدها القرن التاسع عشر ثم القرن العشرون ومن السهل أن نتبين فى هذه الثورات ـ خصوصا الثلاث الأولى

١ - انطلاق شرارة الثورة أصلا من الشعب، فى تلقائية تدهش أعداء الشعب، وتهزهم بعنف، وتفسد عليهم خططهم، وتنقض أهم من الأساس ما كانوا قد كونوه من أحكام عن هذا الشعب، انخداعا بظاهر ضعفه، وبطول صبره، وبكرهه القتال، وبعده عن المقاومة، وقبوله الوضع القائم.. واحترامه للنظام السائد.

٢ ـ خروج القائد للثورة، من باطن النظام الذى قامت الثورة، لتقويضه أو على الأقل تغييره، وبقاء الصلة بين القائد والنظام القديم، ومرور فترات للمصالحة بينهما.

٣ ـ تجسد الثورة، فى شخص قائدها، وتحول القائد إلى ما يشبه البطل الأسطورى، وحدوث شىء من الفاعلية بين الثورة وقائدها، يزداد بفضلها القائد، شجاعة، وإدراكا، ويبدو أنه زاد طولا، وزاد علما، وزاد صلابة وحنكة، وفهما لدوره، وتعرفا على أساليب الثورة، وعلى أساليب الخصوم، وعلى مزايا الشعب.

٤ ـ عدم التحضير للثورة، باعتبارها، انفجارا حضرت له الأحداث السابقة عليها، وحتمته تطورات الأمور فى المجتمع المصرى، ونشوء قوات جديدة في هذا المجتمع، وانحسار قوات قديمة وتقليدية فيه.

٥ ـ خلو الثورة عند انفجارها، من عنصر (المذهبية)، فهى تبدأ بلا برنامج معد، فلا يعدو هدفها تحقيق الحرية بمعناها العام، أو القضاء على المفاسد والمظالم، ولكن الثورة لاتلبث حتى ترى ضرورة هذا البرنامج، فيتكون خلال تطورات الثورة، وأدوارها.

يقول الأستاذ فريد أبوحديد فى كتابه عن عمر مكرم:

«وكان أول ظهور السيد عمر فى ميدان السياسة فى عام ١٢٠٥ للهجرة سنة ١٧٩١م وذلك بعد رجوع القائد التركى حسين باشا الجزائرلى إلى بلاده مع جيشه الذى أتى به لتأديب إبراهيم ومراد، فإن حزب الأمراء الذى كان يحكم البلاد تحت جناح القائد التركى المنتصر لم يستطع المحافظة على السلطة بعد خروج حاميه الذى كان يعززه بقوة جيشه، وانتهز مراد وإبراهيم هذه الفرصة، فأرسلا من قبلهما رسولا يفاوض الحكومة القائمة فى أن يعودا إلى القاهرة ويشتركا فى الحكم، وكان رسولهما هو السيد عمر مكرم وكان قد اتصل بالأميرين فى مدة وجودهما فى الصعيد فاختاراه ليؤدى عنهما تلك الرسالة لما توسما فيه من القدرة والنفوذ، فأقام فى القاهرة يومين تمكن فيهما من تمهيد السبيل لعودة صديقيه إلى الحكم، كما أنه اتصل فى أثناء هذه المدة القصيرة بكثير من المشايخ والأمراء وكان مسعاه فى هذا السبيل من أكبر ما سهل رجوع الحكم إلى مراد وإبراهيم».

فها أنت ذا، ترى أن السيد عمر مكرم، كان صديقا للنظام القديم ورسولا، وعونا له فى الملمات، ولم يكن ثمة سبيل لمصرى صعيدى فى

دولة الحكم فيها والسيادة والزعامة حكر للأمراء الشراكسة، ولمندوبي السلطان العثماني، أن يضع قدمه في حلبة السياسة، وأن يشارك في الجهد العام، إلا عن هذا الطريق، الذي يبدو كريها وذميما، إذ العبرة بما أفضت إليه وانتهت به هذه المقدمة، وسنرى أن السيد عمر بعد أن استمر سنين صديقا لهذه الدولة، ولسانا من ألسنتها، سيخلع عن نفسه ثوب السفير، وسيلبس ثوب الزعيم، شيئا فشيئا، وأن مهادنته لها، ومصادقته إياها، سيتحولان يوما بعد يوم إلى مخاصمة فمخاصمة فتمرد فحرب.

وجاءت الدعوة ـ حسبما بينا فيما سبق من سطور ـ من الشعب، ولم تأت من الزعيم، جاءت الدعوة للعمل من الشعب، فلم يصم الزعيم أذنيه عنها، ولاء للدولة التي خدمها، بل انضم إلى الشعب، ولبى دعوته، فإن مراد وإبراهيم، استمرا على منهجهما الظالم، من العسف بالشعب، والفتك بأرواح أبنائه، والسطو على أرزاقه، وتعطيل مرافق حياته، فلما رأى السيد عمر مكرم أن رجال الدولة لم يحققوا الأمل فيهم ولم يحسنوا القيام بالفرض الواجب عليهم، نادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع وأخذ يدعوه ويحرضه ويحمسه لعله يستغني بنفسه عن الدفاع».

ولكن هذه الفكرة لم تأت من عمر مكرم، أصلا، إنما جاءت من الشعب في الفترة التي لم يكن فيها عمر، قد خرج من عزلته بعد، في الفترة التي كان فيها صديقا للنظام القائم، ففي سنة ١٧٩٥ اشتدت وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس في تحصيل الأموال فالتجأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوي ليحميهم وكان الشيخ قد أصابه ضرر من

تحصيل تلك الأموال، فبدأ الشيخ بمخاطبة إبراهيم ومراد، فلما لم يجد لمسعاه أثرا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا إلى الثورة فوجد النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن ضواحيها وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف، والناس مصرون على أن يقف الحكام عند حد العدل والحق، ورأى الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لاقبل لهم به، يقول الجبرتى «نزل الباشا إلى بيت إبراهيم، واجتمع الأمراء هناك، فأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات، والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير.. وانتهى الاجتماع إلى تحرير وثيقة، تعد أول وثيقة دستورية فى حياة مصر.. إذ تعهد الأمراء بأن يتبعوا العدل وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة وألا يمدوا أيديهم إلى أموال الشعب، وكان القاضى حاضرا بالمجلس فوثق هذه الحجة (وفرمن) عليها الباشا أى جعلها (فرمانا) أى مرسوما سلطانيا وختم عليها إبراهيم وأرسلها إلى مراد فختم عليها أيضا».

ولكن عمر مكرم لم يشارك فى هذه الأحداث، ويقول الأستاذ فريد أبوحديد فى هذا المعنى «ثار أهل مصر فى مدة هذين الطاغيتين (مراد وإبراهيم) كما سبق لنا وصفه، ولكن لا نجده يتصدى فى أثناء تلك الثورات المتلاحقة لقيادة العامة، بل بقى بمعزل عن حركاتهم لانكاد نسمع اسمه فى قيادتهم».

ولكنه مع ذلك زعيم أصيل، بيد أن زعامة مصر فى تلك الأيام لم يكن ممكنا أن تصدر عن قبس فرد مهما عظمت، فقد حطم النظام القديم هذه الروح فى الناس، فأصبحت الزعامة لجموع الشعب

الغاضبة والرافضة للظلم، فإن وجد من بين هذه الجموع، إنسان مؤهل للزعامة، التقى مع هذه الجموع، وتسلم منها الزمام، وقادها ولم تخفه مخاطر المعركة، وقد حدث هذا مع عمر مكرم، فقد رأى أن الشعب يتململ تحت حكم مراد وإبراهيم، وأن الظلم جاوز كل حد، ورأى أن الشعب في مرة سابقة استطاع أن يفرض حكمه، وأن ينتزع من الطغاة، وثيقة حريته، فانتفع بهذه السابقة، ودعا الناس إلى الجهاد، ثم هدته سليقة الزعامة فيه، فأخذ علما، كان يعرفه الناس «بالبيرق النبوي» ونزل من القلعة إلى بولاق والناس تحف به، ألوف مؤلفة، ولم يجدوا ما يتسلحون به سوى النبابيت والمكاكيز والمدى وقد راحوا يرفعون عقائرهم بالصياح والهتاف، وانضمت إليهم فرق الصوفية، وفرق الموسيقى البلدية، وعلا من كل ذلك ضجيج مختلط غير منتظم، ولكنه يخيف الظلمة، ويؤنس الشعب الأعزل وبدل أن تقع الواقعة بين الشعب بزعامة عمر مكرم من جهة، ومراد وإبراهيم من جهة أخرى، جاءت جيوش فرنسا من الغرب بقيادة ضابط فرنسي شاب، عرفته فيما بعد، ميادين القتال، فلم تكف عن ترديد اسمه حتى اليوم «نابليون بونابرت».

وجرت الوقائع على ما نعرف، وهزم الأمراء المماليك، وتفرقوا، وخرج الزعماء المصريون من القاهرة حتى دخلها الفرنسيون، فأمنوا زعماء البلاد، فعادوا إليها، ولكن عمر مكرم أبت عليه وطنيته وزعامته معا أن يدخل إلى بلده، ليحتمي بحكم غاصب غاز، وقد التجأ السيد عمر إلى الشام، وأقام في يافا، حتى وصلت جيوش نابليون إليها، فأعادته إلى بلاده قسرا، وعلى الرغم من أن السلطة الفرنسية نجحت في عقد مصالحة مع زعماء مصر جميعا، إلا أن السيد عمر اعتصم

بعزلته، طوال الحكم الفرنسي، منتظرا فرصة يجاهد فيها ضد هؤلاء الغزاة.

وقد أتيحت له هذه الفرصة حينما قامت ثورة القاهرة في مارس سنة ١٨٠٠، تلك الثورة المجيدة التي استمرت سبعة وثلاثين يوما متصلة، ولسنا نستطيع أن نروي وقائع كل تلك الثورة، وحسبنا أن نذكر أن بونابرت، حينما أدرك أن مستقبل الحملة الفرنسية التي قادها، قد أغلق بالفشل المحتم، اتفق كليبر خليفة بونابرت مع الأتراك على أن يجلو عن مصر، ولكن الانجليز حلفاء الأتراك أبوا أن ينفذوا هذا الاتفاق، ليقضوا على البقية الباقية من فلول هذه الحملة التي عصف بها الطاعون، والرمد، ومعارك الصعيد مع الأمراء، وحروب الشام، وكان المصريون يعتقدون أن الفرنسيين قد أعدوا عدتهم الرحيل فلما سمعوا أنهم باقون، اجتمعت جموعهم في القاهرة، وقرروا أن يحولوا بين الفرنسيين، وبين أن يستقر لهم الحال في مدينتهم، واتجهوا إلى زعمائهم، وفي مقدمتهم عمر مكرم فلبى الدعوة وكان روح المقاومة، فأقام المصريون المتاريس، وعينوا عليها الحرس اللازم، وأنشأوا معملا للبارود، وجاءوا له بالصناع، وتبرعوا بما لديهم من حلل نحاسية وأوان، لتصهر وتصب آلات حرب من مدافع ونخاشر، وعمر مكرم ينتقل من موقع إلى موقع، يشد العزائم، ويدعو إلى الجهاد، وينظم ويؤلف القلوب، ويوزع الأعمال، ويعقد مؤتمرات الحرب، وهكذا، فلما ضاق الحال بالفرنسيين أرسلوا رسلهم ليتفاوضوا مع زعماء مصر، ليعقدوا معهم صلحا، ولبى الدعوة إلى المفاوضة الشرقاوي والمهدي والفيومي والسرسي، فلما عاد هؤلاء من المفاوضة، وأبلغوا المصريين بما تم فيها،

ووجد المصريون أنها لم تتضمن جلاء الفرنسيين عن البلاد، أهانوا زعماءهم، ورموا عمائمهم إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام.

ولذلك اضطر الفرنسيون إلى تشديد الحملة على القاهرة، وأعلنهم على القاهريين هبوب عاطفة ممطرة، وحلت الطرق، وصعبت الدفاع على المصريين وسلاحهم قليل وعدتهم ضعيفة، ونجح الفرنسيون في الدخول إلى القاهرة، وخرج الزعماء من القاهرة ومعهم عمر مكرم ولكن لم يكن ممكنا أن يبقى الفرنسيون فيها طويلا، فقد بقوا ريثما استطاعوا أن يعقدوا مع العثمانيين والانجليز معاهدة جلوا على أثرها في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٠١، وعاد الجيش العثماني إلى مصر، ومعه عمر مكرم، فكانت عودته إلى بلاده نصرا للمصريين، فقد أصبح زعيم البلاد غير مدافع، ثم بدأت جولة جديدة من جولات جهاده، فقد بدأ صراع مصر، وخال من كل اعتبار للشرف بين الأمراء المماليك، ومندوبي السلطان، وانجلترا، عندما أخلت فرنسا الميدان فبقى عمر مكرم بعيدا عن هذا الصراع إذ لم يجد فيه مصلحة لمصر، حتى استطاع محمد على أن يتغلب على خصومه، وأن يبدو أصلح الواقفين على المسرح السياسي، وأكفأهم وأشدهم اعتمادا على زعماء الشعب، فتولى عمر مكرم قيادة الشعب، في معركته الباهرة ضد خورشيد باشا الوالي التركي، وفي فرض الحصار العسكري على هذا الوالي في القلعة، حتى إذا كان ١٣ مايو سنة ١٨٠٥، عين الشعب محمد على واليا على مصر، وألبسه عمر مكرم والشيخ الشرقاوي حلة الملك، فكان أول وال في تاريخ مصر الحديث يوليه الشعب، قبل أن يوليه السلطان، ولما اشتد الحصار على (خورشيد) في القلعة، أرسل مندوبه إلى زعماء مصر، يقول لهم إنه

مولى من السلطان، وأنه لا يعزل من الفلاحين فرد عليه عمر مكرم قولته الخالدة، «إن الشريعة تجيز للرعية عزل الوالي، إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم».

ولما تولى محمد علي الملك، كان شديد الرعاية لمكانة عمر مكرم، لا يناديه إلا بالوالد العزيز، ويستمع له، ويعمل برأيه، حتى استتب الأمر له، فبدأ يرى ألا حق للشعب في مشاركته في الحكم، مع أنه يوم أن ولي أريكة الحكم، قبل هذا الحكم من عمر مكرم بشروط المصريين، وتعهد بأن يسير في الحكم سيرة العدل، فلما أحس عمر مكرم تحولا من محمد علي انقض عنه، واعتزل مجلسه، ولم يعد يتردد عليه، وحاول محمد علي أن يسترضيه كما استرضى سواه من العلماء، فرفض هذا التودد، حتى إذا شكا الناس من ضرائب محمد علي الجديدة، جهر عمر مكرم بمعارضته لصديقه الحاكم الجديد، وجمع الزعماء، وأعد وثيقة احتجاج ضمنها ما كان يأخذه الناس على (محمد علي) في حكمه، وأحس محمد علي بأن رياح المعارضة موشكة أن تهب، وأنها تنذر بشر مستطير، حاول أن يلين أمام المعارضين، حتى استمال الزعماء الآخرين دون عمر مكرم الذي أبى أن يفاوض أو أن يتساهل، ولما تخلى الزعيمان الشرقاوي والسادات وغيرهما عن عمر مكرم واستطاع محمد علي أن ينفيه إلى دمياط سنين إذ أخرجه من القاهرة في ١٢ من أغسطس سنة ١٨٠٩، فلما كانت ساعة الرحيل، خرج المصريون ألوفا لوداعه، ولم يعد إليها إلا في ٩ من يناير سنة ١٨١٩، ولكن حدثت قلاقل في مصر، جعلت المصريين يلتفتون لزعيمهم القديم فنفاه محمد علي في ١٠ ابريل سنة ١٨٢٢ ثم أذن له بالحج وبالعودة إلي القاهرة بعد الحج، فبقى في عزلة لا يلقى أحدا إلا خاصة أصدقائه، إلي أن توفاه الله.

ولى زعماء الشعب محمد على، على مصر، فكان ذلك كسبا لا ينكر، إذ إن هذه الواقعة أثبتت أن الشعب إرادة، وأن هذه الإرادة تنفذ وأنها تعلو على مكائد الأمراء المماليك، وعلى سلطة السلطان صاحب الولاية الشرعية على البلاد، وعلى دسائس الدول الأجنبية، وعلى الرغم من كل عيوب حكم محمد على، فإنه لم يكن فى وسع أحد من منافسيه سواء كان البرديسى أو الألفى، أن يحقق لمصر ما حققه لها، من إقامة دولة، ومن إنشاء جيشها وبناء أسطولها، وتحقيق فكرة الحكومة المصرية، غير الشخصية التى لم يكن الأمراء المماليك يفهمون غيرها، والتى لم تكن تركيا تريد أن تقوم على أرض مصر حكومة إلا إذا كانت على غرارها.

ولكن محمد على الذى أنشأ جيش مصر العظيم، من أبناء الفلاحين، الذين أثبتوا أنهم أصلح وأثبت فى ميادين القتال من الألبان والأتراك والديلم وكل الأجناس التى ألفت حرب العصابات فى مصر.. محمد على هذا لم يكن يثق فى المصريين ضباطا لجيشه ولا قادة، فقد خاف على سلطته منهم، وأحس بغريزته أن وصول الجندى المصرى إلى مرتبة القيادة، معناه انقضاء عهد الحكم الأجنبى المتمصر المتمثل فى شخصه. ومن هنا حال دون أبناء الفلاحين ومراكز القيادة وبقى الحال هكذا، حتى جاء أحد أبناء محمد على نفسه، وهو محمد سعيد وكان قد اختلف مع الباب العالى (تركيا) وأحس أنه لا سند له فى خصومته مع السلطان ومن حوله، إلا الشعب المصرى، فقرر أن يصطنع لنفسه سياسة مصرية.

ويقول أحمد عرابى فى مذكراته «إن (سعيدا) دعا عددا من رجال الدولة ووقف يخطب فيهم، فقال: أيها الاخوان إنى نظرت فى أحوال هذا

الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة.. وحيث إنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل».

ويقول عرابى إنه حينما فرغ من هذه الخطبة خرج الأمراء والعلماء من الأتراك والشراكسة، حانقين مما سمعوا، وخرج المصريون، فرحين بما قال الخديو وقد نفذ (سعيد) سياسته، فأمر بتجنيد أولاد العمد والمشايخ في الجيش وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية، وقد جند عرابى ضمن من جند من هؤلاء، ثم أخذ يترقى بناء على سياسة سعيد الجديدة في السلك العسكرى فعين ملازما من تحت السلاح سنة ١٨٥٨ وهو بعد في السابعة عشرة حتى وصل إلى رتبة البكباشى سنة ١٨٦٠ فرتبة القائمقام سنة ١٨٦١ ثم حظى برضا (سعيد) نفسه، فعينه مرافقا له (ياورا) ثم صحبه في رحلته إلى الحجاز، ووقع ظلم على (عرابى) في عهد الخديو إسماعيل وقد رفع عنه هذا الظلم بفضل شفاعة مرضعة الأمير الهامى شقيق زوجة الخديو.. فأنت ترى أن «عرابى» لم يكن بعيدا عن النظام الذى ثار عليه كما لم يكن عمر مكرم بعيدا عن النظام الذى حاربه ولكن لم يلبث الزعيمان أن تبينا فساد هذا النظام وإجحافه بحقوق الشعب، فوقفا منه موقف الخصومة، ولكن لم يبدأ أى من الزعيمين الحملة على هذا النظام إذا جاءت فكرة الثورة من الشعب نفسه ففى عهد إسماعيل بدأت بذور الثورة تلقى، أدرك الخديو إسماعيل أن الانجليز والفرنسيين والمرابين الأجانب، قد عقدوا العزم على خلعه

عن عرشه، وانهم يجدون من الباب العالي ترحيبا وتشجيعا لأسباب كثيرة كان من أهمها دسائس الأمير حليم الذي كان الوارث الطبيعي لعرش مصر، لولا أن الخديو إسماعيل غير قانون الوراثة في سنة ١٨٦٦ فجعل وراثة العرش في أكبر أولاده بعد أن كانت حقا لأكبر الذكور في العائلة العلوية، لذلك عمل الخديو إسماعيل على إنشاء رأى عام مصري، يؤيده ويحارب النفوذ الأجنبي وبفضل هذه الروح، تسربت أفكار ثورية إلى الجيش بلغت من قوتها أن قاد البكباشي لطيف سليم مظاهرة عسكرية في أخريات عهد الخديو إسماعيل وانتهت هذه المظاهرة بالاعتداء على نوبار باشا الأرمني الذي كان يرأس الوزارة في عهد إسماعيل، كما ضربت البريطاني ريفرز ولسن الذي كان وزيرا للمالية في وزارة نوبار... هذه المظاهرة التي وقعت في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ هي بداية الثورة العرابية، لأنها بداية اشتغال الجيش المصري بالسياسة، وبداية سقوط هيبة الحكومة ممثلة في رئيس وزرائها وأحد وزرائها.

لقد بدأت الثورة العرابية، في الصحافة التي كثرت جرائدها، وكثرت أقلامها، فاشتدت بفضلها، الحملة على التدخل الأجنبي، وعلى تضخم الفوائد الربوية التي عقدها إسماعيل مع البنوك والمرابين الأجانب، ولما فتح باب النقد، لم ينج الخديو إسماعيل نفسه من لاذع النقد، ولا يبعد أن يكون الاستعماريون أنفسهم ولا سيما الانجليز منهم وراء هذه الحملات، فهذا أسلوب الاستعمار المفضل: العمل على التهييج وإن ضد نفسه في فترات القلق لتتلاقم الأحداث، وتشتد حرارة العواطف، فيقال كل شيء، ويضطرب كل أمر.

وقد تكون الحزب الوطني في هذه الآونة أي في نوفمبر سنة ١٨٧٩، وتقدم بمطالب خاصة بالديون وفوائدها وضماناتها، وبدأ الضباط يترددون على منزل سلطان باشا الذي كانت تعقد فيه الاجتماعات، وإذا كان السبب المباشر الذي فجر غضب عرابي وإخوانه هو قانون ٣١ يوليو سنة ١٨٨٠ الذي وضع وزير الحربية الشركسي عثمان رفقي، والذي كان يؤدي إلى منع ترقي الجنود المصريين إلى رتبة الضابط، فإن الاصطدام كان حتمًا لا مفر منه حتى ولو لم يصدر هذا القانون، فالحكومة التي أقامها محمد علي بمعاونة الشعب وزعمائه، وفي مقدمتهم عمر مكرم، كانت قد أفلست ولم يعد عندها ما تقدمه، وكان لابد من سقوطها، ولو كانت الحركة الوطنية استمرت منذ عهد مكرم لكانت هي الوارث الطبيعي لهذه الحكومة ولكن هذه الحركة أوقفت قسرًا، بضغط الحكومة واستئثارها العام بالسلطة وإقصاء أبناء مصر عنها، وإذا كان بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الضباط حينما تقدموا إلى وزارة رياض باشا، بعريضة، ضمنوها مطالبهم، وأن هذه المطالب اقتصرت على أمور تخصهم، تتصل بالترقية في الجيش، فإن هذا ليس مطعنًا في الحركة العرابية فهذا هو المدخل الطبيعي لجميع الثورات، القليل منها يؤدي إلى الكثير والكبير يؤدي إلى ما هو أكبر منه وهكذا، وفي بداية الثورات تندمج المطالب الخاصة في المطالب العامة، ذلك لأن الحاكم المستبد، يحس بأن إجابة أي مطلب، للقوة الجديدة الناشئة التي جرى على إهمالها وازدرائها هو بدء انهياره هو، ولو أجابت وزارة رياض الضباط الى طلباتهم العسكرية البحتة، وعزلت رفقي وزير الحربية الشركسي، لكان معنى هذا أن الثورة بدأت فقط ـ ولكان من

المستحيل بعد ذلك أن تقف، إذ إن استمرار ترقى الضباط المصريين إلى المراتب العليا فى الجيش معناه أن الجيش المصرى سيؤول أمره إلى الضباط المصريين فى سنين قليلة، وإذا أحست دوائر الحكومة، وأحس الشعب معها أن الجيش الذى كانت تحكمه العناصر الأجنبية تركية وشركسية وانجليزية وفرنسية وأمريكية، أصبح منطقة نفوذ مصرية، فإن الجميع سيتجهون إلى كبار ضباط الجيش المصرى، وسيتحرون رغباتهم، وسيقفون توجيهاتهم، فتسقط حكومة الخديو، من غير أن تطلق طلقة نار واحدة ولقد أدرك الخديو إسماعيل وحكومته كل هذا بغريزة الحاكم المستبد، فقد وقف ترقية عرابى بعد أن وصل عرابى إلى رتبة القائمقام، لأنه فهم أن مصر كلها قد بلغت بهذه الترقية رتبة (القائمقام)، وهى رتبة أقرب ما تكون من مراتب الرياسة الكبرى، لذلك لم يكن وقف ترقية عرابى عند هذا الحد اضطهادا شخصيا من الخديو لعرابى، وإنما كان قرارا سياسيا الغاية منه أن تقف مصر كلها بعيدا عن مناصب الحكم وعن مواطن السياسة الكبرى.

وإذا كانت الحرب قد وقعت بعد ذلك بين مصر وبريطانيا، بعد أن تولى الضباط الوزارة برياسة (البارودى)، فى حين كان عرابى وزيرا للحربية، فنحن نخطىء إذ نتصور أن سبب هذه الحرب أن الدستور المصرى الصادر فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١، قد منح مجلس النواب حق مناقشة الميزانية وأن الانجليز والفرنسيين أشفقوا من ذلك لأن تدخل النواب فى وضع الميزانية يمكن أن يؤدى إلى المساس بضمانات الديون الأوروبية، ذلك أن الحرب كانت قد تقررت منذ أحس الإستعماريون أن رأيا عاما مصريا تكون، وأن حركة وطنية قد ولدت،

وأن هذا الرأى العام، سينمو سريعا، وستنمو معه الحركة الوطنية، مالم يضربا وهما طفلان صغيران، وقد حدث ذلك.

وقعت الحرب وهزمت مصر، وهزم عرابي وإخوانه، وعلى الرغم من أن هذه الحرب لم تدخل في حساب الضباط المصريين، ولم يحسنوا الاستعداد لها، لأكثر من اعتبار، فإن الشعب المصرى الذى وقف ضد المماليك، ثم ضد الفرنسيين، والذى هم بالوقوف ضد محمد علي، أثبت أن أهدافه القديمة لاتزال هي أهدافه العزيزة عليه، وأنه مستعد أن يقاتل في سبيلها، ولذلك كان من السهل أن تتكون جمعية وطنية، وأن تصدر في ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ من القرارات ما يحيل هذه الجمعية الوطنية و(المجلس العرفي)، إلى مجلس حرب، ولما انضم (توفيق) إلى الانجليز ثم عزل (عرابي) لم تحفل هذه الجمعية الوطنية بهذا العزل، وثبتت عرابي في مكانه في وزارة الحربية، واعتبرت نفسها الحكومة الشرعية، واعتبرت (توفيق) خائنا ومعزولا، ولقب (عرابي) من الشعب «بحامى حمى الديار المصرية» ووقفت الأمة كلها من ورائه تبذل الأموال والمهج، وتشتعل حماسة وحمية، وقد كانت هذه الحماسة وتلك الحمية، كفيلتين بإنجاح عرابي سياسيا وعسكريا، أو سياسيا على الأقل، لو أن الثورة دبر لها كما يجب أن يدبر الثورات، ولو تترع عرابي بشيء من سوء الظن في دليسبس ووعوده وبشيء أكثر من الحزم مع توفيق وأتباعه.

وإذا كانت الهزيمة العسكرية قد حلت بمصر في معارك الشرق عند قناة السويس وإذا كانت الهزيمة الكبرى قد تمت بدخول الجيش البريطاني إلى القاهرة، في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، فإن هذه الثورة، لم تمض بغير أثر باق، فقد أعلنت هذه الثورة أن إرادة الشعب المصرى

التي أعلنها عمر مكرم في أوائل القرن التاسع عشر، ولدت لتبقى، وأنها لن تموت، وأن الأمر، أمر سنوات، قد تطول وقد تقصر، ولكن هذه الإرادة سيتم انتصارها.. على أن هذه الثورة قد أثبتت شيئا مهما، لم تخطئه عين المؤرخين، ولا عين المراقبين السياسيين ذلك أن نظام الحكم الخديوى الذى أسسه محمد على قد أفلس تماما، وقد أثبتت الأيام التالية لدخول الانجليز إلى مصر، هذا الإفلاس، فقد انتزع الانجليز الحكم من يد الخديو توفيق، ومن يد كل الذين جاءوا بعده من أفراد الأسرة المالكة العلوية، وأصبح الأمر كله لبريطانيا تدير شئون مصر على هداها، حتى بدأت المقاومة المصرية تستعيد وجودها بقيادة «مصطفى كامل» والحزب الوطنى.

ولقد كان فى الوسع أن تبدأ هذه المقاومة عملها بعد الهزيمة العسكرية لو أن (عرابى) لم يؤثر وقف القتال والجهاد معا بعد وقعة التل الكبير، أو على الأقل لم يسلم نفسه للإنجليز، ولم يرتض أن يدافع عنه انجليزيان وأن يوقع إقرارا يتضمن اعترافه على نفسه بارتكاب جريمة عصيان الخديو، ولكن هذه المقاومة لم يطل على استئناف نشاطها الوقت فقد نفضت عنها غبار اليأس وبدأت تعمل.

واستمرت تعمل ضد الأعداء أنفسهم، الحكم الفاسد المستبد فى الداخل، والسيطرة الأجنبية من الخارج، وقد زادت الحركة الوطنية من قواها، ونظمت صفوفها، وكانت موشكة أن تخوض معارك واسعة النطاق، كانت مظاهرات ٣١ من مارس سنة ١٩١٩ وأول ابريل من السنة نفسها احتجاجا على قانون الصحافة، بدايتها .. لكن الحرب العالمية الأولى دهمت هذه الحركة الوطنية، ووقفت نشاطها، إذ أعلنت

الأحكام العرفية فأصبح في وسع بريطانيا أن تطارد الوطنيين، وأن تنفى بعضهم فى مالطة، وأن تضع البعض الآخر في المعتقلات في مصر، كما أصبح في الوسع تكميم الصحافة. ولذلك اتجهت الحركة الوطنية الى العمل السرى فتوالت عمليات القتل السياسي والشروع فيه، خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية وفترة الحرب نفسها، فلما وضعت الحرب أوزارها، كان التحضير للثورة قد أتى ثمرة فانفجرت فى ٩ من مارس سنة ١٩١٩.. بمناسبة اعتقال «سعد زغلول» وأصحابه «إسماعيل صدقي» و«محمد محمود» و«حمد الباسل». ولم يكن هذا الاعتقال إلا مجرد مناسبة فقد كان الغضب الوطنى قد كمل، وكان لابد له أن ينفجر بصورة أو أخرى.

وإذا كان الزعماء الذين ظهرت أسماؤهم في هذه الثورة قد ترددوا أول الأمر في السبيل الذى يسلكونه، فإن الشعب كان قد عرف طريقه فلما اختفى هؤلاء الزعماء بالنفي، انطلق في ثورته الشاملة، وأقام متاريسه، ونظم صفوفه، وكأنه ابن ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨، أو ثورة مارس سنة ١٨٠٠، وكأن عمر مكرم قد بعث من قبره.

وإذا كان عمر مكرم وعرابي، قد خرجا من بطن النظام القديم الذي حارباه، فإن سعد زغلول كان قطبا من أقطاب هذا النظام وعميدا من عمدائه، ولذلك لما سمع بالنية على إرسال وفد إلى الخارج ليطالب في مؤتمر «فرساي» بباريس رفض الفكرة واستخفها، فلما أعلمه رشدي رئيس الوزراء وعدلي الوزير بأن السلطان فؤاد على علم بهذا المسعي وأنه يقره قال في مذكراته على مانشرته وثائق ثورة ١٩١٩ المعنونة (٥٠ عاما على ثورة سنة ١٩١٩) «ورأيت من الواجب أن أعرض الأمر على السلطان فحدد لي الساعة الخامسة ....».

وإذا كان زعماء الثورة، قد فوجئوا باندلاعها وهم في منفاهم في مالطة، وإذا كان زعيمها قد استبعد وقوعها لأسباب ظنها معقولة فإنهم لم يلبثوا حتى جرفتهم حماسة الشعب، وإصرارهم على قتال أعدائه: السلطان في الداخل، والانجليز من الخارج، ومضت الثورة باهرة وعظيمة، حتى تفتتت الوحدة، ونجح الانجليز في تحويلها إلى حرب داخلية».

ولكن على الرغم من كل ما تعثرت فيه الحركة الوطنية في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ فإنها بحكم كونها امتدادا للثورات السابقة عليها، أكدت الأهداف الوطنية فسار الشعب في الطريق المرسوم منذ عمر مكرم، يأبى إلا أن تقوم في بلاده حكومة وطنية نظيفة وعادلة، وأن يقوم حكم دستوري صحيح وسليم، وأن يكون لمصر جيش وطني قوي وقادر على الدفاع عن البلاد، وأن تكون مصر أمة مستقلة، فلما لم تستطع القوى الوطنية التي نشأت بعد ثورة سنة ١٩١٩ أن تحقق هذه الأهداف، وكان الجيش المصري الذي أنشأه محمد علي، وأسند قيادته إلى ضباط موالين له، من غير المصريين قد استطاع أن يحقق ما أراده عرابي من أن تكون القيادة فيه مصرية، فإنه لم يكن ممكنا أن يبقى هذا الجيش المصري بعيدا عن السياسة ولاسيما عندما يسوء الأمر، ويصاب العرض المصري بما يعتبر انتهاكا دائما للشرف.

وثورة ٢٣ يوليو، تشبه الثورات الثلاث السابقة في أشياء، وتختلف عنها في أشياء:

تتلاقى مع الثورات السابقة في:

أولا- حاربت من نفس أهداف الثورات السابقة .

ثانيا: وحاربت الأعداء أنفسهم.
ثالثا: وحاربت في الظروف نفسها.
رابعا: حاربت بالوسائل نفسها.

أما الأهداف فقد عرفنا أن عمر مكرم حينما حارب المماليك، ثم الفرنسيين، ثم محمد علي، فقد كانت الغاية من حربه، تحرير المصريين من حكم ظالم فاسد شديد، مضيع على الناس ثرواتهم، ومهدد لأمنهم، ومانع من تقدمهم، وحارب في الوقت نفسه غزاة أجانب مسلمين ومسيحيين، يأبون أن يدعوا للمصريين بلادهم، فيتنفسوا حريتهم في تدبير شئونهم، وتقرير مصيرهم، وبعد مائة وخمسين سنة، كانت مصر تشكو من الحال نفسه، حاكم مصري، فاسد، مستبد، مبدد لثروات البلاد، ومضيع لطاقاتها.. ومهدد لأمن الناس، معتد على كراماتهم، وحكم أجنبي دخيل، هو صاحب الكلمة العليا في شئون مصر، يتخذ من الملك المصري ستارا لأغراضه، وقناعا لنشاطه، وكما طالب عمر مكرم أن يلتزم المماليك ومحمد علي من بعده دستورا في الحكم يمنع الحاكم من أن تمتد يده إلى أرزاق أو حريات أو أعراض الناس، طالبت ثورة ٢٣ يوليو بحكم دستوري سليم.

والذين حاربوا عمر مكرم ظاهرين ومختفين، وحالوا بينه وبين غايته هم نفس الذين حاربوا ثورة ٢٣ يوليو وعملوا على إحباط نشاطها، وتعويق جهادها، العائلة المالكة التي أسسها محمد علي، والانجليز والفرنسيون.

وقد كانت الظروف التي حارب فيها عمر مكرم وأحمد عرابي، هي نفس ظروف ميلاد ثورة ١٩٥٢، وهي نفس ظروف سنة ١٩١٩، مظالم

متراكمة، يرتكبها الحاكم المصرى مستندا إلى الأجانب أو الأجانب مختفين وراء الحاكم المصرى، أو الاثنين متعاونين ومتحالفين ومجتمعين على مصر والمصريين.

بل إن بعض الظروف تكرر وقوعها فى ثورة عرابى و٢٣ يوليو، فقد كانت هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة، وعجز قيادة الجيش، وسوء التدبير للمعركة، وفساد الأسلحة، والسرقات والاختلاسات فى المال العام، أشبه ما تكون بهزيمة الجيش المصرى فى فلسطين سنة ١٩٤٨، وما اقترن بهذه الهزيمة من الأدلة الصارخة على عجز القيادة، وسوء التدبير والتدريب، وخيانة الأمانة العامة، واختلاس المال العام.

وإذا كان الجيش المصرى لم يخلق إلا بعد قيام دولة محمد على، فلم يلعب دورا فى الثورات التى قادها عمر مكرم، إلا أن الشعب المصرى، كون من نفسه فرقا تعاونت مع الفرق العسكرية الأجنبية كفرق الألبان مثلا، وكانت جموع الشعب المصرى، غير المدربة أصلا على القتال المنظم، تقوم بالأعمال العسكرية بنفس الكفاءة التى تقوم بها الفرق العسكرية التى كانت تسمى جيوشا، وهى لاتزيد على أن تكون جموعا سيئة التدريب، تنقصها الطاعة ويعوزها النظام، وتفتقد فكرة الجيش وتضامنه وولاءه.

ولكن الجيش المصرى لعب فى ثورة عرابى، الدور الرئيسى الذى لعبه الجيش فى ثورة سنة ١٩٥٢ وقد كتب لقواد الجيش أن يستولوا على الحكومة، بطريق مشروع، بموافقة الحاكم وهو الخديو توفيق، ودانت لهم أجهزة الدولة ولكن لم يطل بقاؤهم فى الحكم.

وقد اختفى الجيش المصرى من مسرح الأحداث فى ثورة سنة ١٩١٩، ولكنه بقى يلوح فى الأفق يبتعد عن المسرح ويقترب، فقد

أضربت الكليات العسكرية وخرجت بسلاحها إلى الشوارع مؤيدة لثورة الشعب، ثم المشاركة الكاملة من قوات الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤، التى كانت بأحداثها، ابتداء من مقتل السردار حتى سحب الجيش المصرى من السودان، امتدادا لثورة سنة ١٩١٩.

ولكن ثورة سنة ١٩٥٢ تختلف عن سابقاتها فى كثير.

وأول وجه من وجوه الاختلاف أن قادة ثورة سنة ١٩٥٢ كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة، فهم أقرب إلي الطبقات العاملة، وقد عرف أكثرهم فى حياته، ضيق الرزق، وشظف الحياة، فقد كان آباء أكثرهم من صغار الكتبة في الدواوين الحكومية، أو من صغار الملاك في حين أن زعماء ثورات القرن التاسع عشر، وفى مقدمتهم عمر مكرم، كانوا ينتمون إلي الطبقة الارستقراطية، فعمر مكرم نفسه كان نقيب الأشراف، وأن لم يكن في مثل غنى «الشرقاوى» و«المهدى» و«الدواخلى» و«المحروق»، ولكنه كان على صلة وثيقة وقريبة بالحكم الأعلى، وكان معدودا بين الأغنياء.

أما زعماء ثورة سنة ١٨٨١ فقد كان بعضهم من أبناء الطبقة المتوسطة الكبيرة، وقد أصبحوا فيما بعد من أعضاء الطبقة الأولى فى البلاد، وكان منهم من هو عضو أصلا فى تلك الطبقة كمحمود سامى البارودى باشا، ولكنهم جميعا كانوا قبل الثورة بكوات وباشوات، أى فى قمة المجتمع المصرى.

أما زعماء ثورة سنة ١٩١٩ فقد كانوا جميعا تقريبا من أغنياء مصر، فقد كان منهم «محمود باشا سليمان» و«إبراهيم باشا سعيد» و«أحمد بك لطفى» و«السيد على باشا شعراوى» و«محمد باشا محمود»

وسينوت بك حنا» و«واصف باشا غالي» وهؤلاء من ذوى الثراء البعيد، أما «سعد زغلول» زعيم الثورة نفسه فقد اقتنى قبل الثورة مئات الأفدنة، وإن كان بعضها قد بدد فالأسباب لا علاقة لها بالحياة العامة، وأيا كان السبب، فهو لا يمنع انتماءه إلى طبقة الأغنياء وذوى النفوذ العريض وقد جاءت مصاهرته لمصطفى باشا فهمي ولأسرة سرهنك باشا تأكيدا لانتمائه للطبقة الارستقراطية، ولكنه كان يقول من باب البلاغة الخطابية إنه من أبناء ذوى الجلاليب الزرقاء.

ووجه الاختلاف الثاني أن ثورة سنة ١٩٥٢ هي الثورة الوحيدة التي تم لها نجاح كامل فقد استولت على السلطة استيلاء تاما، ودام استيلاؤها عليها، وتسييرها لشئون الدولة منذ قامت حتى اليوم، وكان هذا الاستيلاء على وجه من الاستقرار والثبات لم يكتب لثورة أخرى في المنطقة العربية ولم يكتب لثورات كثيرة سواها في العالم كله.

والوجه الثالث أن ثورة سنة ١٩٥٢، هي الثورة التي استطاعت أن تصمد في وجه كل أنواع التدخل والضغط الخارجي من قوى هائلة، في حين كان التدخل الأجنبي ناجحا في ثورة عمر مكرم، بل وفي عهد محمد علي، وفي ثورة عرابي وفي ثورة سنة ١٩١٩.

أما وجه الاختلاف الرابع، فهو أن ثورة سنة ١٩٥٢ هي الثورة التي خرجت من النطاق السياسي البحت، إلى النطاق الاجتماعي، وأنها تجاوزت دور التحرر الوطني، إلى دور التغيير الاجتماعي والاقتصادي، وأنها وضعت لنفسها برنامجا، على مر السنين، وقد زاد هذا الدور بفضل الأحداث الكبرى التي لابست الثورة، والتي ترتب عليها في الداخل وفي الخارج وفي المحيطين العربي والعالمي وضوحا حتى كاد يكون برنامجا ذا خصائص مصرية.

أما الوجه الخامس، فهو إدراك قيادة ثورة سنة ١٩٥٢ مدى الارتباط الوثيق بين أجزاء المنطقة العربية، وضخامة الدور الذى تهيئت للقيام به هذه المنطقة فى حقب التاريخ الكبرى وفى ثراء هذه المنطقة المادى والروحى، وقد غابت هذه الحقائق عن زعماء الثورات السابقة، وإذا كان للثورتين الأوليين بعض العذر، للظروف التى كانت سائدة وقتذاك فى المنطقة العربية، فإنه لا عذر لثورة سنة ١٩١٩ وزعمائها وقد كان فى مقدورهم أن يلعبوا دورا كبيرا فى الشرق العربى، خصوصا فى المراحل التالية لبدء الثورة ـ لو أنهم كانوا أوسع أفقا، وأكثر إطلاعا على التاريخ.

وترتب على هذا الوجه الأخير مباشرة السمة العالمية لثورة سنة ١٩٥٢، فإن أثرها تجاوز المنطقة العربية إلى المحيط الافريقى والأسيوى، حتى كان لها فضل المساهمة الفعالة فى خلق العالم الثالث.

لقد كان دور مصر دائما دورا عالميا حتى وهى فى فترات الانحسار والضعف، بل وهى كرة يتقاذفها الغزاة والفاتحون، فإن خصائص وجودها الجغرافى، وخصائص تراثها التاريخى، يجعلها مركزا عالميا، وميدانا عالميا، ولقد حد من طاقة مصر من النهوض بهذا الدور، القيود السياسية والاجتماعية، التى كبلتها، ولما سقطت هذه القيود فى أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢ وخلالها، أصبح فى مقدور مصر أن تلعب دورها فى أوسع صوره وأعلاها، وأحسب أن السنين القليلة القادمة ستشهد ذلك، وهو فى واقع الأمر، فى أشد الحاجة إليه.

محمد نجيب
الرجل الذى تحالفت عليه
فضائله وعيوبه *

استوقف نظرى وأنا طالب بكلية الحقوق الكائنة على جانب من حديقة الأورمان غير بعيد من حديقة الحيوان بالجيزة .. استوقف نظرى، ضابط يأتى الى مبنى هذه الكلية فى الأمسيات فى الأغلب الاعم وفى الاضاحى فى القليل النادر وكان مجيئه الى الكلية فى زيه العسكرى دائما ، وتحت أبطه عدد من الكتب ، وكان يسير وحيدا ، ويمضى فى طريقه ، صامتا ، ولما اقتربت منه مرة ، رأيت على قسمات وجهه ، علائم وجوم وانقباض ، لم أعرف سرهما .

ومضت السنون تلو السنين ، وأنا لا أعرف من يكون هذا ، الضابط؟، وما سر تردده على الكلية ؟ ولم يخطر على بالى أقرب تفسير ، لهذه الزيارات المتعددة من هذا الضابط الوحيد الصامت ، وهو كونه طالبا بالكلية ، يطلب العلم فيها ، يسعى للحصول على إجازة من إجازاتها ولكن قلة عدد الكبار فى السن الذين يطلبون العلم بعد أن تقدم بهم العمر ، ولو كان العلم الذى يطلبونه ، عن سبيل الدراسات

---

* هلال - نوفمبر ١٩٨٤ .

العليا ، هذه القلة هي التي صرفت ذهني عن تصور أن هذا الطالب كان واحدا من طالبي العلم ، توطئة للحصول علي الدكتوراه .

وتعاقبت الأعوام ، وأصبحت محامياً ، ووكلت في قضية عسكرية وقعت في مطار القاهرة الذي كان يومذاك ، مطارا صغيرا ، اسمه (مطار ألماظة) ولما كان مطار العاصمة منطقة عسكرية ، فقد كان الاختصاص القضائي بالنسبة للقضية التي وكلت فيها ، هو سلاح الحدود ، وكان آنذاك خاضعا لضابط كبير في الجيش اسمه اللواء «محمد نجيب» واقتضاني متابعة التحقيق أن أقابل قائد السلاح وأعرض عليه ما يخص موكلي . وهناك في مكتب القائد رأيت هذا الضابط الذي رأيته كثيرا في ساحة كلية الحقوق وتأملت وجهه الذي كنت ألمحه من بعد فرأيته وجها مريحا ، تفيض قسماته بالطيبة ، وكان أركان حرب هذا القائد ، ضابطا شابا أعده من أولادي الذين بدأوا حياتهم السياسية ، وهم بعد تلاميذ في المدارس الثانوية . وأعني به أحمد لطفي واكد ، أحد قادة حزب التجمع فأحسن استقبالي ، وعرفت منه أن قائده هو اللواء محمد نجيب ، وأنه حاصل علي أكثر من دبلوم من دبلومات الدراسة القانونية العليا التي تؤهله ، للحصول على الدكتوراه وتبسط الرجل ولانت أسرار وجهه ، وعرفت فيه أنه يحب أن يتكلم ، ويفضي لمن يصادفهم في طريقه بذات نفسه بلا تحفظ ولا تعال.

وكانت القضية التي جئت أحدثه بشأنها طريفة فقد كان موكلي متهما - بأنه بوصفه (طيارا) مدنيا - بادخال عدد من الكيلوات من مخدر الي مصر ، ولما كان طاقم الطائرة التي نسب اليها أنه قام بالشروع في ارتكاب هذه الجريمة مكونا من عدد من الضابط فكانت الجريمة (شائعة) ومعنى ذلك قانونا أن سلطة الاتهام لا تعرف بالضبط

على وجه التحديد من الذى ارتكبها ولذلك فقد رأى مكتب مكافحة المخدرات أن يدس على موكلى أحد مخبريه فترسله الى بيته خادما يعرض خدماته على الطيار المتهم . فرحب بالمخبر وأرسله الى بيته . وانتهزت زوجة الضابط فرصة انها ظفرت بخادم قوى البدن نشيط ، ومستعد لتلقى الأوامر من سيدة البيت وتنفيذها ، فأسرفت في استغلال نشاطه وحسن استعداده للخدمة ، فكلفته بالكثير حتى ناء المخبر تحت أعباء هذه الخدمة التى لم تكن فى الحسبان ، وقد ضحك محمد نجيب كثيرا على هذه الواقعة وأطلق لسانه ، فحدثنا طويلا فى أكثر من موضوع .

وكانت المقابلة الثانية بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، وعلى باب رئيس الوزراء المدنى فى الأيام الأولى للثورة ، وهو على ماهر باشا الذى ولى رياسة الوزارة مرتين سابقتين قبل نشوب الثورة ، وحييت قائد الثورة يومداك والملك فاروق لايزال على عرش مصر ، وبدا لى محمد نجيب فى هذه اللحظة ، فى أعلى مراتب حالته المعنوية ، وان بدا عليه أيضا أنه مشتت الخاطر ، لأن هذه اللحظة كانت المدخل لأحداث كبرى ، سيكون هو بطلها ، وأكبر اسم من أسماء القائمين بتبعاتها ، والمقتحمين على مخاطرها ، وقد تبادلت الحديث مع أنور السادات الذى كان يرافق محمد نجيب في زيارة على ماهر ، والذى كنت أعرفه أكثر مما أعرف أى ضابط من ضباط الثورة ، وطلبت منه موعدا ، وقد تم لقائى به فى اليوم التالى فى تكنات مصطفى باشا بالإسكندرية ..

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى كان القدر قد قرر أن أكون من أقرب الناس الى قائد ثورة عام ١٩٥٢ ، وزعيمها المحبوب ، فقد شاء هذا القدر أن أكون الوزير المدنى الوحيد الذى شارك فى مداولات

وقرارات تأليف أول وزارة تؤلفها قيادة الثورة ، ثم لم ألبث حتى أصبح اللواء محمد نجيب وأنا فى مبنى واحد ، يقيم هو فى الدور الأول بمبنى رياسة مجلس الوزراء بقصر الأميرة شويكار سابقا - فى مواجهة البرلمان ، وأنا فى الدور الثانى ، وفى حجرة تعلو حجرة الرئيس ، وكان بيننا تليفون ، لا يكاد يرفعه حتى أسمع صوته ، ولا أكاد أرفعه حتى يسمع صوتى بلا وسيط وقد شعرت منذ اللحظة الأولى لتعاوننا ، أن الرئيس ، لا يرحب كثيرا بوجودى معه فى مبنى واحد ، ولا بإقامتى الرسمية فوق حجرته ، فتحاشيت التردد عليه فى مكتبه كما كان يقضى بذلك مكانى كوزير دولة وحيد فى الوزارة ، وكانت العادة قد جرت قبل الثورة على أن وزير الدولة فى الوزارة ، يكون بمثابة وزير مشرف على شئون مجلس الوزراء ومكتب الرئيس وكان سكرتير مجلس الوزراء المرحوم محمد ثابت ، يعرف هذا التقليد ، فعاملنى بمقتضاه ، ولكن لهذا حديث آخر .

ومضت الأحداث على الوجه الذى أصبح كل الناس أو أكثرهم يعرفه أو يعرف ملامحه الرئيسية ، وفى هذه الأحداث بدت لى فضائل محمد نجيب الرئيسية وهى فضائل تعتبر أكبر عدة لأى زعيم يقود حركة قومية فى وجه شباب هائل وخصوم أقوياء .

كان محمد نجيب أمينا ونزيها الى أقصى الحدود .

وكان محمد نجيب شجاعا لا يخاف شيئا ولا شخصا . وكان آخر الأمر جذابا يحصل على حب الجموع والأفراد ، بغير قصد منه ولا سعى هبة من الله ، الذى يهب بعض الناس وجوها جذابة ويهب الآخرين أصواتا جميلة ، ويهب فريقا ثالثا ما لا يعد ولا يحصى .

هذه الصفات الثلاث ، قفزت به الى مرتبة الزعامة الحقيقية التي تستأثر بالقلوب من اللحظة الأولى ، ولكنها كانت جميعا سبب محنته ومصدر متاعبه .

فأمانته جعلته عنيدا ورافضا لكل قرار فيه قبول لرأى الآخرين إذا أحس أن من وراء هذا القرار ، نزولا عن تعاليه .

بدأت الثورة وهو يسكن منزلا صغيرا فى الزيتون ، ولم يكن لائقا برئيس دولة بكل المعايير ، فهو مضطر لأن يستقبل مئات فى وقت واحد ، وليس فى المنزل حجرة واحدة تتسع لعشرين شخصا ، وقد توعك فى يوم وذهبت أزوره في حجرة نومه وكان هناك أحد الاصدقاء وهو عضو بارز بإدارة قضايا الأوقاف ، فكنا نتحرك بصعوبة في الفراغ القليل الذي يتركه لنا سريره ، وهممت أن أشير الى هذا ولو بعبارة قصيرة فرأيت على وجهه من علائم الرضا بحاله ، والتشبث بهذه الدار الصغيرة المسرفة في التواضع ، ما أسكتني ، وقد سمعت جمال عبدالناصر يعلق على مسكن الرئيس نجيب فى هذا المنزل بشىء من المرارة قائلا . «احنا بنبالغ فى كل شىء .. رئيس الجمهورية يستقبل مراسلين أجانب ، فهل هذا مكان يليق بهذا» ، وفى ذات يوم كان مضطرا العودة الى مكتبه في موعد مبكر بعد الظهر ، فاقترح عليه ياوره أن يقضى فترة قليلة في استراحة حكومية قريبة من القاهرة فقال. أنت عاوز يحاكمونا .

ولكني أشهد أنه لم يتحدث عن تقشفه أو زهده ولو عرضا ، مما يقطع بأن هذه صفته التي جبل عليها ، ولم تكن رياضة روحية يمارسها، ولا محاولة لاتقاء مواطن الشبهة أما شجاعته فقد كان مسلكه

فى الحرب ، وتصديه للمخاطر ، واصابته فى مقاتل من جسمه أكثر من مرة ، دليلا على هذه الشجاعة ، بيد أن قبوله لرياسة الجماعة التى قامت بالثورة قبل أن تتم الثورة خطوتها الأولي والحاسمة ، وهى اعلان هذه الثورة ، ثم عزل الملك ، واسقاط النظام القديم كله ، هذا كله قمة الشجاعة ، وعدم الالتفات الى النتائج الرهيبة والمخيفة التى يمكن أن تنجم عن هذه المحاولة الثورية ، هو قفز الى المجهول بغير تردد .

ولا يغير فى قيمة هذه الخطوة أو ينقص منها ولو بمقدار خردلة ، أنه لم يكن عضوا فى هيئة الضباط الأحرار ، ولو صح أنه جلس فى بيته ينتظر دعوته الى الذهاب الي مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، فان الخطر الذى كان ينتظر قائد هذه الحركة ، كان يمكن أن يتحقق بعد اعلان بيان الثورة بساعة أو ساعات ، أو بيوم أو أيام وعدم معرفته بالخطوات التى عقبت دعوته إلى رياسة حركة الثوار ، يزيد من فضله ، لانه يدل على عدم تأكده من سلامة الخطوات التى قام بها الضباط وأنهم لم يرتكبوا خطأ يؤدى بهم وبه . على أن الثابت أن محمد نجيب تحدي النظام الملكي قبل نشوب الثورة ، وكانت قمة التحدي ترشيح نفسه لرياسة نادى الجيش ، واسقاط مرشح القصر اللواء حسين سرى عامر ، وقد أصدر الملك عقب ظهور نتيجة انتخابات نادي الجيش ، قرارا بغلق هذا النادي ، ويعتبر ترشيح اللواء محمد نجيب نفسه ضد مرشح الملك ، واسقاط هذا المرشح بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الملك .

وكانت مواقف محمد نجيب من الفريق حيدر باشا القائد العام الجيش ، وياور جلالة الملك ، مشهورة وكلها تصدر عن استخفاف بهذا القائد الملكي والحرص على احراجه وعدم احترامه .

وقد عرض منصب رئيس حركة الثوار على اللواء احمد فؤاد صادق قائد عام القوات المسلحة السابق ، فرفض هذا العرض بحجة أنه لا يريد أن يكون (عرابي الثاني) ومعنى هذا الكلام انه لا يستبعد أن يكون نصيب هذه الحركة الفشل ، وان فشله ، قد يستتبع تصادما بين الملك وسلطانه وقواته وبين الضباط الشبان الثائرين ومن قد ينضم اليهم .

فإذا كان هذا التصور لم يقم في خيال محمد نجيب ولم يتأثر به ولم يدخله في حساب خدمة كبرى للثورة ، لا يجوز أن نغفلها من حسابنا ونحن نقوم دور محمد نجيب .

أما جاذبية محمد نجيب ، وقدرته على الظفر بحب الجماهير ، الى درجة الاستهواء فقد كان شيئا ضخما للثورة ، تخطت به العقبات الأولى عقب ميلادها فالشبان الذين قاموا بالثورة كانوا مجهولين من الشعب من جهة ، وصغار السن من جهة أخرى ، وكانوا يتحدون النظام القائم في البلاد بشقيه الرسمي والشعبي . فقد كان في مصر زعامة مضى عليها أكثر من ربع قرن .. واسم صاحب هذه الزعامة ، يتردد على الاسماع في كل مدينة وكفر ونجع ، وكانت صورته تزين البيوت والمحال العامة ، وكان ينجح في كل انتخابات ويظفر بالأغلبية . ولذلك كان من الصعب وربما المستحيل أن تستقبل جماهير الشعب قائد هذه الثورة التي فاجئت البلاد ، بالحب والترحيب وأن يبدو أنه هروب من التأييد والإعجاب ما فاق تعلق هذه الجماهير ذاتها بزعيمها الذي هتفت له وبايعته سنوات عديدة ، وفي وجه شدائد متوالية ولكن الذي ظهر

فجأة ، أن محمد نجيب ظفر بالحب الذى كان من نصيب الزعيم السابق، وجرت الجموع وراء محمد نجيب فى كل مكان ، واحتشدت الألوف ، على جانبي طريقه من القاهـرة حتى أسوان ، ومن القاهرة الى الإسكندرية . وجرى الألوف وراء سيارته وقطاره ، وكان كل ذلك مبايعة لقائد الثورة الجديد ، وهياما بشخصه وتعلقا جارفا بزعامته وقيادته .

هذه الفضائل لم تدع طريق محمد نجيب ، سهلا مفروشا بالأزهار والرياحين ، وإن كانت جديرة بحشد الأمة حوله ورفض ازاحته ، فقد كانت زعامته وسحرها كفيلين بأن يبعث الخوف منه : وإذا كان ذكاء المرء محسوبا عليه فأن مواهب الزعيم وفضائله محسوبة عليه .

الا أن الخلاف الذى دب بينه وبين الزعيم المدبر للثورة ونعنى به جمال عبدالناصر ، كان طبيعيا وحتميا ، فمحمد نجيب كان شيخا بين شبان ، وكان التجانس بين الشبان أول الأمر . يقابله تباين بينهم وبين قائدهم الرسمي ، وقد كانوا يحبونه اول الامر ، لأنه يثير الحب فى القلوب بيسر وبلا جهد ، وقد سمعت من عبداللطيف البغدادى أنه كان يحبه أكثر مما كان يحب اباه ، ولكن هذا الحب ما لبث أن انطفأ حينما كشفت الطبقات المتربصة الثورة عن أنيابها ، وأرادت أن تضرب عناصر الثورة بعضها ببعض . وقد رأى محمد نجيب لسوء الحظ أنه أقرب الى زعماء العهد القديم وقد أعلن ذلك من حيث لا يدرى بمكالمة تليفونية مع مصطفى النحاس ، عزى نفسه فيها بقوله :

أنا المذنب ..

ولكنى لا أظن أن محمد نجيب قرر أن ينقلب على الثورة أو يعمل ضدها ، فقرار مثل هذا لم يمر بخاطره ، ولكنه اندفع فى الاتصالات والتصريحات بما زاد الجفـوة بينه وبين الشـبان ، ولم تقف هذه الجفوة عند حد ، فقد اتفق كثيرون من خصوم الثورة ، أن يلتفـوا حـوله ، ويختفوا وراءه ، فأصبح من المستحيل استمرار التعاون بين الفريقين .

ولما كان محمد نجيب ، لم يتخذ اجراء ما ، ليدعم مركزه ويدفع عن نفسه قرار العزل الذى أعد ، فكان سقوطه المأساوى ، واختفاء نجمه ، بعد أن كانت الثورة قد ثبتت أقدامها .

أسرار صغيرة

فى الثورة الكبيرة ★

أحسب أن كل الحقائق الكبيرة فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد ذكرت بأقلام من أهل الشرق والغرب وقد اختلط فيما قيل ونشر، الوقائع الصحيحة كما وقعت ، وأشياء أخرى لم تحدث ، ولكن المؤرخين واشباههم وادعياء العلم بالحقيقة ، قد اضافوا إلى وقائع التاريخ ، أشياء لم تر النور، ولكنها تزيد التاريخ جاذبية وسحرا ، وبعض ما لفق واختلق قصد به خدمة شخص أو جماعة ، أو خدمة رأى أو عقيدة ، وفى بعض الأحوال يفور الخيال على الحقيقة ، فالخيال حر طليق ، يقول ما يشاء وبالأسلوب الذى يريده ، فى حين أن الواقع يبقى جافا لا يجذب قارئا ، ولا يثير خيالا .

ولقد استعدت ذكريات هذه الثورة ، فوجدت أنه لايزال فى جعبتى بعض الوقائع التى لم يتسع الوقت لايرادها ، أو لم يتسع الوقت لايرادها كاملة ، فرأيت أن أضمنها هذا المقال ، لعلها تسد فراغا أو تزيد حقائق التاريخ وضوحا

كانت أولى بشائر الثورة اجتماعا غريبا دعيت اليه ، إلى الغداء وكانت الدعوة من المرحوم الدكتور نور الدين رجائى استاذ القانون فى

★ هلال – يوليه ١٩٨٥ .

كلية حقوق القاهرة آنذاك . ومن السيدة حرمه الدكتورة درية شفيق الأستاذة الحاصلة على دكتوراه الآداب من باريس . وكنت على صلة بكليهما ، فقد كنت زميلا للاستاذ محمد رجائي، المخرج والمنتج السينمائي ، في مدرسة محمد على الابتدائية ، ضمنا فصل واحد كما كنا من أبناء حي واحد ، وقد حدث أن أخرجنا ونحن تلاميذ في المرحلة الابتدائية مجلة مما يخرجها التلاميذ في أيام الصبا الأول . ولعل الظاهر حسن أحمد ، كان ثالثنا في هذه المحاولة . والظاهر برز بين زملائه بعد ان تخرج في كلية الحقوق ، إذ وقع عليه اختيار رئيس الوزراء محمد محمود باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٢٨ وكان رسول هذا الرئيس في مهام رسمية كبيرة وكان نور الدين رجائي ، شقيق محمد عبدالفتاح رجائي ، زميلا لنا في نفس المدرسة الابتدائية ، وإن كان يصغرنا سنا ، ولكن كان يعرفنا من بعد حتى أصبح أستاذا في الجامعة ، فعرفه أكثر المشتغلين بالمسائل العامة . ولما تزوج السيدة درية شفيق ، ابنة خالته ، وصاحبة مجلة بنت النيل ، وزعيمة جمعية نسائية بهذا الاسم ، وبذلت السيدة درية نشاطا واسع النطاق ، تردد اسمها على الألسن ، وأصبح معروفا أنها صاحبة دور في السياسة ستزداد معالمه وضوحا في المستقبل ، وبهذه الصفة تعارفنا وأصبحت تتصل بي، تستشيرني في بعض الذي يطرأ لها في نشاطها العام ، ثم دعتني لإلقاء محاضرة في دار جمعيتها - فحشدت لي عددا غير قليل من عضوات هذه الجمعية ، وقد اطاعت هؤلاء العضوات دعوتي للقيام بالعمل الايجابي ، فاقتحمن دارا للشرطة ، وقبض على بعضهن . وكان

لهذه الغزوة صدى ضخم في الصحافة ودوائر المجتمع لذلك لما دعيت إلى الغداء على مائدة الدكتور نور الدين رجائي وزوجته السيدة درية شفيق، ذهبت إلى دارهما ، وأنا أعلم أن هذه الدعوة ليست سوى بعض نشاط هذه الزعيمة الجديدة وزوجها ، وقد أكد هذا التصور أنني علمت منذ البداية ، أن المدعوين الآخرين معي، كانوا من الأجانب ، وكانوا من رجال السلك السياسي الأمريكي ، على وجه التحديد ، وبعد أن تناولنا غداء شهيا في شقة أنيقة ، تحدثنا مع هؤلاء الدبلوماسيين في أمور شتى ، وقد استوقفني أن الحديث كان يشرق ويغرب ، ولكنه لا يلبث حتى يعود إلى نقطة بدا أنها تستأثر باهتمام الفريق الأمريكي ، تلك هي رأينا في الملك فاروق ، وفي مستقبله وكان غريبا لهذه ان يترخص رجال سفارة دولة كبيرة كأمريكا في التحدث عن ملك البلاد التي يمثلون دولتهم أمامه ، ولكن الواقع أن سمعة الملك فاروق كانت قد تدنت عالميا ، وأن صحف العالم الوقورة ، والصحف التي تخصصت في سرد الفضائح والجوانب الحميمة من حياة العظماء ، كلتاهما أطلقت لسانها في الملك فاروق ، وذكرت ما يجرى منه في شواطئ الاستحمام العالمية ، مؤيدا بالصور ، لذلك لم يكن غريبا ، أن يدور الحديث وبصراحة حول الملك فاروق ومستقبله ، كأن هذا المستقبل من المسائل المطروحة للحديث.

وانتهى الاجتماع ، ونسينا كل شئ عنه ، ولم نتبين أنه في واقع الأمر ، كان من بشائر التغير الذي ستشهده مصر بعد قليل ، وحرقت القاهرة في ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، وعلى الرغم من أن الصدفة

قضت أن أكون في بيتي بمصر الجديدة عاكفا على مطالعة إحدى القضايا ، فقد اصدر الحاكم العسكرى العام قرارا بقائمة بأسماء عدد من المشتغلين بالسياسة الذين رأى اعتقالهم بمناسبة هذه الحرائق المروعة ، وكان اسمى فى رأس هذه القائمة كما اتضح ذلك حينما نظرت قضية رفعها اصدقائى وزملائى المحامون ذهبت إلى سجن الاجانب تنفيذا لقرار الحاكم العسكرى العام . ثم نقلت إلى معتقل فى الصحراء ، ذاع اسمه بعد ذلك فاصبح (هاكستب) علما من الاعلام فى مثل ذيوع شهرة العتبة الخضراء ، وبعد شهور من ايداعى المعتقل ، كنت ذات صباح حار من شهر يوليه فى سنة ١٩٥٢ ، كنت مسترخيا فى فراشى الضيق الذى كان قد وقع فى ركن من أركان زنزانة صغيرة فى هذا المعتقل ، كانت مخزنا من مخازن الجيش الامريكى فى هذا المعسكر الذى تحول إلى معتقل وكنا قد نجحنا فى تهريب جهاز راديو من ماركة (بيلوت) ، وكان خافت الصوت فى المعتقل لضعف التيار الكهربى ، وكان خفوت صوته من مزاياه ، لملاءمته لظروف الحال ، وقد أدرت مفتاح الصوت فى الساعة السابعة ، فإذا بى اسمع صوتا غريبا، ليس أحد أصوات المذيعين الذين ألفت أن اسمعهم ، والذين حفظنا اسماءهم جميعا ، ولم انتبه كثيرا إلى حدة الصوت الذى يذيع ، ولم التفت إلى شئ أكثر أهمية وهو غرابة ما يقوله المذيع ، وبعد قليل تنبهت فجأة إلى أن ما يقولهُ المذيع، ليس غريبا فقط ، بل هو كلام لا يقال ، فكيف قيل . وجلست فى سريرى وقد تنبهت كل حواسى ، وتابعت كلام المذيع فلم أصدق أذنى ولكن المتكلم مضى يذيع بيانا قال إنه صادر من

قيادة الجيش ، وأن الجيش وضع حدا لما كان يقوم به المتسلطون على الجيش وهم بين خائنين ومرتشين وجبان، إذن هى الثورة ، وقد كانت ، ولم تمض دقائق حتى امتلأ المعتقل بأنباء هذا الحدث الضخم ، ومن عجيب أنه بعد زمن قليل ، توالت الانباء من الخارج عن الثورة التى وقعت ، ومع ذلك بقينا داخل المعتقل ، كأن هذه الثورة لم تسمع بنا ، ولم تعرف أننا فى المعتقل منذ شهور وكان علينا أن ننتظر داخل المعتقل يومين كاملين ، والثوانى تمر علينا كالشهور أو كالسنين ، والقلق يفتك بنا ، فقد خشينا أن تترك نرسف فى الاغلال حتى تدبر الدولة أمورها ، ولكن بعد ظهر يوم جمعة ، جاء بعد يومين من يوم ٢٣ يوليو ، تلقت ادارة المعتقل اشارة تليفونية تأمر بالافراج عنى ، وبإرسالى إلى سراى بولكى بالاسكندرية حيث مقر مجلس الوزراء لأقابل رئيس الوزراء رفعة على ماهر باشا ، ولن أروى ما حدث بعد الافراج عنى ، ولا ما جرى بينى وبين رئيس الوزراء فقد رويته كثيرا ، وحسبى أن أقول إن سكرتير أول السفارة الامريكية جاء إلى بولكى ، وهو ممتقع الوجه ، مضطربا لأن ما وصله من أنباء كان يتضمن أن سلامة الملك فاروق ، أصبحت مهددة فى قصر رأس التين ، وأن جلالته يستغيث بالسفارة الامريكية .

وكان هذا السكرتير الأول ، كبير الضيوف الذين تناولوا الغداء معى على مائدة المرحومين نور الدين رجائي ودرية شفيق ، وقد فاتنى أن أقول إننى كنت على مائدة هذا الغداء مع الدكتور نور الدين طراف الذى عين فيما بعد بوزارة الرئيس نجيب فى ٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢، وزيرا للصحة ، ثم اختير رئيسا للمجلس التنفيذى فى عهد الوحدة

المصرية السورية ، أما أنا فقد أخترت وزيرا للدولة في هذه الوزارة ، وكنت مشرفا على الإذاعة بحكم كوني وزير الدولة الوحيد وقد جرت العادة قبل الثورة على أن يتولى وزير الدولة الاشراف على المؤسسات والمصالح التابعة لرئيس الوزراء . وفي ذات يوم طلب مني مستشار السفارة البريطانية لشئون الاتصال العام ، موعدا فحددته له ، وأخذ الرجل عقب وصوله إلى مكتبي في مبنى مجلس الوزراء ، يشكو مر الشكوى من حملات الاذاعة المصرية على بريطانيا ، وعلى نشاطها في شرق افريقيا وقال إن بريطانيا لا تتعرض لمصالح مصر في أي بقعة من المنطقة التي تهم مصر إنما سر الحملات الاذاعية في مصر على الوجود البريطاني في شرق افريقيا ، لقد احتملت السفارة البريطانية فيلم مصطفى كامل الذي وضعت أنا قصته وعرضته السينما المصرية أن عرضت فيلما جديدا بعنوان (ليسقط الاستعمار) يسرد قصة خيالية لم تحدث وقائعها ولا يمكن أن تحدث حول هجوم شباب مصري على معسكر بريطاني ، وضرب الجنود البريطانيين في الاهالي المصريين ، وهذا كله لمشاهد تثير الكراهية ضد الاستعمار الانجليزي في الوقت الذي يريد الانجليز أن يحسنوا علاقتهم بمصر ، والذي يتمنون فيه للثورة النجاح .

ودخل في هذه اللحظة السيد / محمد أنور السادات وكان ضابطا من الضباط الأحرار وعضوا في مجلس قيادة الثورة ، ولم أرد أن أقدمه لمستشار السفارة البريطانية ، وقصدت من ذلك أن يتكلم موظف السفارة بحرية ، وأن يسمع عضو مجلس القيادة ، ما يفكر فيه الانجليز

لماذا تتحرشون بنا ونحن لم نسئ اليكم ، ولم يصدر منا عمل واحد يستدعي غضبكم علينا ، ويبرر حملات اذاعتكم ضد وجودنا في كينيا وما حولها ولدينا القوة التي تمكننا من أن نتصدى للثورة ، ثق أننا في السويس ونحن قادرون على أن نكون في القاهرة في أقل من ساعة ورأيت أن أحول الحديث إلى جانب فني ، فقلت له ، هل معك صورة من الاذاعات التي أثارت غضب السفارة أو احتجاجها ، فقال يمكنك أن تطلبها من معاونيك ، فيضعونها تحت نظرك في الحال ، فقلت له في اقتضاب الأفضل أن تقدم لي ما تشكو فيه .. فقال حسنا سأحضرها غدا .. وانصرف وانتظرت أن يعلق السادات على هذا الكلام بشئ .. ولكنه لم يفعل ووقع ما توقعته ، وأن موظف السفارة لم يعد

ومضت السنون ، ونزلت ذات يوم من مكتبي بالدور الأعلى في مبنى مجلس الوزراء إلى الدور الأول حيث مكتب رئيس مجلس الوزراء ، جمال عبدالناصر فوجدته جالسا مع أنور السادات ، ويبدو أن كليهما كان في حالة استرخاء ، إذ دار الحديث بينهما اعتباطا ينتقل من شئ إلى شئ حتى جاء ذكر الأستاذ محمد صبيح الصحفي وكان أنور السادات في تلك الحقبة رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير التي كانت جريدة الجمهورية تتبعها ، وكنت أعرف أن جمال عبدالناصر كان إبان انضمامه لمصر الفتاة كان تابعا لشعبة هذا الحزب في حي باب الشعرية ، وقد حدثني عن تلك الأيام بلهجة تنم على الرضا عن المرحوم الأستاذ صبيح ، فوجه الحديث إلى السادات ، وقال ، على فكرة .. ما تأخذ صبيح عندك في الجمهورية .. فقال السادات على الفور : لا

باريس . فقال : لا . لا ليه . ونظر إلى وقال : صبيبح كفاءة ثم وجه إلى الحديث مش كده يا فتحي فقلت مؤكدا بلا شك .. فنظر إلى السادات وقال امال ليه يا أنور مش عايز تخده ، فقال السادات : لأنه نحس فبدا على (جمال) الضيق وقال . نحس .. يعني ايه ؟ فاضطرب السادات وقال باريس ده ماحطش رجله في جرنال إلا قفله – وراح يعدد الجرائد التي اشترك فيها ، والتي اغلقت . فاشعل جمال سيجارة وأخذ يشد منها أنفاسا بشدة وهو مهموم ثم قال في لهجة غاضبة .. بقى حيقفل الجمهورية ياريت يقفلها يا أخي . ولم يتكلم عبدالناصر ، وسكت السادات ثم انصرف في صمت .. «وكان هذا المشهد الوحيد الذي رأيت فيه السادات يعارض رأيا لعبدالناصر »

الفهرس

بناءً على رغبة آلاف القراء

دار الهلال تقدم

الطبعة الثانية من

إعجاز القرآن

« الجزء الثاني »

تأليف : رءوف أبو سعدة

الثمن ١٠ جنيهات

رقم الايداع : ١٥١٧٩ / ١٩٩٨

I. S. B. N

977 - 04 -0621- 3

أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٤ مدينة عالمية ومحلية
خدمة متميزة وكرم ضيافة
مصر للطيران
EGYPT AIR

هذا الكتاب

عشر سنوات مرت علي رحيل الاستاذ فتحي رضوان في ٢/١٠/١٩٨٨ ، وحين نحاول أن نعدد الصفات التي يمكن أن نعرّف بها فتحي رضوان للأجيال نرصد قائمة طويلة أولها : الفنان الاديب - الكاتب المسرحي - المثقف . وفي نهايتها : المحلل التاريخي والناقد السياسي والمجاهد المقاتل في سبيل الحق والعدل والخير والجمال حتي الرمق الأخير . مولود في ١٩١١ ، وتحديد يوم الميلاد يكون ٧ مايو أو ١١ أو ١٤ مايو ، وهذا الاخير هو المنقوش علي الشاهد الرخامي ، فوق ضريحه بالقلعة الذي يشارك فيه كل من أحبهم في هذه الدنيا من زعماء الوطن : الزعيم مصطفي كامل - الزعيم محمد فريد والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي .

ومشاركة للمجلس الأعلي للثقافة في احتفاليته التي أقامها بمناسبة مرور عشر سنوات علي رحيل فتحي رضوان كان إصدارنا لهذا العدد من كتاب الهلال تحت عنوان « فتحي رضوان ، نصف قرن ، بين السياسة والأدب» . اخترنا عدداً من مقالات ودراسات فتحي رضوان ، كان قد تم نشرها تباعا في مجلة الهلال التي صاحبها بقلمه منذ الثلاثينات حتي عام رحيله رحمه الله . تميزت شخصية فتحي رضوان بالنشاط والحيوية والدأب ، وتميز أسلوبه بالتدفق والانهمار والسرعة وغزارة المعلومات وجيشان الرأي الذي يدفعه إلي الاستطراد ، حتي أننا نلمس ذلك من خلال قراءتنا لكتاباته إذ نجده في بعضها يبدأ جملة لها ضرورة الاستكمال ، لكن غزارة المعلومات وجيشان الرأي بأخذانه بعيدا عن شاطئها" [illegible] لاستكمالها ولا ينزعج القارىء طالما هو ذاهب معه [illegible] خلابة الفكر متوهجة الحماس . حينما تقرأ فتحي رضو[illegible] إنك تسمع صوته وتراه في كل سطر بدمه ولحمه .

هو المحامي في مرافعته ، وهو المتحدث الودود صاحب [illegible] والفكاهة الحاضرة ، وهو صاحب الاقتراحات البناءة ، و[illegible] مطلع الخمسينيات إنشاء وزارة تحت مسمي «الثقافة [illegible] تحديدا لمدلول الثقافة لديه ، وإدراكا لمعني مسئولية [illegible] الوزارة ، أنه مرشد قومي لبني مصر ، يؤكد هويتهم العربية [illegible]

هذا الكتاب قطرة من غيث اخترناه من آلاف المقالات التي [illegible] الهلال بنشرها لفتحي رضوان علي مسيرة نصف قرن، [illegible] إنعاشا لذاكرتنا-حول قضايا كان الرجل فيها الفارس المطور .